

سجين حجر الأوبال

إيه إي دبليو ماسون

ترجمة أحمد عبد المنعم

سجين حجر الأوبال

تأليف

إيه إي دبليو ماسون

ترجمة

أحمد عبد المنعم

مراجعة

هاني فتحي سليمان



The Prisoner in the Opal

A. E. W. Mason

سجين حجر الأوبال

إيه إي دبليو ماسون

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٨٣٤ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٨.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	١- النبيذ الأحمر
٩	٢- جويس ويبل
٢١	٣- ذو اللحية
٣١	٤- أُلغاز أمام السيد ريكاردو
٤٥	٥- هانو يظهر مجددًا
٦٥	٦- لوحة على الجدار
٧١	٧- كهف الموميאות
٨١	٨- القاضي المسئول
٩١	٩- مَنْ إيفيلين ديفينيش؟
١٠٥	١٠- ثلاث غرف
١٢٣	١١- آثار أقدام
١٣٧	١٢- القناع
١٤١	١٣- وجهات نظر متباينة
١٥١	١٤- هانو يجفل
١٥٩	١٥- الفيكونت يطلي بوابته
١٧٣	١٦- بلاكيت يضيف المزيد إلى قصة ديانا
١٧٩	١٧- كيف يدفع تاجر المجوهرات ضرائبه
١٩١	١٨- هانو يتناول العشاء
٢٠٥	١٩- الحقيقة الصادمة عن الأرملة تشيشول
٢١٥	٢٠- الوجه المطل من النافذة

- ٢٢٥ - ٢١- غاز الخردل
- ٢٣٧ - ٢٢- القاضي يدخن سيجارة
- ٢٤٣ - ٢٣- السيد ريكاردو يتناول الغداء
- ٢٥٣ - ٢٤- الغرض من غرفة الاجتماعات
- ٢٦٥ - ٢٥- خطابات إيفيلين ديفينيش
- ٢٧١ - ٢٦- المكتبة
- ٢٨٣ - ٢٧- إلهام مستمد من القناع
- ٢٩١ - ٢٨- ليلة الأربعاء
- ٣٠٥ - ٢٩- هانو يستكمل المهمة

الفصل الأول

النبيد الأحمر

عندما كان السيد جوليوس ريكاردو يتحدث عن سِمات «الرجل النبيل»، وهو لقب كان يتردد كثيرًا على لسانه، كان يقصد رجلًا أضاف إلى أسلوبه الأنيق معرفةً واسعة بالنبيد الأحمر. ولم يكن بمقدوره محو هذه الجزئية من تعريفه. هذا محال! فالرجل النبيل يجدر به أن يعرف تاريخ النبيد العتيق وفئات الخمور السبع مرتبةً في ذهنه ترتيبًا واضحًا مثلما كانت مدينة كاليه محفورةً في قلب الملكة التيودورية. كما يجدر به أن يتمكّن، بنظرةٍ واحدةٍ على التربة، من تفسير سبب إنتاج كروم العنب على هذا الجانب من الطريق شرابًا ألد من تلك الكروم التي تبعد ٥٠ ياردةً على الجانب الآخر منه. كذلك يجدر به أن يُميّز، من الرشفة الأولى، الفحولة الكامنة في شاتولاتور عن الأريج الأنثوي في شاتولافيت. وفوق هذا، حري به أن يدرك أنه لم يتعلّم سوى الخطوات الأولى لطفل يتعلّم المشي. ويجب ألاّ يعتبر نفسه يمتلك المعرفة الكافية حتى يتمكّن من الاعتماد على صحة تصنيفه للنبيد في أي مناسبة. فحتى تاجر النبيد ربما يجادل بأن نبيد موتون روتشيلد مُصنّف على سبيل الخطأ ضمن الفئة الثانية. ولكن الخبير الذي كان يتخيله السيد ريكاردو ينبغي أن يكون مؤهّلًا لأمرٍ أهم بكثير من تلك. وكان مرجّحًا أن يقول السيد ريكاردو إذا ما استُدعي على نحوٍ مفاجئٍ لتعريف الرجل النبيل بإيجاز: «الرجل النبيل هو من لديه حاسة تذوق قوية ومكانة اجتماعية مؤكدة، بالقدر الذي يكفي لتبرير تصريحه بأن زجاجةً مصنوعة من عنب بورجوازي جيد ربما تتفوق على زجاجة مصنوعة من أجود أنواع الكروم.»

كان جوليوس ريكاردو صاحب مبدأ لا يتجزأ. فكانت الالتزامات التي يفرضها على الآخرين في أفكاره، هي الالتزامات ذاتها التي يعيش بموجبها في حياته. اعتبر البقاء على معرفة دائمة ومتجددة بالأمر المرتبطة بالنبيد الأحمر من مظاهر الشرف، ووضع خططًا لتكريس شهور الصيف من أجل تحقيق هذه الغاية. ومن ثم، في يوم سبتٍ من أسبوع

سباقات «جودوود»، سافر بالقطار إلى إيكس ليان. وكانت سيارته الجميلة بانتظاره، وظل طوال خمسة أو ستة أسابيع يَنْشُد بحماسة شفاءً من غير علة أصابته. كان مسعاه غير مجدٍ لأن العلة الوحيدة التي كان يعانيتها هي أنه رام سيئ. فتصويبه كان سيئاً لدرجة أن وجوده في المستنقعات كان يثير السخرية دائماً، وفي بعض الأحيان كان يثير الاستياء والإهانات إذا كان مُضَيِّقه يرغب في صيد وفير. لهذا السبب، كانت إيكس ليان هي ملاذه الوحيد خلال شهر أغسطس. ولما انتهت فترة التماسه للشفاء، شدَّ الرحال بتؤدة وأناقة عابراً فرنسا نحو بوردو، وكان يخطط لأن يصل إلى هذه المدينة بحلول نهاية الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر. وعندما وصل إلى بوردو، أعاد تجهيز نفسه وأخذ قسطاً يسيراً من الراحة، وبعد بضعة أيام، في الليلة السابقة لموسم حصاد العنب، بدأ جولةً في إقليم جيروند المضياف، متنقلاً في رحلات قصيرة من قصر إلى آخر، مستمتعاً بالكثير من الهواء النقي والصحة المبهجة، ومتناولاً كميةً كبيرة من نبيذ الكلاريت الأحمر الذي لا مثيل له من مختارات مُضَيِّقيه الخاصة، ووصل في بداية شهر أكتوبر إلى مدينة أركاشون الجميلة شاعراً بأنه كان يُشرف على زراعة الكروم في فرنسا. كان هذا روتينه المعتاد في الصيف. لكنه ما إن يذق مرةً المباهج والإثارة في مدينة إيكس؛ فسرعان ما يرتجّ وجدانه أجمعه خلال زيارته الميمونة وجولاته التي اكتسبت صفة القدسية لديه في مزارع العنب. ودفعته اللمة الجنائزية لهذه الأحداث إلى هذا الملاذ الشاعري النادر.

كان يقول في رضا: «هذا الأمر جعلني أرى العالم من منظور مختلف. أراه وكأنه حجر أوبال هائل أقف في داخله. حجر أوبال معتم ومضيء بدرجة أدرك معها وجود عالم آخر في الخارج يثير رعب سجين حجر الأوبال ورهبته. إنه ما يُطلق عليه حجر الأوبال الناري، فمن أن لآخر يُنير شعاع قرمزي ساطع، وكأنه وميض بندقية في ليلة معتمة، الظلمة التي تُغلّفني. ومن حين لآخر، كنت أشعر بأن الأرض تحت قدميَّ هشة ومُنذرة بالخطر مثل هشاشة حجر الأوبال»، وهلم جرّاً. في الواقع، كان السيد ريكاردو يبالغ في تصويره لحجر الأوبال كما كان يُفطر في تنميقة وتفصيله إلى درجة من الملل كانت استثنائية، حتى بالنسبة إليه شخصياً. ولكن الجريمة أثارت ضجةً تخطت المنطقة الريفية الهادئة التي وقعت فيها. فسجلات المحاكمة لا تزال موجودة، حيث يمكن قراءة تفاصيل أفعال السيد ريكاردو وصديقه هانو، المحقق الفرنسي الشهير، وكل الأشخاص الآخرين الذين انساقوا، وانزلقوا، وتعرّوا، وارتجفوا في واحدة من أحلك القضايا التي يتذكرها هانو.

الفصل الثاني

جويس وييل

بدأت المتاعب التي يواجهها السيد ريكاردو في غرفة استقبال أحد منازل لندن في الأسبوع السابق لسباقات «جودوود». كان الرجال قد سعدوا للتو من غرفة الطعام وكانوا يقفون معًا، كما تقتضي عاداتهم، على مقربة من الباب بطريقة غير مريحة. رفع السيد ريكاردو بصره، والتقطت عيناه ابتسامة مُرحبة مميزة من أجمل فتاة في المكان. كانت تجلس عن قصد بعيدًا عن رفاقها على أريكة لا تسع سوى شخصين، وكانت تُوجّه له ابتساماتها عن قصد أيضًا. لم يُصدّق السيد ريكاردو عينيه. لا ريب في أنه يعرف هذه الشابة. إنها فتاة من كاليفورنيا ذات اسم لا يقل جمالًا عن هيئتها، جويس وييل، وكان يستمتع من آن لآخر بالتعرف إليها من جديد في لندن، وفي باريس، وفي البندقية. ولكن ما الذي يُميزه، إنه مجرد شخص عادي لن يصبح يومًا شخصية بارزة، هاوٍ لمائة حرفة ولا يمارس أيًا منها، وسيط شاي متقاعد من شارع مينسينج؛ ما الصفات التي يملكها لتثير اهتمام مخلوقة مبهرة مثلها خلال الساعات التي تسبق انتهاء حفل العشاء؟ كانت باهرة من قمة رأسها الصغير بشعره الناعم إلى أخمص قدميها بحذاءها الرشيق المُطرّز. كان لون شعرها بنيًا داكنًا، وكان مفروقًا من منتصفه ويتدلّى في تموجات رائعة على أذنيها. كانت بشرتها فاتحة دون شحوب، وجبهتها رفيعة، وكانت تمتلك تلك المساحة التي تفصل بين عينيها الرماديتين الواسعتين التي تدل على جمال حقيقي، وكان أنفها صغيرًا مائل الطرف، وكانت شففتها العليا قصيرة، وكان فمها كبيرًا إلى حدٍّ ما، وشففتها تنبضان بالحُمرة. كان ذقنها صغيرًا ومشدودًا، وكانت ترتدي فستانًا لامعًا يتلألأ بالألوان فاتحة تمتزج وتنفصل مع كل حركة تفعلها. كانت متأنقة ومهندمة إلى حد أن الانطباع الأول الذي كان يؤخذ عنها أنها ليست جميلةً بقدر أنها مصقولة على نحوٍ رائع، وصولًا إلى أدق التفاصيل غير الملحوظة. كانت تبدو وكأنها أرسلت إلى المنزل في صندوق من الورق المُقوّى ووُضعت

واقفةً على قدميها بكل عناية. لم يصدق السيد ريكاردو أن هذه الابتسامة مُوجَّهة إليه. كان يعتقد أنه اعترض طريق هذه الابتسامة بمحض الصدفة، وبدأ يتلَقَّت حول نفسه بحثاً عن الشاب المحظوظ المقصود بهذه الابتسامة، ولكن تغيَّر التعبير المرسوم على وجه الشابة. في البداية، زحف تعبير ينم عن الاستياء على وجهها بسبب ترده في التقرب منها. كان تعبير الاستياء متبوعاً بصيحة تحفيز أطلقتها مُضَيِّقته وهي تُحدِّق إليه من فوقه. اختفى تردد السيد ريكاردو. فأسرع عابراً الغرفة، وأفسحت جويس ويبل على الفور مكاناً له على الأريكة بجانبها.

قالت جويس: «يجب أن نتحدَّث بصراحة تامة. وإلا فستُخطف مني يا سيد ريكاردو». ثم مالت للأمام في جدية وكأنها تتحدث في مسألة حياة أو موت وقالت أول شيء تبادر إلى ذهنها.

«في زيارتي الأولى إلى إنجلترا، أخبرتني واحدة من نساءكم العظيمات، وكانت حكيمةً كعادة نساءكم العظيمات، أنني إذا أردت التحدث إلى رجل بعينه، فستحين لحظتي عندما يختلط رجال آخرون بالنساء. وقالت إن هناك دائماً بضع ثوانٍ عندما يقفون في حياء وإحراج وسط مجموعة سخيفة، متسائلات عن يجر بهن الترحيب به، ومن لا يجدر بهن الترحيب به. إذا ما وجَّهْتُ إلى أحدهم الفتاة أدنى نظرة تشجيع، فسيلقي بنفسه تحت قدميها لِمَا تَبَقَّى من الليل. ولكن كادت الخطة تَفْسُد الليلة، رغم أنني منحتك ابتسامة تشجيع شديدة الصراحة والوضوح.»

ردَّ عليها السيد ريكاردو بقوله: «اعتقدت أنه لا بد من وجود شاب في وسامة أدونيس يقف خلفي.» فتردَّدت مُضَيِّقته التي لم تكن قد انتهت من مطاردته بعد.

لا ريب في أن السيد ريكاردو كانت له معايير محددة فيما يتعلق بقضاء الأمسيات. فلم يكن ميلاً إلى الانطلاق والرقص في الملاهي الليلية. لذا، كان يُعتمد عليه في لعب البريدج حتى نهاية الحفل. ورغم أنه، للأسف، كان يقول بين الحين والآخر ضاحكاً: «أين سنذهب الآن للحصول على المتعة والإثارة؟» أو يلقي دعابةً مدمِّرة على هذه الشاكلة، فإن أسلوبه في اللعب كان عادياً من غير جرأة أو ابتكار. ولكن كان واضحاً لمُضَيِّقته أنه جاهز الليلة لقضاء الوقت في شيء أفضل. ابتعدت المُضَيِّقة، وتنهدت جويس ويبل في ارتياح.

وقالت: «أنت تعرف واحدةً من صديقاتي، ديانا تاسبورو.» أجابها السيد ريكاردو في تواضع: «إنها عطوفة بما يكفي لأن تومئ لي من على الطرف الآخر لقاعة الرقص عندما تتذكَّر من أكون.»

بدا بعضُ من التأفف على مُحياً جويس ويبل.
وقالت: «ولكنك ستذهب بالطبع للإقامة معها في قصر سوفلاك، عندما تذهب للبحث عن النبيذ في الخريف.»
جفل السيد ريكاردو. لم يتخيل أن يسمع عبارةً تسيء بهذا القدر لرحلة حجه المبجلة عبر منطقتي ميدوك وجيرونند.
رد ببعض الفتور: «لا. سأقيم في المنطقة نفسها، ولكن مع الفيكونت كاساندر دو ميراندول.»

كان يملك كل الحق في نطق الاسم بتبجيل واضح. فلا ريب في أنه اسم يقع ضمن أشهر أسماء الخمور، كما أنه يحمل لمحةً من عصر الحملات الصليبية. ولكن كان السيد ريكاردو صادقاً، وبعد أقل صراع ممكن مع خيالاته، أضاف قائلاً: «ولكنني لم أتعرف بالفيكونت بعدُ يا آنسة ويبل. ثمة مرض انتشر في المنزل الذي كنت سأقيم فيه، ونُقلت إقامتي إلى منزل آخر طبقاً لعادات الضيافة التي يتبعها الناس هناك.»

قالت جويس: «فهمت.» بدا جلياً أن جويس ويبل أُصيبت بخيبة الأمل، بل وبالحرز الشديد أيضاً. ثم قالت: «بما أنني التقيتك في منزل ديانا، فأنا واثقة بأنك ستأخذ راحة من رحلتك في قصر سوفلاك.»

هز السيد ريكاردو رأسه نفياً. وقال: «ولكنني سأقيم على مسافة تقل عن ميل واحد منها، وإذا كان بمقدوري فعل أي شيء من أجلك، فمن المؤكد أنني سأفعله. في حقيقة الأمر، لم أرَ الآنسة تاسبورو أو عمته منذ ستة أشهر على أقل تقدير.»
قالت جويس: «لا. لقد قضينا الصيف بأكمله في بياريتز.»

واصل السيد ريكاردو حديثه في سذاجة: «لم أقم من قبل في قصر سوفلاك، ولكن هذا لا يعني عدم رغبتني في ذلك. القصر يبدو رائعاً من الخارج. منزل زهري فاتح من طابق واحد على شكل حرف E كبير، به برجان دائريان صغيران ملحقان بالمبنى الرئيس وشرفة كبيرة مرصوفة بالحجارة في الجهة الخلفية منه تُطل على نهر جيرونند...»

لم تكن جويس ويبل تهتم بوصفه للمنزل الريفي ذي اللون الزهري الفاتح، فصمت السيد ريكاردو. كانت جويس ويبل منحنيةً للأمام ساندةً مرفقها على ركبتها وذقنها مستقر على راحة يدها، وارتسم تعبير قلق على وجهها.

قال السيد ريكاردو مُعَيِّراً دفة الحديث: «نعم، في الواقع، هذا شيء غريب نوعاً ما.»
سأله جويس ويبل وهي تُدير وجهها نحوه: «وما الغريب في الأمر؟»

«الغريب أن عائلة تاسبورو قضت فصل الصيف بأكمله في بياريتز. فإن كان الناس يُحدّدون أوطاناً لأرواحهم، فستكون لندن وطن الأنسة ديانا الروحي.»

كانت ديانا تاسبورو، الثرية من وراثتها لكروم سوفلاك، وإرثها من عمتها المطيعة المرافقة لها، قلب ومحور واحدة من تلك المجموعات المتحفّظة التي ينقسم لها شباب لندن. كانت المجموعة مؤلّفة من أشخاص، أغلبهم في منتصف العمر، ممن حقّقوا التميّز أو كانوا في الطريق إلى تحقيقه. صحيح أن ديانا اصطادت الأسماك في أنهار اسكتلندا، واصطادت الحيوانات في ميدلاندز، ولكن لندن هي وطنها ومقر مجموعة أصدقائها الكبيرة.

قال السيد ريكاردو: «هل كانت مريضة؟»

«لا. كانت تراسلني، ولم تذكر شيئاً عن أي مرض. أنا أيضاً متحيرة مثلك. كانت ديانا عطفوةً للغاية معي عندما جنّت إلى إنجلترا للمرة الأولى ولم أكن أعرف أحداً. أكره أن يصيبها أي مكروه؛ أعني أي مكروه حقاً.»

نطقت جويس الكلمة ببطء، ليس لأنها كانت تشك في أنها الكلمة المناسبة لاستخدامها، بل لكيلا يستخف بها السيد ريكاردو. جفل السيد ريكاردو بشدة. وجال ببصره في أرجاء الغرفة. لم تكن صفوف الورود، وإشراقة الأضواء، والأشخاص المتأنقون، متوافقة على الإطلاق مع تلك الكلمة التي نطقت بها.

فسأل: «هل تعتقدين حقاً أن مكروهاً قد يحدث لها؟» كان يشعر بالانفعال، انفعال يشوبه بعض البهجة.

قالت جويس ويبل: «أنا واثقة بذلك.»

«وما السبب؟»

استدارت جويس بجسدها أجمعه نحو السيد ريكاردو وثبّتت عينيها الواسعتين الرماديتين على وجهه، وقالت: «رسائل ديانا لي. أقول لك صراحةً إنني لم أتمكّن من العثور في أيّ منها على جملة واحدة، أو حتى عبارة واحدة، ربما تبدو مثيرة للقلق. أعلم ذلك لأنني حللت هذه الرسائل بعناية مراراً وتكراراً. وأريد أن أصدّق أنني لست واهمة، أو مضطربة نفسياً، لا، لست كذلك على الإطلاق. ولكنني لم أقرأ خطاباً أرسلته إليّ ديانا من دون أن تورثني شعوراً مروّعاً للغاية. يبدو أنني أرى ...» ثم صمتت لتصحّح ما قالت: «لا مجال للكلمة «يبدو» هنا. أنا أرى ما تخفيه تلك الخطابات المكتوبة بالحبر الأسود، وأنتقل جيئةً وذهاباً بين الكلمات المكتوبة والورق الأبيض الذي كتبت عليه، وأرى مجموعة من الوجوه المشوّهة، وغير الكاملة، والمروّعة، ودائمة التغيّر. وتضمحل في بعض الأحيان

— كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ — إلى أقراص دائرية وردية من دون أي ملامح باستثناء عَيْنَيْن حَيَّتَيْن. وتنمو لها في أحيان أخرى قَسَمَات بشرية مشوَّهة. ولكنها لا تكون كاملةً أبدًا. أنا واثقة بأنها إذا أصبحت كاملة، فستكون شريرةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كما أنها لا تبقى ثابتةً في مكان أبدًا. فهي تتحرَّك جيئةً وذهابًا في كل مكان مثل» وضعت يديها على عينيها للحظة وارتجفت لدرجة أن حجر الأوبال الأصفر الكبير على سوارها الذهبي الأملس لمع حول معصمها «مثل وجوه الغرقى الذين تتأرجح جنثهم على الأمواج على مدار أشهر».

لم تعد جويس ويبل تعبأ بتأثير حكايتها على السيد ريكاردو. كانت قد نسيت وجوده تقريبًا. كما أن عينيها اللتين كانتا تتنقلان في أرجاء الغرفة ما بين طاولة لعبة البريدج ومجموعة من الناس يتحدثون، لم تكونا في الحقيقة تريان أيًا من محتويات الغرفة. كانت تصوغ تجربتها الغريبة لنفسها للمرة المائة على أمل أنها ربما تعثر على تفسير لها داخل قصتها، حتى وإن جاء في صورة كلمة عابرة بمحض الصدفة. واصلت حديثها بصوتٍ خفيض ولكنه واضح تمامًا: «كما أنني خائفة. أخشى أن أضطر عاجلاً أو آجلاً إلى رؤية كل هذه الوجوه القاسية كاملةً وحية، وجوه أناس أحياء.» قال السيد ريكاردو برفق حتى لا يقطع حبل أفكار جويس ويبل: «وجوه الأحياء الذين يهدِّدون ديانا تاسبورو.»

قالت جويس: «إنه أكثر من مجرد تهديد. إنهم سيؤذونها؛ أجل، إنهم يؤذونها الآن حقًا أدنى ربما يكون قد فات الأوان على إصلاحه. ربما يبدو ما أقول مبتذلًا وسخيفًا، ولكنني أشعر بخوف شديد من هذه الأرواح الشرير بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ؛ إن قوى الطبيعة تتقاتل في الظلام من أجل السيطرة على روحها وهي لا تُدرك ذلك، ولكن سمحت قوة عليا ما بأن تصل الحقيقة إلي.»

رفعت جويس يديها في الهواء على نحو مفاجئ دلالةً على اليأس. ثم صاحت قائلة: «ولكن، كما ترى، في اللحظة التي بدأت فيها أجمع مخاوفي معًا في نمط من الكلمات، تمزَّقت إلى خصللات صغيرة مراوغة للغاية ولا يمكن أن تعني أي شيء لأي أحد باستثنائي أنا.»

قال السيد ريكاردو معترضًا: «لا.» كانت الفكرة التي يفخر بها هي أنه مواطن في هذا العالم يملك عقليةً منفتحة للغاية. ثمة آلاف من الأحداث الغريبة، مثل الحدس الذي يُبرر في وقت لاحق، والتي لم يجد العلم تفسيرًا لها والتي لن يستهزئ بها سوى الأحمق.



لم تعد جويس وبيل تعباً بالسيد ريكاردو.

«لن أقول أبداً إن القشرة التي تحيط بالعالم ربما لا تتشقق من أجل أحدنا ويتسرب عبرها شعاع من الضوء، ربما يكون مُضللًا، وربما يكون حقيقياً؛ إما أن يكون سراباً، وإما أن يكون شعاعاً من ضوء الشمس.»

بدا له أنه لا يوجد شخص قد يُفصح له عن مكونات نفسه بهذه الطلاقة أكثر من تلك الفتاة ذات الوجه الرقيق الحساس، والعينين الرماديتين اللتين أضفت عليهما الرموش الحريريّة الطويلة المنحنية نحو الأعلى، مظهرًا غامضًا لافتًا.

ثم واصل حديثه قائلاً: «في الواقع. من قد يعرف ما يكفي لينكر احتمالية أن تصل إلينا رسائل أو تحذيرات؟»

«نعم.» التقطت جويس ويبيل هذه الكلمة. وقالت: «تحذيرات متكررة. إذا ما نَحِيتُ الخطابات جانبًا، وأخرجتها بعد مدة وقرأتها مجددًا، تراودني الرؤى المخيفة نفسها مجددًا. أرى نفس الحركة الموجية وتأرجح الوجوه غير الكاملة في الماء.»

بدأ السيد ريكاردو يُعيد بناء ذكرياته عن ديانا تاسبورو، واضعًا واحدةً هنا، وأخرى هناك، حتى يتشكّل لديه تصوّر واضح عن الفتاة. كانت طويلة القامة ذات شعر أشقر فاتح للغاية، وكانت بارعة الجمال ولكنها كانت تميل إلى التصنّع في وجود غرباء. كانت لديها طريقة مميزة ترمش بها بعينيهما وتزم بها شفّتيها أثناء الكلام، كما لو أن كل كلمة تتفوّه بها لؤلؤة من أندر الأنواع. كانت ثمة خصلة أخرى.

قال ريكاردو: «كانت تميل إلى الانطواء دائمًا.»

قاطعته جويس في الحال. وقالت: «نعم، ولكنها انطوائية هادئة. ليس الأمر وكأنها تعيش حياةً سرية غامضة خاصة بها طوال الوقت. لا أعلم ماذا تقصد. ولكن لا يعني ذلك إلا أنها تحب قضاء الوقت مع نفسها أكثر من قضائه مع أصدقائها. إنها — ماذا يجدر بي أن أقول؟ — تمرح من دون مرح. ألا ترى أن هذا السجن الذي فرضته على نفسها يزيد من مخاوفي؟ إنها الشخص الأخير الذي قد تتقاتل قوى الشر في الخفاء للفوز بروحه وجسده.»

حوّلت حركة بين الضيوف أفكار السيد ريكاردو إلى اتجاه آخر. كان الوقت يتأخر. وأصبحت واحدة من طاولات لعبة البريدج خاليةً حقًا. كان السيد ريكاردو رجلًا عمليًا. فسأل ريكاردو: «ما الذي بيدي أن أفعله حيال ذلك الأمر؟»
«ستكون في حي قصر سوفلاك في شهر سبتمبر، أليس كذلك؟»
«بلى.»

«تقيم ديانا دائمًا حفلًا لحصاد العنب.»

ابتسم السيد ريكاردو. فقد كانت حفلات ديانا مشهورةً في منطقة جيروند. طوال ١٠ أيام أو نحوها، تظل أنوار نوافذ القصر، ذي اللون الزهري الفاتح المبني في القرن السادس عشر، تشق ظلمة الليل حتى مطلع الفجر. وكانت الشرفة الحجرية الواسعة تتزين بمجموعات من الشباب الراقصين، وكانت أصوات موسيقى رقصاتهم وضحكاتهم من حيث يوجد النهر تُسمع من قبل البحارة في زوارقهم الذين ينتظرون تغيير المد. وتمنع الساعة المتأخرة الضيوف الذين يخلدون إلى النوم فيها من الاستيقاظ مبكرًا في صبيحة اليوم التالي، ربما فيما عدا اليوم الأول. ولكن كانوا يظهرون بطريقة ما في تمام الثانية

عشرة في اليوم التالي يلتقطون العنب مرتدين ملابسهم الأنيقة، ويبدون أشبه بفرقة غنائية في كوميديا موسيقية تدور أحداثها في أحد حقول كروم العنب في فرنسا.

قال ريكاردو: «نعم، لا ريب في أنها ستقيم حفلاً بمناسبة حصاد العنب.»

أدارت جويس جسدها لتواجهه مرةً أخرى مُغرقةً إياه، في ظلم بيّن، بكل السحر الذي يصاحب ثقة هذه الفتاة الجميلة وعينيها الفاتنتين، وقالت: «حسنًا إذن، لقد فهمت ما أريد منك بشدة أن تفعله. هذا إن أردت، بالطبع. إنه رجاء بسيط، في الواقع. ولا حق لي في الإلحاح عليك. ولكنني أعرف كم أنت عطوف.» هل رأت الرجل المسكين يجفل، وأن عليها أن تضيف الكثير من الإطراء إلى رجائها وأن تتوسل إليه بصوت يملؤه الحزن والكآبة؟ «أريد منك أن تقضي أكبر وقت ممكن في قصر سوفلاك. سيكون مُرحَّبًا بك هناك، بالطبع...» ونفت الفكرة السخيفة بأنه لن يكون مُرحَّبًا به بحركة خاطفة من أصابعها. «يمكنك أن تُراقب. ويمكنك أن تكتشف ماذا يحدث مع ديانا؛ إن كان هناك شخص يُشكِّل خطورةً حقًا بين معارفها أم لا، وحينئذٍ...»

قال السيد ريكاردو: «حينئذٍ، سأراسلك، بالطبع.» كان السيد ريكاردو يسعد بتلك المهام الشاقة التي تُوكل إليه بثقة. ولكنه دُهِش عندما اكتشف أن مراسلة جويس وبيل بخصوص الموضوع ليست ضمن مهامه.

فقد أجابته مترددة: «لا. لا ريب في أنني أحب أن تراسلني — بطبيعة الحال، ليس بخصوص ديانا فقط — ولكن لا يمكنني أن أخبرك بمكان وجودي بحلول نهاية شهر سبتمبر. لا، ما أريد منك أن تفعله، هو أنه بمجرد أن تكتشف وجود خطب ما، أن تتدخل وتوقفه.»

اضطجع السيد ريكاردو في مقعده وقد ارتسم على وجهه تعبير ينم عن قلق شديد. على الرغم من أساليبه الشديدة التدقيق وعاداته المنهجية، كان رومانسيًا في أعماقه. كانت متعته الأسمى تتمثل في أن يلعب دور الإله لمدة خمس دقائق كي يتمكن بعض الشباب المتعثرين في الظلام من السير بخطى ثابتة في ضوء هادئ. ولكن هذا لا ينفي أن تكون الرومانسية معقولة، حتى وإن أخذت شكلًا شديد الجاذبية كشابة مثل جويس وبيل. ما كانت تعرضه مُهمة تليق بالأبطال، وليس برجل في منتصف العمر تقاعد عن عمله في شارع مينسينج. وبينما كان يُفتش في ذهنه عن أسماء أبطال أكثر ملاءمةً للمهمة منه، قفزت إلى ذهنه حقيقة مذهلة.

فتلعثم من فرط حمسه، وقال: «ولكنني واثق بأن ديانا تاسبورو مخطوبة. نعم، أنا واثق بذلك. إنها مخطوبة من شاب محترم. كان يعمل في وزارة الخارجية، ثم تركها،

وبدأ يعمل في حي المال والأعمال في لندن، فلم يكن يرغب في أن يكون الزوج الفقير لامرأة ثرية. كانت ذاكرة السيد ريكاردو تعمل بأقصى سرعة، والآن بعدما رأى مهره يلوح أمامه، ممر يمر بين مطرقة الرفض وسندان الفشل، قال: «برايس كارتر! هذا اسمه! وهو اسم شركته. عليك أن تصفي له ما تمرين به يا أنسة ويبل، و...»

ولكن قاطعته الأنسة ويبل باقتضاب، وقد احمرَّ عنقها بشدة واصطبغت وجنتاها باللون الوردي. قائلة: «لقد سقطت طائرة برايس كارتر.»

صُعق السيد ريكاردو وأصيب بخيبة الأمل، وقال: «سقطت طائرته؟ لم أسمع بهذا الخبر. يؤسفني ما سمعت. سقطت طائرته؟ يا إلهي!»

قالت جويس في ببطء: «أعني أن ديانا فسخت خطبتها به. هذا سبب آخر يجعلني أعتقد أنه يجدر بنا فعل شيء ما من أجلها. لقد كانت تحبه كثيرًا، ثم انتهى كل شيء في غضون أسبوع أو اثنين، ولم تُعطه سببًا لذلك. أعتقد أنه لم يعد يصلح للتدخل، أليس كذلك؟ أشعر بأنه يجب ألا أقف مكتوفة اليدين؛ ليس لأن الأمر لا يخصني، بالطبع...» سرعان ما أصبحت جويس ويبل غير قادرة على التعبير عن أفكارها، واشتعلت وجنتاها بحُمرة شديدة، ثم قالت: «لذا، إن لم تساعدني...»

ولكن شعر السيد ريكاردو بأن موقفه شائك بدرجة لم يمر بها من قبل. لم يَرُق له ارتباك رفيقته على الإطلاق، وبما أن طريق الهرب الذي كان يأمل في أن يسلكه قد أغلق، بدأ البحث في يأس عن طريق آخر، وعثر عليه.

قال موجِّهًا إصبعه نحوها منتصرًا: «وجدته.»

سألته جويس في حذر: «ما الذي وجدته؟ الحل الممكن الوحيد للمشكلة.» وكان حازمًا للغاية. ولم يكن ثمة مجال للمناقشة على الإطلاق. يجب أن تتم ترتيباته كما هي. قال: «أنتِ الشخص الوحيد المنوط بتصحيح الأمور. أنت صديقة ديانا. وتعرفين جميع أصدقائها. يمكنك أن تذهبي بنفسك إلى حفلها في قصر سوفلاك. إن لك تأثيرًا عليها. وإن كان هناك شخص ... خطر ... ألم تكن هذه هي الكلمة التي استخدمتها؟ ... فلا أحد أفضل منك يمكنه اكتشاف من يكون؛ هذا صحيح.»

رفع بصره نحوها. ورأى وجهها يُشرق، ولحة من شجاعة واستقلالية لاءمت تمامًا قوامها المشوق النحيل ومظهرها الرقيق المهنم. بدا العزم على وجهها. إننا نعيش في عصر النساء الشابات. دع واحدةً منهن، في مثل جاذبية جويس ويبل، تنفخ في البوق، وسترى مشهدًا رائعًا لسقوط أسوار أريحا الجديدة. وهو نفسه سيُشاهد هذا المشهد

من دون ذرة ندم من منزل الرجل النبيل ذي الألقاب الرنانة، الفيكونت كاساندر دي ميراندول.

صاح في إعجاب: «أنت! بالطبع، أنت!»

وعلى نحو مفاجئ، انقلبت الأدوار. كان ثمة رضا واضح يظهر في حركات جويس ويبل ووجهها أذهل السيد ريكاردو. كان قد استغلَّ نقطة ضعف غير متوقعة في دفاعاتها. وأصبح يجدر بها هي الآن أن تتحدّث برفق.

أقرت وقد علا الإحراج قَسَمات وجهها: «لا ريب في ذلك. نعم، ولقد طُلب مني الذهاب إلى سوفلاك ... وسأذهب، إن استطعت. ولكني لا أعتقد أنني سأستطيع أن أذهب.» ثم اندفعت تتحدّث بانفعال، قائلة: «كم أتمنى لو استطعت الذهاب! ولكني لن أكون موجودة. سأكون في أمريكا. لهذا السبب قلت لك إنه لا جدوى من مراسلتي، وهو نفسه السبب في رغبتني في تحميلك مسؤولية الأمر برمته.» ثم نظرت نحو السيد ريكاردو في حَجَل وسرعان ما أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وقالت: «كما تعلم، يجب على سندريلا أن تغادر الحفل قبل منتصف الليل.» ثم رفعت عينيها سريعاً نحو الساعة، وقالت: «وقد أوشك الليل أن ينتصف الآن.»

نهضت من جلستها سريعاً وهي تتحدّث، وارتسمت على وجهها ابتسامة وقالت كلمة وداع، والتحقّت بمجموعة صغيرة من الشباب يقفون بجانب نافذة حديدية محاطة بأحواض الزهور. يبدو أن هذه المجموعة كانت في انتظارها؛ فقد تمنّوا لمُضيقتهم ليلة هائلة ورحلوا على الفور.

لا ريب في أن السيد ريكاردو قد اكتنفته حالة من الرضا بعلمه أنه لم يُلزم نفسه بما ترمي إليه جويس ويبل. ولكن لم يكن هذا الرضا حقيقياً تماماً. فقد كانت القصة الغريبة التي قصّتها عليه من نوعية القصص التي تروق له؛ إذ كان لديه شغف عجيب بالأمور الغريبة. وحتى تلك اللحظة، كانت الرواية تروق له أكثر من الراوي. حاول بجد أن يثبت أفكاره على مشكلة ديانا تاسبورو. ولكن كانت مشكلة جويس ويبل تستحوذ على تفكيره. وقبل أن يدرك أن تصرفه لم يكن لائقاً، كان قد جعلها تتألق وكأنها جميلة عنود من حقبة الإمبراطورية الثانية. كانت هناك، تجلس أمامه بينما تُقلهما السيارة إلى منزله في ميدان جروسفينور، وكانت كتفاها البيضاوان تبرزان ساحرتين من ذلك الفستان الدائري ذي الحواف الصدفية الذي ترتديه، ولا أحد يعلم كيف يبقى في مكانه، وينشر طيات واسعة حول قدميها. ولكن حتى وهي ترتدي هذا الزي أمام عينيّه كما لو كانت

لوحة حية، بدأ يشك ويتساءل عما إذا كان يتحوّل إلى شخص عتيق الطراز ومتحيز في آرائه. ففي نهاية المطاف، هل كان بمقدور جويس ويبل، بأطرافها المستقيمة الرشيقة، ومعصمَيها ويديها وقدمَيها وكاحليها اللذين في هشاشة الزجاج، أن تبدو أكثر جمالاً في أي عصر آخر ممّا بدت عليه في ذلك الفستان القصير المتلائي الذي ارتدته تلك الليلة؟ جاء صوتها ليؤكد على أن العصر المناسب لها هو عصر الإمبراطورية الثانية حقاً. فبدلاً من نبرات الصوت العالية الحادة التي اعتاد عليها، كان صوتها ناعماً وخفيضاً ورخيماً به بحة حزينة ضئيلة تحتاج إلى إرادة من حديد لمقاومتها. ولكن كانت هناك جوانب أخرى لم تؤثر به بالدرجة نفسها. لم تسبّب لها اقتراحه في ذلك القدر الكبير من الارتباك؟ ما علاقتها ببرائيس كارتر التي تجعل وجهها يحمر بشدة عند ذكر فسح خطبته بديانا تاسبورو؟ و...

صاح وسط العزلة الهادئة داخل سيارته الفارهة: «يا إلهي، ما الهدف من كل ذلك الحديث عن سندريللا؟» كان الجزء المتعلّق بالحذاء الزجاجي من هذه الأسطورة الجميلة ملائماً ومناسباً للغاية. ولكن ماذا عن بقيتها؟ جاءت الأنسة جويس ويبل من الولايات المتحدة مع إحدى شقيقاتها تكبرها بعامٍ أو عامين، وفي مثل جمالها تقريباً. تزوّجت هذه الشقيقة مؤخراً، وكانت زيجةً جيدة. ولكن قبل حدوث ذلك، وطوال عامين كاملين، كانت الأختان ويبل تمرحان حيثما وُجد المرح. كانتا قد ذهبتا إلى دوفيل ودينارد، وكذلك مرتفعات اسكتلندا التي لم يزرها السيد ريكاردو. كان قد رأى بنفسه جويس ويبل تلمع على رمال شاطئ الليدو مرتديةً منامة من الساتان ذات لون برتقالي محروق. فالسيد ريكاردو كان أحد أولئك الأشخاص المحترمين الذين يزورون الليدو من حين لآخر فقط ليقف على مظاهر ابتذاله ويكوّن معرفة دقيقة وشاملة عنه، ثم يلقي المواعظ حول ذلك فيما بعد. لا ريب في أن جويس ويبل كانت تبدو فاتنةً في منامتها ذات اللون البرتقالي المحروق، ولكن في تلك اللحظة، توقّفت سيارة السيد ريكاردو أمام منزله قاطعةً حبل أفكاره. وربما كان ذلك أفضل.

الفصل الثالث

ذو اللحية

بعد شهر، تحالف الحظ، أو لنقل القَدَر، إذا ما كان من الممكن استخدام هذه الكلمة الكبيرة فيما يتعلّق بالسيد ريكاردو، مع جويس ويبل. كان السيد ريكاردو يحتسي قهوته الصباحية في الساعة العاشرة في غرفة معيشته الأنيقة التي تقع في الطابق الأول من فندق ماجيستيك، وكانت خطابه التي لم يفتحها بعدُ مُرتَّبةً في كومة بجانب مرفقه، عندما أثار انتباهه الكلمات المكتوبة على الظرف الموضوع على قمة الحزمة. كان يعرف الاسم، ولكنه لم يتمكن من تمييزه. فقد كان في مزاج لا يساعد على التفكير. كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة عبر النوافذ المفتوحة. كان يستمتع بالجلوس دون حراك مُفكِّراً في هوية مرسل الخطاب أكثر من فتح الظرف واكتشاف من يكون. ولكنه تلقى منذ عدة سنوات درساً في هذه الغرفة في إيكس ليبان عن موضوع الخطابات غير المفتوحة، وتذكّر هذا الدرس، ففتح الخطاب ونظر إلى التوقيع على الفور. وبدأ يهتم بالخطاب عندما قرأ اسم ديانا تاسيبورو. أخذ يقرأ الخطاب كاملاً بحماسة. في واقع الأمر، لم يعرض الفيكونت كاساندر دي ميراندول إخراج خدمه من بوردو وفتح قلعته لاستقبال حفل حصاد العنب. قد يقضي ١٠ أيام أو نحو ذلك بين كروم العنب الخاصة به من دون أن يكون معه أحد سوى خادمه وكبيرة خدم القصر. في ظل هذه الظروف، سيكون من الأكثر راحةً بالنسبة إلى السيد ريكاردو أن يقيم في قصر سوفلاك.

سنقيم حفلاً صغيراً واحداً، ولن يكتمل من دونك. ستلتقي السيد دو ميراندول على العشاء هنا، وسأتطلع لأن أجد اسمك بين الحضور في شهر سبتمبر.

قرأ السيد ريكاردو كل كلمة من هذا الخطاب مرةً أخرى قبل أن يدرك أنها لم تُثَر في نفسه أي شعور غريب، وعندما أدرك هذه الحقيقة المربكة، شعر بخجل شديد. ولكن

تلك هي الحقيقة. لا يوجد أي وجه شرير ميت غرقاً وغير كامل تتلاعب به الأمواج بين الحبر والورقة. لا، لا يوجد أي من تلك الوجوه! كان الحبر المُستخدَم أرجواني اللون ولم يكن أسود، وحاول السيد ريكاردو للحظات أن يبحث عن أي عزاء تافه في هذا الاختلاف. ولكن أمانته الفطرية جعلته يتراجع عن ذلك. فربما يكون لون الحبر تفصيلاً سطحية للغاية.

خاطب السيد ريكاردو نفسه وهو يخدش الخطاب باستياء شديد: «لا توجد أي وجوه ميتة غرقاً، ولا أي لحة من شر، ولا أي قرعة إنذار. ولكنني لست أقل حساسيةً من الآخرين.»

ربما إذا ركّز تفكيره على الخطاب، فقد يتلقّى بدوره الرسالة المثيرة من العالم الآخر. لا ريب أن الأمر يستحق التجربة.
فقال: «أفضل خططي أن أغلق عيني بقوة ولا أفكر في أي شيء لمدة خمس دقائق. ثم سأقرأ الخطاب مجدداً.»

وبناءً على ذلك، أغلق عينيه بإصرار كبير. كان قنوعاً. ولم يكن يطمح في الكثير. إذا ما رأى شيئاً مستديراً وردي اللون عندما يفتح عينيه، فسيكون راضياً وسيستعيد بعضاً من كبريائه. ولكن يجب أن يمنح نفسه الوقت الكافي. وظل على هذه الحال لمدة قدّرها بخمس دقائق. ثم فتح عينيه، وهبّ ليُمسك بالخطاب – ولكنه تلقّى واحدةً من أكبر الفزعات التي تلقّاها في حياته. كانت على الطاولة بجانب الخطاب يد، وخلف اليد، كان ثمة ذراع. تبع السيد ريكاردو، بعينين ملتاعتين، الذراع نحو الأعلى، ثم أطلق صرخةً حادة وكأنها نباح كلب وانزلق بكرسيه إلى الخلف.

طرف بعينه، بطبيعة الحال. فقد كان يجلس أمامه على الطرف الآخر من المكتب، لص – لا يمكن وصفه بأقل من ذلك – ظهر على نحو مفاجئ، لا أحد يعلم من أين، لص حقيقي ذو مظهر بغيض ومُخيف للغاية. كان يلف عباءة سوداء على كتفيه على الطريقة الإسبانية، وكانت لحية شعّاء خشنة تنمو على وجهه وكأنها غابة، ووضع على رأسه قبعة عالية القمة عريضة الحافة من اللباد الناعم مائلة على حاجبيه. كان يجلس في ثبات تام يحدّق في السيد ريكاردو بعينين مضطربتين وكأنه يحدّق في خنفساء سوداء بغيضة.

انتابت السيد ريكاردو حالة من الرعب الشديد. فانتفض واقفاً وقلبه يدق في صدره بعنف. وعثر في مكان ما في حنجرتة على صوتٍ حاد مبجوح تحدّث به.



تبع السيد ريكاردو، بعينين ملتاعتين، الذراع نحو الأعلى.

قال ريكاردو: «كيف تجرؤ؟ ماذا تفعل في غرفتي أيها السيد؟ اخرج قبل أن أزج بك في السجن! من أنت؟»
عندما سمع اللص ذلك، وبحركة خاطفة مثل مصراع الكاميرا، رفع لحيته التي كانت مُعلّقة من سلكين مثنيين على أذنيه حتى برزت من فوق جبهته، تاركًا الجزء السفلي من وجهه مكشوفًا.
قال الرجل المخيف: «أنا هانوسكي. قائد التشيكا (جهاز أمن الدولة السوفييتي).»
وبحركة خاطفة أخرى، أعاد لحيته إلى مكانها.

غاص السيد ريكاردو في مقعده وقد أرهقته هذه الصدمة الثانية التي جاءت في أعقاب الأولى مباشرة.

لم يستطع إلا أن يقول: «حقًا! حقًا!»

وهكذا جدد السيد هانو، المفتش الكبير في جهاز الأمن العام، ذو الذقن الأزرق الذي يُذكر بالمثلين الهزليين، صداقته الغريبة مع السيد ريكاردو بعد انقطاع دام عامًا كاملاً. تلك الصداقة التي بدأت قبل خمس سنوات في إيكس ليبان، ومنذ أن بدأ هانو يقضي عطلاته في فندق متواضع في هذا المنتجع الجميل، فكان يؤكد على تلك العلاقة في شهر أغسطس من كل عام. كان السيد ريكاردو يُدرك أنه يجب أن يدفع مقابل هذه الصداقة. كان قد فاض به الكيل إلى أقصى حد بسبب تحفُّظ هانو عندما تكون ثمة قضية مهمة يعمل عليها، ثم يدعوه بكل جدية لعرض آرائه التي يُمرِّقها بعد ذلك إربًا، ويسخر منها، ويتهم عليها، ثم يجد نفسه مُجددًا، كما هو الحال الآن، ضحية نوع من العبث الطفولي الذي يبدو أن هانو يخلط بينه وبين الفكاهة، التي لطالما كانت في كل الأحوال في غير محلها على الإطلاق بالنسبة إلى شخص جاد. وفي المقابل، كان يسمح للسيد ريكاردو بالاطلاع على الحقائق السرية المريعة للكثير من القضايا الغريبة التي لطالما كانت أغارًا مُورِّقة للرأي العام. ولكن كانت هناك حدود للمقابل الذي كان على استعداد لدفعه، وصباح ذلك اليوم، تخطى السيد هانو هذه الحدود.

قال السيد ريكاردو بمجرد أن استعاد قدرته على الكلام: «هذا كثير. لقد دخلت إلى غرفتي تسير على أطراف أصابعك ومن دون أن تُعلن عن وجودك عندما كان تركيزي منصبًا على أمر ما. أقر بأنك قد رصدتني في وضع سخي، لا يماثل حتى نصف سخافة وضعك. في الواقع، أنت، يا سيد هانو، باعتبارك رجلًا في منتصف العمر ...» ثم صمت عاجزًا عن قول المزيد.

لم تكن ثمة فائدة من توبيخه. لم يكن هانو يسمعه. فقد كان واضحًا أنه مسرور بما فعل. وتملك هذا السرور وجدانه بأكمله. فقد واصل رفع لحيته الزائفة بتلك الحركة الخاطفة من يده وهو يقول لنفسه بعنف شديد: «أنا هانوسكي، قائد التشيكا»، ثم كان يُعيد تلك الستارة الضخمة من الشعر الأسود إلى مكانها الأصلي مجددًا.

«أنا هانوسكي، قائد التشيكا! أنا هانوسكي من موسكو! أنا هانوسكي، مروّع

السهبوب!»

سأله السيد ريكاردو: «إلى متى ستستمر في التصرف بهذه الطريقة الشائنة؟ لقد تسببت في شعوري بالإهانة، حتى وإن كنتُ قادرًا على فهم أن السبب وراء تصرفاتك تلك هو خفة الظل التي ورثتها عن الغالين.»

أعادت هذه العبارة إلى السيد ريكاردو الكثير من كبريائه. حتى هانو نفسه أدرك مدى براعته.

قال هانو مبتسمًا: «آه! لقد تفوقت عليَّ يا صديقي. يا لها من ملاحظة لاذعة. خفة الظل التي ورثتها عن الغالين. نعم، إنها عبارة أقرب إلى العقاب. ولكن إليك دفاعي عن نفسي. كم قلت أنت لي، وكم قلت أنا لنفسي: «يا للمسكين هانو! لن يكون مُحققًا جيدًا أبدًا لأنه لا يضع لِحَى زائفة. إنه لا يعرف القواعد ولن يتعلّمها.» ومن ثم، أصابني الحزن طوال فصل الشتاء. وبحلول الصيف، للممت شتات نفسي. وقلت: «يجب أن أجعل صديقي العزيز يفخر بي. يجب أن أفعل شيئًا ما. سأريه كيف يكون مُحققًا أحلامه.»

ردَّ عليه السيد ريكاردو في برود: «وبدلاً من ذلك، أريتنني سفاحًا.»

خلع هانو في تعاسة أدوات تنكُّره وطبَّقها بعناية وكَدَّسها في كومة. ثم أمال رأسه نحو صديقه. وسأله: «هل أنت غاضب مني؟»

لم يُكلِّف السيد ريكاردو نفسه عناء الرد عن هذا السؤال البديهي. وعاد ليقرأ الخطاب، ولكن ظلت درجة حرارة الغرفة منخفضةً لمدة قصيرة رغم هذا الصباح المشرق. ولكن لم يشعر هانو بالخجل من نفسه. وبدأ يُدخِّن سجائر سوداء واحدةً تلو الأخرى، مُخرِجًا إياها من علبة ورقية ذات لون أزرق فاتح، وموجَّهًا من وقتٍ لآخر ابتسامَةً غريبة إلى صديقه المنزعج. وفي نهاية المطاف، طغى فضول السيد ريكاردو على استيائه.

فقال حاملاً الخطاب عبر الغرفة إلى هانو: «انظر هذا الخطاب. أخبرني إذا لاحظت فيه أي غرابة.»

قرأ هانو عنوان فندق في بياريتز، ثم توقيع المرسل، ثم الخطاب نفسه. ثم أعاد الخطاب إلى السيد ريكاردو رافعًا بصره نحوه.

ثم قال متفاخرًا، كالعادة، ببراعته في استخدام العبارات الاصطلاحية: «أنت تسخر مني، أليس كذلك؟» ثم كرَّر العبارة مرةً أخرى. «أجل، أنت تسخر مني.»

ردَّ السيد ريكاردو بلمحة من حدة طبعه الحديثة العهد: «أنا لا أسخر منك. هذا تعبير غير معتاد.»

أخذ هانو الورقة إلى النافذة ورفعها أمام عينيَّه في ضوء الشمس. ثم تحسَّس الورقة بين أصابعه، ورأى عينيَّ صديقه تلمعان في حماس. لا ريب أن السيد ريكاردو يتعامل مع هذه الدعوة البسيطة بجدية تامة.

فقال من حيث يقف: «لا. لم أقرأ شيئاً في هذا الخطاب سوى أن سيدة تدعوك إلى قصر سوفلاك لتحضر حفل حصاد العنب. هنيئاً لك، فنبيل بوردو الذي يُنتجه قصر سوفلاك مذكور ضمن أفضل أنواع نبيذ الحصاد الثاني.»

قال السيد ريكاردو: «أعرف ذلك، بالطبع.» وافقه هانو سريعاً وباهتمام جم قائلاً: «بالتأكيد. ولكني لم أجد أي غرابة في هذا الخطاب.»

«كنت تتحسَّسه بدقة بأطراف أصابعك، كما لو أن شعوراً غريباً قد انتقل منه إليك.» هز هانو رأسه نفياً.

«مجرد تساؤل دار في ذهني عما إذا كان ثمة أي شيء غريب في ملمس الورق. ولكن! إنه من نوعية الورق الذي توفره آلاف الفنادق لعملائها. ما الذي يؤرِّقك يا صديقي؟» أعاد السيد ريكاردو، بتردد أكبر من تردد جويس وييل، القصة التي روتها عليه عن الانطباعات غير المريحة التي تشعر بها تجاه الخطابات التي تكتبها اليد التي كتبت هذا الخطاب. وقد أقرت جويس، حتى لنفسها، بأنها عندما تحاول تفسير هذه الانطباعات بالكلمات، فإنها تضحل حتى تتلاشى تماماً. كم سترداد تلك الانطباعات غموضاً عندما تُروى الآن من قبل ناقل عن صاحبها الأصلية لهذا الرجل القاسي الذي لا يثق إلا بالحقائق؟ لم يسخر منه هانو. لا ريب في أن تعبيراً ينم عن عدم الراحة قد ظهر جلياً على قسَمات وجهه بينما تُقَص عليه القصة، وبعدما فرغ السيد ريكاردو من قصته، جلس في مكانه صامتاً ومشوّشاً خلافاً للعادة لبعض الوقت. ثم نهض من جلسته أخيراً وجلس في مقعد عند الطاولة المقابلة لصديقه.

وقال ومرفقاه مستندان على مفرش الطاولة ويداه متشابكتان أمام وجهه: «اسمع. أنا أكره القصص من هذه النوعية. لدي الكثير من الأمور لأهتم بها، حُرَيَات وحيوات أشخاص لا يملك كل منهم إلا روحاً واحدة في هذا الجسد الواحد. لهذا السبب، يجب أن أكون حذراً للغاية حتى لا أخطئ. إذا كان خطأ قد ارتكبه أنا من شأنه أن يتسبَّب في أن تخسر أنت أكثر من خمس سنوات من عمرك القصير، إذا احتفظت بها فستعيشها في مشقة وتكفير عن ذنوبك، فلا يمكن لشيء أن يُعوِّضك عن خطئي في حقك. يجب أن أكون

متأكدًا دائمًا من الخطوة التي أخطوها، نعم، يجب أن أعرف دائمًا ما سأقدم عليه قبل أن أفعل. يجب أن أقول لنفسي: «هذا الرجل، أو هذه المرأة، ارتكب فعلًا مخالفًا للقانون عن عمد»، قبل أن أتدخل. ولكن، مع قصة مثل التي أخبرني بها، أسأل نفسي: «ما الذي استنبطته منها؟ هل يمكن أن أكون على يقين من الخطوة التي يتعين عليّ اتخاذها؟»

صاح السيد ريكاردو وقد شعر بالارتياح والانبهار: «لن تسخر إذن؟»
فتح هانو يديه، وقال: «أنا أسخر — نعم — مع أصدقائي، ومن أصدقائي، كما أمل أن يسخروا هم أيضًا معي، ومني. أنا إنسان، أجل. ولكن القصص على غرار تلك التي قصصتها عليّ تجعلني أتواضع، ولا أسخر منها. أعرف رجالًا ونساءً ينظرون في كرات بلورية ويرون غرباء يتحركون في أماكن غريبة، وتكون صورهم حقيقية أكثر مما لو كانوا يؤدون مشاهد على خشبة المسرح أمام أعينهم. أما أنا؟ فلا أرى أي شيء، أبدًا! أبدًا! هل أنا الأعمى بينهم؟ أم أن الآخرين مجانين؟ لا أعرف. ولكن تورّقني هذه التساؤلات أحيانًا. وهذا ليس في صالحي. لا! فهي تجعلني أقلق على نفسي، وأبدأ بالشك في هانو! تخيل ذلك، إن استطعت!»

ثم أرخى يديه، وفتح ذراعيه عن آخرهما في إشارة هزلية مبالغ فيها. ولكن لم ينخدع السيد ريكاردو. لقد أقرّ صديقه بالحقيقة. فثمة أوقات يشك خلالها هانو في هانو؛ أوقات يُدرك خلالها، مثلما يحدث مع السيد ريكاردو، أن ثمة شقًا حدث في قشرة حجر الأوبال. خفض هانو عينيه مجددًا نحو هذه الكتابة التي كانت مفزعةً للغاية بالنسبة إلى شخص واحد فقط، ولم تكن ذات أهمية تُذكر بالنسبة إلى الآخرين.

وقال: «لقد فسخت خطبتها، هذه الشابة؛ الآنسة تاسبورو». ولكنه نطق اسمها تاسبوروف. «هذا أمر غريب كذلك». ثم جلس مطرقًا للحظات. وأردف قائلاً: «ثمة ثلاثة تفسيرات يا صديقي، وعلينا أن نختار من بينها. وإليك أولها. الآنسة وبيل تدعك لغاية لا نعلمها. وغرضها إثبات مصداقيتها بعدما حدث خطب ما. ذلك كي تتمكن من أن تقول: «لقد استشرفت الأمر، وحاولت تفاديه. لقد حذرت السيد ريكاردو». ما رأيك؟ هل فكّرت في هذا الاحتمال؟»

أوماً برأسه بتمهل وثقة لصديقه الذي لم يفكر في أي شيء من هذا القبيل. ولكن أقلقت هذه الفكرة السيد ريكاردو بدرجة ما أو بأخرى. فقد كان، في واقع الأمر، يشعر بالقلق أثناء عودته إلى منزله بعد الحديث الذي دار بينهما. كان قلقًا بسبب ذلك المبرّر الذي ساقته جويس وبيل عن عدم قدرتها على التدخل. «يجب على سندريلا أن تغادر

الحفل قبل منتصف الليل..» هل يلائم هذا المبرر شابّة تمتلك بئراً نفطيّاً في كاليفورنيا؟ لا، من المؤكّد أنّه لا يلائمها!

ولكن رفع هانو، وكأنّه قرأ أفكاره، يده محدّراً. وقال: «دعنا لا نستبق الأمور. لا يزال ثمة تفسيران آخران. التفسير الثاني؟ الأنسة وييل امرأة تعاني هيسستيريا ومن ثم لا بد أن تثير ضجة. فهي حمقاء، مثلما الحال مع جميع من يعانون هيسستيريا.» في هذه اللحظة، هز السيد ريكاردو رأسه، بالثقة نفسها التي هز بها هانو رأسه منذ لحظات. إن تلك الشابة الأنيقة، التي جعلت من النظام علامتها المميزة، بعيدة كل البعد عن عالم الهيسستيريا. كان السيد ريكاردو يفضّل التفسير الأول. فقد كان أكثر احتمالاً وأكثر إثارةً بكثير. ولكن يجب ألا يتعجل.

فسأل: «ماذا عن تفسيرك الثالث؟» أعاد هانو الخطاب إلى ريكاردو ونهض من مقعده ضارباً فخذه بيديه.

«ربما كانت تقول الحقيقة. ربما أتاها التحذير عبر تلك الكلمات المكتوبة بخط اليد، رغم أن من كتبها لا تعلم شيئاً عن التحذيرات التي ترسلها.»

استدار هانو ليواجه النافذة، وظل واقفاً مكانه لبعض الوقت يراقب المنتجع الصغير الجميل، حمامات السباحة التي أُقيمت بجانب المنتزه، والكازينو الأنيق هناك، والفيلات والفنادق التي تلمع وسط الشوارع الخضراء. ولكن كان ذهنه مشغولاً للغاية. ولم ير شيئاً من كل ذلك وكأنّه يُحدّق في جدار. كان السيد ريكاردو قد رآه على هذه الحال من قبل، وكان يدرك أنه من الأفضل عدم مقاطعته على الإطلاق في أوقات مثل تلك. وطغى عليه شعور بالمهابة. وشعر بأن أرضية حجر الأوبال أصبحت هشّة للغاية تحت قدميه. أدار هانو رأسه نحو صديقه، وقد لانت عريكته.

وسأله: «هل يبعد قصر سوفلاك ٣٠ كيلومتراً عن بوردو؟»

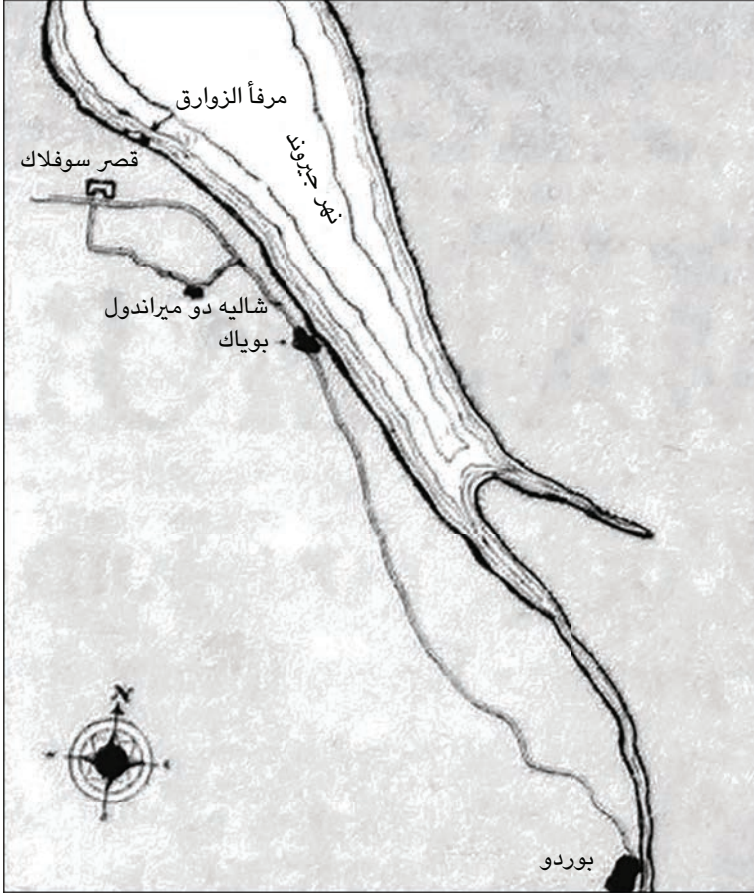
أجاب السيد ريكاردو: «٣٨,٥ كيلومتراً.» كانت الدقة أهم سماته.

استدار هانو مجدداً ليواجه النافذة. وبعد دقيقة، وبهزة كبيرة من كتفيه، نفّس كل الحيرة عن نفسه.

وصاح قائلاً: «أنا في عطلة. دعنا لا نفسدها! تعال! اجعل خادمك الأمين تومسون يحزم حاجيات هانوسكي الخاصة بي ويعيدها على نفقتك إلى مسرح أوديون الذي استعرتها منه بالأمس. وسنذهب أنا وأنت في سيارتك الرائعة إلى بحيرة بورجيه حيث سنتناول غداءنا، ثم سنذهب في مغامرة على متن زورق بخاري كأبي سائحين عاديين.»

ذو اللحية

كان يبدو عليه المرح وخفة الظل. ولكنه كان قد خرج عن النهج المقدس لعطلته، وطوال ذلك اليوم، بذل جهدًا كبيرًا لإبعاد بعض فترات التأمل العميق، كما توقع السيد ريكاردو.



خريطة الطريق من بوردو إلى قصر سوفلاك.

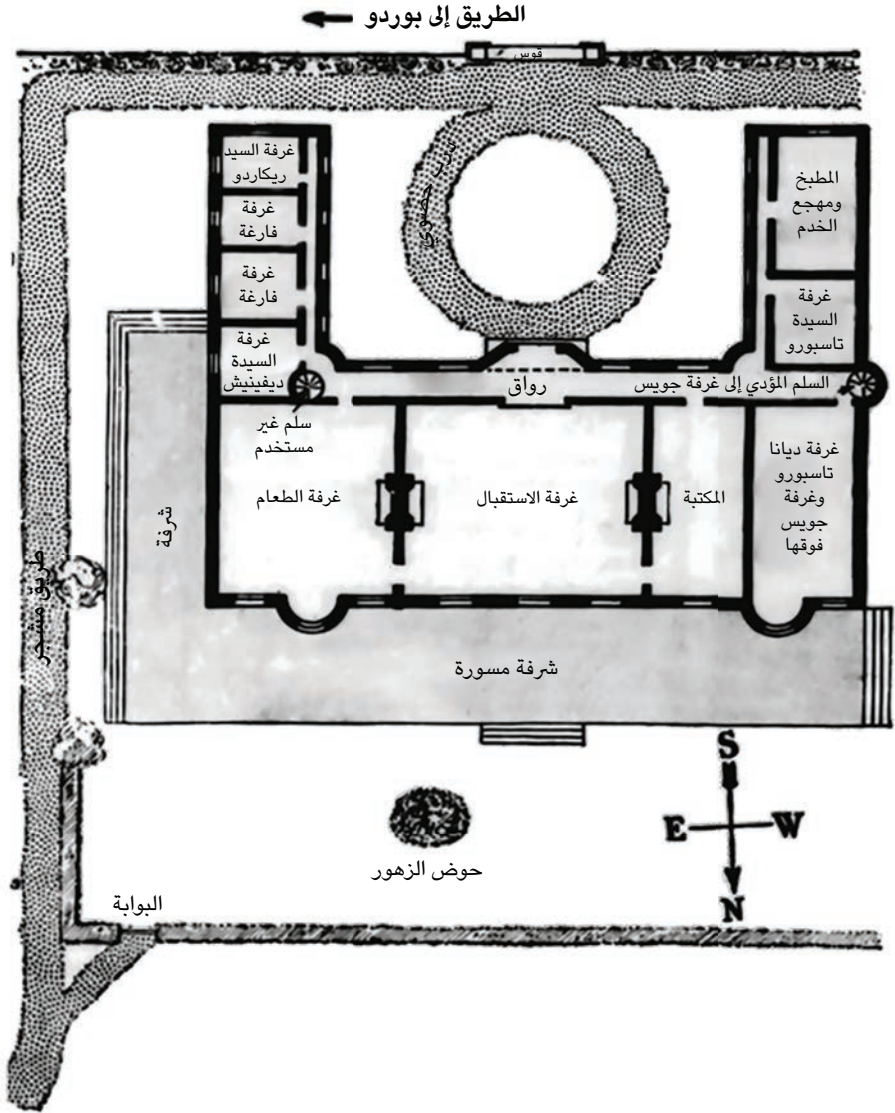
الفصل الرابع

ألغاز أمام السيد ريكاردو

أقام السيد ريكاردو في بوردو في دعة وراحة؛ فقد كان يقضي يومًا هنا وليلةً هناك، ووصل إلى قصر سوفلاك في تمام السادسة من مساء يوم الأربعاء الموافق الحادي والعشرين من سبتمبر. من المهم ذكر ترتيب اليوم في الأسبوع. طوال آخر ميلٍ إلى القصر، قاد سيارته على طول طريق خاص يميل قليلًا نحو الأعلى. كان المنزل واقعًا عند قمة هذا المنحدر، وكان ذا شكل رباعي مبنياً من الحجر بلون زهري فاتح ويبرز البرجان القصيران الدائريان عند كل طرفٍ من طرفي المبنى الرئيس، ويمتد الجناحان الطويلان حتى يصلا إلى الطريق. كانت واجهة الشكل الرباعي مساحةً مفتوحة، يُرى في منتصفها قوس عالٍ لا يحيطه أي شيء، كما لو كان قوس نصر قديماً من عصر الرومان. كان هذا الجانب من المنزل مطلقاً على جهة الجنوب الغربي، وكانت الأرض تمتد منه في منحدر مغطى بكروم العنب وصولاً إلى مراعي طويلة وشاسعة. وعند نهاية هذا السهل العشبي، كان يُرى تل واضح المعالم يمكن مشاهدة منزل صغير أبيض اللون فوق قمته من بين ستار من الأشجار. بينما كان السيد ريكاردو يقف مولياً ظهره إلى قصر سوفلاك كي يُمدد ساقيه بعد قيادة السيارة لمدة طويلة، رأى طريقاً ثانوياً يبدأ عند نهاية المنحدر المغطى بكروم العنب، ويهبط المنحدر، ويمر عبر مجموعة من المباني الريفية ومربأ تلتقي عنده كروم العنب بالمراعي، ولكن على الجانب الآخر من الطريق، ثم تصعد مجدداً نحو المنزل الأبيض الصغير.

لم يكن أحد من الضيوف قد وصل، ولم يكن في المنزل أحد سوى العمة الوصيقة، السيدة تاسبورو، وكانت نائمة. أُعد كوب من الشاي للسيد ريكاردو بواسطة الخادم الشاب جولس أماديه في غرفة استقبال الضيوف الكبيرة التي تفتح على الشرفة الحجرية التي تطل على نهر جيروند الشاسع وشاطئ بحر الشمال المكسو بالضباب. بعد أن احتسى الشاي، خرج السيد ريكاردو إلى الشرفة. كانت ثمة أربع درجات صغيرة تؤدي نزولاً إلى

سجين حجر الأوبال



خريطة قصر سوفلاك.

حديقة امتزجت فيها المروج الخضراء بالزهور، وعن يمينه، كان يقف صف من الأشجار التي زُرعت حديثاً تنحدر حتى تلتقي بالسياج النباتي عند نهاية الحديقة مخفياً المنزل وحاجباً رؤية العدد الهائل من أقبية النبيذ حيث يُخزّن النبيذ وحيث توجد الأحواض الضخمة.

سار السيد ريكاردو عابراً المَرَج متجهاً نحو السياج، وعَبَر بوابَةً ومنها إلى أرض مستنقع، ورأى عن يمينه قليلاً مرفأً صغيراً به رصيف يرسو إليه زورق، أحد قوارب الإبحار الثقيلة الوحيدة الصاري التي تُستخدم في التجارة عبر النهر. وكان ثمة قبطان واثنان من العمال مشغولين في تفريع حمولتهم من خزين المنزل. بدأ السيد ريكاردو، الفضولي بطبعه، تحقيقه. كان القبطان رجلاً ضخماً الجثة ذا لحية سوداء مسروراً للغاية لقبول سيجارة وأخذ استراحة من عمله.

وقال: «نعم يا سيدي، هذان ابناي. إننا نتوارث المهنة. لا، لم أتمكك هذا الزورق بعد. السيد ويبستر، مندوب الأنسة، اشترى الزورق وكلفني بإدارته، وعندما أدفع مقابله كاملاً، سيصبح ملكي. هل سيحدث هذا قريباً؟» فرد القبطان ذراعيه تعبيراً عن اليأس. وقال: «من الصعب أن تصبح ثرياً في جيروند. إننا نقضي نصف حيواتنا في انتظار المد. كما ترى يا سيدي! ولكن بالنسبة إلى هذا المد اللعين، كان يمكنني أن أنهي عملي هنا، وأبدأ رحلة العودة إلى بوردو في وقت لاحق من الليل. ولكن لا! يجب أن أنتظر ارتفاع المد ولا يمكنني التحرك حتى السادسة صباحاً. آه، حياة الفقراء صعبة يا سيدي.» كان يمتلك نصيباً وافراً من شفقة الفلاح الفرنسي على نفسه، ولكنه كان جالساً على حائل الأمواج المتين في الزورق، وبدأ يربت على الخشب ويداعبه كما لو كان أعز شيء إلى قلبه. واستطرد قائلاً: «هذا الزورق جيد. سيدوم لسنوات طوال، وربما أتمكّن من تملكه في وقتٍ أقرب ممّا يعتقد الناس.»

لمعت عيناه القريبتان من بعضهما تحت حاجبيه الأسودين الكَثِين في كآبة. لم يكن الرجل يملك شفقة بني جلدته على النفس فحسب، بل كان يملك شُحْهم كذلك. واستنتج السيد ريكاردو أن الرجل لم يكن ذكياً للغاية. فالرجل الذكي لا يستعرض مهاراته أمام الأغراب. ولكن انتبه القبطان إلى أن ابنه توقف عن العمل أيضاً. فحبط القبطان على حائل الأمواج.

وصاح غاضباً: «أيها الوغدان العديما النفع، إن هذا الرجل النبيل لا يتحدث إليكما. واصلوا العمل! هراء! إنكما لا تصلحان لإدارة عجلات مجداف لو بوتى موسى في الحقائق العامة.»

ابتسم السيد ريكاردو. فكان قد تسكّع في الحدائق العامة في بوردو بالأمس القريب. وكان قد رأى لو بوتتي موس، ذلك القارب الصغير الجميل على شكل بجعة، طافياً على المياه تُحيطه الزينة. وكانت به عجلتا تجديد صغيرتان يديرهما صبيان صغيران، وخلال أيام الأحد والمهرجانات، كان القارب يخرج في رحلات بحرية صغيرة في ظلال النخيل وأشجار الكستناء.

عاد الصبيان الصغيران إلى عملهما، وسار السيد ريكاردو مبتعداً عن المرفأ الصغير. ولاحظ، دون أن يولي اهتماماً خاصاً للظروف، الاسم المكتوب على حنايا القارب: لا بيل سيمون. ربما لم يكن ليلاحظ الاسم من الأساس، ولكن كانت الكلمتان الأوليان من الاسم مطموستين وكانت الكلمة الثالثة مدهونةً بدهان أبيض حديث جعلها واضحةً وضوح الشمس. دفعه فضوله أن يسأل: «هل غيّرت اسم الزورق؟»

نعم. أسميته «لا بيل ديان» مجاملة بسيطة، كما ترى. ولكن رفض السيد ويبستر ذلك، وقال إنني لا بد أن أغيّره. والسبب أن الأنسة ربما تعتقد أنها حمقاء إذا ما لاحظت ذلك في أي وقت. هذا ليس معناه أن الأنسة تلاحظ أي شيء هذه الأيام، ولمعت عيناه السوداوان بين جفونه نصف المغمضة. ثم قال: «ولكنني غيّرت على أي حال».

استدار السيد ريكاردو مغادراً. سار السيد ريكاردو عائداً على طول الدرب الواسع، والتقطت عيناه خلف حدود الأشجار، على الجانب البعيد من المنزل، شاليهًا صغيراً من طابقين يُرى بمفرده وسط مساحة مفتوحة تحيطه بوابة صغيرة بيضاء وحديقة مليئة بالزهور المبهجة. ولكن دقت الساعة السابعة وعاد السيد ريكاردو إلى غرفة الاستقبال دون استكشاف هذا الشاليه. ولم تكن ثمة إشارة على وصول الضيوف. رن الجرس طالباً جولس أماديه الذي جاء واصطحبه إلى غرفة نومه التي تقع في نهاية الجناح الشرقي. كانت غرفة أنيقة واسعة ذات نافذتين، واحدة على الواجهة تطل على منحدر كروم العنب، والمرعى، والتل المقابل الذي تكسوه الأشجار، وكانت الأخرى على الجهة الأخرى تطل على الدرب وتُعطي مشهداً غير كامل للشاليه الصغير خلفه. ارتدى السيد ريكاردو ملابسه بعناية فائقة، تلك العناية التي لم يكن ليتنازل عنها حتى لو مُنح مملكة تارتاريا، وكان لا يزال يضع اللمسات الأخيرة على ربطة عنقه التي على شكل فراشة، عندما رأى، من فوق المرأة، شاباً صغيراً يرتدي سُترَة العشاء ويعبر الدرب في طريقه نحو القصر. أصبح الهدف من وجود الشاليه واضحاً الآن بالنسبة إلى السيد ريكاردو.

فقال: «منزل ضيوف للشبان العزاب. تومسون، أعطني حذائي ولبيسة الأحذية من فضلك.»

سار السيد ريكاردو على طول الرواق الطويل، ودُهل عندما لاحظ مساحة الأرض الشاسعة التي يشغلها المنزل، وعدد الغرف الفارغة المفتوحة الأبواب، ثم استدار ناحية اليسار عندما وصل إلى نهايته، ووصل إلى غرفة الاستقبال التي كانت تقع في منتصف المبنى الرئيس تمامًا. عندما وقف أمام باب الغرفة، كان البهو ومدخل المنزل واقعين خلفه مباشرة. ظل واقفًا في مكانه لبضع لحظات ينصت إلى ما تقوله الأصوات واجتاحه انفعال غريب. هل يمكنه أن يحل لغز خطابات جويس ويبل بلمحة كاشفة واحدة؟ هل سيجول ببصره في أرجاء الغرفة ويحدّد إلهامه الشخص الشرير الذي احتجز ديانا تاسبورو في عزلة بياريتز طوال شهور الصيف؟

قال لنفسه في حزم: «الآن. الآن.» وبطريقة مسرحية، فتح الباب على مصراعيه وخطا سريعًا إلى داخل الغرفة. وأصيب بخيبة أمل. لا ريب في أن الصمت خيم للحظات، ولكن دخوله المفاجئ كان هو السبب في ذلك. لم يجفل أحد، وعادت الأحاديث التي انقطعت لتستمر من جديد.

أسرعت ديانا تاسبورو الخطى نحوه بجمالها الأخاذ المعروف عنها في فستانها ذي اللون الأخضر الفاتح.

قالت ديانا في سرور: «كم سعدت بحضورك يا سيد ريكاردو. أنت تعرف عمتي، أليس كذلك؟»

صافح السيد ريكاردو السيدة تاسبورو.

«ولكني لا أعرف يقينًا إذا ما كانت السيدة ديفينيش غريبةً كذلك.»

كانت السيدة ديفينيش شابةً في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، طويلة القامة، سوداء الشعر، ذات بشرة لامعة، وعينين سوداوين صافيتين. كانت متألقة أكثر من كونها جميلة، وضخمة، وذُكُرت السيد ريكاردو بالشهوات العاصفة الجامحة. ومَرَّ بخَلْده أنه إذا اضطرّ لتناول وجبة معها بمفرده، يجب أن تكون في وقت الشاي وليس العشاء. مدَّت يدها اليمنى إليه في حالة من اللامبالاة، ووقعت عينا السيد ريكاردو على يدها الأخرى مصادفة. لم تكن السيدة ديفينيش ترتدي خاتم زواج، ولا أي مجوهرات تدل على أي ارتباط.

قالت مبتسمة: «لا، لا أعتقد أننا التقينا من قبل.» وشعر على نحو مفاجئ بحماسة انتصار، من المؤكد أن هذا لم يرجع إلى صوتها؛ فهو لم يكن سمعها تقول كلمة واحدة من قبل قط، ربما يرجع ذلك إلى حركة ما من يدها، أو إلى حركة من جسدها عندما استدارت

لتواصل حديثها، وربما يرجع ذلك إلى بطء إدراك السيد ريكاردو، ولكنه شعر بذلك على أي حال. لقد حلَّ مشكلة جويس ويبل سريعًا. السيدة ديفينيش هي القوة المهيمنة التي تزعج ديانا تاسبورو. كانت هي الشخص الشرير. صحيح أنه لم يلتقها من قبل، ولكنه رآها، وفي ظل تلك الظروف الكثيرة التي حسمت المسألة أخيرًا.

قال: «ولكنني أعتقد أنني رأيتك من قبل، منذ تسعة أيام تحديدًا في بوردو.» وكاد يُقسم أنه رأى الرعب، رعبًا صافيًا خالصًا، يحدّق فيه من أعماق عينيها. ولكنه لم يستمر إلا للحظات. ثم تفحّصت السيد ريكاردو من قمة رأسه، بشعره الرمادي المصفّف بعناية، إلى أخمص قدميه وضحكت.

وسألته: «أين؟»، ولم يُجبها السيد ريكاردو. كان سؤالًا مباشرًا وجريئًا. وكان يشعر بحرج شديد من إجابته. فإن فعل، قد يتهم نفسه بميله للتصرّفات غير السوية. كما قد يبدو صبيانًا كذلك.

فقال: «ربما كنت مخطئًا.» وضحكت السيدة ديفينيش مجددًا، ولكن بطريقة ليست مريحة.

جاء إنقاذ السيد ريكاردو من وضعه العصيب هذا في صورة مضيافته الشابة التي وضعت يدها على ذراعه.

وقالت: «يجب الآن أن تتعرّف إلى الشخص الذي كان من المفترض أن يكون مُضيّفك. السيد الفيكونت كاساندر دي ميراندول.»

كان السيد ريكاردو قد جفل من الشخص السابق الذي تعرّف إليه. ولكنه صُعق هذه المرة. وفكّر في جميع أنواع الصليبيين، ولكنه لم يستطع تخيّل هذا الشخص تحديدًا يقتحم أسوار عكا. كان رجلًا طويل القامة، وبدينًا، وضخم الجثة، ذا وجه طفولي متورد، ومُدوّر، ومليء بالبتور، وكان فمه صغيرًا للغاية على نحو لا يتناسب مع حجمه، وكان ذا شفتين حمراوين غليظتين، وكان أصلع إلى حدّ ما.

قال بصوت رفيع حاد: «سأعتبر أن زيارتك لي قد تأجّلت فحسب.» ومد نحو السيد ريكاردو يدًا رخوة ومبلّلة. قرّر السيد ريكاردو من فوره أنه يُفضّل أن يتخلّى عن حبه السنوي تمامًا على أن يحل ضيفًا على سليل الصليبيين هذا. فهو لم يلتق في حياته بشخصية مُنفّرة لهذه الدرجة. ربما كان الرجل خفيف الظل، ولكنه لم يكن كذلك. فقد جعل السيد ريكاردو يشعر بالانزعاج، واعتبر ملمس يده الرخوة شيئًا مقزّرًا. أخفى راحة يده بصعوبة عندما وجّهته ديانا تاسبورو ناحية الرجل الذي رآه يعبر الدرب قادمًا من الشاليه.

قالت ديانا بابتسامة ساحرة: «هذا السيد روبن ويبستر، مدير أعمال، وصاحب فضل عليّ. فأنا مدينة له بازدهار كروم العنب.»

أنكر السيد ويبستر أي فضل على سيدته بأدب جم. وقال: «لم أخلق التربة، ولم أزرع الكروم، ولم أبتدع أي معجزات، يا سيد ريكاردو. وظيفتي بسيطة ومتواضعة، ولكن كرم الأنسة تاسبورو جعله متعةً وليس تعبًا.»

ربما بدا إنكار الفضل متواضعًا أكثر من اللازم، ولكنه زاد من جاذبية بساطة أخلاقه. كان متوسط الطول ذا شعر أبيض وعينين زرقاوين لامعتين. لم يكن شعره الأبيض دلالةً على كبر سنه. فقد قدّر السيد ريكاردو أن عمره يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ولم يتمكن من تذكر رؤية رجل أكثر منه أناقة. كان حليق الوجه أنيق الملبس، مع مسحة من الرقي. كان يراعي الدقة اللفظية في نطقه، الأمر الذي بدا مألوفًا بالنسبة إلى السيد ريكاردو دون سبب وجيه، وغمرت السعادة السيد ريكاردو لأنه عثر على شخص لطيف وودود لهذه الدرجة.

فقال: «إنني لأتطلع غدًا لرؤية شيء مميز في حفل حصاد العنب لأنه تحت إشرافك يا سيد ويبستر.» ثم سمع صوتًا ينادي عليه عبر النافذة الطويلة المفتوحة على الشرفة. «ألن ترحّب بي يا سيد ريكاردو؟»

كانت جويس وبيل تقف عند النافذة تُبرز معالم جسدها خلفيةً من أنوار المساء. ولم يكن ثمة أثر للقلق الذي كان يغطي وجهها خلال لقائهما الأخير. كانت ترتدي فستانًا لامعًا من الدانتيل الفضي، وكان وجهها مشربًا بالحمرة، وتبتسم له في سعادة. قال السيد ريكاردو وهو يتقدّم نحوها مُتحمسًا: «لقد أجليتِ عودتك إلى أمريكا في نهاية المطاف.»

أجابته: «أجلتها لشهر واحد، وكاد ينتهي. سأغادر غدًا قاصدةً شيربورج.» قال دو ميراندول بأناقة: «هذا إذا سمحنا لك بالرحيل»، جملة لن ينساها السيد ريكاردو.

قدّم السيد ريكاردو لامرأتين شابتين من سكان المنطقة، ورجلين شابين من بوردو، لم يُنطق اسم أي منهم بطريقة تكفي لأن يُميّزهم عن غيرهم. ولكنهم كانوا مجرد ضيوف في هذه الأمسية، ولم يشغل السيد ريكاردو باله بهم.

صاحت السيدة تاسبورو على نحو مفاجئ في عصبية: «مَن الذي ننتظر الآن يا ديانا؟»

أجابت ديانا: «نيافة القس يا عمتي.»
 قالت العمّة: «يجدر بك أن تقنعي أصدقاءك بأن يراعوا المواعيد.» كان توبيخاً دون
 موارد. جفل السيد ريكاردو وصُعق. كان هذا هو اللغز الثالث الذي يفاجئه. كان يعتقد
 أن السيدة تاسبورو خاضعة تماماً لمن تنفق عليها، وصيفة تدرك تماماً أن واجباتها لا
 تشمل التدخل، رمز صامت للاحترام. ولكن كان ثمة تدخل منها وحديث مليء بدلالات
 التسلط. ما أدهشه بالقدر نفسه هو رد ديانا الضعيف.

«أنا أسفة يا عمتي. من النادر أن يتأخر القس عن موعد العشاء، جُل ما أخشاه هو
 أن يكون قد تعرّض لحادث. أنا واثقة بأنّي أرسلت السيارة له قبل الموعد بوقت كافٍ.»
 هزّت السيدة تاسبورو كتفيها، فلم يُهدئ ذلك من غضبها. نقل السيد ريكاردو
 بصره بين المرأتين. المرأة العجوز بثوبها الرث العتيق الطراز الجالسة على مقعد ضخم
 كملكة متوّجة، وابنة أخيها الجميلة بملابسها العصرية المتواضعة وكأنها فتاة قروية. كان
 ثمة انعكاس للأدوار أثار حيرة السيد ريكاردو. ألقى ببصره ناحية جويس وييل، ولكن
 انفتح الباب، وسمع صوت جولس أماديه يُعلن:

«نيافة القس فاورييه.»

دخل إلى الغرفة رجل ضئيل الجسم يرتدي زي الكُهان، ذو وجه متورّد، وملامح
 غليظة، وعينين رماديتين ضيقتين لامعتين يلوح منهما المكّر، في جو من التعلُّج والقلق.
 وقال رافعاً يد السيدة تاسبورو إلى شفّتيه ليُقبّلها: «لقد تأخرت يا سيدتي. لا أعرف
 طريقةً للتعبير عن أسفي سوى الركوع على ركبتيّ.» كان من الواضح أنه يعتبرها
 مُضيّفته. «ولكن عندما تعرفين ما مررت به، ستغفرين لي. لقد سُرقت كنيسة.»

صاحت جويس وييل بصوت غريب: «سُرفت!» كان صوتها ينم عن الفزع وليس
 الدهشة. لم تكن حادثة السرقة متوقعة، ولكن بعدما وقعت حقاً، لم تعد مُستبعدة.

قال الرجل الضئيل ملوّحاً بيديه: «نعم يا آنسة. يا له من تدنيس للمقدسات!»
 قاطعته السيدة تاسبورو قائلة: «فلتقص علينا ما حدث وقت تناولنا العشاء.» كانت
 السيدة تاسبورو بروتستانتية. عندما تكون في وطنها، كانت تحضر قُداسات يلقي فيها
 المواعظ رجل يرتدي رداء جنيف الخاص بالقساوسة البروتستانت. لم تكن حادثة سرقة
 كنيسة تخص الروم الكاثوليك أمراً ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليها، ولا يجب تأخير وجبة
 العشاء بسببه.

قال القس فاورييه: «معك حق يا سيدتي، لقد نسيت آداب السلوك.» وبالطبع، توفر
 له وقت كفى بالكاد من أجل توجيه التحية إلى بقية الحضور قبل الإعلان عن بدء العشاء.



«لقد سُرقت كنيسة. يا له من تدنيس للمقدسات!»

مر ما تبقى من تلك الأمسية دون أحداث تُذكر كشأن أغلب الأمسيات في المنازل الريفية. ولكن السيد ريكاردو، الذي شحذ قوة ملاحظته لدرجة أعلى من المعتاد، لاحظ خلال الأمسية بعض الأمور الغريبة. كان من بينها، على سبيل المثال، شكوى القس فاورييه. لم تُسرق أي أموال، ولا أي أوعية مقدسة من كنيسته، فيما عدا رداءً من الكتان الناعم، القميص الذي ارتداه عندما احتفل بالقداس الإلهي، وزى كاهن قرمزيًا صغيرًا ورداءً كهنوتيًا أبيض يرتديه مساعد الكاهن الشاب الذي يهز المبخرة.

صاح الرجل المُسن: «أمر لا يُصدق! ثق بأنها أشياء عالية القيمة. لقد تبرّعت بها الراحلة الغالية السيدة دو فونتاج للكنيسة. ولكن لا بد أنها أُفسدت على الفور وفقدت كامل قيمتها. مَنْ قد يُقدم على تدنيس المُقدّسات مثل هذا مقابل ربح زهيد؟»
قال الفيكونت دو ميراندول: «لقد أبلغت الشرطة بالطبع.»

«أقول لك سيدي الفيكونت إنني لم أكتشف السرقة إلا منذ ساعة. جميعكم تعرفون» وأضاعت لمحة من المرح وجهه «إذا لم تكونوا وثنين، وأنتم لستم كذلك، فإن الغد هو عيد سان ماتيو، وهو أكثر يوم مقدس في رُزْنامة الكنيسة. ذهبت إلى غرفة ملابس الكهنة لأطمئن على أن هذه الملابس المقدسة سليمة، ولكني لم أجدها. ولكن، سيدة تاسبورو، يجدر بي ألا أفسد عليك أمسيك بالخوض في هذه الأحداث المؤسفة.» ثم غيّر الموضوع إلى حكايات مسلية عن نقاط ضعف أعضاء أبرشيته.

جعلته مقاطعة صغيرة أن يتوقف عن الحديث على نحو مفاجئ لبضع لحظات التفتت خلالها جميع الأعين نحو مصدر المقاطعة. كانت السيدة ديفينيش مصدر المقاطعة. لم تكن تشارك في أي محادثة، فيما عدا الإجابة عن الأسئلة العشوائية التي تُوجّه لها، وظلّت جالسة تشغلها أفكار سرية تخصها. ولكنها ارتعشت على نحو مفاجئ، وبعنف شديد لدرجة أن الصرخة الحادة القصيرة التي قد تخرج من أفواه الناس رغمًا عنهم عندما يشعرون بالبرد الشديد، خرجت من بين شفّتيها. ذكّرها الصوت بما يحيط بها، فنظرت إلى الجالسين أمام الطاولة معتذرة. التقت عيناها بعيني جويس وبيل، فصاحت جويس فجأة بصوتها الغريب الحاد العالي النبرة:

«لا جدوى من إلقاء اللوم عليّ يا إيفيلين. لست أنا من يُوزّع البرودة هنا.» ثم استعادت السيطرة على نفسها بعد فوات الأوان، فاحمرّ وجهها، وبدأت هي الأخرى تنقل عينيها سريعًا بين الجالسين حول الطاولة. كانت هذه هي الإشارة الأولى التي تصل إلى السيد ريكاردو، فتحت تلك الأحاديث السلسة، ثمة أعصاب متوترة لدرجة فقدان السيطرة على النفس بسبب شواغل سرية. لاحظ القس فاورييه ذلك قبل السيد ريكاردو. فوجّه عينيه سريعًا نحو إيفيلين ديفينيش، ومنها إلى جويس وبيل. وظهر التأهب والتحفز على وجهه، رغم وجود ذلك الأنف الطويل المتدلي.

وقال ببطء مخاطبًا جويس: «يا آنسة، لست أنتِ من توزعين البرودة. من إذن؟» لم يُصر على الحصول على إجابة، ولكن بعد بضع لحظات، عادت ثرثرة الجيران لتنتقل مجددًا كما لو أنهم يغطون على ارتباك جويس وبيل، ولاحظ السيد ريكاردو أن الرجل رسم علامة الصليب على صدره في الخفاء.

حتى تلك اللحظة، كان فضول السيد ريكاردو وانفعاله يزدادان. ولكن بعد ربع ساعة، لمح لحظة عابرة من الشغف هزت أعماقه بسبب وحشيتها الشديدة. غادر الرجال طاولة العشاء مع النساء كما تقتضي العادات الفرنسية، وانقسموا إلى مجموعات صغيرة.

كانت جويس ويبل جالسةً على كرسي قصير بجانب المدفأة واحةً ساقةً فوق الأخرى، وإحدى قدميها النحيلتين بحذاءها الفضي تتأرجح باستمرار، بينما كان روبن ويبستر جالساً على أريكة بجانبها يتحدث إليها بصوت خافت ويتركيز تام، الأمر الذي بدا وكأنه لا يرى أحداً آخر في الغرفة في تلك اللحظة. كان الفيكونت دو ميراندول يثرثر مع السيدة تاسبورو والقس. وكانت إيفيلين ديفينيش تقف بجانب النافذة في مجموعة مع ديانا والشابن الفرنسيين. انطلقت من هذه المجموعة فجأةً عبارة سمعها كل من في الغرفة.

«كهف المومياوات.»

كان أحد الشابن الفرنسيين هو من قالها، ولكن كانت إيفيلين ديفينيش هي من أسهبت في الحديث عنها. كهف المومياوات معرض شهير في بوردو. تحت البرج العالي في جبل سان ميشيل في الميدان المفتوح أمام الكنيسة، يوجد كهف تحت الأرض توجد به جثث مُحَنطة بجودة نادرة على الأوضاع نفسها التي دُفنت بها، تُرى مصطفةً على مساند حديدية أمام العالم بأكمله ليُشاهدها مقابل بضعة بنسات.

صاح القس: «هذا شائن. يجب دفن هؤلاء المساكين على نحو لائق. هذا كابوس، ذلك الكهف، وتلك المرأة العجوز التي تعرّي أجساد معروضاتها على ضوء الشموع!» هز كتفيه في اشمئزاز ونظر نحو جويس ويبل. وقال: «أنا كذلك يا آنسة، أصبحت أشعر بالبرد أنا أيضًا.»

ضحكت إيفيلين ديفينيش. وقالت: «ولكننا جميعنا زرنا هذا المعرض أيها القس. أقر بأنني مذنبه. ذهبت إلى هناك منذ ثمانية أو تسعة أيام. وأعتقد أن السيد ريكاردو رأيها هناك.»

كانت تتحدى ذلك الرجل التعس، بابتسامة ساخرة، أن ينكر هذا الاتهام. ولكنه لم يستطع، للأسف. فلطالما كان شغفه بالغرائب يتعارض مع احترامه للقيم المجتمعية. قال ببطءٍ ناقلًا وزنه من إحدى قدميه إلى الأخرى: «هذا صحيح. لقد سمعت الكثير عن المكان، وزرت بوردو مرات عدة دون أن أراه. ولكن بعدما رأيته، أصبحت أتفق مع القس.» واستعاد ثقته وشعر بأنه رجل فاضل وبدا ذلك أيضًا على هيئته. فقال: «إنه معرض شنيع، ويجب أن يُغلق.»

ضحكت إيفيلين ديفينيش مُجَدِّداً مُشَكِّكةً فيما قال. قال السيد ريكاردو مخاطباً نفسه: «يا لها من شابةٍ بغيضة، إنها جريئة ولا تحترم أحداً.» وشعر بالراحة عندما حوَّلت بصرها بعيداً عنه. ولكنه لاحظ أن عينيها تجوبان المكان ببطء حتى استقرَّتا عند جويس ويبل، وظلَّت تحدِّق فيها للحظات، بنظرة نصف متوارية خلف جفنها، ولكنها

لم تكن متوارية بما يكفي لإخفاء الكراهية التي تنمو ببطء من مجرد شرارة بسيطة في أعماقها إلى لهيب نار مستعرة. لم يشهد السيد ريكاردو من قبل في حياته تعبيراً خالصاً عن المشاعر مثل هذا. شعور نهم للعقاب والأذى. وبدا أن العينين السوداوين لا يمكنهما الابتعاد عن تلك الفتاة الفاتنة بفستانها الفضي. ارتسمت على شفتي إيفيلين ابتسامة مقبنة وهي تُثبت نظرها على قدم جويس المتأرجحة بحذاءها اللامع، ثم ترفعه على طول ساقها النحيلة المتوارية خلف الفستان الحريري، وصولاً إلى ركبتها المثنية. استوعب السيد ريكاردو بلمحة من الوحي الفكرة القاسية التي تسببت في تلك النظرة والابتسامة. قال لنفسه: «آه، من المؤكد أن ألتقيها في وقت الشاي وليس العشاء.» قالها في ألم عندما تذكر تلك الوجبة التي تخيل تناولها وحده مع إيفيلين ديفينيش والتي استحضرتها مخاوفه أمام عينيه.

عبرت ديانا تاسبورو الغرفة متجهة نحوه. وقالت متوسلة: «ستلعب لعبة الويست مع عمتي، والقس، ودو ميراندول، أليس كذلك؟ لا بد أن تلعبوا الويست لأن القس لم يلعب البريدج من قبل.» فبدأ يعصر ذهنه ليتذكر كيف تلعب الويست، واقتيد إلى طاولة لعبة الورق بينما يفعل.

لا ريب في أن السيد ريكاردو جمع بعض النقاط الجيدة حتى تلك اللحظة، ليس لأنه وضع بطاقتين تحملان الرقم اثنين معاً، بل لأنه أدرك أن بطاقتين تحملان الرقم اثنين ربما يجب وضعهما معاً. ولكن حينذاك، كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف، تخلى عن يقظته، ولم يتمكّن من ملاحظة أهم حدث في تلك الأمسية بأكملها. كان مستغرقاً تماماً في محاولاته لاستعادة ذكرياته عن لعبة الويست، التي زادت مشاركة الأعضاء الأصغر سناً في المجموعة من صعوبتها.

كانت غرف الطعام، والاستقبال، والمعيشة في قصر سوفلاك مرتبة في جناح واحد، مع وجود غرفة الاستقبال في المنتصف، وكانت جميع الغرف ذات نوافذ تطل على المساحة المؤدية إلى الشرفة الواسعة. بمجرد أن جلس المسنون إلى طاولة لعبة الورق، دخلت ديانا غرفة المعيشة وجّهزت الموسيقى على الجرامافون. وفي غضون دقائق، كان جميع الشباب يرقصون في الشرفة. كان الباب بين البهو وغرفة المعيشة موصداً، وكانت الليلة دافئة وكانت جميع النوافذ مفتوحة. لذا، كانت الموسيقى بلحنها المبهج تصل إلى سمع لاعبي الورق مصحوبة بالإيقاعات المتناغمة لأحذية الراقصين على الأرضيات، الأمر الذي شتت انتباه السيد ريكاردو عن اللعبة. كان القمر بديراً في ذلك الوقت، ولكن كانت

تحجبه طبقة رقيقة من السحب البيضاء تسلل من بينها ضوء سماوي فضي رقيق أغرق الحديقة والنهر الشاسع من خلفها في جو ساحر أشبه بعالم خيالي. على الشاطئ البعيد، كان ضوء يتلألأ هنا وهناك عبر الضباب، وبالقرب من المنزل، كان صف الأشجار الطويل، الذي أصبح في سواد الطقسوس وسكون المعدن، يحمي الشرفة وكأنها موقع قرابين سري قديم. ولكن بدلاً من مشاهد تقديم القرابين، رأى السيد ريكاردو وميض الأكتاف البيضاء، والتطريزات اللامعة على فساتين الفتيات الخفيفة، والراقصون يظهرون ويختفون، ينزلون ويدورون، الأمر الذي جعله يرتكب العديد من الأخطاء لدرجة أن زملاءه في اللعب كانوا مسرورين بانتهاء اللعبة. دخل روبن ويبستر من ناحية الشرفة. وقال: «أرجو أن تسمح لي بالانصراف يا سيدة تاسبورو. فالصباح يبدأ معي عند انبلاج الفجر، ولا تزال ثمة بضعة ترتيبات يتعين عليّ أن أفرغ منها قبل أن أنام.»

قال الفيكونت دو ميراندول وهو ينهض من مقعده فجأة: «وأنا كذلك. إن نبيذ ميراندول لا يمكن أن يُقارَن بنبيذ قصر سوفلاك، للأسف. ولكن يجب أن أوليه الكثير من الرعاية.» كان ينظر عبر النافذة إلى الخارج في ترقب. وقال: «أمل أن تُمطر السماء، ولكن ليس بغزارة، لساعتين أو نحوهما خلال الليل، فهذا سيُفيدنا يا سيد ويبستر. نعم، ساعتان من الأمطار الخفيفة، أرجو أن تدعو أن يتحقق ذلك أيها القس.»

صافح السيد روبن ويبستر يد السيد ريكاردو، وقال: «لقد قلت إنك تود زيارتي غداً. أنا أعيش في الشاليه خلف الدرب. وهو مكتبي أيضاً. ستجدي هناك أو عند أقبية النبيذ.»

خرج بعد ذلك عبر النافذة، وخرج السيد دو ميراندول عبر الباب نحو مدخل المنزل الأمامي حيث كانت سيارته في انتظاره. جاء جولس أماديه حاملاً صينية مرطبات، ورفعت السيدة تاسبورو صوتها في فظاظة.

وصاحت: «ديانا! ديانا! هل يمكن أن تأتي على الفور لتجهيز مشروب القس الليلي؟!» ولكن لم يكن القس ليتورع عن إفساد هذا الوقت الممتع على الفتاة. فقال: «يمكنني أن أعد مشروبي بنفسه يا سيدتي. دعي الآنسة ترقص، كما سيمكنني أن أصب جرعة من الويسكي الممتاز الخاص بك في كأسك أكبر من تلك التي كانت ستصحبها الآنسة.»

عندما تحرك متجهاً نحو الطاولة، وقفت جويس وبيل قاطعة الطريق عليه. وقالت ضاحكة: «وأنا كذلك، بما أنني لا أعرف أي شيء عن النسب الصحيحة، سأضع مزيداً من الويسكي في كأسك أكثر مما قد تفعل أنت متحججةً بجهلي.»

استحوذت جويس ويبل على البوفيه، قولاً وفعلًا. كان البوفيه في أحد أركان الغرفة ووقفت أمامه موليّة ظهرها إلى رفاقها. وأعدّت ليمونادة للسيدة تاسبورو، ويسكي مع الصودا للسيد ريكاردو، ومشروبًا حارًا للقس. عاد الشباب إلى الغرفة. وقُدّمت لهم جويس ويبل جميعًا البيرة، والمشروبات، والخمر الواحد تلو الآخر، وكانت تضحك في مرح طوال الوقت مُعلنَةً أن لها مستقبلًا باهرًا بوصفها نادلة. دخلت ديانا الغرفة قادمةً من غرفة المعيشة، وكانت آخر من ينضم إلى المجموعة.

وقالت: «أريد براندي مع الصودا والكثير من الثلج.» وشعر السيد ريكاردو مرةً أخرى بنبذة التردد في صوتها، وبالضحكة التي تهدّد بالتحول من السرور إلى الهستيريا. ألقت جويس نظرةً سريعةً خلف ظهرها.

وصاحت: «أنا حقًا من يوزع البرودة، في نهاية المطاف،» وفي حالتها أيضًا، كانت الكلمات والضحكات التي أطلقتها مشحونةً بالانفعالات، ولا ريب أن الكأس التي كانت تحملها اصطدمت بالدورق وهي تملؤها، كما لو أن يديها ارتعشتا.

كان الجمع قد بدأ يتفرق حقًا، وفي غضون دقائق قليلة، ساد الصمت في قصر سوفلاك، وعاد السيد ريكاردو إلى غرفته الخاصة وفتح نافذتي الغرفة. وعندما نظر عبر النافذة الجانبية، رأى نورًا لا يزال مضاءً في إحدى غرف الطابق الأرضي من الشاليه. لا بد أن السيد روبن ويبستر لا يزال يعمل في مكتبه. وعندما نظر عبر النافذة الأمامية، جال ببصره في أرجاء أراضي الريف الشاسعة الخالية التي يعمها الهدوء. وكان كل ما تمكّن من رؤيته من المنزل الأبيض فوق التل هو ظل أسود. فلم يكن ثمة أي من نوافذه مضاءة. ملأ السيد ريكاردو زنبرك ساعته، ودخل فراشه. وكانت الساعة تُشير حينئذٍ إلى الحادية عشرة إلا ١٠ دقائق.

الفصل الخامس

هانو يظهر مجددًا

لم يكن السيد ريكاردو يستطيع النوم ملء جفونه في فراش غريب، ورغم أنه غط في النوم سريعًا، فإنه استيقظ قبل شروق الشمس شاعرًا بقلق غامض. مد يده إلى مفتاح المصباح المثبت في الجدار فوق رأسه بمنزله في ميدان جروسفينور، وانزعج كثيرًا عندما لم يجده في هذا المكان. وبدأ يتذكر تدريجيًا أين يقيم. إنه ليس في منزله. إنه في قصر سوفلاك، وعندما اكتشف أن سبب قلقه هو وجوده في مكان لا يألفه، غادره القلق. ولكنه استعاد كامل وعيه.

كانت لديه وسائله الخاصة لعلاج هذه الحالة المؤسفة. لم يكن إحصاء الأغنام يصلح في حالته. فقد أحصى معظم الأغنام في منطقة المنحدرات الجنوبية في إحدى الليالي التعيسة، ولكن عندما فاته إحداها، اضطر أن يُعيد الكُرَّة وأن يحصيها جميعها من جديد، وأبقاه انزعاجه من هذا الإهمال مستيقظًا حتى الصباح. كانت الطريقة الفضلى التي يتبعها هي أن يفتح ستائر غرفته حتى يتدفق الهواء النقي عبر النوافذ المفتوحة، الأمر الذي كان عادةً ما يجعله يغط في النوم سريعًا. فجرَّب هذا العلاج على الفور.

أول ما فعله هو أن أضاء المصباح المجاور للفراش ونظر إلى ساعته. كانت الساعة تُشير إلى بضع دقائق قبل الثانية صباحًا. ثم نهض من الفراش وأزال جميع ستائر النافذة الجانبية. ولاحظ أن النور لا يزال مضاءً في هذه الساعة المتأخرة من الليل في الشاليه خلف الدرب، ولكنه انتقل إلى الطابق الأول وليس المكتب.

فكَّر في نفسه: «لقد أنهى السيد ويبستر عمله وسيخلد إلى النوم الآن»، وكان معجبًا باجتهاد الشاب.

تأكّد في اللحظة التالية من صحة تخمينه. ففي الوقت الذي كان ينظر فيه صوب الشاليه، ارتعش النور ثم انطفأ. تمنّى السيد ريكاردو أن يحصل مدير الأعمال الشاب على قدر من الراحة أكبر ممّا يمنح نفسه، ثم انتقل إلى نافذته الأمامية. فتح الستائر عن آخرها فأصدرت حلقاتها المعدنية أزيزًا، ثم رفعها باستخدام رافعتها. كان الريف يمتد أمامه إلى ما لا نهاية في هذا الاتجاه، وكان الهواء منعشًا. كان القمر قد غرب تاركًا خلفه ليلاً مظلمًا وصافيًا، وسماءً مُرصّعة بالنجوم. ولكن لم تكن برودة الهواء ولا الأفكار التي تعصف برأس السيد ريكاردو هما ما أبقتاه متسمّرًا في مكانه. عندما ألقى نظره الأخيرة عبر هذه النافذة قبل أن يدخل فراشه قبل ما يزيد على ثلاث ساعات، لم يكن ثمة أي ضوء يصدر من المنزل الأبيض فوق التل. أما الآن، فقد كان ثمة صف طويل من النوافذ مضاءً من طرف المنزل حتى طرفه الآخر، كانت أشبه بمسططيلات صغيرة تلمع بوضوح جعلت واجهة المنزل تظهر كاملة، وسقط الضوء على الأشجار عند كلا الطرفين، مما أبرز معالمها بوضوح في الظلام. كان المبنى مضاءً وكأنه قصر.

سأل السيد ريكاردو نفسه: «ما الذي يعنيه ذلك؟ من في هذه المقاطعة الريفية قد يبدأ أمسيته في هذه الساعة المتأخرة؟ هذا أمر شديد الغرابة.» لم تكن ثمة إجابة على تساؤلاته، وبدأت قدماه تشعران ببرودة ألواح الأرضية المصقولة، فعاد إلى فراشه وأطفأ المصباح. ولكن كان فضوله قد استثير بشدة. ومن مكانه متكئًا على وسادته، كان قادرًا على رؤية ذلك الضوء الذهبي يشق الظلام. لم يتمكن من منع نفسه عن رؤيته، ولا عن التفكير فيه.

قال لنفسه: «لن تصلح هذه الطريقة. يجب أن أجرب الطريقة الثانية.» كانت الطريقة الثانية هي قراءة كتاب. ولكن يجب أن يكون كتابًا يستحق القراءة، وليس مجرد وسيلة للدخول إلى عالم الأحلام. إذا ما أخرجت فكرة النوم من ذهنك تمامًا، واستغرقت في قراءة كتابك، فسرعان ما ستغط في النوم. وستُفقد فجأةً وقد ملأ ضوء النهار السماء، وكوب من الشاي بجانب سريرك، ومصباح يحترق دون داع. كانت مشكلة السيد ريكاردو أنه لا يوجد كتاب في غرفته. لا بأس، سيكون عليه أن يذهب إلى المكتبة ويحضّر واحدًا. فأضاء مصباحه مجددًا. وخرج من فراشه ووضع قدميه في حذائه، وأدخل جسده في روب ياباني من الحرير المنقوش بالزهور، ثم أمسك بعلبة ثقاب في يده وسار بخفة عبر الممرات. أصبح يعرف خريطة الممرات، وكان عود ثقاب واحد كافيًا لأن يوصله



وفي ذلك السكون، ورغم صخب خفقان قلبه، سمع صوت مفتاح يدخل في رتاج الباب.

إلى باب غرفة الطعام. كانت النوافذ على الطراز الفرنسي في الغرف الثلاث في الجناح بلا ستائر. عبر هذه الغرفة والبهو ودخل إلى المكتبة من دون الحاجة إلى إشعال عود ثقاب آخر. تذكر وجود مفتاح إضاءة في غرفة المكتبة بالقرب من النافذة الطويلة بجانب الباب. كان يتلمس بيده محاولاً الوصول للمفتاح عندما مرَّ شيء أسود في الشرفة الخارجية سريعاً أمام ألواح النوافذ الزجاجية واختفى. جفل السيد ريكاردو لدرجة أنه أسقط علبة الثقاب على الأرض. ثم وقف في الظلام وقلبه يدق بسرعة كبيرة في صدره دون أن يجرؤ على التحرك. وفي ذلك السكون، ورغم صخب خفقان قلبه، سمع صوت مفتاح يدخل في رتاج الباب.

ويجب هنا أن نعرض الحقيقة. كانت ردة فعل السيد ريكاردو الأولى هي أن يهرب على الفور. ولكنه أجبر نفسه على قبول أن هذا التصرف ليس مناسباً. كما أن فكرة الممر الطويل الذي يجب أن يعود أدراجه عبره ثبّطت همته. فوقف مكانه، وسرعان ما اختفت ارتجافة الذعر التي أصابته. وتمالك أعصابه من جديد، حينئذٍ لم يستطع أن يعود ليفعل ما كان بصدد فعله، أن ينتقي كتاباً ويعود بهدوء إلى فراشه. فلطالما كانت فرصة الدخول في مغامرة تثير حماسه.

ففتح النافذة الطويلة بحذر شديد وخطا خارجها إلى رصيف الشرفة. ومن بعيد، ارتعش ضوء نجم على سطح مياه نهر جيروند. وبالقرب منه عن يساره، برز البرج المستدير ضخماً، وتسَلَّلت من جهته الأمامية بعض أشعة الضوء. تحرَّك السيد ريكاردو بحذرٍ إلى الأمام انطلاقاً من الزاوية التي صنعها البرج مع جدار المنزل، حيث تسَلَّ الضوء عبر حواف ستارة مُسدلة على نافذة طويلة في واجهة البرج. كان ثمة شخص ما مستيقظ في الغرفة خلف هذه النافذة. شخص ما انسل بخفة كالثعبان إلى داخل الغرفة وفتحها بمفتاحها. لم يكن السيد ريكاردو يعرف ما يجدر به فعله. فقد سمع عن الكثير من الأمور الغريبة التي تحدث في المنازل الريفية، بما في ذلك منازل إنجلترا. وكان عليه أن يتوقع المزيد منها في تلك الأجواء الفرنسية المرحّة!

قال السيد ريكاردو لنفسه: «لا أريد أن أكون طرفاً في علاقة غير شرعية. ومن جانب آخر، مَنْ يعلم ما المتاعب التي تحدث خلف هذا الباب ذي الستار؟ ربما هناك شخص مريض! ربما هناك جريمة تُرتكب! في أسوأ الظروف، قد يقول لي الشخص خلف هذا الباب ألا شأن لي بما يحدث. وفي أفضلها، قد أقدم له يد المساعدة.»

ظل واقفاً في مكانه يحاول أن يقرّر ما يجدر به أن يفعل. ولكن كانت لطباعه العاطفية اليد العليا. فتقدّم وطرق برفق على إطار الباب الزجاجي، فانطفأت الأنوار على الفور. ولكن حدث ذلك بسرعة بدت لحظيةً لدرجة أن الطرق على الباب وانطفاء الأنوار لم يبدوا حركتين متتاليتين، بل بدوا كوجهين لحدثٍ واحد.

انتاب السيد ريكاردو شعور قوي بعدم الارتياح. هناك شخص داخل هذه الغرفة سمع صوت أقدامه على حجارة أرضية الشرفة. وتوقَّع هذا الشخص، في ترقّب شديد، أنه قد يطرق على النافذة، فاستعدَّ بأن أرهف السمع ووضع أصابعه على مفتاح الإضاءة. ولكن مَنْ يكون؟ لم تتمكّن عينا السيد ريكاردو من اختراق هذه الستائر، ولم يكن لديه مبررٌ لتكرار الطرق على الباب. عاد في صمت إلى غرفته من دون حتى أن يختار كتاباً من

المكتبة. ومن غرفته، راقب نوافذ المنزل على قمة التل وهي تنطفئ الواحدة تلو الأخرى متلاشياً في ظلمة الليل. وغطَّ على الفور في نوم عميق، سواء كان ذلك بسبب الانفعالات التي مر بها، أو بسبب التحركات والهواء المنعش، ولم يحرك ساكناً حتى الصباح. على الرغم من ارتدائه أكثر ما يملك من الملابس أنيقة، فإنه لم يكن مستعداً لمغادرة غرفته حتى تمام العاشرة. كانت كروم العنب تعج بتحركات أجسام الفلاحين المنحنية وهم يجتثون النباتات، وكان المنزل خالياً كحاله عندما وصل بالأمس. سار السيد ريكاردو نحو الشاليه. كان المكتب يُطل مباشرةً على حديقة الزهور الصغيرة، ولكنه كان خالياً أيضاً. فعبّر مساحةً من العشب الخشن ليصل إلى أقبية النبيذ. كان العنب يُنقل إلى بابها في عربات يدوية صغيرة، ثم تُحمل إلى معاصر النبيذ فوق الأحواض. كان روبن ويبستر يقف في غرفة ضخمة في الطابق الأول يراقب حركة المعصرة وهي تتحرك إلى الأمام والخلف على مدارها. نظر صوب السيد ريكاردو مبتسماً ومد نحوه يده اليسرى التي أمسكها السيد ريكاردو، أو بالأحرى لمسها، في غطرسة. فقد كان مدققاً في مثل هذه الأمور. ربما لم يكن شخصيةً مهمة، ولكن يجدر بمديري كروم العنب الشباب ألاّ يعاملوه كما لو كانوا سادة وهو أجيّر لديهم.

قال روبن ويبستر سريعاً: «أرجو أن تعذرني على أنني مددت لك يدي اليسرى. أرايت؟»

كان يضع يده اليمنى داخل معطفه المزدوج الصدر، وكان معصمه مستقرّاً على أحد الأزرار. ثم سحب يده خارجاً وأظهر أنها ملفوفة بضمادة.

فقال السيد ريكاردو: «لقد ظلمتك.»

ردَّ روبن ويبستر مبتسماً: «أدركت ذلك.»

«هل أصبت بشدة؟»

«بل هي إصابة طفيفة. لقد جئت إلى هنا مبكراً هذا الصباح، قبل أن يصل أي أحد، للتأكد من جاهزية كل شيء، وبينما كنت أجرب المعصرة، علقت يدي داخلها. ولكنه ليس جرحاً خطيراً يحتاج إلى طبيب.»

ومجدداً، لفتت دقة الشاب اللفظية غير المعتادة انتباه السيد ريكاردو وشعر بأنها مألوفة، ولكنه لم يتمكن من تحديد أين سمعها من قبل.

قال ريكاردو: «لقد استيقظت قبل الجميع إذن. إنك لم تحصل على ما يكفي من النوم ليلة أمس.»

راقب روبن ويبستر الكتلة الحديدية الضخمة وهي تتحرك إلى الأمام والخلف على مدارها هارسة العنب تحتها. ثم قال: «هل تعلم أننا مزرعة العنب الوحيدة التي تستخدم المعاصر الميكانيكية؟ نعم، لقد ظَلَلت مستيقظًا حتى ساعة متأخرة ليلة أمس. لا ريب أنك رأيت أنوار مكتبي مضاءة عندما ذهبت إلى فراشك.»

قال السيد ريكاردو: «ثم رأيت النور مضاءً في غرفة نومك بعد ذلك ببضع ساعات.» هدرت المعصرة مرةً أخرى وهي تتحرك جيئةً وذهابًا. قال روبن ويبستر مُعلِّقًا: «كانت الساعة تُشير إلى الثانية صباحًا تقريبًا عندما أطفأت الأنوار.»

قال السيد ريكاردو: «كان ذلك في تمام الثانية.»

سار السيد ريكاردو مبتعدًا وقضى صباحًا ممتعًا في التجول في أرجاء أراضي الضيعة التي تبلغ مساحتها ٣٥٠ فدانًا. كانت الشمس ساطعة، وثمة خطوط من السحاب الأبيض متناثرة هنا وهناك في السماء الزرقاء. كانت مياه جيروند الشاسعة مُرصَّعةً بسفن شراعية راسية في انتظار ارتفاع المد ليحملها إلى مصب النهر، ومن وقتٍ لآخر، كانت تمر سفينة بخارية تمخر المياه تاركةً خلفها ذيلًا عريضًا من زَبَد البحر وتصدر محركاتها هديرًا يأتي خافتًا من بعيد في طريقها نحو ميناء بوردو. سار السيد ريكاردو نحو المرفأ الصغير. كان المرفأ خاليًا، كما من المفترض أن يكون. فقد أبحر زورق لا بيل سيمون مع المد الداخلي في السادسة صباحًا. ولا ريب في أنه الآن على وشك الوصول إلى بوردو. ولكن بينما كان يستدير مبتعدًا، راوده الشك في أن الزورق لم يكن يفعل شيئًا من هذا القبيل. ففي تلك اللحظة كان ثمة زورق أتى من جهة الروافد السفلية للنهر، يعبر أمام الحديقة وأشعة الشمس تنعكس عن مقدمته، وكان قريبًا من الضفة بما يكفي ليرى كلمةً واحدة من اسمه بارزةً بوضوح على ألواح الخشب المتسخة. شعر بالحيرة. وفكر أنه لا ريب في أن زورق لا بيل سيمون ليس الزورق الوحيد في النهر الذي غير اسمه. ولكن! لم تكن أيُّ من تخمينات السيد ريكاردو تافهةً بالنسبة إليه. وعلى الفور، سار عائدًا إلى المنزل، وسرعان ما عاد مجددًا حاملاً نظارته المقرَّبة الباهظة الثمن ووضعها على عينيه. كان الزورق قد أصبح أمامه مباشرةً في تلك اللحظة. وتمكَّن من قراءة أن الاسم الواضح هو «سيمون»، وكانت ثمة كلمات أخرى تسبقها لم يتمكَّن من تبيُّنها بسبب محو ألوانها. لا ريب في أن هذا الزورق هو «لا بيل سيمون» الذي كان قبطانه يشعر بالضيق بالأمس لأنه لم يكن ليتمكن من بدء رحلته نحو بوردو إلا في السادسة صباحًا. ولكنه انطلق قبل بدء المد متجهًا ناحية الجزر. ما المأمرية المفاجئة التي جعلته يخرج في عتمة الليل؟

فكّر السيد ريكاردو للمرة العشرين منذ وصل إلى قصر سوفلاك: «يا له من أمر غريب!» ولكن كان أكثر الأمور غرابة سيحدث له تاليًا.

عاد السيد ريكاردو إلى غرفته، واغتسل ومَشَّط شعره. وكان موعد الغداء هو الثانية عشرة والنصف. وكانت لا تزال ثمة ١٢ دقيقة على الموعد. فخرج ليسير على طول الطريق المحفوف بالأشجار وفي طريق عودته، سمع صوت سيارة تقترب من مدخل المنزل الأمامي. فصعد إلى الشرفة ولحق به روبن ويبستر هناك. ثم دخل الرجلان غرفة الاستقبال عبر النافذة. كانت السيدة تاسبورو تجلس على عرشها تطالع جريدة وصلت من فورها من بوردو. كانت ديانا جالسة إلى الطاولة في منتصف الغرفة وأمامها صينية عليها أكواب تمزج مشروب الكوكتيل بنشاط. في تلك اللحظة، انفتح الباب المؤدي إلى البهو على مصراعيه، واندفع جولس أماديه إلى داخل الغرفة بعينين جاحظتين.

وصاح: «سيدتي!»، وكرّر صياحه: «سيدتي!»، ثم دفعته يد ببطء جانبا. ثم تقدّم وانحنى رجل قصير وعريض يرتدي معطفاً صباحياً، وحزاماً ثلاثي الألوان حول خصره، ويُمسك قبعة رام في يده.

وقال: «سيداتي وسادتي، أنا هيربستال، مُفَوِّض الشرطة. أرجو ألا يكون حضوري مزعجاً لكم.»

كان صوت المفوض الجاد البارد أثناء حديثه أشد بداية مقلقة على الإطلاق. ولكنه لم يكن السبب الذي جعل السيد ريكاردو يطلق صرخة قصيرة حادة. فما نزل عليه كالصاعقة هو أن رأى عبر الباب المفتوح هانو واقفاً في البهو. منذ بضعة أيام، كان قد ترك المحقّق يتشمّس في إيكس ويجرب دعاياته المؤسفة على أصدقائه. ولكنه هنا الآن في قصر سوفلاك بغرض العمل. كانت ملامح وجهه الجامدة الخالية من أي تعبير دليلاً كافياً على ذلك. كان هانو قادراً على رؤية السيد ريكاردو بوضوح، ولكن لم تبدُ عليه أي أمارات تدل على أنه يعرفه. كان لطيفاً من المفوض هيربستال أن يرجو من الحضور ألا يقلقوا. ولكن كان السيد ريكاردو يعرف أن ثمة خطباً ما. بما أن هانو موجود هنا بغرض العمل، فلا بد أن شخصاً سيقلق كثيراً. جال المُفَوِّض هيربستال ببصره في أرجاء الغرفة. وبدت عليه أمارات الارتياح. ثم التفت ناحية الباب، واستجاب هانو لإشارته وخطا إلى داخل الغرفة بخطاه الصامتة. انحنى هو أيضاً، ولكن لم يكن ثمة أي من أمارات الارتياح بادية على وجهه.

قال هيربستال: «كما ترى. الأمر برمته خاطئ. المكان هادئ تماماً هنا. وهو ليس المكان الذي يجدر بنا البحث فيه!»



وقال: «سيداتي وسادتي، أنا هيربستال، مُفَوِّض الشرطة. أرجو ألا يكون حضوري مزعجاً لكم.»

قاطعته هانو قائلاً: «اسمح لي.» ثم تقدّم وانحنى مُجدِّداً أمام السيدة تاسبورو، ولكن بطريقة متهكِّمة إلى حدٍّ ما، كما اعتقد السيد ريكاردو. وقال: «أظن أن السيدة لا تشرب الكوكتيل. إنها تنتمي إلى عالم أكثر تنظيماً.» أخذت المرأة العجوز كلماته على أنها إطراء، أو ملاحظة غير ضرورية على سنّها. واختارت المرأة التفسير الثاني. فقد رمقت هانو بنظرات جامدة ثم التفتت ناحية المفوض، وقالت: «من هذا الرجل؟»

اندهش هيربستال، وصاح: «سيدتي، هذا الرجل هو السيد هانو الشهير من جهاز الأمن العام في باريس.»

لم يعنِ الاسم أي شيء بالنسبة إلى السيدة تاسبورو. ولكن كان الاسم معروفاً بالنسبة إلى روبن ويبستر. فقد سمعه السيد ريكاردو يشهق بحدة ثم يسأل بنبرة متحيرة: «ما الذي جاء به إلى هنا؟» وبينما كان السيد ريكاردو ينظر نحوه، أضاف ضاحكاً: «عندما أجد نفسي في مكان واحد مع رجال الشرطة، أبدأ في سؤال نفسي عما إذا كنت قد ارتكبت جريمة ما.»

طوال تلك الفترة، لم يرفع هانو عينيه عن وجه السيدة تاسبورو.

وقال بلباقة: «إني أستفسر عما إذا كانت السيدة تشرب الكوكتيل لسبب ما. ثمة خمسة أكواب على الصينية، وإذا كانت السيدة لا تشرب مشروب الكوكتيل، فاثنتان من ضيوفها لم يحضرا بعد.»

لم يفعل السيد ريكاردو شيئاً سوى أن هزَّ كتفيه. فها هو صديقه العزيز في أسوأ أحواله. إنه يهوى الأسلوب الاستعراضي. ويجب على الجميع أن يَهْلَلُوا لمدى فطنة ملاحظاته. لم يكن السؤال المباشر — «هل ضيوفك جميعهم حاضرون؟» — ليؤدّي الغرض. صاغ السيد ريكاردو عبارةً واحتفظ بها كي يستخدمها في المستقبل. لا بد أن يكون هانو مركز الاهتمام. لم تكن ديانا أكثر انبهاراً من السيد ريكاردو. وهزّت خلاط الكوكتيل بين يديها وأصدر الثلج خشخشةً في داخله وكأنه حفنة من الحصى.

وأجابت: «هذا صحيح. اثنتان من المقيمين في المنزل غائبان، ولكن التأخر عن موعد الغداء ليس بجريمة. لا ريب في أنه سيحل وقتٌ يحقق فيه المحققون بشأن أمور من هذا القبيل.»

قاطعها المفوض في هدوء: «أيتها الأنسة. ليس هذا وقتاً مناسباً للسخرية. أرجو أن تتذكري أن ثمة طرفين لأي جريمة. المجرم والمجني عليه.»

حتى هذه اللحظة، كانت المرأتان تميلان إلى اعتبار زيارة الشرطة انتهاكاً لخصوصيتهما. ولكن كانت كلمات المفوض مقلقةً للغاية ولا يمكن الاستخفاف بها. أطلقت السيدة تاسبورو صرخة خوف قصيرةً وغاصت للخلف في مقعدها، وسقط صولجان سلطتها الصغير من يدها للحظة. أما ديانا، فتسمّرت في مكانها كالمشلولة. وقفت في مكانها ولا يزال خلاط الكوكتيل بين يديها، وعيناها مثبتتان في رعب على هانو، والدن ينسحب ببطء من وجهها حتى ابيضّت شفاتها.

وكرّرت ما قال بصوت مرتعش: «المجني عليه؟»

قال هانو مُشفقاً على حالها: «دعينا لا نتعجّل بافتراض أن المتاعب وصلت إلى هذا المنزل. ثمة ضيفان غائبان...»

قالت ديانا: «إيفيلين ديفينيش...»

سألها هانو: «هل هي امرأة؟»

«نعم.»

«ومَن الثاني؟»

«جويس ويبل.»

ارتعش جسد هانو ارتعاشة غير ملحوظة. ولم تبحث عيناه عن عيني ريكاردو، ولكنه ظلَّ صامتًا لبرهة من الوقت. وكان صمته ملحوظًا أكثر من ارتعاشة جسده.

سأل روبن ويبستر سريعًا: «هل تعرف هذه الشابة؟» فرمقه هانو بنظرة فضولية، كما لو أنه يتساءل عن سبب طرح هذا السؤال.

ثم أجاب: «لا، يا سيدي. لم يحالفني الحظ. مَنْ يكون هذا الرجل؟»

قالت ديانا موضحة: «هذا السيد روبن ويبستر، مدير أعمالِي..»

أومأ هانو برأسه وانحنى مبتسمًا لروبن ويبستر.

ثم قال: «والآن! هل رأى أي من الحاضرين في الغرفة أيًا من هاتين المرأتين صباح اليوم؟»

وعلى الفور، بدأ كلُّ من ويبستر، والسيد ريكاردو، وديانا، والسيدة تاسبورو في تبادل النظرات الخاطفة القلقة.

«هل رأيتهما؟»

«لا!»

«وأنت؟»

«لا!»

لم يرهما أحد، وتحوّل القلق البادي على كل وجه فجأةً إلى ارتياح.

قالت ديانا في عجلة: «كنا جميعًا مشغولين صباح اليوم.» بدا أنها تحاول إقناع نفسها بعدم وجود أسباب حقيقية للقلق. «إنه اليوم الأول من حصاد العنب، لذا، كان

هناك الكثير من الهرج والمرج. واستيقظ كلُّ مَنْ في المنزل مبكرًا، وكان الخدم مرتبكين.»

قال هانو: «أعي ذلك جيدًا. ربما كانت صديقتاك لا تزالان بين كروم العنب الخاصة

بك. من المعروف أن الشابات دائمًا البحث عن طرق جديدة للتسلية بحماسة قد تُنسيهن

مواعيد الوجبات. ولكن من المستبعد أنهما غادرتا المنزل قبل تناول إفطار صغير أولاً،

بناءً على ما قلته عن هذا اليوم المرهق للغاية.»

عبرت ديانا تاسبورو الغرفة على الفور ودقَّت الجرس. استجاب جولس أماديه

للاستدعاء بسرعة مريبة.

وأمرته ديانا: «هل يمكنك أن ترسل ماريان إلي؟» ثم اختفى جولس أماديه.

قال هانو مبتسمًا: «آه! إنه يتنصت عبر الباب، هذا الرجل. ولكننا نفعل جميعنا ذلك،

كلُّ بطريقته. إننا نطرق بأسماعنا لنتنصت على المحادثات الخاصة التي تبعد عنا بضعة

أقدام. حتى أنا، هانو، إذا ما وجدتُ خطاباً مفتوحاً ملقى على طاولة، فسأقرؤه، إذا ما تمكّنت من المناورة وصولاً إليه. لا، لا داعي للوم جولس أماديه!»

كان يتحدث باستخفاف، وبسبب استخفافه الشديد، كاد قلب السيد ريكاردو يتوقف. كان هانو والمفوض متحمسين للغاية في تشجيعهما، ودقيقين للغاية في تعاملهما، الأمر الذي لم يدع مكاناً في قلبه للشك في أنهما يُخفيان أمراً مُريعاً حتى اللحظة الأخيرة. قال هانو: «أعتقد أن ماريان هي خادمتك.»

فكر السيد ريكاردو في مدى غرابة أنه في أوقات الكوارث، تتكشف طبيعة الأمور تماماً لدرجة ألا أحد قد يندهش من أكبر التغيرات التي تطرأ عليها. كان هانو حالياً قد وجه اهتمامه كاملاً نحو ديانا. لم تعد السيدة تاسبورو، الدائمة التوبيخ والشكوى، ذات أهمية. حتى إنها لم تستأ من فقدان أهميتها. وأصبحت ديانا الآن، التي كانت بالأمس الوصيعة المطيعة، السيدة وصاحبة القصر بلا منازع.

أجابته ديانا بابتسامة شاحبة: «ماريان، يا سيد هانو، امرأة فرنسية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. هي زوجة جولس أماديه، وبما أن القصر يظل فارغاً طوال جزء كبير من العام، فهما الخادمان الدائمان الوحيدان لدينا. خلال هذا الشهر أو الشهرين، تحصل على مساعدة إضافية من القرية، ولكن دون قناعة تامة منها، وهي تكره كل مساعدتها، ولن تسمح لأي منهم أبداً بالاقتراب من سادتها أو أي من ضيوفهم.»

انحنى هانو وابتسم بود جم. وقال: «آه، يا آنسة، إذا ما وصف لي كل من أطلب مساعدته الشخصيات بمثل هذا الوضوح، كنت سأحصل على ستة أشهر من العطلة كل عام بعد أن أنهي كامل العمل الذي كان يستغرق مني اثني عشر شهراً.»

يا للمجاملات! متى سيتمزق هذا الزيف التافه وتتكشف الحقائق المدمرة؟ سُمع صوت حذاء ثقيل يصططم بأرضية الممر المصقولة، ودخلت ماريان الغرفة، وكان التحدي بادياً على جميع ملامحها العنيدة. كانت امرأة في منتصف العمر وضعت على وجهها أجمعه مساحيق تجميل منذ وقت ليس ببعيد. أدارت المرأة ظهرها لهانو والمفوض هيربستال. لم يكن ثمة شك في أن جولس أماديه قد أخبرها بكل ما عرفه من تنصّته.

سألت ماريان: «هل أرسلت في طلبي يا آنسة؟»

قالت ديانا مستفسرة: «نعم يا ماريان. في أي ساعة من الصباح أوصلت القهوة إلى

السيدة ديفينيش والسيدة وبيل؟»

أجابت ماريان: «في تمام السابعة.»

«هل كانتا في غرفتيهما؟»

«نعم يا آنسة! إنه يوم مميز، أليس كذلك؟ في يوم كهذا يستيقظ الناس من نومهم ويبدءون يومهم مبكرًا. كانت السيدة ديفينيش قد خرجت من المنزل بالفعل..»

«وماذا عن جويس وبيل؟»

«كان وضعها مختلفًا. كان ثمة تنبيهٌ مثبتٌ على باب غرفة الشابة مفاده أنها لم تنم جيدًا وأنها لا تريد إزعاجًا. فحملتُ قهوتها وعدت أدراجي، ونويت أن أعد لها قهوةً ساخنة جديدة عندما ترن الجرس لتطلبها..»

«هل رنت الجرس؟»

طُرح هذا السؤال بوضوح تام، ولكن صمَّت ماريان سمعها عنه. فلم تلتفت نحو هانو أو تنظر إليه. كرَّر السؤال في صبر، وفجأةً احمرَّ وجه ماريان، وشبكت ذراعيها أمام صدرها، وصاحت بصوتٍ أشبه بنعيق غاضب:

«يا آنسة! لا أعلم ما تفعله الشرطة في هذا المنزل. ما شأنهم بما إذا استيقظت امرأة في وقت أبكر من المعتاد أو أصيبت أخرى بصداع نصفي؟ اجعليهم يذهبون ليعثروا على ملابس الكاهن المسروقة! آه! على الأقل سيؤدون عملًا ذا فائدة..»

كرَّر هانو سؤاله: «سألتك، هل رنت الآنسة وبيل الجرس في غرفتها بعد؟».

قالت ماريان: «وأجبت أنا، عبر صمتي، بأني لن أجيب عن أسئلة السيد..»

أنبَتْها ديانا برفق: «هذا لا يصح يا ماريان. يجب أن تجيبي عن أسئلة السيد..» استدارت ماريان مُتجهمةً لتواجه هانو.

وقالت: «حسنًا إذن، إنها لم ترن جرسها»، ثم صاحت مجددًا في غضب: «ولكن ...

اللعنة ... يا لها من أسئلة تُطرح بينما غداء الآنسة كله يحترق ويتحوَّل إلى رماد ...»

قاطعها هانو وقد غيَّر طريقته لتصبح امرأةً بدلًا من صابرة: «سأطرح عليك سؤالًا

آخر. هل نامت السيدة ديفينيش في فراشها؟»

فاجأ السؤال جميع مَن في الغرفة، ولكن لم يُفاجأ أحد أكثر من ماريان. أطلَّ من

عينها بعض الاحترام وهي تنظر إلى هانو. وقالت بصوت أكثر وداعة.

«سيدي! كما أخبرتك سابقًا، هذا يوم مزدحم بالنسبة إلى الجميع. ومن المحتمل أن

السيدة ديفينيش فكَّرت في ذلك؛ فهي تعرف أن جميع الشابات يكنَّ في مثل هذا اليوم

عديمات الفائدة وعاطلات عن العمل. ربما قالت لنفسها: «يا للمسكينة ماريان، يجب أن

أساعدها اليوم..»

قال هانو مؤكداً: «يعني هذا أنها لم تنم في فراشها.»
صاحت ماريان وقد بدأ وجهها في الاحمرار مجدداً: «لا، يا سيدي، لم تفعل. أعني
أني عندما دخلتُ غرفتها هذا الصباح، كان الفراش مرتباً.»
تقبّل هانو تصحيحها راضياً، ولكن فُكّر السيد ريكاردو أن كل من يعرفون إيفيلين
ديفينيش لن يتفقوا مع ماريان على هذا التفسير على الإطلاق. لم تكن إيفيلين ديفينيش
امراً عطوفاً قد تفكّر فيما إذا كانت ماريان قد أنهكها العمل أم لا. ولم يتمكّن من تخيلها
تقفز من فراشها في الصباح الباكر لمساعدة الفلاحين في جمع العنب. لم تكن القصة
برمتها مقنعة على الإطلاق.

قال هانو: «أعتقد أن كون الفراش مرتباً يكفي.» كان يتحدث بجدية شديدة، وكان
حريصاً على ألاّ يتحدث بانفتاح. نظر نحو هيربستال، ونظر هيربستال نحوه بدوره وأمال
رأسه.

وقال: «نعم. نعم. لا يمكننا أن نراعي المشاعر الرقيقة طوال الوقت. أوكد لك ذلك يا
سيد هانو!»

كان المفوض، رغم كونه قاضياً، سعيداً بإظهار الاحترام للرجل العظيم القادم من
باريس.

كانت ديانا تتحرّك باستمرار. فلم تكن تشعر بالقلق فحسب، بل كانت متحيرة
كذلك.

وصاحت في عصبية: «أرجو ألاّ تُبقينا مترقبين هكذا لمدة أطول. فوقع البلاء خير
من انتظاره.»

حتى في تلك اللحظة، تردّد هانو للحظات. لم تبدُ عليه الراحة. بدا وكأنه قد انتابه
هاجس بأنه على وشك أن يلزم نفسه بتحقيق سيكشف عن هاوية من الشر الفظيع حتى
هو نفسه يخشى الاقتراب منها.

قال أخيراً: «حسناً. في تمام السابعة من صباح اليوم، شوهدت سلة غسيل تطفو
على سطح مياه نهر جيروند مع ارتفاع المد، من قبل صبيين من قرية سان إيزان دوليت،
وهما ألبير كروودو، في الرابعة عشرة من عمره، وشارل مارتان بعمر الثالثة عشرة وخمسة
أشهر. تُطل قرية سان إيزان دوليت على الضفة نفسها من النهر التي يطل عليها قصر
سوفلاك، ولكنها أقرب من مصب النهر بنحو ستة أميال. هذه التفاصيل مهمة. حمل
تيار النهر سلة الغسيل حتى وصلت إلى الشاطئ، وكانت الأمواج في ذلك الوقت بطيئة

للغاية، وتمكّن الصبيان بسهولة من تتبّعها. رست السلة برفق في خليج صغير في منطقة منعزلة تبعد حوالي نصف ميل عن القرية. كانت الضفة المكسوة بالعشب ذات انحدار بسيط، وكان ثمة مرج رفيع، وسياج شائك خلف المرج، والقرية تقع على بعد مائة ياردة خلفه. سحب الصبيان السلة خارج الماء بصعوبة. فقد كانت أثقل ممّا تحتمل عضلاتهما. ووجدوا أن السلة مربوطة بإحكام بحبل سميك، وكان مربوطاً في الحبل في قاع السلة قطعة من شبكة ذات خيوط دقيقة، يا لها من مصادفة غريبة، فقد بدا وكأن وزناً كان موضوعاً في الشبكة لإغراق السلة، وكان الوزن ثقیلاً للغاية على الشبكة ممّا أدّى إلى تمزّقها وتحرّرها. كان الصبيان متحمسين لهذا الاكتشاف، فقطّعا الحبل بسكين جيب، وعندما رفعوا الغطاء، صُدموا برؤية جثة ملفوفة في قطعة من الكتان الفاخر. وعندما رفعوا حافة قطعة الكتان، وجدا فتاة عارية تماماً، وركبتها مضمومتان نحو ذقنها. وشعرا برعب شديد مَنَعهما من فحص الجثة عن قرب. فأعادوا قطعة الكتان إلى مكانها، وبينما أسرع أحدهما، شارل مارتان، إلى قرية سان إيزان دوليت لينقل الخبر، أغلق ألبير كرو دو السلة وجلس جوارها ليحرسها. ثم نُقل الجثمان الذي كان لا يزال مكوّمًا داخل السلة إلى المشرحة في فيلبلانش. كانت هذه المدينة الصغيرة التي ذكرها هي مقر الإدارة المحلية للمنطقة. ثم استطرد قائلاً: «كنت في بور دو بالمصادفة أهتم بمشكلة ما، قد تكون حادثة السلة هذه، أو لا تكون، ضمن تطوّراتها.» في هذه اللحظة، تلقّى هانو نظرة لوم شديدة من السيد ريكاردو، مما جعله يبذل جهداً لتخفيف إهماله لوجود صديقه.

«يجدر بي أن أضيف أنه عمل يمنعني من الاستعانة بأي نصح، مهما بلغت قيمته.» وشعر بالرضا عندما رأى السيد ريكاردو يستعيد اعتداده بنفسه. ثم قال: «شَرَّفني السيد هيربستال بأن اتصل بي هاتفياً لإبلاغي بهذا الكشف ودعاني لمساعدته. أجرى الطبيب الشرعي، الطبيب برون، فحوصاته في حضورنا. كانت الجثة تعود لشابة أولت عناية خاصة، عناية خاصة للغاية، بجمالها ومظهرها. لا يوجد أدنى شك في صحة الأدلة التي بين أيدينا في حادثة مثل تلك. ولكن كان كل شيء، اللون الأبيض الخفيف لبشرتها، ولمعان شعرها، يُشير إلى أنها كانت امرأة تملك ما يكفي من الوقت والرغبة في الاهتمام بنفسها بعناية تامة.»

قاطعته ديانا بصوت خفيض: «هل كانت ميتة؟»

«طبّقاً لما قاله الطبيب برون، كانت متوفاةً منذ حوالي ست ساعات.»

قالت ديانا: «هل غرقت؟ في هذه السلة؟ يا له من أمر مريع!» وارتجف جسدها وغطّت وجهها فجأةً بيديها.



وشعر الصبيان برعب شديد منعهما من فحص الجثة عن قرب.

أجابها هانو: «لا يا آنسة، لم تغرق. لقد تلقت طعنة نافذة في القلب. لم يكن ثمة أي أمارات تنم عن الألم على وجهها، ولا أي تعبير عن الخوف. إنها لم تكن تدري بما يحدث؛ فهي كانت هادئة تماماً.» وبعدما استخدم كامل قدرته لتأكيد كلمات التهذئة التي قالها، الأمر الذي يبرع فيه تماماً، واصل حديثه في هدوء قائلاً: «ولكن ثمة تفصييلة واحدة مُحيرة ومخيفة في هذه الجريمة. غير كونها جريمةً بالتأكيد. بعد موتها، نُشرت يدها اليمنى من عند الرسغ.»

عمّت موجة من الرعب جميع الحاضرين في الغرفة. ما الغرض من التمثيل بجثة المرأة بعد قتلها؟ إنه تعبير عن كراهية ووحشية شديديتين، انتقام لا يهدأ حتى بعد الموت.

انطلقت صرخة من بين شفّتي ديانا المرتعشتين. وكانت السيدة تاسبورو تبكي وتئن. وصاح روبن ويبستر، وقد كسا الغم والاضطراب وجهه: «لماذا؟ لماذا بحق السماء؟» السيد ريكاردو فقط هو من بقي صامتاً، وخوف مريع ينمو داخل ذهنه. فغاص في مقعده وظل يُحدّق في الأرض.

في الوقت نفسه، واصل هانو حديثه، قائلاً: «لم تكن هناك أي علامات تُمكننا من تحديد هوية الشابة، فلم تكن ترتدي أي أساور في رسغها، ولا سلسلة حول رقبتها، لا شيء على الإطلاق. ولكن فكّر السيد هيربستال والطبيب برون في أنه من المحتمل أن نتوصّل إلى المزيد من المعلومات في قصر سوفلاك؛ فمن عادة الأنسة أن تقيم حفلاً منزلياً بمناسبة حصاد العنب. لذا، جئنا إلى هنا على الفور، وها نحن قد اكتشفنا أن ثمة ضيفة مفقودة. أرجو من السيد ريكاردو، فهو أحد معارفي، أن يستقل معي السيارة إلى فيلبلانش، وآمل، ولكن من دون ثقة كبيرة، ألا يتعرف إليها. وحتى يعود، يجب أن أطلب منكم ألا تغادروا المنزل.»

ولكن لم يرد السيد ريكاردو. فقد كان لا يزال جالساً دون حراك يحدّق في الأرضية، وبدا وكأنه لم يسمع أيّاً مما قيل.

قال هانو مصرّاً: «هل ستأتي؟ إنها مهمة عصبية، أعلم ذلك تماماً.» ولكن لم يقل ريكاردو شيئاً، ولم يغيّر من وضعية جسمه. ارتعشت كتفا روبن ويبستر في قلق. ثم قال متردّداً: «لا ريب في أنه واجبي أنا أكثر من أي شخص آخر.» وقبل أن يتمكّن من قول المزيد، قاطعه هانو. «لا! أشكر على تطوّعك، ولكنني أريد السيد ريكاردو.»

ثم في نهاية المطاف، عثر السيد ريكاردو على صوتٍ يتحدث به، ولكنه خرج من بين شفّتيه كئيباً ورتيباً، وبدا وكأنه ليس صوته.

قال دون أن يرفع عينيه عن الأرضية: «قبل أن أذهب، أعتقد أنه يجدر بأحدهم أن يطرق باب غرفة الأنسة ويبل لتأكد من أنها ستجيب.»

وعلى الفور أصبح السيد ريكاردو محط أنظار كل الحضور الحزين، ولكنه لم يكن سعيداً بذلك هذه المرة. فلم تكن النظرات الموجهة نحوه تحمل أي ود. لم يكن أي منهم قد فكّر في جويس ويبل خلال تلك الدقائق العصبية الأخيرة. فقد ربطت قصة هانو نفسها مباشرة باختفاء إيفيلين ديفينيش لدرجة أن الرحلة المقترحة لتحديد هوية جثمانها كانت مجرد إجراء شكلي. ولكن أصبح هناك فجأة اقتراح جديد، غامض ومزعج.

صرخت ديانا بجدة: «لا، لا!» لم تكن تعارض اقتراح السيد ريكاردو، بل كانت ترفض السماح بتحصيل لغز آخر على أعصابها المُعذَّبة.

قال السيد ريكاردو من دون أن يرفع عينيه عن الأرضية: «أعتقد أنني محق.» وأقنع سلوكه الجميع بطريقة ما بأنه محق. التفت هانو نحو ماريان التي كانت واقفةً على مقربة منه طوال تلك المدة، وأوماً لها برأسه. فأسرعت على الفور إلى خارج الغرفة تاركَةً الباب مفتوحاً خلفها، ولم يُضَف أحد أي كلمة. كانوا يسمعون صوت حذائها يدق على درجات السلم الحجرية القريبة من مكانهم، ثم صوت الطرق العالي على الباب. ظلت المجموعة في غرفة الاستقبال تنتصّت في ترقُّب أن ينفُتِح الباب، وأن يسمِعوا صوت جويس وبيل الودود الواضح. ولكنهم لم يسمِعوا إلا صوت الطرق يتكرَّر، ويعلو أكثر، ولكن لا مجيب. رفع السيد ريكاردو رأسه في حيرة، وكسر حاجز الصمت.

قال: «هل تنام الآنسة وبيل في الطابق العلوي؟»
أجابته ديانا: «نعم.»

إذن، فغرفتها واحدة من الغرفتين في البرج!
فسألها: «وماذا عن السيدة ديفينيش؟»
«في الجناح المقابل لجناحك.»
«فهمت.»

إذن، أي نافذة تلك التي طرق عليها في الثانية من صباح اليوم، والتي رأى خلفها نوراً مضاءً ثم انطفأ على الفور؟ لم يكن ليمر وقت طويل قبل أن يعرف. سُمِع صوت ماريان وهي تطرق مجدداً على الباب، وتنادي باسم جويس وبيل، ثم عادت إلى الغرفة تجر أذيال الخيبة، وصدرها يعلو ويهبط، وملامح وجهها تنم عن الخوف.

تلعثمت قائلة: «باب غرفة الآنسة موصد بالقفل، ولا يوجد مفتاح في القفل.»
وجّه هانو سؤالاً إلى ديانا، قائلاً: «هل تملكين مفتاحاً آخر لهذا الباب؟»
«أي مفتاح سيفتحه. جميع الأقفال متشابهة.»
«ستبقون جميعكم هنا إذن.»

اندفع هانو إلى خارج الغرفة. ولم يسمع أحد خطوات أقدامه على الدرج الحجري، ولكنهم سمعوا صوت مفتاح يفتح مزلاجاً، وعم الصمت مجدداً. ولكن لم يعد الصمت محتملاً.

«جويس! جويس! آه!»



لم يسمع أحد خطوات السيد هانو على الدرج الحجري.

خرج الاسم من بين شفتي روبن ويبستر في صرخة قصيرة تنم عن التعاسة. كانت الصرخة أشبه برجاء لها أن تُجيب، وأن تظهر بكامل شبابها المتألق بينهم، وكانت في الوقت نفسه تعبيراً عن يقينه بأنها لن تفعل. رأى السيد ريكاردو ديانا ترفع عينيها ببطء نحو روبن ويبستر وتثبتهما على وجهه المرتعش القلق بنظرة مدققة غريبة، ولم تمر لحظات قبل أن يعود هانو إلى الصالون.

وقال جزعاً: «الغرفة فارغة، وأغطية الفراش مبعثرة ومجرورة على الأرض. ولكن يبدو أن ذلك مُتعمد. لم تنم السيدة ديفينيش ولا الآنسة وبيبل في فراشيهما في قصر سوفلاك ليلة أمس.»

هانو يظهر مجدداً



غرفة جويس فارغة، وأغطية الفراش مبعثرة ومجرورة على الأرض.

تغيّر التعبير على وجهه فجأة. وصاح وهو يندفع نحو الأمام: «مهلاً! مهلاً!» كان قد رأى ديانا تاسبورو تترنّح وكأنها شتلة في مهب الريح. وشحب وجهها بشدة. كانت تقول بصوتٍ واهن: «هذا رهيب! رهيب!» وصل هانو إليها في اللحظة المناسبة ليمنع سقوطها على الأرض. ثم تركها تنزلق من بين ذراعيه وتستقر على أرضية الغرفة دون حراك.

الفصل السادس

لوحة على الجدار

انحنى هانو، ورفع كتفي ديانا، ثم وقف منتصبًا في نهاية المطاف حاملاً إياها بين ذراعيه برفق كما لو كانت طفلةً كبيرة.

وقال في أسف: «كنت قاسيًا، نعم، ومن حقكم أن تنتقموا عليّ. ولكن، للأسف، تجعل مهنتي المرء قاسيًا. فهو يرى قدرًا كبيرًا من قسوة البشر. ولكني سأحاول أن أعدّل من أسلوبِي الأخرق. سأحمل هذه الشابة المسكينة إلى غرفتها.»

لم يتأثر السيد ريكاردو بهذا الأسف. فقد كان شكه في هذا المحقق من جهاز الأمن العام يزداد عندما يُظهر المشاعر الرقيقة. وكان ينسل منها بعد ذلك وكأنها زوج من القفازات. كان يتعامل برقة، وإنسانية ورفق، حتى تلك اللحظة السوداء الأخيرة عندما يتعملق وكأنه ينتقم ممن يخالفون القانون. ومن ثم، شعر السيد ريكاردو بمشاعر شائكة تتحرّك على عموده الفقري صعودًا وهبوطًا عندما رأى صديقه الضخم يحمل جسد الفتاة الرقيق بين ذراعيه القويتين وكأنه يحوطها من كل جانب. هل كان السامريّ الصالح أم حيوانًا مفترسًا؟ صديقًا أم سجانًا؟

ولكن، بدا أن ماريان لم تشارك السيد ريكاردو أيًا من شكوكه. فعبرت الغرفة على الفور متجهةً ناحية النوافذ وفتحتها.

وقالت: «سيدي، هذا أقصرّ طريق، إذا تفضّلت. يا للمسكينة! لقد تحمّلت اليوم ما يفوق قدرتها على الاحتمال.»

خطت خارج الغرفة إلى الشرفة وفي إثرها هانو، واتجهت يسارًا لتمر أمام نوافذ المكتبة. إذن، كانت غرفة ديانا هي التي تُطل على الشرفة بشكل قوس من الطابق السفلي من البرج. وكانت نافذة غرفتها هي التي طرق عليها السيد ريكاردو. أسرع السيد ريكاردو في إثر هانو وهو يشعر بحيرة شديدة. كان ثمة الكثير من الأسئلة تتزاحم في

ذهنه بحثًا عن إجابات منذ أن بدأت ماريان الطرق على باب غرفة جويس ويبل. كانت جويس ويبل تُقيم في غرفة فوق غرفة ديانا، وخرجت جويس ويبل في وقت ما من الليل من غرفتها واختفت. وكان من المفترض أن تكون غرفتها، دونًا عن بقية الغرف، هي المضادة في تلك الساعة غير المعتادة. ولكن، لماذا لم تحاول ديانا أن تعرف مَنْ الشخص الذي طرق على نافذة غرفتها قبل أن يطلع الفجر؟ هل كانت هي أيضًا خارج المنزل ليلة أمس؟

رأى السيد ريكاردو طرف ذيل معطف هانو بينما كان يمر حاملًا جسد الفتاة ويعبر بين مصراعي الباب الزجاجي لغرفة البرج. لم يكن السيد ريكاردو واثقًا بأنه سيتلقى معاملةً متحضرة إذا تبعه. ولكنه تبعه على أي حال. تسلَّل إلى داخل الغرفة في حذرٍ عندما كان هانو يضع ديانا برفق في فراشها في عمق الغرفة، فخرج على الفور من بقعة الضوء حتى صار من الصعب رؤيته.

قال هانو وهو يبسط كتفيه: «أحضري كوبًا من الماء يا ماريان. أعتقد أن الآنسة لم تُصَب بضرر. انظري، حتى الآن، لا يزال جفناها يرتعشان.»

أسرعت ماريان إلى الحوض، وصبَّت كوبًا من الماء، بينما ظلَّ هانو واقفًا بجانب الفراش، وكان ينظر إلى ديانا تاسبورو، ثم جال ببصره أرجاء الغرفة بنظرة قد تبدو لا مبالية تَعْلَم السيد ريكاردو منذ أمد بعيد ألا يستخف بها أبدًا. حدَّق في باب خزانة الملابس، والمرآة، والسيد ريكاردو، والسجادة، والمقاعد. ولكن لم ترَ عيناه أي شيء غريب على الإطلاق أينما نظر. ثم خرَّ فجأةً على ركبتيه. فقد كانت شفتا ديانا تتحركان. ولكنها كانت تغمغم:

«كنت حمقاء! ... لم يحدث شيء ... لا شيء ... وإلا كنت تذكرته.» خُيل للسيد ريكاردو أن رأس هانو انحنى نحو الأمام، كما لو أنه على وشك أن يهمس بسؤال ما في أذن ديانا، على أمل أن تُجيب عن السؤال بينما لا يزال ذهنها مشوّشًا. ولكن ظهرت ماريان بجانبه فجأة، فتصرَّف بطريقة طبيعية تمامًا، وأخذ الكوب منها وأمسك به أمام شفتي ديانا.

ثم قال وهو ينهض واقفًا: «حسنًا، حسنًا، هكذا أفضل.» ثم سار نحو السيد ريكاردو. وقال: «أنا وأنت يا صديقي، ليس من المفترض أن نكون هنا، بل من المفترض أن نكون في فيلبلانش.»

ثم أمسك بذراع ريكاردو وقاده إلى الشرفة مجدداً. ولكن كان أسلوبه مختلفاً الآن. فقد كان متأهباً، ولمعت عيناه بهريق متسائل، وابتسامة بسيطة غريبة مرسومة على شفتيه.

قال بصوت هامس: «أؤكد لك. ثمة أمور شديدة الغرابة حدثت في هذا المنزل. الآنسة ويبل وخطاباتها. أحمد الله أنني لم أستخف بمخاوفها.»
رفع السيد ريكاردو سبّابته، وقال: «لقد رأيت شيئاً ما في الغرفة.»
«نعم. فراشاً، وامرأة شابة فاقدة الوعي، وخادمة، وكوباً من الماء.»
«ثمة شيء آخر.»

ألقى هانو ذراعيه في الهواء. وقال: «لم أقض في الغرفة إلا ثواني معدودة. وكنت منشغلاً خلالها.»

رفع السيد ريكاردو سبّابته، وقال: «أخشى ألا يصلح هذا الأسلوب معي.»
استسلم هانو بإشارة تنم عن اليأس ونظرة ملأها الإعجاب الأسف. وقال: «نعم. أعترف، مثلما فعلت الآنسة ديانا، بأنني أحمق. كان يجب أن أكون أكثر ذكاءً. ثمة سر! ها، ها! أخف السر إن استطعت! إن السيد ريكاردو العبقري أصبح يتتبعه كالنسر.»
كان ريكاردو معتاداً على التصحيح الأحمق للعبارات الاصطلاحية المثيرة للإعجاب التي يقولها صديقه، ولكنه شعر بالفخر بنفسه على الإطراء الذي تلقاه عن نفاذ بصيرته، فترك تلك الصيغة اللغوية المؤسفة تمر مرور الكرام. أمسك هانو بذراعه وقاده بعيداً عن نطاق سمع الجميع إلى أبعد حافة للشرفة.

وقال بصوت خفيض: «نعم. لقد رأيت شيئاً ما في الغرفة. وسأخبرك ماذا يكون. لوحة صغيرة. معلقة على الجدار فوق الفراش. رأيتها عندما كنت أضع الشابة المسكينة في فراشها. يجب أن تراها عندما تسنح لك الفرصة. وسترى ما رأيت. ولكن، حتى يحدث ذلك ...» ثم وضع إصبعه على شفتيه في إشارة ذات مغزى.

كان السيد ريكاردو متحمساً حتى النخاع لمشاركته في هذا اللغز. فقال مطمئناً: «لن أنبس ببنت شفه.» ولا ريب في أن هانو شعر براحة شديدة. كاد يستدير مبتعداً عندما جذب السيد ريكاردو ذراعه هذه المرة. وقال بنبرة جديدة أمة: فقد كان دائماً ما يتوق لأن يحظى بثقة هانو النادرة: «قبل أن نُكمل عملك، يجب أن أنبّهك. أعتقد أنك تبالغ، ربما أكثر من المعتاد. لم يكن الأمر فجاً حتى الآن. ولكن قد يتفاقم الأمر لو لم تراقبه عن كثب.»

نظر له هانو في جزع. وقال: «أنا أُبَالِغ!»
«لقد فعلت ذلك مرتين صباح اليوم.»
ألقي المحقق ذراعيه في الهواء في يأس، وقال: «الأمر واضح إذن. لقد أصبح هانو مسنّاً. مرتين! ضببطيني مرتين أُبَالِغ في الانحناء في صباح واحد.»
قال السيد ريكاردو: «بل تتقوَّس. ولكن، في أفضل الأحوال، قلت عبارةً مبتذلة.»
«مرتين!»
«نعم.»
«هل كانت إحداهما عندما رأيت اللوحة على الجدار؟»
«نعم.»
«ومتى كانت المرة الثانية؟»
«في وقت سابق في غرفة الاستقبال. كان أسفك على اضطرابك لسرد القصة المريعة، وتعاطفك، كانا جيدين للغاية بوجه عام.»
قال هانو في تواضع: «أشكرك. أخجلت تواضعي!»
قال السيد ريكاردو: «معك حق. أجل، كنت تسير سيرًا حسنًا حتى مرحلة ما. تلك النقطة عندما استخدمت كلمة وحشية، بل واستخدمتها بوحشية، لوصف اليد المقطوعة.»
اختفى كامل المرح من عيني هانو. ورمق ريكاردو بنظرة غريبة، كما لو كان مبارزًا أخذ خضمه الذي يحتقره على حين غرة.
وقال: «أكمل!» كان السيد ريكاردو سعيدًا للغاية بإكمال ما يود قوله. «كان يجب أن تُقحم في تعاطفك وأسفك الرقيق عالم الجريمة القاسي الذي تعيش فيه أثناء وجودك في غرفة الاستقبال الأنيقة تلك، ثم فجأة تقول كلمة فجأة بطريقة عنيفة، كما لو كانت لكلمة؛ «نُشرت». «نُشرت من عند الرسغ.» صديقي، أعلم أنك كنت تبحث عن ردة فعل، نعم، ردة فعل مؤكدة من أحد الحاضرين في الغرفة.»
لم يُقر هانو بأن هذه كانت نيته. ولكنه لم ينفِ ذلك أيضًا. فقال عابسًا: «إذا كان هذا ما أعترم، فلم يفلح الأمر. تعال! حان وقت انطلاقنا إلى فيلبلانش وتحديد هوية جثة السيدة ديفينيش المسكينة. معك سيارتك، أليس كذلك؟ هل هي معك؟ حسنًا إذن، سنستقلّها أنا وأنت وسنترك سيارة الشرطة إلى المفوض هيربستال.»
ولكن، للمرة الثانية هذا الصباح، أدهش السيد ريكاردو المحقق بشدة. فقد قال في هدوء: «يمكنك أن تستخدم سيارتي كما يحلو لك. ولكني لا أعتقد أننا سنُحدّد هوية إيفيلين ديفينيش.»

تصلَّب جسد هانو الضخم، وغمغم قائلًا: «أوه! هكذا الأمر إذن! نعم! لقد كنت أنت من أصر على إيقاظ الأنسة جويس ويبل من سُبَّاتها العميق. نعم. منذ لحظة انتهائي من سرد قصتي، كان يبدو عليك الخوف الشديد. حتى أنا، هانو المسن، لاحظت ذلك. لهذا السبب أردت أن نذهب أنا وأنت بمفردنا بالسيارة إلى فيلبلانش. نعم! إنها صديقتك الأمريكية التي تتوقَّع العثور عليها في المشرحة الباردة.» ثم هزَّ كتفيه كما لو أن برودة هذا المكان طالته هنا في تلك الشرفة التي تغمرها أشعة الشمس. «فلنذهب! وستُخبرني بسبب اعتقادك هذا في الطريق.»

الفصل السابع

كهف المومياوات

خرج الرجلان من المنزل المنكوب وهبطا التل متجهين نحو الأبنية الريفية والمرأب، وكان هانو مستغرقاً في أفكاره وشعر السيد ريكاردو ببعض الاندهاش من رؤية الفلاحين يؤدون مهام يومهم، وكيف أن العالم يعج بالحركة. فقال: «لا يبدو الأمر طبيعياً». أفاق هانو من تأملاته وردّ عليه: «في نهاية المطاف، ربما يكون كلانا مخطئاً. ثمة الكثير من الأبنية في منطقة جيروند». ولكن كان يبدو أنه لا يصدق الكلمات التي قالها على الإطلاق، وبمجرد أن انطلقت السيارة الضخمة بسلاسة على الطريق الذي يمر بين كروم العنب، التفت نحو رفيقه بنشاط.

بدأ السيد ريكاردو يتفوّه ببعض الأعذار. فقد كان يساوره شك في أن إعجابه بالأمر الغريبة والعجيبة ليس لائقاً برجل في مثل عمره المتقدم ومكانته الاجتماعية المرموقة. ولكن كان يتعين عليه زيارة كهف المومياوات رغم كل ذلك.

قال وهو يصيح في انفعال صادق: «لطالما أردت زيارته، وقد فعلت ذلك منذ ١٠ أيام.»

وصف لصديقه كيف أنه سار حتى وصل إلى البرج العالي فوق جبل سان ميشيل المقابل لأبواب الكنيسة في الميدان الكبير. عند قاعدة البرج، وجد كشك تذاكر، ولكنه كان مُغلقاً، وبجانبه كان ثمة درج حلزوني يهبط نحو الظلام. فنظر من أعلى نحو أسفل الدرج، لكنه سمع فجأةً بالقرب منه صوت امرأة عالياً يصيح: «هيا اهبط أيها السيد! ويمكنك أن تدفع لي فيما بعد. سأبدأ عملي الآن.»

فأطاع المرأة، وتحسّس درجات السلم بقدمه والجدران الجانبية بيده. كان ثمة بضع خطوات تفصله عن ذلك الدرج الحجري العتيق، ولكنه كان يلتف، وبعدما أصبح ضوء النهار في ظهره، لم يستطع رؤية أي شيء على الإطلاق.

«خطوة أخرى أيها السيد. حسناً إذن!»

كان ثمة من أمسك بذراعه ووجَّهه نحو درج قصير عن يساره. لم تُشعل المرأة، الحريصة مثل الطبقة التي تنتمي إليها، شمعتها المصنوعة من الشحم لتضيء معروضاتها المروعة حتى جمعت حولها مجموعة صغيرة من المتفرجين عند نقطة الانطلاق. كان السيد ريكاردو يدرك في غير وضوح أنه يقف عند حافة مجموعة من الناس. كما انتابه كذلك شعور بوجود مساحة شاسعة. ولكن عندما اشتعل عود الثقاب، وسطع ضوء الشمعة الرخيصة الأحمر الذي يتصاعد منه الدخان، رأى أن المكان عبارة عن موقع تنقيب ضيق وبدائي. كان المكان لا يزال مظلمًا بدرجة لم تمكَّنه من تمييز أي شيء في بقية المجموعة، فيما عدا أنها كانت مكوَّنة من كلا الجنسين. ولكن سقط الضوء على وجه المرشدة، وشعر بخيبة أمل بسبب مظهرها مثل تلك التي أصابته بسبب ضيق الكهف. كان يتوقع رؤية عجوز شمطاء تشبه الساحرات. ولكن رأى بدلاً من ذلك امرأة عملياً في منتصف العمر ذات وجه على شكل تفاحة تبدو عليها سيماء الوقار مع ذلك الشال الأسود الذي تضعه على كتفها.

مرَّت وسط حاجز حديدي يحمي صف معروضاتها الكئيبة، وبدأت تُلقِي محاضرتها الأولى. كانت هناك مومياوات في مصر بالطبع، ولكن لم تكن أي منها، بدايةً من مومياوات توت عنخ آمون إلى الأقل منها شهرة، تضاهي مومياواتها. كانت مومياوات مصر من صنع أيدي البشر، محشوة ومعالجة مثل الحيوانات المُحنَّطة التي توضع على الطاولات. كانت مومياواتها هي المومياوات الحقيقية الطبيعية الوحيدة في العالم، ومصدر فخر لمدينة بوردو العظيمة.

«سيداتي، سادتي، ظلَّت هذه المومياوات على حالها منذ العثور عليها في جَبانة عتيقة في المدينة في مكان قريب من هنا. وقد حفظتها على هذه الحال مواد كيميائية من التربة لا توجد في أي مكان آخر. انتبهوا أيها السادة والسيدات!»

جحظت عينا السيد ريكاردو من مَحْجَرِيهما في محاولة منه للنظر فوق أكتاف الأناس المحظوظين الذين اتخذوا أماكنهم في الصفوف الأولى. مرَّت القائمة على هذا المتحف الغريب ببطء على طول صف جثث الموتى المُعلَّقة المستندة واقفةً وكأنها في استعراض أزلي. كانت الجثث واقفةً وقد وُضعت مَازرٌ حول خصوصها، وكان لون بشرتها مخضراً، وكانت رقيقةً مثل ورق البرشمان. ظلَّت قطع بالية مُسوَّدة من أكفانها ملتصقةً بها، وخصلات من شعرها الأسود متدليةً من جماجمها، وبعضها لا تزال تمتلك أعيناً خضراء

شاحبة تُحدّق من محاجرها. كانت المرشدة ترفع شمعتها وتُنزلها لتُشير إلى التفاصيل البارزة، ومنح الضوء الأحمر، بظلاله المرتعشة، الجثث مظهرًا يوحي بالحياة والحركة. قالت المرشدة بصوتٍ عملي واضح: «ترون هنا امرأةً وطفلاً على كتفها. كانا قد دُفنا معًا خلال الوباء! وترون هنا رجلًا قُتل بطعنة سيف»؛ كشف ضوء الشمعة عن جرح كبير في صدره. استطردت قائلة: «لا تزال رثاياه موجودتين. اسمعوا!»

مدّت يدها داخل الجرح وطرقت بأصابعها الرئتين اللتين أصدرتا صوت خشخشة وحفيفًا أشبه بصوت أوراق الأشجار الجافة. ارتعش السيد ريكاردو في استمتاع، وشعر برجفات تجري صعودًا وهبوطًا على طول عموده الفقري وفي باطنَي قدميه.

ثم سأل نفسه: «ماذا بعد؟» متسائلًا عمدًا إذا كان سيتحمّل المزيد عندما وقفت المرشدة فجأةً أمام الجثة الأخيرة في الصف. كانت مديرة عروض بارعة احتفظت بالمومياء المميزة في نهاية العرض. وقبل حتى أن تنطق كلمتها الأولى لتشرح ما يراه الجمع، انتشر بينهم جميعًا شعور بالاشمئزاز والجزع، فقد ظلت أمارات الألم المروعة ظاهرةً على المومياء بوضوح رغم كل تلك القرون التي مرت على دفنها.

رأى السيد ريكاردو جثمان شاب. كان فمه مفتوحًا عن آخره وكأنه يلهث طلبًا للهواء، ورأسه منحنيًا إلى الأمام وكأنه يحاول النهوض بدفع كتفيه، وإحدى ركبتيه مضمومة نحو صدره كأنه يدفع غطاء تابوت.

قالت المرأة ببعض الفخر: «لقد اتفق الأطباء على هذه المومياء. من المفترض أن الصبي كان مصابًا بالتخشب، أو كان ضحيةً لمعاملة وحشية. لقد أصبحنا نعيش في عصر أكثر لطفًا، حمداً لله! لقد دُفن حيًا، واستيقظ داخل القبر. فظل يصرخ، كما ترون، ويشهق طلبًا للهواء. وأُصيبت بشدة عضلات الساق، التي رفعها معذبًا لدفع جميع تلك الأقدام التي تعلوه من التربة، ما جعل من المستحيل فردها مجددًا. فثبتت على هذا الوضع. يا له من مسكين!»

ظلت تُعدّد لبضع لحظات مزايا العيش في العصر الحالي الأكثر لطفًا، بينما كان انعكاس الضوء الأحمر لشمعتها يرتعش صعودًا وهبوطًا على المومياء المعذبة، حتى صاح رجل بصوتٍ أجش: «كفى، يا إلهي! هذا يكفي!»

ولكن المرأة لم تتحرك، تقديرًا منها لنجاح عرضها، على ما يبدو. ثم أطفأت شمعتها بسبابتها وإبهامها من دون أن تقول شيئًا، وظلت المجموعة لبرهة من الزمن واقفةً في مكانها دون حراك وفي صمت تام في ظلمة الكهف المعتمة لدرجة أن الوافد الجديد سيعتقد



كانت المومياء المميزة هي المعروضة المروعة الأخيرة.

أن الكهف فارغ أثناء هبوطه الدرج الحلزوني. ثم انكسر حاجز الصمت في خفوت شديد بجانب مرفق السيد ريكاردو، عبر تنهيدة جعلت الدم يتجمد في عروقه عندما سمعها. لم تكن التنهيدة تُعبّر عن الشفقة ولا الرعب، بل اشتياق شديد لأن يُفرض هذا العقاب مجددًا.

«أوه! أوه!»

كانت صيحة خافتة تنم عن رغبة بدائية ووحشية، رغبة في إيذاء من لم يتعرّض للإيذاء بعد، رغبة في عقاب من لم يتعرّض للعقاب بعد، همسة حملت أسفًا على أن مثل هذا العقاب لم يعد ممكنًا.

حاول السيد ريكاردو أن يتذكر من يقف بجانبه. كان لديه انطباع بأنها امرأة، ولكنه لم يستطع التيقن من ذلك، وبينما كان يفكر، سمع صوت المرشدة من جديد. «سيداتي، ساداتي، كان هذا كل شيء. إذا استدرتم إلى الخلف، فسترون شعاعًا من الضوء يأتي من جهة الدرج. وأنت أيها السيد الذي جاء أخيرًا، الرسوم هي ٥٠ سنتيمًا. سأعطيك التذكرة عند كشك التذاكر.»

كان أعضاء المجموعة يُسرعون صاعدين الدرج مسرورين أن الجولة انتهت. واحتجز السيد ريكاردو عند قمة الدرج ليدفع نصف الفرنك ويحصل على تذكرته. ولكن كانت عيناه على المجموعة الصغيرة من الناس وهم يتفرقون، ومن بينهم، رأى فتاة تنأى بنفسها عن الآخرين وتسير بمفردها. كانت ترتدي ملابس مميزة دُهِش أن رآها على زائرة لهذا العرض الجنائزي. كان ثمة أمر غريب بشأنها، وتساءل عما إذا كانت هي من تنهت بجانبه. كان يرغب بشدة في استجوابها بشأن ذلك. ولكنه شعر ببعض الانزعاج عندما تعرّف إليها بعد تسعة أيام في غرفة استقبال قصر سوفلاك.

هل كانت إيفيلين ديفينيش؟ لا ريب في أن التناقض الكبير بين ذلك الكهف المعتم وتلك الصُحبة الكثيبة فيه وتلك الغرفة التي يغمرها ضوء الشمس التي تُطل على ساحل جيروند، قد أثر على حكم السيد ريكاردو. كان من المحال أن تكون تلك المرأة التي تنهت في الكهف هي نفسها تلك الفتاة الأنيقة التي كانت متعة للعين في غرفة الاستقبال. ونفض عن ذهنه هذه الشكوك حتى تلك اللحظة بعد العشاء مباشرة عندما تحدّثه أن ينكر أنهما وقفا معًا في المجموعة نفسها داخل كهف المومياءات. كانت قد أشاحت بعينيها بعيدًا عنه على الفور. وكانتا تبحثان عن جويس ويبل التي كانت مستلقية على مقعدها القصير. ولمع فيهما غضب شديد، وظلتا تحدّقان صعودًا من القدم النحيلة في حذاءها الفضي المطرز إلى الركبة بكرامية جارفة. لا ريب في أن إيفيلين ديفينيش كانت تفكر في تلك اللحظة في المومياء المشوّهة لذلك الشاب في كهف المومياءات! كانت تتخيل جويس ويبل في مكانه وركبتها تدفع في عذاب يائس غطاء التابوت. نعم، كانت إيفيلين ديفينيش هي من تنهت. إذن، بما أن الفتاتين اختفتا من قصر سوفلاك، وواحدة منهما قُتلت، فلا ريب في أن القتيلة هي جويس ويبل.

كانت تلك هي القصة التي رواها السيد ريكاردو أثناء قيادة سيارته عبر ريف فيلبلانش الذي تغمره أشعة الشمس. كان هانو ينصت له باهتمام تام، ولكنه هز رأسه في النهاية.

وقال: «يا صديقي، لم تكن امرأة هي التي نشرت تلك اليد اليمنى، حتى وإن استحوذت عليها كل الكراهية في العالم.»

ردَّ عليه السيد ريكاردو بكياسةٍ وصبرٍ وتعالٍ في الوقت نفسه: «ولكن لا ريب في أن معها شركاء يساعدونها. ألم تراودك هذه الفكرة؟!»

ضرب هانو جبهته في تعبيرٍ مبالغ فيه نوعًا ما عن اليأس.

وصاح: «هذا صحيح تمامًا! لقد أصبح هانو مسنًا. كيف كنت سأحل هذا اللغز وحدي؟! من حسن حظي أنك هنا، رئيس الأركان الذي يخبر القائد بما عليه أن يفعل، العقل المدبر لكل شيء. أنا أعتمد عليك. أخبرني بما تفكر فيه. أمامك وقت كافٍ لتفعل!» كانت السيارة تقترب من شارع فيلبلانز الطويل الذي تصطف منازل صغيرة بيضاء متربة على جانبيه.

«عندما كانت السيدة ديفينيش ترمق الرقيقة جويس ويبل بهذه النظرة القبيحة، من كان بجانب جويس ويبل؟ إلى من كانت تتحدث؟»

أعاد السيد ريكاردو بناء غرفة الاستقبال في مخيلته، بأثاثها والحاضرين فيها. ووضعهم جميعًا في أماكنهم، ثم صاح: «أنا أعرف. كان جالسًا بجانب جويس ويبل، وربما كان يجلس على مسافة قصيرة خلفها. نعم، من المؤكد أنه كان خلفها بمسافة قصيرة. فقد كان يميل إلى الأمام من فوق ظهر مقعدها؛ كان روبن ويبستر.»

قال هانو: «أها! ذلك الشاب الوسيم ذو الشعر الأبيض ولمحة التحديق في حديثه. ذلك الذي يملك وسامة أبولو وأسلوب معلمة، أليس كذلك؟ كان هو إذن. الرجل نفسه الذي صاح فجأة: «جويس! جويس!» عندما اكتشفنا أنها اختفت. هذا غريب بالفعل! حسنًا، سنعرف بعد قليل إذا ما كنت محقًا.»

توقفت السيارة أمام المشرحة. وسرعان ما أدرك السيد ريكاردو أنه مخطئ تمامًا. فقد كانت الجثة التي ترقد على سرير المشرحة، ملفوفةً بحرص في مُلاءةٍ كَتَانِيَةٍ نظيفة، وعيناها مغمضتان، ويبدو السلام على وجهها، هي جثةُ إيفيلين ديفينيش.

هبطت المفاجأة على السيد ريكاردو كالصاعقة، ولكنه شعر براحة أكبر. لقد كان يهتم لأمر جويس ويبل أكثر مما كان يدرك هو نفسه. ونَحَى جانبًا، ولو للحظة على الأقل، كل الأمور الغامضة المتعلقة بها، وكذلك الاحتمال الذي أشار إليه هانو في إيكس بأنها قد تكون اختلقت قصتها الغريبة حول خطابات ديانا تاسبورو لغرضٍ لا يعلمه أحد إلا هي. كان سعيدًا بأنها ليست المرأة الراقدة أمامه على السرير الحجري.

قال هانو وهو يحاول أن يستشف مشاعر صديقه من وجهه: «إنها السيدة ديفينيش، أليس كذلك؟»

«نعم». التفت هانو إلى المفوض هيربستال الذي انضم إليهما، وقال: «الأمر كما اعتقدت. فلنواصل العمل. فنحن نؤخر السيد ريكاردو عن غذائه.»

تقدّمهم عامل المشرحة، ومروا بممرٍ طلي باللون الأبيض، إلى غرفة في الجزء الخلفي من المشرحة. كانت الغرفة مليئة بالخزانات، وكانت السلة التي لا تزال مبللة بمياه النهر موضوعة على الأرض.

قال هانو: «أريد رؤية قطعة الكتان التي كانت المرأة المسكينة ملفوفة فيها.» فتح العامل إحدى خزاناته، وأخرجها وأعطاهها إلى هانو. لاحظ السيد ريكاردو أن أحد أطراف قطعة القماش مقطوع من قمته وحتى قاعدته، وأنها كانت ملطخة بالدماء. حمل هانو قطعة القماش نحو النافذة وقلبها ونفضها بقوة ثم لفها حولها مجدداً. عندما عاد إلى الغرفة مجدداً، كانت ملامح وجهه متغيرة. كان عابساً ومهموماً. كان من الواضح أنه لا يحب المهمة التي أداها منذ قليل.

قال وهو يضع قطعة القماش بحرص على أحد المقاعد: «أعتقد أن قطعة القماش هذه ستكون على جانب كبير من الأهمية.»

ثم اتجه ناحية السلة وفتحها. لم يستطع السيد ريكاردو أن يرى من حيث يقف ماذا يوجد في داخلها. فسار على أطراف أصابعه حتى أصبح بجانب هانو. كانت السلة مغطاة بنوعٍ ما من قماش القنب القوي الأبيض، والذي كانت بعض أجزائه ملطخة بالدماء. انحنى هانو ليفحص داخلها عن كُتب بسرعة متحسّساً البطانة المبللة عند الأركان.

وقال: «إنه ممزق هنا.» وضع إصبعه داخل الشق، ثم تصلب وجهه. فنهض واقفاً، وقلب السلة على جانبها وانحنى لينظر عن كُتب إلى نسيج الخوص عند أحد أركانها بالقرب من قاعدتها.

قال محدثاً هيربستال: «انظر!» كان يشير إلى وتد مصنوع من معدن أصفر يبرز من بين شرائط الخوص. أعاد السلة لتقف على قاعدتها مجدداً، وغاصت يداها داخلها وظلتا تعملان لبضع لحظات بكد شديد. وعندما وقف منتصباً من جديد، كان يمسك في يده سواراً ذهبياً صغيراً. وكان مفتوحاً. كان ثمة وتد صغير صُمم لينزلق داخل تجويف، حيث يمسك به نابض ويثبتته، وعند القفل كان هناك حجر أوبال ناري كبير. شق السيد ريكاردو في دهشة بينما ينظر إليه.

وسأل: «هل يمكنني فحصه؟» وأعطاه إياه هانو الذي كان يمسك بطرفيه بين أصابعه بحذر شديد.

سأل هانو: «هل تعرفه؟»

أجاب السيد ريكاردو والحيرة مرتسمة على وجهه: «لقد رأيته من قبل.»
«أين؟»

«في لندن.»

انتقلت بعض الدهشة من وجه السيد ريكاردو إلى وجه هانو.

«ولكنني اعتقدت أنك لم ترَ إيفيلين ديفينيش قبل الأمس.»

قال السيد ريكاردو: «هذا صحيح. عندما رأيت هذا السوار كان في معصم جويس ويبل. إنه يخصها.»

«يخصها!»

ظل هانو ينقل بصره بين ريكاردو والسوار، والسوار وريكاردو.

ثم قال ببطء: «هذا عجيب.» ثم قلب السوار الذهبي ونظر إلى ما في داخله. ولكن لم يكن ثمة أي كتابات. ثم طلب ورقةً ولف السوار في داخلها بحرص ووضعها فوق قطعة الكتان المطبقة.

وقال: «ربما تكون ثمة بصمات أصابع عليه قد تساعدنا.» وظل واقفاً يحدّق فيه مجدداً، كما لو أنه، رغم أنه داخل الورق، يمكنه إجباره على البوح بسر وجوده داخل السلة. ثم انحنى مجدداً فوق السلة، وغاص داخلها، وفحص كل شق بين أشرطة الخوص به. ولكنه لم يكن يخفي أي أسرار أخرى. عاد هانو ليقف منتصباً.

وقال: «سيدي المفوض، ستتولى أنت أمر قطعة الكتان والسوار وتخضعهما لفحص دقيق.» ثم التفت نحو ريكاردو وقال: «في الوقت نفسه، سنعود أنا وأنت إلى قصر سوفلاك. سأطلب منك أن تتوقف عند مكتب السيد تيدون، قاضي التحقيقات، ولكننا لن نستغرق سوى بضع دقائق. فلا يوجد ما أخبره به سوى أننا في بداية قضية مظلمة ومرعبة للغاية.»

خرج من المشرحة بخطوات بطيئة ثقيلة فقدت خفتها بالكامل. للمرة الثالثة شعر السيد ريكاردو بتقهقر صديقه وتردّده.

قال هانو وهما يستقلان السيارة، وكان يُجيب عن سؤال السيد ريكاردو الذي لم يطرحه: «هذا صحيح، أنا آخذ لمحةً عن الأشياء التي لا أحب أن أراها. ثم أفحصها كاملةً

قبل أن أصل إلى النهاية. كنت سأقول للسيد تيدون لو استطعت: «سيدي، هذه القضية لا تناسبني.» ولكنها قضية تناسبني. لقد استدعوني إلى بورديو لأتولى قضية اختفاء بعض الأشخاص، كانت في ظاهرها قضية سهلة، عادية، مملة، يمكن حلها بالقليل من التركيز. ولكن اختفت صديقتك الأنسة ويبل أيضًا. هل حالة الاختفاء هذه قائمة بذاتها؟ أم أنها ترفع بقية حالات الاختفاء إلى مستوى مؤامرة كبيرة مريعة؟ لا أعرف!» ضرب بقبضته المضمومة بطانة المقعد بجانبه.

وصاح بقوة: «ولكني يجب أن أعرف. هذا عملي.» ومن تلك اللحظة حتى انتهاء التحقيقات الطويلة المضنية، لم يلحظ السيد ريكاردو أي تردد على هانو. قال ريكاردو مترددًا: «ثمة سؤال أود طرحه عليك.»

رد عليه هانو: «اطرحه يا صديقي، فثمة الكثير من الأسئلة التي أود طرحها عليك.» «هل كانت اليد المقطوعة موجودة في السلة؟»

هز هانو رأسه نافيًا. «لا! أمر مثير للشفقة. نعم، الكثير من الشفقة. فلنحل هذه القضية، علينا أن نكتشف لم تُقطع، وأعتقد أنه من بين كل الأسئلة التي علينا الإجابة عنها، هذا السؤال هو الأكثر أهمية على الإطلاق.» ثم توقفت السيارة أمام مبنى المحافظة.

الفصل الثامن

القاضي المسئول

كتب القدر، الذي لا تهمه راحة المخلوقات مطلقاً، على السيد ريكاردو، الذي يولي اهتماماً خاصاً براحته، ألا يتناول وجبة غداء تستحق الذكر في هذا اليوم غير العادي. بينما كان هانو يدخل بهو مبنى المحافظة، مرَّ به رجل توقَّف فجأةً ملتفتاً إليه باهتمام. وسأل: «هل أنت السيد هانو؟»

رد عليه هانو ناظراً إليه: «نعم.» «يا للحظ الحسن! أنا آرثر تيدون، قاضي التحقيقات، كنت الآن في طريقي إلى قصر سوفلاك لأبحث عنك.»

ظل الرجلان يتحدثان بجدية لبضع دقائق في ظل الممر المسقوف، بينما جلس السيد ريكاردو في السيارة وشعر بأنه سيفقد الوعي بسبب عدم تناول أي طعام. ثم ظهر الرجلان تحت أشعة الشمس واقتربا منه.

قال هانو، وهو يتنحَّى جانباً ليُفسح الطريق بينهما: «هذا صديقي، السيد ريكاردو؛ السيد تيدون، قاضي التحقيقات.»

كان آرثر تيدون رجلاً طويل القامة ونحيفاً، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، وكان ذا وجه نحيل بشوش مدبب الذقن. كان حليق الوجه فيما عدا شارباً رقيقاً يمتد إلى كلتا وجنتيه، وكانت ملابسه تحمل طابع الأناقة الحضرية.

بدأ تيدون حديثه في ود قائلاً: «أعرف اسم السيد ريكاردو بالطبع وصلته بالشهير هانو وقضية إيكس منذ بضعة أعوام. أعتبر نفسي محظوظاً أن العناية الإلهية أرسلتكما معاً إلى هنا مجدداً في هذا الوقت المهم. أنا أدعوكما لأن تولياني بعضاً من اهتمامكما في مكنتي.»

كان السيد ريكاردو متحيراً بين أهميته والجوع الذي يفتك بمعدته. فمن جانب، كانت أمامه قصة تُثير اللعاب وتحقق العدالة، ولغز جويس ويبل، ومعاونة ديانا تاسبورو،

وكانت كل هذه الأمور يجب أن تُروى على الفور. ومن جانب آخر، ألن يحكي كامل هذه القصة على نحو أوضح بعد تناول الغداء، وتدخين سيجار كبير وطويل وسميك لكي يقصها بأسلوب درامي؛ أن يصمت لثانية بينما تخرج من فمه دائرة مثالية من الدخان والعيون تراقبها متألمة وهي تصعد لأعلى في الهواء وتتبدد، وتتبعها زفرة حارة تنم عن دقات قلبه المتسارعة، وكتلة من الرماد الأبيض تنفثها أصابعه القصيرة يختم بها الجُمْل؟ من الصعب تجاهل ملحقات فن السرد البارع تلك، وكان من الأصعب أن يتجاهل فراغ معدته، ولكن كان القاضي قد فتح باب السيارة حقًا، وأجبر السيد ريكاردو قدمه على أن تخطو خارجها.

تقدّمهما تيدون إلى غرفة ضخمة مستطيلة أنيقة الأثاث بجانب المدخل الرئيس. كانت ثمة نافذتان طويلتان تُطلان على الشارع، وطاولة قصيرة موضوعة بينهما، وبجانب الحائط، كانت ثمة طاولة أصغر جلس إليها مساعد القاضي يكتب.

قال تيدون: «سأدق جرس الاستدعاء عندما أنهي لقائي مع السيدين يا سوساك.» نهض المساعد على الفور وكانت خيبة الأمل باديةً على وجهه، وخرج من الغرفة وعيناه مثبتتان تمامًا على هانو لدرجة أن أنفه اصطدم بألواح الباب.

صاح السيد تيدون ضاحكًا: «يا للمسكين سوساك! لقد انفطر قلبه. لا تحدث أمور مهمة في هذه المنطقة؛ كانت سرقة ملابس الكاهن هي الحدث الأهم. ثم تأتي هذه القضية المفزعة. ثم فجأة، يرى السيد العظيم هانو من النافذة ومعه صديقه الشهير السيد ريكاردو يصلان بالسيارة أمام الباب، ثم يُرسل خارج الغرفة. نعم، يا له من مسكين!» وضع تيدون قُبْعته على طاولة جانبية وأسند عصاه الخشبية إليها، ووضع مقعدًا أمام طاولته ليجلس عليه ريكاردو، ومقعدًا آخر من أجل هانو، ثم وقف خلفه يواجههما. وقال مرةً أخرى ضاحكًا، ولكن كان صوته يحمل نبرة اعتذار هذه المرة: «هل فهمتما ما أعني؟ إننا نستخدم هنا جميع الأساليب السيئة السمعة، مثل أن يكون الضوء خلفي ويسطع في وجهيكما. جميع من يخضعون للتحقيق يُدركون الحيلة القديمة ويَحْضُرُون تعبيرات لهزيمتها. ولكنني أراعي ترتيب الأثاث لأنه يجعل الضوء يأتي من فوق كتفي اليسرى، ولا يكون ثمة ظل ساقط على الورق بينما أكتب.»

تساءل السيد ريكاردو عمّا إذا كان قاضي التحقيقات يُثرثر بشأن تلك الطرق المتجاوزة لجعلهما يشعران بالراحة، أم أن هذا يرجع إلى شعوره بالعصبية لأنه مضطر إلى مواكبة معضلة على هذه الدرجة غير المعتادة من الخطورة. بعد ذلك، جلس مباشرةً

على المقعد الوثير خلف الطاولة ناقلًا بصره بين ضيفيه، ثم انحنى نحو الأمام بحركة سريعة، وضم يديه، اللتين كانتا داخل قفاز أصفر فاتح، أمامه.

قال مبتسمًا: «سأكون صريحًا تمامًا معكما، وأخبركما باعتراف. أنا من باريس كما تعرفان، وهناك لديّ الكثير من الأصدقاء المهمين، وفي وقتٍ ما، وبلا أدنى شك، يمكنني أن أساعد أولئك الذين ساعدوني.» كان يتحدث وهو ينظر نحو هانو مباشرة: «وأريد أن يحين ذلك الوقت سريعًا. فيما يتعلق بمهنة القضاء، أعلم جيدًا أنه يجدر بي أن أنجح أولاً في مدة اختباري في الأقاليم. ولكن هذه المنطقة المتربة لا تناسبني على الإطلاق، وها قد حانت فرصتي لأهرب منها بمساعدتكما. سيتردّد صدى هذه القضية في ربوع فرنسا، بفضل شهرة نبيذ قصر سوفلاك، ومكانة الضحية الاجتماعية، وغموض وفضاعة الجريمة، كل ذلك سيجعل ذلك أمرًا مؤكدًا بلا ريب. حسنًا إذن! لا بد أن أحصل على مجرم، وعلى دليل إدانة لا يدع مجالًا للشك.» ضغط يديه معًا بقوة، ثم شقق شهقة سريعة وخاطفة، وقال في سرور ضاحكًا من نفسه على شدة رغبته في ذلك: «نعم، دليل لا يدع مجالًا للشك! ساعداني في ذلك، ومن ثم سأنتقل إلى بوردو؛ فهي مدينة يمكن للمرء أن يعيش فيها برخاء. ومن بوردو إلى باريس، وهذه خطوة مؤكدة! لقد أصبحت أتخيل نفسي هناك حقًا. إن باريس ...» ثم التفت نحو السيد ريكاردو باحثًا عن طريقة للتعبير عن أفكاره، وقال: «أنت تملك تعبيرًا اصطلاحياً عن ذلك في لغتك ...»

صاح هانو مقحمًا نفسه في المحادثة قبل وقت طويل من تجهيز السيد ريكاردو عبارةً ليعطيها إلى تيدون: «بالطبع يملكه.» يا للتعبيرات الاصطلاحية! مَنْ أفضل من هانو قد يُمدّه بها؟

صاح وهو يهز رأسه في أدب: «باريس! إنها وطنك الروحي.» أجابه القاضي: «بالضبط.» وأومأ الرجلان أحدهما للآخر في رضا تام. قال السيد تيدون: «لا ريب في أن اللغة الإنجليزية تملك تعبيرات جيدة.» وأومأ إلى السيد ريكاردو مرةً أخرى في أدب.

«حسنًا، بعد توضيح الأمور. فلنبداً العمل، ثلاثتنا، من أجل تحقيق قناعة لا ريب فيها أمام محكمة الجنايات. جيد! سيد ريكاردو، هل رأيت جثة الضحية الشابة؟»
«نعم يا سيدي.»

«وهل تمكّنت من تحديد هويتها؟»

«نعم. إنها السيدة إيفيلين ديفينيش؛ واحدة من ضيوف قصر سوفلاك.»

«جيد! هذا تقدّم جيد. ماذا تعرف عنها؟»

أجابه السيد ريكاردو: «لا شيء. كان لقاءنا ليلة أمس هو لقاءنا الأول. لم أسمع باسمها من قبل على الإطلاق. ولكنني لاحظت أنه على الرغم من تقديمها لي على أنها سيدة متزوجة، لم تكن ترتدي خاتم زواج.»

حدّق القاضي تيدون في وجه شاهده في حنكة، وقال: «هذا أول طرف خيط لدينا. حسنًا، أنت تفترض أن إيفيلين ديفينيش امرأة ذات حياة غير قديمة.»

جفل السيد ريكاردو في زعر. ثم بدأ يفكّر. هل قال صراحةً إنه لم يفترض ذلك؟ لقد شعر ببعض الانزعاج بعدما أدرك التخمينات غير المسئولة التي يُدفع للتصديق عليها. فأجاب بحذر: «لا أملك أدنى قدر من السلطة يؤهّلني لأن أفترض مثل هذا الافتراض. النساء ينسبن خواتمهن على أحواض الحمامات.»

«هل قد يحدث ذلك مع خاتم زواج؟»

«ربما تخلصت منه منذ أمد بعيد وطُلق من زوجها.»

«ولكنها لا تزال تحتفظ بقلبه؟»

«ربما كان ديفينيش هو اسم عائلتها هي. لا أعرف. ولكن لا ريب في أن الآنسة

تاسبورو تعرف.»

كان الضجر في نفس السيد ريكاردو يزداد بسبب طرح تلك الأسئلة عليه، وبسبب القصور الذي سبّبه حديثه.

لاحظ القاضي ذلك، فقال: «أتمنى لو تمكّنت من إعفاء هذه الشابة من الإزعاج قدر إمكانني.» احمرّ وجه السيد ريكاردو بفعل هذا التأنيب، وهو يسمع القاضي يقول: «لا ريب في أنك صديقها. يمكنك أن تخبرني بكل شيء.»

فكّر السيد ريكاردو بحذر شديد في إجابة عن هذا السؤال. كانت عبارة «كل شيء» تعني التفاصيل الصغيرة الغريبة، كما كان يُحب أن يطلق عليها. على سبيل المثال، المخاوف التي أثارته خطابات ديانا في نفس جويس ويبل. التباين اللامع الذي كان قائمًا بلا ريب بين عقل الكاتبة وعقل القارئة، والكلمات المكتوبة في الخطاب التي تعمل بمثابة خط التلغراف. ولكن ليس عدلاً في مثل هذا السياق العصي على العقل افتراض أن ديانا كانت تتعرّض أثناء كتابة هذا الخطاب لتهديد خطير جعلها تكون حريصة للغاية ألا ينفلت منها أي تلميح عنه. لا، لن يذكر الخطابات في إجابته من الأساس. كما أنه من المؤكد أن ديانا قضت شهور الصيف في بياريتز وليس في لندن. حسنًا، هذا أمر غير مهم.

ثالثاً، فسخت ديانا خطبتها من حبيبها. ولكن قد تفعل أي فتاة ذلك. فربما رأت الفتاة رجلاً على أنه بطل مغوار منذ أسبوع، ولكنها أضحت تراه اليوم مصدر إزعاج لا ينتهي. هذه طبيعتهن. قد تصلح هذه المعلومة نعمةً تتناولها الصحف، ولكنها لا تصلح دليلاً على جُرم. رابعاً، تمتلك ديانا لوحةً معلقةً على الجدار فوق فراشها كان السيد ريكاردو يتوق لرؤيتها. ولكنه لم يرها، وعلى أي حال، هذه قضية هانو، وليست قضيةه هو. الأمر الخامس والأهم على الإطلاق، كان هو، السيد ريكاردو، ضيف ديانا، ولن يكفي ١٠ آلاف شخص على شاكلة آرثر تيدون يودون الانتقال إلى باريس في أسرع وقت ممكن أن يجعلوه يذمها. وبناءً على ذلك، أطرى على مكانتها الاجتماعية، وأصدقائها الكثر، وحبها للرياضة. سأله القاضي على الفور: «وهل رأيت أي تغُّير طرأ على هذه الشابة ليلة أمس؟»

شعر السيد ريكاردو ببعض الحيرة. فكَرَّر العبارة ببطء: «ليلة أمس؟» وهزَّ رأسه وبدأ يصف رعبها ودهشتها المتزايدين هذا الصباح عندما اكتُشف اختفاء صديقتها، وقال: «لقد فقدت الوعي في نهاية المطاف. واضطَّر السيد هانو إلى حملها إلى غرفتها.»

قال هانو على الفور مؤيِّداً: «نعم يا سيدي. كانت مصدومةً بشدة. لقد أُلقيت الأخبار السيئة دون مقدمات. فقدت الأنسة ديانا وعيها.»

كان السيد تيدون يدوّن ملاحظةً من وقتٍ لآخر بينما السيد ريكاردو يتحدث. وبدأ يطرق الطاولة بمؤخرة قلمه الرصاص في عدم رضا. كان لا يزال بعيداً كل البعد عن تلك القناعة غير القابلة للشك التي ستُحقَّق له أمنيته.

ثم قال: «ماذا عن تلك الشابة الأخرى، الأنسة ويبل» كان قد نطق اسمها فيبل «هل كنت تعرفها قبل الأمس؟»

«نعم».

شعر السيد ريكاردو بارتياح أكبر. فلم يكن ثمة أمر أكثر أهميةً بالنسبة إليه من لغز اختفائها للكشف عنه. أخبر القاضي بكل ما يعرفه عنها. وأعطاه كامل تاريخها الذي يعرفه، وأضاف: «ولكنني لم أتوقَّع رؤيتها في قصر سوفلاك. لا! فمنذ شهرين، التقيتها في لندن، وأخبرتني أنه من غير المرجح أن تتمكَّن من الحضور، وأنها يجب أن تعود إلى أمريكا، واستخدمت عبارةً غريبة: «يجب على سندريلا أن تغادر الحفل قبل منتصف الليل.» هذه عبارة من الغريب أن تتفوه بها شابة تمتلك بئر نفط في كاليفورنيا. لم أفهم ما تعنيه.»

قال تيدون: «أنا مثلك. هل لها أقرباء؟»

«شقيقة متزوجة..»

«في أمريكا؟»

«نعم..»

«هل هي مخطوبة؟»

«لا أعتقد ذلك..»

زاد الإحباط البادي على وجه القاضي أكثر فأكثر. ثم قال في وجوم: «لا ريب في أننا يجب أن نُجري تحقيقاً في إنجلترا، ولكننا سنحتاج إلى طُرُق الكثير من الأبواب. سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن نحصل على إجاباتنا، وعندما نحصل عليها ...» ونهض واقفاً فارداً يديه في القفاز، وقال: «هل يجدر بنا أن نبدأ العمل؟ هل عملت على قضية أصعب من تلك يا سيد هانو؟»

لم يطمئنه هانو. وأراد أن يضيف المزيد من التعقيدات إلى القضية. فقال: «لقد زادت صعوبتها بعدما اكتشفت السوار..»

صاح القاضي بحدة: «أي سوار؟ أي سوار؟»

«سوار جويس وبيل الذي عُثر عليه في السلة منذ نصف ساعة.» قص هانو كيفية اكتشاف السوار، وكيف أن السيد ريكاردو حدد أنه يخص جويس، وأنهى حديثه بطرح سؤالين لم يتمكن الرجلان الآخران من الإجابة عنهما.

«هل انزلق السوار من اليد المقطوعة دون أن يلحظه أحد؟ هل وُضع في السلة عن عمد حتى يُعثر عليه بعد بحث وتوجّه أصابع الاتهام نحو جويس وبيل؟ مَنْ يدري؟»

هز القاضي كتفيه في يأس، وقال: «لا أحد يعلم في الوقت الحالي.» ولكنه نظر نحو هانو واختفى العبوس عن وجهه وجعلته ابتسامة أمل وسيماً، وقال: «ولكن دعنا لا ننسى أن معنا السيد هانو. وسنعرف كل شيء خلال بضعة أيام.»

أوماً الرجلان أحدهما إلى الآخر مرةً أخرى في ود مهذب رآه السيد ريكاردو أنه سخيف للغاية في ظل كل تلك الحيرة والفوضى. بعدما انتهت الإيماءات، تحرّك القاضي ليدور من حول حافة الطاولة.

وقال سامحاً لضيفيه بالانصراف: «وحتى يتحقّق ذلك، هذا كل ما عليكم إخباري به ...»، ولكن قاطعه السيد ريكاردو.

فقد صاح في خوف دون أن ينهض من مقعده بينما كان الرجلان الآخران واقفين: «ولكن هذا ليس كل شيء يا سيدي.»

توقف القاضي فجأة. وقال: «ألم يكن هذا كل ما تريد قوله؟»

«لا، لم أخبرك بأنني استيقظت في تمام الثانية من صباح اليوم.»

حدث تغَيُّرٌ كبير في الغرفة لدرجة أن جوَّها نفسه تغيَّر، وتغيَّرت تعبيرات وجهي الرجلين الآخرين في الغرفة. فقد كانا منذ ثانية متحيرين ويائسين، ولكنهما أصبحا الآن يقظين ومنتبهين. وأضحت الأجواء مشحونة. ولجم الترقُّب لسانيهما، ولم يختلف حال السيد ريكاردو عن رفيقيه؛ فقد كان يقع على عاتقه الآن رواية القصة، وبالنسبة إلى هذين العقلين المدريين جيِّداً، يجب أن تكون قصته هي أشعة الشمس التي تُبدِّد الضباب. لم يستخدم سوى الكلمات البسيطة، وقالها بصوتٍ ثابت النبرة وواضح، وساعده في ذلك أن رفيقيه كانا يستمعان إليه محبوسَي الأنفاس، وشعر للحظة غير مسبوقه بمثل ما يشعر به الفنان عندما يحقِّق نجاحاً. أخبرهما عن أرقه، ونظره في ساعته، ورفع الستائر. وتخيَّلاً معه أنوار الطابق الأول وهي ترتعش في منزل روبن ويبستر، والأنوار التي سطعت من نوافذ المنزل الأبيض فوق التل. وخرجا معه إلى الشرفة المظلمة وطرقا الباب الزجاجي لغرفة البرج. ورأيا معه الأنوار خلف الستائر وهي تنطفئ على الفور، وعادا معه إلى غرفة نومه، وشاهدا معه أنوار النوافذ فوق التل وهي تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. حتى بعدما أنهى السيد ريكاردو قصته، ظل مستمعاه الاثنان واقفين في مكانيهما لبرهة من الوقت، دون أن يتحرَّكا أو يتحدثا، وكأنهما تعرَّضا لصدمة.

كان هانو هو من كسر حاجز الصمت، قائلاً: «وغرفة البرج التي تتحدَّث عنها؛ آه، أذكر جيِّداً تعاملك بلطف، ولكن، للأسف! لا مجال هنا للطف أو التحفُّظ؛ هي الغرفة التي حُمِلت الأنسة ديانا تاسبورو إليها صباح اليوم.»

لم يجد السيد ريكاردو بُدّاً من الاعتراف. فقال: «نعم. إنها غرفتها.» ف ضرب القاضي من منطلق سخطه بسبب مدى صعوبة هذه القضية، سطح طاولته براحة يده اليمنى واستدار فجأة نحو النافذة خلفه. ووقف في مكانه ينظر إلى الشارع. ثم رفع يده إلى المزلاج وبدأ يعبث به، وكان جسده يميل إلى الأمام والخلف، كان على وشك الجنون.

قال بصوتٍ خفيض مبجوح: «أؤكِّد لك أمراً واحداً يا سيد هانو قد يساعدك. المنزل فوق التل هو منزل السيد دو ميراندول الذي التقيته ليلة أمس يا سيد ريكاردو. إنه طالب شغوف، وعضو في الكثير من المجتمعات الثقافية، ومن المعتاد أن تظل الأنوار ظاهرةً عبر نوافذه حتى الفجر. ولكن ...» ثم استدار ليواجه الغرفة، وقال: «مهمتنا الأولى واضحة، أليس كذلك؟ العثور على تلك الفتاة جويس وييل، إذا أمكننا ذلك. أنا أُوكل هذه المهمة لك

يا سيد هانو، وأنت تمامًا بأنك ستؤدّيها على أكمل وجه. اعثر عليها من أجلي، سواء كانت حية أم ميتة.»
«حية!»

خرجت تلك الكلمة من بين شفّتي هانو في صورة صيحة عالية وعنيفة لدرجة أن صداها تردّد في أرجاء الغرفة. ووقف منتصبًا، وعيناه تقدحان شررًا، وجسده الضخم من قمة رأسه حتى أخمص قدميه أصبح تجسّدًا للتحدي والإنكار. حتى إن السيد ريكاردو، الذي رأى الكثير من حالاته المزاجية، جفل من فرط حماسه. كانت صيحته ملتهبة. إنه لا يعتقد بأن جويس وبيل ماتت. كان مستعدًا لقتال الموت نفسه من أجلها، مثلما فعل هرقل في المسرحية. حتى تيدون نفسه تأثّر بمظهره.

فصاح مبتسمًا: «جيد. هذه هي الروح المطلوبة. حية إذن! أنا أعتد عليك. نعم، حية بالطبع. ففي نهاية المطاف، إننا لا نعرف شيئًا. ربما كانت العدالة تحتاج هذه السيدة الشابة.» وتسلّلت نبرة قاسية إلى صوت تيدون.

ثم وقف منتصبًا مثلما فعل هانو مواجهًا له صامتًا. وتساءل ريكاردو عما إذا كان الرجلان ليسا على الجبهة نفسها. لا ريب في وجود لمحة من التهديد في سلوك القاضي، ولمحة من البطولة في سلوك المحقق. كان القاضي يريد «دليله القاطع»، وألاّ يجب نسيان ذلك. وعلى الجانب الآخر، ربما لم تكن فورة غضب هانو سوى تعبير عن شغفه في حل القضية على أكمل وجه، وتقديم جميع الجناة إلى العدالة. حتى هانو رأسه في احترام لا ريب فيه.

وقال: «سأبذل أقصى ما في وسعي.»

دق تيدون الجرس، فدخل شرطي وقاد الزائرين إلى مدخل مبنى المحافظة. نظر هانو نحو نوافذ مكتب القاضي التي كانت تعلق رأسه بقليل.

وقال بنبرة تنم عن الاحترام فاجأت صديقه: «إنه رجل ذكي للغاية. تذكر كلماتي هذه! رجل ذكي للغاية! تذكر أنني قلت ذلك.»

ومجددًا، هل كانت هذه الكلمات تنبع عن احترام، أم عن اعتراض؟ لم يستطع السيد ريكاردو أن يقرّر، في الواقع، لم يتوفّر له الوقت الكافي ليقرّر. فقد أقدم هانو على ارتكاب مخالفة يتأذى منها الناس الحساسون الشديديو التدقيق. لقد أعطى لسائق السيد ريكاردو أمرًا من دون أن يستأذنه.

فقد صاح وهو يدخل السيارة: «إلى قصر سوفلاك.»

فقال السيد ريكاردو معترضًا: «هذه الرولز رويس سيارتي أنا.»
رد عليه هانو في بساطة: «حتى وإن كانت فورد. سيكون عليك أن تُقلني إلى قصر سوفلاك.»

قفز السيد ريكاردو على مقعده، وقال في برود: «أخشى أنك لا تفهم ما أقول.»
قال هانو ضاحكًا: «بل أفهم!» ودفع إصبعه الضخم البدين بين ضلوع ريكاردو.
وقال: «نعم، نعم، أنا أفهمك. إنه ذلك القاضي البارع هو مَنْ لا يفهمك. آه! آه! آه! وهز إصبعه في صدر ريكاردو كما لو كان يوبّخ طفلًا سيئ الخلق، وقال: «أنت تُخفي أسرارًا عني؛ نعم، نعم. أنت تننقي ما تقول وما تُخفي؛ نعم، نعم. ولكني، هانو، أقول، لا، لا! لقد طُرح علينا سؤال، وعلى الفور أصبحنا نُشبه عنزة جبل ذاهلة فوق تل.»
قاطعه السيد ريكاردو شاعرًا بالذنب: «محض هراء. لم أكن أشبه عنزة الجبل. ولم أكن كذلك قط.»

واصل هانو حديثه: «كان السؤال كالاتي: «هل لاحظت ليلة أمس أي تغير طرأ على الآنسة الفاتنة تاسبورو؟» ولم تستطع أن تجيب السؤال. هذا يعني أنك لاحظت تغيرًا يا صديقي؛ وستخبر هانو الفيل الفضولي العجوز عن هذا التغير.»
قال السيد ريكاردو: «أنا لا أمانع إخبارك، ولكن التغير الذي لاحظته لا يمت بصلة للقضية.»

«دعني أنا أقرّر ذلك. مَنْ يعلم.»
«حسنًا إذن. في لندن، كانت ديانا تاسبورو هي السيدة طوال الوقت. وكانت السيدة تاسبورو هي التابعة، مجرد وصيفة لا تملك أي سلطة. أما في سوفلاك، انقلبت الأدوار. أصبحت السيدة تاسبورو هي سيدة القصر، وأصبحت فظةً للغاية، وكثيرة المطالب للغاية، وأصبحت ديانا وصيفة خاضعة خائفة. وأذهلني هذا التغير.»
«أوه!»

اعتدل هانو في جلسته داخل السيارة.
وقال: «ولكن هذا تغير مهم يا صديقي، تغير مهم للغاية. دعنا نحاول فهمه. لقد منح شيء ما المرأة المسنة سلطةً على ابنة أخيها. ربما عرفت شيئًا منحها هذه السلطة، أليس كذلك؟ ربما كان الأمر ابتزازًا عائليًا يحدث بكل هدوء وأناقة، أليس كذلك؟»
أجابه السيد ريكاردو: «لا.» كان واثقًا بأن هذا التفسير ليس صحيحًا. واستغرق بضع لحظات ليُكوّن الكلمات التي تمكّنه من التعبير عمّا يشعر به. ثم قال: «أعتقد أن

ديانا كانت مشغولةً بفكرةٍ ملكت وجدانها. فكما ترى، لم يكن ثمة أي منافسة بين ديانا والسيدة تاسبورو؛ لا يوجد أي صراع على السلطة. فقد امتلكتها ديانا من دون معارضة، وقبلت السيدة تاسبورو دون معارضة. يبدو لي أن ديانا تخلّت عن هذه السلطة لأنها لا تستحق العناء، ولأنها تسبّب لها الكثير من المشكلات، ولأنها تتداخل بطريقة ما مع الأمر الذي يستحوذ على وجدانها. واستغلت السيدة تاسبورو ذلك واستحوذت على كامل السلطة. لطالما كانت ديانا انطوائيةً إلى حدٍّ ما، وبدا لي ليلة أمس أنها لم تلحظ حتى إنها لم تعد الملكة، بل أصبحت الوصيّة.»

«أه!»

جاء هتاف هانو تعبيراً عن الفهم وليس الدهشة. ثم أضاف في هدوء: «هذا التغير أثار اهتمامي للغاية.» ثم عاد ليسند ظهره مجدداً في مقعده ويجلس صامتاً حتى توقّف أمام الممر المسقوف الوردي في قصر سوفلاك. حينئذٍ، عادت له الحياة مجدداً. وقال وهو يقفز إلى خارج السيارة:

«سأكون ممتناً لك لو دخلت المنزل قبلي وأخبرت الجميع بعودتنا. ربما تكون الآنسة تاسبورو أول من تلتقيه. لقد سبّبت قدراً كبيراً من المعاناة لهذه الشابة. وربما تُصدم إذا وجدتني واقفاً أمامها مجدداً على حين غرة.»

كانت ثمة أوقات يُظهر فيها هانو قدراً مدهشاً من الرقة. فحدث السيد ريكاردو نفسه بفخر قائلاً: «في نهاية المطاف، أحدثت صداقتنا الطويلة تغييراً فيه نحو الأفضل.» وافق ريكاردو على خطة هانو بلا تردد، واتجه نحو باب المنزل بمفرده. ولكنه لم يكد يصل إلى منتصف الطريق المؤدي إليه حتى استدار ورأى أن هانو قد دخل في محادثة مع سائق ريكاردو. اتخذت أفكار ريكاردو مساراً مختلفاً وانتقادياً.

فكان يفكر في تلك اللحظة: «لقد استولى على سيارتي، والآن سائقي! إنه يتصرف وكأنه يمتلكهما! لا ريب في أنني لست إقطاعياً، ولكن حتى الحريات المدنية لها حدود.» أراحته سخريته قليلاً، ولكنه استدار مرةً أخرى عندما وصل إلى الباب الأمامي. وكانت المحادثة عند الممر المسقوف لا تزال قائمة. واتضح للسيد ريكاردو أن هانو أرسله إلى المنزل قبله، ليس من منطلق رقة مشاعره، بل ليؤفّر لنفسه الفرصة كي ينفرد بسائقه في محادثة خاصة. لذا، انتظر في الشرفة حتى لحق به هانو، وكانت قسّامات وجهه تنم عن الكثير من العجرفة والاستياء. ولكن لوّح هانو بيده في حالة من اللامبالاة.

«أعرف، أعرف يا صديقي. لقد كانت حيلة. نعم، إن أخلاقي في حالٍ يرثى لها. ولكن يجب أن تتقبّلني كما أنا. فكما تقول العبارة الاصطلاحية، كل إناء بما فيه ينضح.»

الفصل التاسع

مَن إيفيلين ديفينيش؟

ظل هانو مشغولاً طوال نصف ساعة مع المفوض هيربستال ومساعدته مورو، في غرفة خُصِّصت لهم. تَرَكَ السيد ريكاردو بمفرده، وبدأ يدخل في متاهة من الشكوك، والتخمينات، والظنون، والجهل، وتناول غداءه وجلس في المكتبة أمام النافذة. في منتصف المسافة بين الشرفة وسياح الشُّجيرات عند الجزء الأدنى من الحديقة، وقف شرطي عند حافة حوض زهور مستدير. كانت ثمة ثلاث كومات صغيرة من التراب على سطح حوض الزهور، كما لو أن حيوان خُلد كان يحفر هناك، وعندما فُكَّر جوليوس ريكاردو في هذا الحيوان النشيط شعر بالانزعاج وهبط عليه إلهام. فأخذ ورقةً من على حامل الورق ليرسم جدولاً يُنظَّم فيه أفكاره. رسم خطأً فاصلاً من قمة الورقة إلى قاعدتها يقسمها نصفين، ووضع الحقائق، التي عرفها حتى تلك اللحظة، على اليسار، ووضع التساؤلات والشكوك على اليمين. بعد نصف ساعة من اللهاث وإمعان الفكر، كتب الخلاصة الآتية، وفوقها كتب العنوان التالي: «قضية قصر سوفلاك»:

قضية قصر سوفلاك

- (١) ثمة جريمة. فالنساء الشابات لا يطعنَّ أنفسهن في القلب، ويقطعن أيديهن، ويضعن أنفسهن في سلال، ويلقن السلال بجثثهن وكلَّ شيء في النهر دون مساعدة. هذه حقيقة. (٢) الضحية امرأة شابة تُسمى إيفيلين ديفينيش، وهي امرأة متزوجة أو كانت متزوجة، ولكنها لا ترتدي خاتم زواج.
 - من المهم اكتشاف تاريخ إيفيلين ديفينيش السابق في أسرع وقت ممكن.
 - (٣) حتى هذه اللحظة، لم يُكتشف أو يُرَجَّح دافع للجريمة.
 - (٤) حتى هذه اللحظة، لم يُعثَر على اليد المقطوعة.
- السؤال (أ): لِمَ قُطعت اليد بعد الوفاة؟ أو لِمَ قُطعت من الأساس؟

(٥) اختفت ضيفة أخرى من قصر سوفلاك في الليلة نفسها، فتاة أمريكية تُسمى جويس ويبل، وعُثر على سوار ذهبي كانت ترتديه في السلة مع جثة إيفيلين ديفينيش. وهو أمر غير عادي.

السؤال (ب): هل كانت جويس ويبل حاضرة أثناء وضع جثة إيفيلين ديفينيش في السلة، وانفك السوار من يدها ووقع في السلة دون أن تلاحظه في تلك اللحظة المريعة؟

(٦) أكّدت لي ملاحظاتي أن إيفيلين ديفينيش كانت تُضمر شرًا تجاه جويس ويبل، وكانت ستُسر لو رأتها ميتة.

وفقًا لتلك الملاحظة، فإنه من المحتمل أن تُقتل جويس ويبل بيد إيفيلين ديفينيش لا أن تُقتل إيفيلين ديفينيش بيد جويس ويبل.

(٧) عندما انفلتت من إيفيلين ديفينيش نظرة كراهية كشفت عن مشاعرها تجاه جويس ويبل، كان روبن ويبستر يجلس بالقرب من جويس ويبل بطريقة تنم عن الحب.

(٨) عندما اكتُشف اختفاء جويس ويبل، خرجت من بين شفّتي روبن ويبستر صرخة تنم عن الحزن واللوعة.

النقطتان (٧) و(٨) ربما تشكّلان دافعًا لقتل جويس ويبل بيد إيفيلين ديفينيش، إن كانت الفتاتان تتنافسان على الشاب. ولكن لا يوجد دافع لقتل إيفيلين ديفينيش بيد جويس ويبل؛ فقد كانت جويس ويبل هي المنتصرة.

(٩) بما أن فراش إيفيلين ديفينيش كان مرتبًا، ولم يكن ثمة أي ضوضاء في المنزل، فيبدو أنها خرجت من المنزل وقُتلت خارجه.

ولكن متى حدث ذلك؟ الأنوار التي رأيتها مضاءة في المنزل الأبيض فوق التل كانت في الثانية صباحًا، وفُسّر لها لي قاضي التحقيقات.

(١٠) يبدو أن جويس ويبل لم تنم في غرفتها أيضًا، وأصبح ضروريًا وضع موقفها في الاعتبار في هذه القضية.

(١١) يمكن تفسير حديثها الأول معي في لندن عن الخطابات التي تصلها من ديانا، كما قال هانو، كالآتي:

(أ) كانت تريد أن تُجهّزني لِمَا سيحدث في قصر سوفلاك لغرض لا يعلمه أحد سواها.

(ب) كانت امرأة هستيرية.

(ج) كانت تقول الحقيقة.
فيما يتعلق بالنقطة (أ)، قد يتقبَّلها تيدون قاضي التحقيقات. ولكنه يريد قناعةً لا ريب فيها.

فيما يتعلَّق بالنقطة (ب)، لم تكن امرأةً هستيرية.
فيما يتعلَّق بالنقطة (ج)، لا يمكن الاستهزاء بالتخاطر. هذه حقيقة.
(١٢) من المفترض أن تكون جويس ويبل فتاةً أمريكية ثرية. ولكنها وصفت نفسها بأنها سندريلا.
(١٣) ربما اختُطفَت.

لماذا؟

(١٤) ربما هربت.

لماذا؟

(١٥) لا تزال هناك ديانا تاسبورو للتفكير في أمرها. لقد بدت زاهلةً ومرعوبة عندما علمت بمقتل إيفيلين ديفينيش واختفاء جويس ويبل.
النساء المجرمات ممثلات بارعات. جميع السلطات الشرطية متفقة على ذلك.
(١٦) تدل طاعتها العمياء لعمتها أن لديها هاجسًا كبيرًا.
حقًا.

(١٧) إنها تضع لوحةً فوق فراشها أوحى لها نو بفكرة.
تذكّرة. يجب أن أرى هذه الصورة في أقرب وقتٍ ممكن.
(١٨) كان ثمة نور مضاء في غرفتها في الثانية والنصف صباحًا. وعندما طرقت على زجاج الباب، انطفأ النور على الفور.
أمر مثير للشك للغاية.

(١٩) في ضوء الصعوبة الكبيرة لهذه القضية، يجب الكف عن إلقاء أحكام، ولكن يجب وضع بعض الأسئلة في الاعتبار.
نعم، مثل (أ) لماذا قُطعت يد إيفيلين ديفينيش؟

بينما كان السيد ريكاردو يكتب هذه الكلمات الأخيرة العديدة الجدوى، سمع صوت هانو يصدر من فوق رأسه.

قال: «ها نحن ذا! كفنا عن إلقاء الأحكام! اطمئن. ماذا يمكننا أن نفعل عندما لا تكون ثمة أحكام للكف عنها؟ ويجب وضع بعض الأسئلة في الاعتبار. أتفق معك تمامًا في ذلك.»



قائمة السيد ريكاردو.

احمرَّ وجه السيد ريكاردو غضبًا، ورفع عينيه نحو هانو في غطرسة، وقال: «لقد
دَوَّنت هذه الملاحظات لإرشادي أنا وحدي.»
«إنها أمامي، وهي قيمة وكأنها كُتبت لإرشادي أنا.»
«لقد قرأتها من فوق كتفي دون أن تستأذن.»
قال هانو في هدوء وهو يمد يده ويجمع الأوراق: «لم أكن أقصد ذلك. هل تسمح لي؟
بالطبع تسمح! يا له من سؤال!»
لا ريب في أن السيد ريكاردو كان ينوي عرض هذا الملخص السريع لأفكاره غير
المحسومة على هانو في وقت ما. فقد أدرك أن محقق جهاز الأمن العام يحتاج إلى أكبر

قدر ممكن من المساعدة من أصدقائه قبل أن يتعمَّق في تلك المعضلة الصعبة. كما أنه كان سعيدًا بملاحظاته. فقد كان شكلها مع ذلك الخط الفاصل يحمل نكهة أدبية. ثمة بعض الصفحات من رواية روبنسون كروزو تحكم على «المزايا» و«العيوب» بناءً على معايير العدالة نفسها. ولكن هذا لم يمنع شعوره بالتوتر بينما كان يراقب هانو وهو يقرأها. كان قد تعرَّض للسخرية والحط من قدره بطريقة قاسية من قبل. وكان مسرورًا لما رأى صديقه يقرأ الملاحظات ببطء وعلت وجهه نظرة جادة.

وبعدما فرغ هانو من القراءة، طبَّق الورق وأعادته إلى ريكاردو وابتسامة تقدير تكسو شفتيه.

وقال: «يجدر بك أن تضعها في جيبك، وأن تحتفظ بها في مكان آمن حتى لا يراها أحد سوانا. أوكد لك يا سيد ريكاردو أنك تقريبًا كتبت في هذه الأوراق أهم سؤال على الإطلاق.»

كان السيد ريكاردو من جانبه يشعر بأنه لم يكتب سؤالًا واحدًا مهمًا، بل الكثير من الأسئلة المهمة، ولا يمكن استخدام كلمة «تقريبًا» في طريقة كتابته لها. فقد كانت أسئلة مباشرة، وموجزة، وبليلة. ولكن، لا ريب في أن هانو لم يكن ليقر أبدًا بتميُّز أحد عليه. فقد كان ذلك بعيدًا كل البعد عن طبيعة تفكيره. كان ريكاردو معتادًا على تجاهل هذا العيب في شخصية صديقه المحقق، فابتسم بلطف.

وقال: «لا ريب في أنك تقصد السؤال عن سبب قطع يد إيفيلين ديفينيش بعد وفاتها.» ولدهشة ريكاردو، هز هانو رأسه نفياً بقوة، وقال: «لا، إنه سؤال مهم، في الحقيقة، نعم، ولكنه سؤال بدهي للغاية.»

أخرج السيد ريكاردو ملاحظاته من جيبه وبدأ يدرسها بتدقيق شديد. ثم قال: «إذن، لا بد أنه السؤال عن تاريخ إيفيلين ديفينيش الماضي.» ولكنه كان مخطئًا هذه المرة أيضًا.

«لا. السؤال الذي طرحته أكثر ذكاءً من ذلك. بالنسبة إلى ماضي السيدة ديفينيش، فإنه يندرج ضمن الأمور الروتينية. من المؤكد أنه يجدر بنا أن نعرف عنه معلومات موثوقة على الفور، لقد تعافت الآنسة تاسبورو من صدمة الأخبار السيئة التي أخبرتها بها، وأصبحت قادرةً على استقبالنا.»

فتح هانو مزلاج الباب الفاصل بين المكتبة وغرفة الاستقبال وعبره مع ريكاردو مسرعين. ولكن كانت الغرفة فارغة، وتوقف هانو فجأة. كانت النوافذ المطلة على الشرفة

مفتوحة، واقترب منها هانو بخطواته التي لا صوت لها ونظر عبرها إلى الخارج بحذر. ثم عاد إلى السيد ريكاردو بابتسامة غريبة مرسومة على شفتيه.

وقال بصوتٍ منخفض: «كان من الأفضل أني لم أقرأ ملاحظاتك بصوت عالٍ يا صديقي. ما الذي تحدّثنا عنه؟ نعم، يد إيفيلين ديفينيش المقطوعة وماضيها، هذا كل ما تحدّثنا عنه.»

بدا جلياً أنه أصبح مطمئناً؛ فقد رفع صوته قليلاً لأعلى ممّا اعتاد عليه.

«لا ريب في أننا سنجد تلك الشابة في الشرفة،» ثم خطا عابراً النافذة.

أدرك السيد ريكاردو سبب قلق هانو عندما تبعه. فقد كانت ديانا تجلس على مقعد حديقة بجانب نافذة المكتبة المفتوحة، ومن المؤكد أنها سمعت كل كلمة قالها. ولكنها رفعت رأسها من دون أن تبدو عليها ذرة إحراج. على الرغم من شحوب وجهها، تمكّنت من استعادة حسن تعاملها، ورسمت على وجهها شبح ابتسامة. ولكن عينيها كانتا لا تزالان تُطلُّ منهما تلك النظرة التي لا تخطئها العين، نظرةً مرضٍ عضال أو ضيق لا مثيل له.

قالت: «أعتذر عما بدر مني من حماقة صباح اليوم يا سيد هانو.»

«أبداً يا آنسة، أنا من يجب أن يعتذر. إن هذا الخبر المفاجئ القاسي عن اثنتين من أفضل صديقاتك، إحادهما ترقد جثّة مشوهة في مشرحة عامة، والأخرى اختفت، من شأنه أن يُفقد أي أحد وعيه.»

كان هانو يتحدّث بطريقة رسمية أصبحت ضمن طباعه، ولكن كان السيد ريكاردو يرى أنه يكرّر الخطأ الذي اعتذر عنه سابقاً. ردّت عليه ديانا ببعوض التردّد: «أنت تقول اثنتين من أفضل صديقاتي يا سيد هانو. ولكن في مثل هذه الأمور الشديدة الخطورة، من الأفضل أن نتحرّى الدقة. سأعترف لك بأنه عندما أخبرني مساعدك بأن الفتاة التي ماتت هي إيفيلين ديفينيش، وعلى الرغم من أنني سأبدو متبلدة المشاعر؛ فقد أحسست براحة غامرة. فجويس واحدة من أعز صديقاتي.»

ردّ عليها هانو برفق: «مَن قد يلومك يا آنسة؟ دعونا نُقر بأننا بشر رغم كل شيء.»

«مساعدك، السيد ...»

تدخّل هانو عندما لم تستطع تذكر الاسم، قائلاً: «مورو.»

«نعم. أخبرني السيد مورو في الوقت نفسه بأنك تريد رؤيتي. ألن تجلس؟ وأنت أيضاً

يا سيد ريكاردو.» التفتت نحوه للمرة الأولى خلال هذا اللقاء، وعلى الرغم من الابتسامة الشاحبة على شفتيها، كانت تُطلُّ من عينيها نظرةً قاسية كالحديد عندما التقت أعينهما.

قال ريكاردو ببعض الارتباك: «هذا إن لم أكن أعيق حديثكما.» لم يكن ثمة شك في سلوكها العدائي تجاهه. كانت تراه متطفلاً يتعلّق بذيل محققه المحبوب ويدس أنفه في أمور شديدة الأهمية يجب ألا يعرفها شخص تافه مثله.

ردّت عليه بهرود: «السيد هانو هو من يمكنه أن يحدّد مَنْ يعيق المحادثة ومن لا يعيقها.» ثم هبّ هانو لنجدة الرجل المسكين.

وقال بنبرة احتجاج لطيفة لم تُجب عليها ديانا تاسبورو: «لقد ساعدني السيد ريكاردو صباح اليوم في أكثر من اتجاه.»

جرّ الرجلان مقعدَي حديقة حديديّين بالقرب من أريكة ديانا وجلسا. ردّ عليها هانو برفق: «مَنْ قد يلومك يا آنسة؟ فهمت من حديثك أن تلك السيدة الشابة ديفينيش ليست من صديقاتك المقربّات، ولكنها حلّت ضيفاً عليك هنا، ولا ريب في أنك تعرفين شيئاً عن ماضيها.»

التفتت نحوه وقالت: «بالطبع.» ولكنها ظلّت صامتةً لدقيقة على الأقل تنظر إلى هانو متألمةً وإلى السيد ريكاردو وكأنه غير موجود، ثم تنظر إلى هانو مجدداً.

تابعت ديانا حديثها في اندفاع مفاجئة: «أريد منك أن تصون ذكراها قدر الإمكان. فقد لاقت الأمرين خلال السنوات الأخيرة من حياتها. وهذا هو السبب الذي دفعني لأن أطلب منها الإقامة معي في سوفلاك هذا العام. إنها ابنة دينيس بلاكيت، رجل مال ذي مصالح واسعة وثروة هائلة، وصديق جيد للغاية، على ما أعتقد، وكحال الكثير من الرجال الذين يكونون أصدقاء جيدين للغاية، كان عدواً لا يعرف الرحمة. لا أعتقد أن إيفيلين كانت حسنة الحظ منذ بداية حياتها.»

سألها هانو: «هل كان يكرهها؟»

«بل على النقيض، كان يعشقها. تُوفيت والدتها عندما كانت في السادسة أو السابعة من عمرها، وهي طفلة وحيدة نشأت وسط المربيات والخدم الذين كانوا مكرّسين لتلبية جميع نزواتها وإلا يُطردون من عملهم. جعلها دينيس بلاكيت معبودته. فقد أطلق على يخته اسمها، وكذلك على مُهرته المميّزة، وعلى بقرته من نوع جيرسي الفائزة بجوائز، وعلى نوع من زهور الأوركيد من ابتكاره، وحتى عندما كانت طفلةً صغيرة، كانت تجلس على رأس مائدته. كان يُطري على جمالها في وجهها. كان كل ما تقوله مميّزاً، وكل ما تقوله نكياً. لم يكن كل ذلك أقصى تعبير منه عن عشقه لها. كان ثمة شيء ما عجيب، حتى هذه الكلمة لا تعبّر عمّا أعني! كان ثمة شيء غير طبيعي. نعم، كان دينيس بلاكيت، رغم

صرامته العملية، يتصرّف بسخافة في وجود إيفيلين. سأضرب لك مثالاً. وقد رأيته يحدث بنفسه، فقد أقمت في منزله ذات مرة ...» ثم صمتت ديانا فجأة. وعادت تقول: «ولكنك تريد بالطبع أن أتحدّث عن الزواج وليس عن هذه التفاهات.»

قال هانو برجاء صادق: «لنتحدّث عن الزواج بعد ذلك، نعم. ولكن تحدّثي عن هذه التفاصيل أولاً، من فضلك. أنتِ ترين أنها تفاهات يا آنسة. أما أنا، فلا أفعل. هذه التفاهات تساعدني على صُنع صورة للشخصية. وكيف سنتمكّن من التوصل إلى الحقيقة في قضية غامضة للغاية مثل تلك إذا درسنا شخصيات المتورطين فيها، فما كانوا عليه في الماضي هو ما أصبحوا عليه حالياً.»

قلما رأى ريكاردو هانو متلهّفاً ومُصرّاً بهذه الدرجة مثلهما هو الآن. فجلس منحنياً مسنداً مرفقيه على ركبتيه، وكان وجهه بلامحه القوية ووضعية جسده المنتبهة يطالبان أن تبدأ ديانا حكايتها، فقال: «أخبريني بالمثل من فضلك.» أومأت ديانا برأسها موافقةً وواصلت حديثها قائلة: «حسناً، إليك المثال. كان دينيس بلاكيت يمتلك منزلاً ضخماً في مورفين على لسان مول البحري. كان المنزل يحتوي على سلم عالٍ ذي درجات قصيرة عريضة من خشب البلوط الأسود اللامع. كان يهوى ... لا، فكلمة يهوى أقل كثيراً من التعبير عن شعوره ... كان شغوفاً برؤية إيفيلين مرتديةً أجمل ملابسها وهي تهبط هذا السلم برقّة. كان يقف عند قاعدة السلم في بهو المنزل، ويصحّح لها خطواتها، كما لو كان مدرب رقص. وإذا ما خطت خطوةً غير سليمة أو أومأت بإيماءة غير مريحة، كان يرسلها إلى قمة الدرج مجدّداً ليعيد الكرة من بدايتها. لا ريب في أنها كانت تُسرّ العين؛ فقد كانت رشيقة، ويانعة، وشابة، وكانت تلمع في ملابسها الجميلة وسط الخلفية السوداء، ولكن جعلني المشهد برمته — ماذا يجدر بي أن أقول؟ — غير مرتاحة. رأيت أن كل ما يحدث خطأ. هل تفهم ما أقصد؟»

أجاب هانو: «نعم.»

«عليك أن تفهم أيضاً أن إيفيلين كانت ستشب كملك بأجحة فضية لو لم تنشأ مغرورة، وعنيدة، ومستعدة لدفع ثمن حماقاتها أيّاً كانت الطريقة التي تُسدّ بها هذه الحماقات. كان عيد ميلاد إيفيلين الحادي والعشرون في شهر أغسطس. أحضر دينيس بلاكيت جمعاً غفيراً من أصدقائه في مورفين للاحتفال بهذه المناسبة. ظل المنزل مزدحماً بالناس طوال أسبوع كامل قبل موعد عيد ميلادها. كانوا يصطادون الطيهوج في النهار، ويرقصون في الليل، ويقىمون احتفالات مبهجة. كنت حاضرة، ولم أتخيّل أن رجلاً قد يكون سعيداً وفخوراً بدرجة تضاهي سعادة وفخر دينيس بلاكيت. وفي صباح يوم ميلاد

إيفيلين. أرسلت رسالة إلى كل ضيف من ضيوفه عند موعد الإفطار، ولكن لم يره أحد، وبحلول عصر ذلك اليوم، كان المنزل فارغاً ولم يبقَ سواه. ففي ساعة متأخرة من الليلة السابقة، تسلّلت إيفيلين برفقة جوليان ديفينيش، شاب كان يدين بكل شيء إلى بلاكيت، إلى المرفأ الصغيرة في اللسان البحري، وأبحرا في قارب صغير إلى أوبان وأخذوا أول قطار إلى لندن، حيث تزوجا..

قاطعها هانو قائلاً: «ولم يغفر لها السيد بلاكيت هذه الخيانة قط..»

«البتة. قلت لك إنه عدو لا يعرف الرحمة. وطرد إيفيلين من حياته كاملة. وظل يعيش بمفرده في منزله الضخم في مورفين حتى أواخر فصل الخريف. ثم عاد إلى لندن، وبدأ العمل من أجل تحقيق هدف واحد، وهو تدمير ديفينيش. آه، لم يكن الأمر صعباً، ولم يستغرق مدةً طويلة. إذا ما تاجرتَ مع ديفينيش، فلن تُتاح لك فرصة التجارة مع دينيس بلاكيت. إذا ما اهتممت بأي من أعمال ديفينيش، كنت ستجد أسهمك تترنح من يوم إلى آخر حتى تنتهي تماماً. وبدأ المنزل الصغير الفاخر في حي مايفير يتلاشى شيئاً فشيئاً. ثم انتقلا إلى أحد الأكواخ الحمراء في سربيتون. وهذا أيضاً تلاشى، وأصبحت شقة مكونة من ثلاث غرف في سيدنهايم هي منزل الفتاة ذات الفساتين اللامعة ودرج خشب البلوط في مورفين. وبالطبع، نشبت بينهما شجارات لا تنتهي، وكان كل منهما يلقي باللوم على الآخر. وفي خلال عام، كان ديفينيش قد أفلس وأطلق النار على رأسه..»

أضاف هانو: «حتى هذا لم يكن كافياً». كانت هناك نبرة من الإعجاب المتردد في صوته. لطالما عاش وسط عقول المجرمين المتقلبة والمراوغة، لدرجة أنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن احترام الإتقان، حتى لو كان إتقاناً في القسوة.

وافقت ديانا على ما قال: «نعم، هذا لم يكن كافياً. راسلت إيفيلين والدها. كانت قد أصبحت فقيرة معدمة. وجاءها الرد من قبل موظف وخطاب مكتوب بالآلة الكاتبة. إذا ما قبلت العرض، فستحصل كل ثلاثة أشهر على ١٢٥ جنيهًا لما تبقى من حياتها. كان هذا منذ ثلاث سنوات. كان العيش في أوروبا بالنسبة إلى إيفيلين أرخص من العيش في إنجلترا. فسافرت، والتقيتها للمرة الأولى منذ حفل عيد ميلادها في اسكتلندا، هذا الصيف في بياريتز..»

«هل كانت — أرجو أن تعذرني على هذا السؤال — وحيدة؟»

«وحيدة تماماً..»

«ولقد التقيتها مصادفةً في كازينو، أليس كذلك؟»

بدا أن ديانا كانت على وشك أن تقول «نعم»، ولكنها عادت لتفكر للحظات ثم أجابت: «لا، دعني أتذكر. من المؤكد أنني لم ألتقها في كازينو. أظن أننا التقينا في ملعب جولف. كانت تقطن في سكن في حي رخيص من المدينة، وطلبت منها أن تقيم معي ثم أحضرتها معي إلى هنا.»

قال هانو بانحناءة يسيرة من رأسه: «كان هذا كرمًا كبيرًا منك يا أنسة. والآن، أخبريني عن صديقتك المقربة الحقيقية، الفتاة الأمريكية، جويس ويبل.»

لَوَّحت ديانا تاسبورو بذراعيها فوق رأسها دلالةً على إحباطها. وقالت: «قد يبدو الأمر غريبًا يا سيد هانو، ولكن ما أعرفه عن صديقتي المقربة الحقيقية أقل بكثير مما أعرفه عن تلك المرأة التي تربطني بها معرفة سطحية. ما أعرفه عنها هو أنها وشقيقتها وحيدتان في العالم، وأنهما جاءتا من أمريكا منذ عامين، وأنهما تمتلكان بئر نفط في أرضهما في كاليفورنيا، وأن شقيقتها تزوجت مؤخرًا وعادت إلى أمريكا، ولا أحد في العالم يعرف عنها أكثر مما أعرف. لطالما كانت جويس كتومةً فيما يتعلق بحياتها؛ حتى معي. كانت تتحمس كثيرًا للحديث عن أي شيء تفعله وتراه هنا، وعن الأشخاص الذين تلتقيهم. ولكن لم أكن أستطيع حملها على التحدث عن حياتها أو وطنها.»

وافقها هانو قائلاً: «نعم، هذا غريب»، ولم يُثقل ديانا بالمزيد من الأسئلة. ثم نهض من مقعده وقال في امتنان: «يجدر بي أن أشكر يا أنسة. فإن ما أخبرتني به سيفيدني كثيرًا. ثمة أمر بسيط أريد أن أوصيك به في المقابل. يجدر بك أن ترسلي برقيات إلى أمريكا وإلى هذا السيد القاسي بلاكيت ...» ثم قطع وصيته لها لكي يقول: «أتعلمين، أحس بتعاطف كبير مع هذا الرجل العنيد؟ لقد كرَّس حياته من أجلها، ولم يتلقَّ في المقابل إلا الخيانة أولاً، ثم هذه النهاية المأساوية. سيكون من الأفضل أن يسمع الخبر منك قبل أن يعرف من الصحف. ثمة جانب مشرق في الأمر برمته، أليس كذلك؟ نحن هنا في سوفلاك بعيدون عن الصحف. لذا، أوصيك يا أنسة بأن تستقلي سيارتك وتذهبي إلى بويك أو مكتب التلغراف الأقرب أيًّا كان، وترسلي الرسائل بنفسك. فهذا سيمنح الأنسة شيئًا تشغل به وقتها.»

حدَّقت به ديانا بعينين ذاهلتين. ثم برقت عيناها واندفع الدم سريعًا إلى وجهها. فعلَّق هانو مبتسمًا. قال: «آه، يبدو أنك سعيدة بأني طلبت منك تولي هذه المهمة.»

ردَّت عليه في ارتباك يملؤه الحماس: «سعيدة، لا، بل مسرورة — نعم — كثيرًا. لم أعد أطيع الجلوس بلا جدوى في هذه الشرفة أنظر إلى نهر جيرون، وهذا الحارس بجانب



«أخبريني عن صديقتك المقربة الحقيقية، الفتاة الأمريكية، جويس ويبل.»

حوض الزهور، من دون أن أفعل شيئاً والأفكار تدور في رأسي بلا توقف! هذا مريع! أشكرك! سأحضر قبعتي.» نهضت من مقعدها وقد عادت الحياة تدب في أوصالها، وعدت عبر النافذة المفتوحة إلى داخل غرفة الاستقبال.

سار السيد ريكاردو إلى نهاية الشرفة مشغولاً بأفكار تتصارع داخل رأسه. كان يُحس بكراهية ديانا واحتقارها له، ومن ثم أصبح يميل لأن يراها بطريقة سيئة. من جانب آخر، كان شخصاً متشككاً بطبيعته، وأثار ارتياحها الطاعني أفكاراً معينة داخل ذهنه. ومن ثم، كان متحيراً بين أن يحذر هانو من خلال أن يطرح عليه سؤالاً غير مباشر على غرار: «هل من الحكمة أن تدعها تذهب من دون حارس يكون معها في السيارة

لحراستها؟» أو أن يهنئه على مراعاته الرقيقة. ولكن تغلّبت طبيعة السيد ريكاردو عليه، فقال مشجّعاً هانو بمجرد أن انضم إليه: «كانت هذه لفتة رائعة منك يا صديقي.»

أجابها هانو: «نعم، كانت هذه لفتة رائعة مني.»

«من شأن الخروج بالسيارة في الهواء الطلق أن يُفيدنا كثيراً.»

قال هانو مبتسماً: «نعم، نعم، ولن يكون في المنزل سوانا، وهذا سيُفيدنا كثيراً أيضاً.» التفت السيد ريكاردو نحوه زاهلاً. إذن، كان هذا هو الهدف الذي قام من أجله بكل هذا التظاهر برقة المشاعر! ولكنه لم يقل شيئاً لانتقاد هذا الخداع. بل وقف مكانه مشدوهاً. فقد كان ينظر داخل غرفة الاستقبال ورأى رجلاً يتحدث إلى ديانا. كان الرجل يقف مولياً ظهره إلى النافذة الطويلة، والقسم الأكبر منه يختفي في ظل الغرفة؛ لذا كان من السهل أن تخطئه العين. ولكن لم تراود السيد ريكاردو أدنى ذرة من شك.

فقال هامساً: «لقد حضر في نهاية المطاف.»

سأل هانو وهو يتجه ناحية النافذة: «من تقصد؟»

«هناك، انظر! إنه قاضي التحقيقات، السيد تيدون.»

قال هانو ببطء وبصوتٍ جاف: «آه! أنت ترى أنه السيد تيدون، أليس كذلك؟» وفي تلك اللحظة، استدار الرجل ليواجهه.

لم يكن الرجل قاضي التحقيقات على الإطلاق، بل كان السيد روبن ويبستر، مدير كروم العنب. سار الرجل نحو النافذة.

وقال: «سيد هانو، إذا كنت في حاجتي، فسأقل الآنسة تاسبورو إلى بويك. يمكن أن يستمر العمل في الأحواض من دوني. هناك مشرفون خبراء في العمل.» ثم نظر إلى ذراعه المعلقة في رقبته بحامل وقال: «أعتقد أنه لا يجدر بي أن أقود سيارةً بسبب يدي المصابة. ولكن بعد الصدمة التي تلقّتها الآنسة تاسبورو هذا الصباح، لن أطمئن لأن تقود السيارة بنفسها دون مرافق. لا أريد وقوع أي مأساة أخرى في قصر سوفلاك.»

ردّ هانو بأسلوب في غاية الود واللفظ: «أفهم ذلك جيداً يا سيد ويبستر. عليك أن توصل هذه الشابة إلى بويك وتساعدتها في إرسال البرقيات. وبالنسبة إليك، أرجو ألاّ تعتقد أنني وقح. لا، ولكنني سمعت صرختك القصيرة الملتاعة صباح اليوم. يجب ألاّ نفقد أعصابنا، أليس كذلك؟ سنحاول أن نعثر لك على صديقك ذات الاسم الجميل.» وربت على كتف روبن ويبستر بود.

قال ويبستر متظاهراً بالاطمئنان: «لن أفقد أعصابي.» ولكن كانت قسمات وجهه تفضح ألمه وحزنه. ثم صاح بصوتٍ خفيض: «ولكن، بالله عليك، أسرع! أسرع! لقد أصبح

كل مَن في هذا المنزل على شفا الانهيار.» ثم تما لك أعصابه سريعاً، واحمرَّ وجهه كحال الرجال عندما يُضبطون وقد فضحتهم انفعالاتهم.

قال هانو في جدية: «أخشى أيضاً أن تسبب لك يدك المجروحة ألماً مبرحاً.»

ردَّ روبن ويبستر بهزة من كتفه: «إنها تنبض حقاً، مثلما تفعل جميع الجروح. ولكن لن يستمر ذلك إلا ليوم أو يومين. إذا كانت هذه هي أكبر مشكلاتنا، فلا حاجة بنا للتفكير فيها.» ثم تحول إلى موضوع آخر، وقال: «أرجو أن تتحدّث إلى السيد المفوض هيربستال ليسمح لنا بإخراج السيارة من المرأب.»

تراجع هانو في دهشة، وقال: «بالطبع سأفعل، على الرغم من أنه لا حاجة لذلك. فلن يعارضك السيد هيربستال. لك كامل الحرية في الذهاب أينما تريد، وكذلك الآنسة تاسبورو.»

بعد ذلك، دخل بخطى سريعة إلى المنزل ثم إلى الغرفة في الجناح حيث يجلس المفوض يكتب تقريره. عاد إلى الشرفة مرةً أخرى برشاقة تُناقض تماماً تدمره من تقدمه في السن، ووجد السيد ريكاردو غارقاً في التفكير.

فقال: «كنت أفكر. يبدو أن الآنسة تاسبورو لا ترحب بوجودي. ومن الأفضل أن أحزم حقائبى وأعود إلى بوردو.»

ولكن لم يكن هانو على استعداد لسماع كلمة واحدة من هذا الحديث، فقال: «اسمع! ليس هذا وقتاً مناسباً للحفاظ على الكرامة! أنا أحتجزك هنا، أنا، هانو. وسأوضح ذلك للآنسة تاسبورو بنفسى. دع العزيز تومسون يضع ياقةً ورقية واحدة في حقيبتك، وسأعتقلك بعنف لا مثيل له. عليك أن تحزم حساسيتك في حقيبتك، ولا شيء آخر. أعتقد أنك فهمت ما أعني. ياقة ورقية واحدة؛ اعتقال. أنت مفيد لي، هل تُقدّر ذلك؟» استخدم نبرةً استفسارية طبيعية وصادقة تماماً. نعم، كان مندهشاً من أن السيد ريكاردو قادر على مساعدته. ولكن تلك هي الحقيقة. تفحص صديقه ولم يرَ شيئاً قد يفسّر هذه الحقيقة الاستثنائية.

فكرّر ما قال: «نعم، لقد قدّم السيد ريكاردو يد المساعدة لهانو حقاً.»

ابتسم السيد ريكاردو في تواضع. كان يشعر براحة غامرة لأنه لم يُسمح له بأن ينسحب من تلك المحنة المأساوية التي لا تمر ساعة منها دون حدوث أمر شائق، الغموض الجديد الذي يود سبر أغواره. فقال لنفسه بمعنويات مرتفعة: «ها أنا ذا أطارد مجدداً مجرمين نحو هلاكهم. إنهم يصطادون في الأراضي الوسطى. فليفعلوا!»

قال بخجل مصطنع: «إن مساعدتك لكلمة كبيرة. كنت محظوظًا أنني استطعت كشف بعض الحقائق الغريبة أمام ناظريك ...»

قال هانو: «بل فعلت أكثر من ذلك.» ثم غرق في تأملات مضطربة.

ابتهج السيد ريكاردو، وسأل قائلًا: «ماذا فعلت أيضًا؟ ماذا على سبيل المثال؟»
خرج هانو من تأملاته، وقال: «على سبيل المثال، نعم»، أدخل ذراعه داخل ذراع ريكاردو وقرَّب عينيه منه. وقال: «على سبيل المثال، ما الذي جعلك تخلط منذ قليل بين التعس روبن ويبستر وقاضي التحقيقات؟ إن لهما البنية نفسها تقريبًا. ربما كان شعر أحدهما رماديًا قليلًا، بينما شعر الآخر أبيض، ولكنه لن يبدو أبيض تمامًا في ظلمة الغرفة. نعم، نعم. ولكنك قفزت إلى تخمينك بثقة تامة، وتمسكت به. واقتنعت بأن هذه هي الحقيقة. السيد تيدون موجود في هذه الغرفة. والآن، ما الذي جعلك واثقًا لهذه الدرجة؟ هل يمكنك أن تخبرني؟ فكّر جيدًا!» وهزَّ ذراع ريكاردو ليساعده على التفكير على نحو أفضل.

راجع السيد ريكاردو جميع التفاصيل في ذهنه. نعم، لا ريب في أنه كان واثقًا تمامًا. هل هي الملابس؟ لا، السيد تيدون يرتدي معطفًا أسود، وروبن ويبستر يرتدي معطفًا بنيًا. ليس الأسود بالطبع. إذن، ما السبب الذي جعله واثقًا لهذه الدرجة؟
قال أخيرًا: «لا، لا يمكنني أن أخبرك بالسبب.»

واصل هانو حديثه قائلًا: «ولكن لم يحدث أي شيء أكثر تنبيهًا من صيحتك تلك منذ صباح اليوم. فمن دون هذه الصيحة، لم أكن لأرى ...»
«تري ماذا؟»

جعد هانو أنفه مبتسمًا. وقال: «ماذا رأيت؟ سأخبرك يا صديقي. في هذه القضية، أنت حامل الجرثومة. أنا أصاب بالعدوى التي تنقلها إليَّ من دون أن تدري.»
سحب السيد ريكاردو ذراعه بعيدًا في حدة، وقال: «هذا تشبيه غير لائق على الإطلاق.»
ثم صمت. لم يكن هانو يسمعه. كان يرفع يده ويومئ برأسه نحو المنزل. فقد شق الصمت صوت هدير سيارة.

فصاح هانو: «لقد ذهبنا. فلنسرع.»

الفصل العاشر

ثلاث غرف

أسرع هانو عابراً غرفة الاستقبال إلى البهو حيث كان يجلس مساعده مورو. وألقى إليه أمراً دون أن ينظر نحوه أو يتوقف عن السير.

قال: «أحضر المفاتيح يا مورو.» ثم تبعه مورو وريكاردو، لينحرف يساراً ثم يميناً مُجَدِّداً في نهاية الممر، ويدخل إلى الجناح حيث ينام السيد ريكاردو. كان المفوض هيربستال قد أعدَّ لنفسه مكاناً في منتصف هذا الجناح. فتح هانو الباب.

وقال: «سيدي المفوض، أقترح الآن أن نزور غرفتي نوم الفتاتين.»

نهض المفوض على الفور. وقال: «أنا رهن إشارتك.»

كانت إيفيلين ديفينيش تقيم بغرفة في الجناح نفسه ولكنها كانت أقرب إلى ظهر المنزل. تقدمهم مورو نحوها وأخرج مفتاحاً من جيبه وفتح الباب. وقف هانو على عتبة الباب مانعاً إياهم من الدخول.

وقال: «يبدو أن ثمة قليلاً من الأدلة التي يمكنها أن تُفيدنا في هذه الغرفة.»

من خلفه، انحنى السيد ريكاردو محاولاً أن يحصل على رؤية أفضل ولكن دون جدوى. ولكنه لمح غرفة نظيفة ومرتبّة وكأن الخادمة خرجت منها الآن. كانت النافذة مغلقة وتطل على طريق تحفه أشجار داكنة. كان ثمة غطاء فراش من الحرير الرمادي مبسوطاً على السرير. كان كل مقعد حيث من المفترض أن يكون. عبر هانو الغرفة متجهاً نحو النافذة. كانت نافذة على الطراز الإنجليزي، ولم يكن إطارها مغلقاً بمزلاج. رفع الإطار السفلي من النافذة ونظر خارجاً. كانت الشرفة تمتد حول طرف المنزل وحتى حوالي ربع طول الجناح، وكانت أرضيتها تمتد من تحت النافذة وحتى حافة الطريق الذي تحفه الأشجار الداكنة. لم تكن هناك أي علامات على سطحها الجاف. أغلق هانو النافذة

واستدار نحو الغرفة مُجَدِّدًا. كانت ثمة خزانة مُعلِّق بها بعض الفساتين، وصندوق ذو أدراج يحتوي على المزيد من أدوات الحمام الخاصة. التفت هانو نحو ريكاردو.
وقال: «هل تذكر لون الفستان الذي ارتدته السيدة ديفينيش ليلة أمس؟»
«كان أخضر.»
سأله هانو وهو يقف بجانب الخزانة المفتوحة: «هل تراه هنا؟»
«لا.»

«يجدر بنا أن نرن الجرس لاستدعاء ماريان.»
رن هانو الجرس، وبينما كان في انتظارها، فحص المكتب الصغير بجانب النافذة الذي كانت تستقر على سطحه نشافة حبر ودواة حبر ذات صينية من الأقلام وحقبية مستندات صغيرة. كانت نشافة الحبر نظيفة كحال الأرضية خارج النافذة. كان مظهر الأقلام يدل على أنها لم تُستخدم منذ أمد بعيد. فتح هانو حقبية المستندات. كانت تحتوي على بعض إيصالات دفع من متاجر في بياريتز، ودفتر شيكات من مصرف لندن. فحص هانو دفتر الشيكات. كانت بعض الشيكات موجهةً إلى «صاحبة الحساب نفسها» بمبالغ صغيرة. أعاد هانو كل شيء إلى مكانه الأصلي وابتسم في أسَى إلى السيد ريكاردو.
وقال: «لا يوجد خطاب من صديق! هذا صحيح! كانت هذه الشابة وحيدةً وفقيرة. لقد دفعت مقابل هذه الرحلة عبر البحار عشية عيد ميلادها.»

كانت ثمة طاولة زينة يغمرها ضوء المصباح الكهربائي، وكانت تلك هي قطعة الأثاث الوحيدة التي يبدو عليها قليل من عدم الترتيب. كان غطاء علبة مسحوق تجميل زجاجية كبيرة مفتوحًا، كانت فُرَش الشعر، ذات الظهر المصنوع من صدف السلاحف ومنقوش عليها الحروف الأولى من اسم إيفيلين قبل زواجها — إ. ب. — باللون الذهبي، متناثرة هنا وهناك. وكانت مروحة ورقية ملقاةً بإهمال، ووعاء صغير مفتوح الغطاء يحتوي على أحمر شفاه جاف، وقلم أحمر شفاه من دون غطاء. أوماً هانو برأسه وزمَّ شفَّتيه بينما كان يفحص هذه الفوضى. ثم التفت نحو الباب قبل أن تفتحه ماريان مباشرة.
وسأل: «ماريان، هل يمكنك أن تخبريني بالملابس المفقودة من خزانة ملابس هذه المرأة المسكينة؟»

هزَّت ماريان كتفَها. وقالت: «ليس هذا شيئًا عسيرًا؛ فهي لم تكن تمتلك الكثير من الملابس، تلك المسكينة الوديدة!» من بين جميع التعبيرات غير المناسبة التي سمعها السيد ريكاردو في حياته، كانت كلمة «وديدة» لوصف كائن تُحرِّكه أهواؤه ومفعم بالحدق الأسود مثل إيفيلين ديفينيش، هي الأسوأ. كانت سخافتها مذهلة.

قالت ماريان وهي تتحسس صف الملابس المعلقة في الخزانة: «سيدي، ثمة أشياء مفقودة؛ الفستان الذي ارتدته السيدة ليلة أمس، وعباءة.»
قال هانو مندهشاً: «آه! عباءة!»

«أجل يا سيدي، عباءة من الساتان البني، مطرزة بأناقة بفرو الأرمين الأبيض، وياقة كبيرة وأساور وحواف من الأرمن الأبيض أيضاً. حصلت السيدة على هذه العباءة قبل أن تسوء أحوالها. فمن المؤكد أنها لم تكن لتتمكن من شراء عباءة بمثل جمالها في وضعها الحالي.»

قال هانو: «أشكرك.» ثم جال ببصره مرة أخيرة في أرجاء الغرفة وأضاف قائلاً: «والآن، سنذهب إلى غرفة الأنسة الأمريكية. من المرجح أن تتمكّني من مساعدتنا هناك أيضاً يا ماريان.»

رفعت ماريان يديها. وقالت: «بالنسبة إلى الأنسة وبيبل، أيها السادة! الأمر مختلف تماماً! إنها ستسافر من هنا إلى أمريكا مباشرة؛ لذا فقد أحضرت جميع حاجياتها. إذا كنتم مغرمين بالملابس الفاخرة، فسترون الكثير منها، أعدكم بذلك. هذا بالإضافة إلى صناديق لم تفتح قط. يا إلهي! وأحذية وجوارب! وكوفيات وعباءات! أوه، يبدو أنك تحب الملابس الفاخرة يا سيدي. بالنسبة إليّ، وسأكون صريحةً معك، لا أحترم كثيراً الرجل الذي يذهب هنا وهناك ليشاهد الملابس النسائية.»

فكّر السيد ريكاردو، إذا كان هناك شخص وديع، فسوف يكون هانو من جهاز الأمن العام في باريس. وقفت ماريان واضعةً يديها على فخذيهما، وبدا أنها فهِمت المساعدة المطلوبة منها على نحو خاطئ تماماً. كان مستاءً تماماً من اقتحام الشرطة قصر سوفلاك بهذه الطريقة. كانت قد رأت سيدتها الشابة المحبوبة تفقد الوعي، كما لو أنها تلقت لكمّة من شخص عديم الشفقة. تساءل السيد ريكاردو عما إذا كان سلوكها العنيف يخفي عدم خوف مما قد يُسفر عنه هذا التحقيق. ولكنها جعلت هانو الضخم الجثة يعبس وكأنه رجل منحل عاجز. ولكن، كان هانو يبدو ضعيفاً للغاية، لدرجة أن مفوض الشرطة، الذي احمرَّ وجهه من رؤية كرامة الرجل تُهان هكذا، لم يصدق عينيه أو أذنيه.

فقال: «طلبت منك أن تريني فساتين الأنسة الجميلة يا ماريان؛ لأنني أريد أن أراها ترتديها مرةً أخرى.» ولكن بدا أن ماريان لم تقتنع؛ فقد استدارت نحو الباب بلفة مزدرية من رأسها وسارت على طول الممر عابرةً الباب الأمامي مجدداً واستدارت عند نهاية الرواق نحو البرج.



قال هانو: «والآن، سنذهب إلى غرفة الأنسة الأمريكية. ماريان، هلاً ساعدتنا؟»

كان ثمة باب في مواجهتها، وفي الركن بزاوية، كان هناك باب آخر، مع ألواح من الزجاج الخشن عند الجزء العلوي منه. فتحت ماريان مزلاج هذا الباب. كان ثمة سلم حجري حلزوني ضيق، مثبت في الجدار نفسه، يُؤدِّي نحو الأعلى. صعدت ماريان السلم حتى وصلت إلى بسطة صغيرة وتوقفت أمام باب آخر. على هذا الباب، كانت رسالة مثبتة بدبوس تقول:

ماريان، أرجو ألا يوقظني أحد في الصباح.

وجّه هانو سؤالاً لماريان، قائلاً: «هل هذا خط يد الأنسة؟»

«نعم يا سيدي. أنا من يُعطي رجل البريد الخطابات. هذا خط يد الآنسة.»
وافقها هانو قائلاً: «بلا أدنى شك.»

أخرج مورو مفتاحاً آخر وفتح الباب، وتبعته المجموعة كلها هانو إلى داخل غرفة كبيرة ذات نافذة واحدة واسعة تُطل على الحديقة وساحل جيروند الشاسع. كانت النافذة مفتوحة، ووقف هانو عندها. كان المد قد انقلب مجدداً وأصبح في اتجاه البحر، وكان مجرى النهر مُرصّعا بسفن صغيرة رأسية، وقد طوت أشرعتها ومؤخراتها مُوجّهة نحو بورردو التي تلوح من بعيد. صبغت أشعة الغسق الذهبية لشهر سبتمبر الريف بلون جميل. في الأحاديث التي تفصل بين كروم العنب، كان الفلاحون يحنون ظهورهم ويفردونها ثم يحنونها مجدداً، وللحظات، ألجم الجميع التناقض بين السلام الذي يعم العالم في الخارج والغموض الذي يكتنف هذه الغرفة.

وكان هانو أول من يكسر هذا الصمت؛ فقد صاح وهو ينظر حوله: «أها! ثمة نقاط اختلاف أخرى في هذه الغرفة يا ماريان، إلى جانب الملابس.» وكانت جميع الأشياء المرتبة في غرفة إيفيلين ديفينيش، غير مرتبة على الإطلاق في هذه الغرفة. كان الفستان الفضي الذي ارتدته جويس ويبل ملقى في إهمال على أحد المقاعد، وكانت إحدى فردتي حذاءها الفضي ملقاة في أحد الأركان، وكانت الأخرى ملقاة في منتصف الغرفة، وكانت جواربها مُكوّمة على مقعد آخر. كان واضحاً أن جويس، بعدما صعدت من غرفة الاستقبال، غيّرت فستانها وحتى حذاءها وجواربها في عجلة كبيرة.

فتح هانو خزانة عند الجدار الأيمن من الغرفة. كانت الخزانة مليئة بالفساتين والأردية الأنيقة مُعلّقة في نظام.

قالت ماريان وهي تشير إلى صندوق طويل ذي أدراج عند الجدار الخلفي بجانب الباب: «هناك ملابس أخرى في الدرج السفلي.» انحنى هانو وفتحه. كانت به بعض التنورات والمعاطف، ولكنها كانت جميعها مطوية في نظام. التفت هانو نحو ماريان وتحدث معها بنبرة سلطوية مفاجئة.

«لقد كنت ممتعة للغاية يا ماريان، بكل تأكيد. ولكننا لم نأت هنا لكي نستمتع. والآن، أخبريني مباشرة إذا ما كان بإمكانك أن تعرفي أن ثمة فستاناً ناقصاً من الخزانة أو الدرج.»

قالت ماريان دون أن تتزحزح قيد أنملة: «لا أعرف.»
«أو أي عباءة.»

«لا أعرف. لقد أقامت الآنسة في قصر سوفلاك لمدة أسبوعين، ولم أرها سوى مرة أو مرتين مرتدية عباءة في المساء عندما تكون خارج المنزل في الشرفة.» توجهت نحو الخزانة وفحصت الملابس المعلقة به. وقالت وهي تلمس عباءة لامعة من قماش اللاميه: «نعم، كانت ترتدي دائماً هذه العباءة.»

قال هانو: «أشكرك. لا أريد أن أُعطِّلك عن عملك أكثر من ذلك.»

أغلقت ماريان باب الخزانة وخرجت من الغرفة. سار هانو نحو الفراش الذي كان ظهره مستنداً إلى الجدار المقابل للخزانة وقاعدته تمتد نحو منتصف الغرفة. كانت مفارش السرير مبعثرة، وملابس النوم مُكوَّمة، والوسادة ملقاةً على أحد الجانبين. رفع هانو أغطية الفراش. كان الغطاء السفلي مستويًا وممتدًا بإحكام على المرتبة من دون تجعيده واحدة على سطحه.

قال المفوض: «نعم، الأمر واضح. لم ينم أحد في هذا الفراش منذ ترتيبه.»
أشار هانو إلى السيد ريكاردو ليقترب منه.

وقال له: «دعنا الآن نستوضح المسألة التي طرحتها يا صديقي. تذهب السيدة ديفينيش إلى غرفتها. وتقف للحظات أمام طاولة زينتها لتُصَفِّف شعرها وتضع مسحوق تجميل على وجهها، وتُعدِّل ما تلف من هيئتها من أجل الأمسية. ثم تضع عباءتها من الساتان البني عليها، وتفتح نافذتها وتتسلَّل إلى الخارج. إلى أين كانت ذاهبة، هذا ما لا نعلمه. ولكنها لم تمسَّ أغطية فراشها. لا! ولم تفعل؟ إذا لم تكن تنوي العودة، فلا سبب يدفعها إلى التظاهر بأنها نامت في فراشها. وإذا فعلت، فلا يزال ثمة احتمال أقل ترجيحاً أنها كانت تنوي النوم في فراشها عندما تعود. هل هذا واضح؟»
وافقه السيد ريكاردو قائلاً: «أجل.»

ولكن لنفكر في حالة جويس ويبل! لقد ذهبت إلى غرفتها أيضاً. وغيّرت ملابسها في عجلة، ثم ... وفتح ذراعيه على امتدادهما، وقال: «اختفت أيضاً. ولكن فراشها كان مبعثراً. إذا كانت تنوي العودة والنوم فيه، فسأسألك مجدداً، لمْ بَعَثَرَتْه؟ وإذا لم تكن تنوي العودة، فما الفائدة من التظاهر بأنها نامت فيه؟ هناك ملاحظة موضوعة على الباب تقول: «لا توقظيني يا ماريان!» إذا لم تكن تنوي العودة، فقد أخذت احتياطاتها. فلن يبحث عنها أحد حتى موعد الغداء. لمْ تُبَعَثِرْ فراشها أكثر مما فعلت السيدة ديفينيش نَعْسَةَ الحظ؟ لقد أصبحت المسألة واضحة وضوح الشمس الآن.»

لم يكن السيد ريكاردو لديه أدنى فكرة عن طبيعة المسألة الشهيرة التي من المفترض أنه طرحها، ولكنه أوماً برأسه في حماسة وتفهم.

سأل هانو: «بالطبع.»

«هل خرجت الآنسة وييل من هذه الغرفة بمحض إرادتها؟» ثم واصل حديثه بينما

ظهر الذهول على وجه ريكاردو، قائلاً: «نعم، هذا هو السؤال.»

قال ريكاردو مُعارضاً: «ولكن، لم تصدر أي جلبة.»

«لا، لم تصدر أي جلبة سمعها أحد ممن في المنزل، ولكنني ظَلَلْتُ أطرح على نفسي هذا

السؤال. كانت تنوي الذهاب إلى مكان ما؛ يبدو هذا جلياً من حقيقة أنها غيّرت ملابسها

في عجلة. ثمة ١٠٠ سؤال يدور في ذهني. هل كانت تنوي الخروج مع ديفينيش؟ هل

كانت تنوي ملاحظتها؟ هل من المصادفة أنها كانت ذاهبة إلى حيث تنوي الذهاب في نفس

ليلة زهاب إيفيلين ديفينيش إليه؟ ولكن السؤال الأهم من كل هذه الأسئلة هو التالي. هل

ذهبت حقاً بمحض إرادتها؟ بفرض أنها أُجبرت على الذهاب ...»

قاطعة السيد ريكاردو قائلاً: «أتقصد بالقوة؟»

«وبواسطة أشخاص لم يلاحظوا تلك الكتابة على الباب؛ لأنهم إما كانوا يتحركون

في الظلام، وإما كانوا متعجلين. إذا ما بعثروا الفراش، فربما تمر بضع ساعات قبل

اكتشاف اختفاء الشابة. ستعثر ماريان على الفراش مبعثراً. حسناً، لا بد إذن أن الآنسة

قد استيقظت مبكراً. وربما كانت تتجول بين كروم العنب.» ثم التفت نحو رفاقه فجأة

وصاح:

«لِيُفَسِّرْ لي أحدكم سبباً آخر لبعثرة الفراش. وسأكون ممتناً للغاية.»

كانت ثمة نبرة قلق وألم عميقين في صوت هانو جعلت كل من الغرفة يشعر بالقلق.

لم يكن يحاول خداع أحد في تلك اللحظة لاستعراض براعته. فكان ينقل بصره بين

وجوههم في توقٍ للحصول على تفسير مقنع غير ذلك التفسير الوحيد الذي توصل إليه

بنفسه.

«هل يمكنك أن تفعل يا سيدي المفوض؟»

«لا.»

«وأنت يا مورو! أنت!»

«لا يا سيد هانو.»

«وأنت يا سيد ريكاردو، أطرح عليك السؤال نفسه على استحياء، فأنت أول من

اكتشف، من بيننا جميعاً، ما تعنيه هذه الفوضى المصطنعة.»

أشاح بوجهه في كآبة بعيداً عن الفراش، ثم انحنى فوق طاولة الكتابة التي توجد

أمام النافذة ولكنها تبعد عنها قليلاً. كان ثمة دفتر ورق نشاف جلدي موضوعاً على

سطحها ومغلقًا. فتحه هانو وعلى الفور سقط نصف فرخ من ورق النشاف على الأرض. التقطه هانو. كانت حافته الداخلية متعرجة. قارنه هانو ببقية الأفرخ.

وقال: «نصف هذه الأوراق مقطوعة، ولكننا لن نعثر عليها.»

كانت هناك سلة للورق المهمل بجانب الطاولة ولكنها كانت فارغة. وكان هناك درج في الطاولة. ولكنه لم يكن يحوي أي ورق نشاف، بل كان يحتوي بدلاً منه على كومة من الخطابات المفتوحة والمعادة مجددًا إلى أظرفها. جلس هانو على المقعد أمام الطاولة وبدأ يقرأ الخطابات سريعًا ووجهه مستقبل النافذة وظهره مستدير الغرفة.

قال هانو مخاطبًا نفسه أكثر مما كان يخاطب أيًا ممن يجلسون خلفه: «آه! إن لها أصدقاء، هذه الشابة.» ثم صمت للحظات، وعاد يقول: «من يكون برايس كارتر؟»

جفل السيد ريكاردو عندما سمع الاسم، وصاح هانو من دون أن يدير رأسه نحوه: «أنت تعرفه إذن يا صديقي.»

رد عليه السيد ريكاردو: «لا، أعرف القليل عنه فحسب. كان خطيب ديانا تاسبورو في السابق.» استدار هانو نحوه في مقعده، وقال ببطء وخطاب مفتوح في يده: «ماذا تقول؟» تذكر السيد ريكاردو بوضوح المعلومات التي أعطتها له جويس وييل عن هذا الشاب عندما التقاها في لندن، ولكنه كان لا يزال يذكر بوضوح أكبر الارتباك الذي انتابها وهي تُخبره بها.

«برائيس كارتر شاب كان يعمل في وزارة الخارجية، ولكنه تركها ليُجرب حظّه في عالم الأعمال ويُصيب حظه من الثراء؛ لأنه لم يكن يود أن يكون زوجًا فقيرًا لامرأة ثرية. ولكنه خُلع.»

تذكّر ريكاردو تلك الكلمة الوصفية وقالها.

كرر هانو الكلمة قائلًا: «خُلع؟ خُلع؟ هذا تعبير اصطلاحى.» وكانت الدهشة تبدو على قسّمات وجهه بوضوح تشير أن ثمة تعبيرًا اصطلاحيًا لا يعرفه.

«أعني أن ديانا تاسبورو فسخت خطبتها منه.»

«أوه!»

التفت هانو مجددًا نحو الدرج. وبدأ يبحث وسط كومة الأظرف وعثر على خطاب آخر بخط اليد نفسه، ثم خطاب ثالث، وقرأها جميعها بتمعّن. ثم نظر خلفه نحو ريكاردو مبتسمًا.

وقال: «سأخبرك بنبوءة. هذا الشاب سيصبح ثريًا في عالم الأعمال. إنه لا يضيع وقتًا، ذلك الوغد.» وتظاهر بأن الخطاب أحرق أصابعه وألقاه على الطاولة، ثم عاد يلتقطه

مجددًا بحذر، وهو يقول: «إن خطابات برايس كارتر كالجمر الملتهب. يا إلهي، إنها تغلي!» وضع أصابعه في سخرية في فمه ونفخ فيها، ثم اختفى تظاهره دفعةً واحدة. فقد راودته فكرة جديدة فجأة، فتصلَّب جسده، وتحوَّل من رجل إلى تمثال حجري.

وقال أخيرًا: «نعم. نعم.» ثم واصل فحصه للدرج في حماسة شديدة. لم يعثر لبعض الوقت على شيء يثير اهتمامه، ثم أسند ظهره إلى مقعده مُحدِّقًا في ورقة.

«ليس من السهل قراءة هذا التوقيع. هل تعرف أحدًا باسم بريفر؟»

هز ريكاردو رأسه نفيًا، وقال: «هناك من يُسمى بريور.»

«حقًا؟ هو الاسم إذن. بريفر. هنري بريفر، ويملك مختبرًا للعقاقير في ليدز.»

قفز السيد ريكاردو من مكانه.

وقال: «أوه!»

سأله هانو: «هل تعرفه؟»

«نعم، أعرفه هو أيضًا. السير هنري بريور. إنه طبيب شهير كرَّس حياته للبحث

العلمي.»

قال هانو: «صديق غريب لفتاة شابة تهوى الموضة.»

كان السيد ريكاردو، باعتباره أحد مواطني العالم، في موضع يسمح له بأن يُقوِّم

صديقه فيما يتعلَّق بالنظام الاجتماعي.

شرح ريكاردو ببعض التواضع: «إننا لا نعيش وفقًا لتصنيفاتنا ومراكزنا الاجتماعية

مثلما تفعلون في فرنسا. لا، إننا معتادون على حياة أكثر تحرُّرًا. نتناول مثلثاتنا الغداء

مع صفوة المجتمع، ويتنزَّه أطباؤنا البارزون مع الفتيات.»

أومأ هانو برأسه في تواضع، وقال: «لا بد أن الأمر ممتع للغاية بالنسبة إلى الأطباء

البارزين.» شعر السيد ريكاردو بالفضول تجاه ما يحويه الخطاب، فاقترَب من الطاولة.

ولكن قبل أن يتمكن من أن يلحَ أيًّا مما يحويه، طواه هانو، وأعادَه إلى داخل الظرف،

ووضع الظرف في جيبه. بعد ذلك، ومن منطلق احترامه للعلم، لم ينفخ في أصابعه

ليبردهما. ثم نهض من أمام الطاولة، وقال بينما يغلق الدرج: «سأحتفظ بهذا الخطاب،

وأرجو ألا يذكره أي منكم لأحد. سننسى اسم بريفر! حسنًا!» ثم أغمض عينيَّه للحظات

وعاد يفتحهما مجددًا، وقال: «قُضي الأمر إذن. ولن تُذكر ليدز. حسنًا!» كرَّر أداءه السابق

مُغمضًا عينيَّه، وقال مخاطبًا السيد ريكاردو الذي كان ينظر له في استياء واضح: «آه!

أنا أتصرف بطريقة هزلية، أليس كذلك؟ نعم، ولكنني لا أعيش دائمًا ضمن تصنيفي

ومركزي الاجتماعي. أنا في ذلك أشبه ذلك الذي نسيت اسمه. هيا بنا!»

جال ببصره لمرة أخيرة في أرجاء الغرفة. كانت طاولة الزينة عند الجدار نفسه الذي توجد خزانة الملابس عنده في مقابل السرير. وكانت النافذة وطاولة الكتابة بين الجدارين. كانت ثمة مجموعة من المصابيح المكورة مثبتة في منتصف السقف. كان ثمة مصباح عادي بجانب الفراش، ومصباحان على طاولة الزينة، وعلى الجدار الخلفي كان مثبتاً مصباحان جداريان كهربيان. حفظ هانو كل هذه التفاصيل وتقدّم الطريق هابطاً السلم الحجري وصولاً إلى الممر المائل.

وقال وهو يعصر مقبض الباب القريب منه: «هذه غرفة الآنسة تاسبروف.»
صحّح له ريكاردو الاسم قائلاً: «تاسبورو.»
«هذا ما قلت: «تاسبروف.»»

ظل واقفاً ممسكاً بمقبض الباب يقيس المسافة بين البابين.
ثم سأل ريكاردو: «هل كان ذلك الشيء، الذي مر أمامك في الشرفة خارج المنزل، شخصاً؟ هل من المحتمل أن يكون وطواطاً أو بومة؟»
«لا، لقد كان شخصاً. أنا واثق بذلك.»
«ولكن لا ريب لديك في هوية ذلك الشخص، أليس كذلك؟»
«على الإطلاق.»

«وهل اختفى الظل عبر نافذة هذه الغرفة التي أقف أمام بابها؟»
«نعم.»
«هل كان ذلك في الثانية والنصف صباحاً؟»
«نعم.»

«حسنًا! لقد استوضحنا الأمر»، وأدار هانو مقبض الباب ودخل غرفة نوم ديانا تاسبورو للمرة الثانية.

كان السيد ريكاردو ينتظر في تلك اللحظة على أحر من الجمر. وكاد يدفع هانو من طريقه من فرط توقه للوصول إلى تلك اللوحة المعلقة على الجدار فوق الفراش ويكشف السر الذي تحويه. ولكنه تلقى واحدة من أقوى خيبات الأمل التي تلقاها في حياته. فقد وجد نفسه يُحدّق في نسخة من النسخ الكثيرة للوحة قناة البندقية الكبرى لتينيتوريتو. كان السيد ريكاردو قد رأى تلك الزوارق، والخيال الباهت لقصر رئيس قضاة البندقية، وقبة سانتا ماريا ديل سالوت، مئات المرات على جدران مئات غرف النوم، ونام تحتها أيضاً عدد المرات نفسه. لم يكن ثمة سر في هذه اللوحة لكشفه، أو لغز في تمثيلها الصامت للبندقية لحله. ألقى السيد ريكاردو نظرة مؤنبة على المحقق الذي أسرع ليقف إلى جواره.

سأله هانو: «ألم ترَ شيئاً فيها؟»

«لا شيء.»

«إذن، لا بد من أنه لا يوجد شيء لرؤيته.»

لا شيء لرؤيته؛ لا! ولكن كانت عينا هانو تلمعان بهذا البريق العجيب، ذلك التحفُّز الغريب في سلوكه، واللذان رأهما ريكاردو من قبل في هذا المكان نفسه. حتى صوته كان يتهدج من فرط الانفعال. ومرةً أخرى، هذه الغرفة تحتوي على معلومات مهمة عليه اكتشافها. اللوحة؛ مجرد مزحة، بل مزحة سخيفة أيضاً. ولكن المزحات السخيفة التي تُلقى عنك باستمتاع كانت جزءاً من الثمن الذي عليك دفعه مقابل الإثارة التي تطمح في الحصول عليها من صداقتك به. كتم السيد ريكاردو شكواه في نفسه وحقق مُقَطَّباً جبينه في الغرفة بحثاً عن ذلك الشيء الذي تغير وحفَّز هانو. للأسف! لم يعثر على شيء. كانت هناك المرأة، وطاولة الكتابة ذات الصليب، وزجاجات العطر نفسها على طاولة الزينة؛ لا، تحيّر السيد ريكاردو. لمح هانو يراقبه وشبح ابتسامة مرتسم على شفتيه.

قال هانو بسرعة: «غريب، أليس كذلك؟»

رد السيد ريكاردو رافضاً أن يكون عُرضَةً للسخرية والاستهزاء إن كان قادراً على منع ذلك: «للغاية. غريب للغاية.»

«إذا كنت قد اكتفيت، فثمة غرفة أخرى علينا زيارتها قبل أن تعود مُضَيِّقُتنا ومدير أعمالها. فلن يعجبهما أن يجدا الشرطة تدس أنفها في الأسرار الحميمة التي لا دخل لها بها. ولكن، للأسف، هذا ما يجب أن تفعله الشرطة خلال تحقیقاتها. لذا، دعونا لا نسبب الكثير من الإزعاج قدر إمكاننا. مورو، اطلب من السيد المفوض أن يُعيِّن حارساً ليراقب الطريق ويُحدِّرنا حال عودة السيارة.»

ولكن لم يكن المفوض متحمساً لأن يُقصي شرف حزامه الثلاثي الألوان من تحقيق هانو. فأوماً إلى مورو.

وقال: «ستجد أندرو بيش في الغرفة التي نشغلها. ويمكنك أن تُعيِّنه حارساً عند النقطة التي تراها مناسبة.»

ذهب مورو مُتَرَدِّداً لِيُنْفِذَ ما طُلب منه.

قال المفوض مخاطباً هانو: «أندرو بيش شاب ذكي. لن يقاطعنا أحد.»

كان السيد ريكاردو يدرك أن هانو يعلم جيداً أنه أصبح مطلوباً منه حالياً أن يتعجَّل في إنهاء ما يفعل. تقدَّم هانو الطريق إلى الشرفة بالقرب من النافذة الطويلة عند قوس

البرج، وممر بسرعة على طول واجهة المنزل، وعَبَرَ الطريق الذي تحفه الأشجار وَخَرَجَ إلى مساحة مفتوحة من الأرض المكسوة بالعشب التي بُني الشاليه عليها. ثم توقف للحظات عند حافة هذه المساحة من الأرض. ولكن لم يتمكن من رؤية أي حركة داخل الشاليه، وكان هناك ستار من الأشجار يحجبهم عن مجال رؤية العمال في أقبية وأحواض النبيذ. رغم ذلك، عبر هانو الأرض العشبية عدوًا، وفتح البوابة البيضاء وأصبح عند مدخل الشاليه بسرعة تتناقض مع بنيته الضخمة. كان الباب موصدًا ولكنه لم يكن مقفلًا بالمفتاح. انفتح الباب على ممر ضيق يوجد باب عند كل من طرفيه، ومن خلفه يوجد درج، وعَبَرَ عتبة باب، لمحت المجموعة مطبخًا. توقف هانو في الممر مرةً أخرى للحظات واضعًا إصبعه على فمه. ولكنه لم يسمع أي صوت.

قال هانو في راحة: «لقد انتهى الخدم من تنظيف الشاليه وعادوا إلى القصر. إنه فارغ.»

ثم سمع صوت أقدام تعدو مسرعةً على الحصى من خلفه. فاستدار ليرى القادم. كان القادم هو مورو بعد أن أنهى المهمة التي كُلِّفَ بها المفوض، وقال: «أصبح هناك حارس يراقب الطريق.»

ردَّ هانو: «حسنًا!» لم يُبَدِ أي اهتمام بالغرف في الطابق الأرضي، ولكنه صعد الدرج في سرعة. كان هناك حمام وغرفة ملابس على أحد جانبي قمة الدرج، وغرفة نوم طويلة على الجانب الآخر، مع نافذة عند كل من طرفي الممر. توجَّه هانو من فوره نحو النافذة التي تُطل على الأرض العشبية ومن خلفها طريق الأشجار.

وسأل السيد ريكاردو: «هل كانت الأضواء التي رأيتهَا منارةً هنا؟»

«نعم.»

كانت الغرفة تُنار في الليل بأضواء كهربية. كان ثمة مصباح عادي موضوع على طاولة بجانب الفراش، ووضع مصابيح معلقة على الجدران.

كرَّر هانو الكلمة قائلاً: «نعم.» ولكن لم تكفه هذه الإجابة. كانت ثمة طاولة تُرى في منتصف الغرفة في موازاة النافذة. فحص بعينيه الأشياء الموضوعة عليها — كتاب، وقلم حبر، وعلبة ورق ملاحظات، وأظرف، ونشافة، وزجاجة حبر، وقلم رصاص — ولكنه كان يبحث عن شيء بعينه، ولم يكن ما يبحث عنه موجودًا. كانت هناك بعض الخزانات مصفوفة على جدارِ الواحدة بجانب الأخرى. فتحتها هانو بالترتيب. وفي إحداها، كانت هناك ملابس معلقة على شموعات، وفي الثانية، كانت ملابس روبن ويبستر الداخلية مرتبةً في أرفف. وفي الثالثة، التي كانت تحتوي على أرفف أيضًا، كانت توجد ربطات عنقه،

وياقاته، وجواربه، ومناديله مصنفة في مجموعات. ولكنها لم تكن تشغل إلا رفين فقط، وكان في الخزانة ثلاثة أرفف. كان يشغل الرف الثالث أشياء متفرقة؛ صندوق ياقات جلدي، وبعض الزجاجات، وقارورة حرارية، وطبق. أغلق هانو باب الخزانة واستدار حول نفسه، وصَفَّق بيديه وفرك راحتيهما معًا بينما كانت ابتسامة تزحف على وجهه ببطء. لقد وجد ما كان يبحث عنه؛ لا ريب في ذلك. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يولي اهتمامًا كبيرًا به. لقد عثر على شيء ما هو أيضًا. نعم، لقد طرأت بباله فكرة.

فصاح وهو يقف بجانب النافذة: «هانو، طرأت ببالي فكرة.» وخلال لحظات، كان هانو يهز ذراعه وقد ملأ الإعجاب والتحمس وجدانه.

وقال: «فكرة! حقًا! هذا أمر نادر الحدوث! قلها! لا تتركني معلقًا هكذا! صُغ هذه الفكرة التي لا تُقدَّر بثمن بكلمات لا تُقدَّر بثمن!»

«هل ستسخر مني؟»

«صديقي!» حملت هذه الكلمة الكثير من اللوم.

«حسنًا إذن. لقد قست طول الجناح في القصر بنظري.»

قال هانو: «لم أفكر في ذلك! ولكنني بدأت التفكير في ذلك الآن.»

«على اليسار، عند نهاية الجناح، بانحراف في عكس اتجاهنا، توجد نافذة غرفتي.» كَوَّر هانو يديه في محاكاة لشكل نظارات الأوبرا المقربة ووضعهما أمام عينيه.

وقال بجدية: «أرى ذلك. هذا أمر استثنائي.»

«هناك، أمامنا مباشرة، نافذة غرفة إيفيلين ديفينيش.»

ألقى هانو بجسده على مقعد، وصاح: «أوه! إنها هي حقًا. حسنًا، إذن! هيا، هاتِ ما عندك!»

«حسنًا إذن! لقد أخبرتك عن نظرة الكراهية الشديدة التي وجَّهتها إيفيلين ديفينيش

نحو جويس ويبل عندما كان روبن وبيستر ينحني فوق مقعدها.»

«لقد فعلت! لقد فعلت!»

«ألم تفهم بعد؟ لقد ذهبت إيفيلين ديفينيش إلى الشاليه حيث يقيم بمحض إرادتها

عندما غادرت غرفتها ليلة أمس. لقد ذهبت إلى حبيبها روبن وبيستر.»

اختفت كامل الحماسة من وجه هانو الضخم. وبدا الإحباط جليًا في طريقة تصرُّفه المتبلدة. هزَّ رأسه في إيماءة إلى السيد ريكاردو تحمل أرق أنواع اللوم، ووضع يده الضخمة على صدره ضاغطًا ليهدئ خيبة الأمل المستعرة في قلبه.

وقال بحزن: «صديقي، لقد أوصلتني إلى درجة من الحماس خطرة على من هم في مثل عمري، ثم ألقيت بي من علٍ واصطدمت بالأرض بقوة أكبر من اصطدام إبليس بها عندما سقط من السماء! كيف طاولك قلبك على فعل ذلك! كيف طاولك قلبك على فعل ذلك!»

رمق المفوض هيربستال، الذي لا يعرف شيئاً عن تقلب مزاج هانو، السيد ريكاردو في لوم. إلا أن السيد ريكاردو لم يتخلَّ عن موقفه.
وقال بحدة: «لقد جاءت إيفيلين ديفينيش إلى هذا الشاليه، وإلى روبن ويبستر.»
قال هانو: «ولكن لم يكن روبن ويبستر هنا.»
«لم يكن هنا!»

حدَّق السيد ريكاردو في وجه محقق جهاز الأمن العام في شفقة. نعم، لقد ولَّت أيام المحقق العظيم. إن هذه القضية وخفاياها وتداخلاتها كثيرة للغاية على هذا العقل الذي كان يوماً عظيماً وعبقرياً. ولكن لم يكن يصح أن يُحرجه السيد ريكاردو أمام زملائه. يجب أن يجعله يعدل عن موقفه بهدوء وسلاسة.
فقال: «لقد نسيت يا سيد هانو. لقد رأيت الأنوار التي أضاءها ويبستر تتسلَّل عبر هذه النافذة. ورأيتَه يطفئها.»

قفز هانو واقفاً على قدميه على الفور.
وقال: «لا، لا، لا! أنا أتذكَّر كلماتك جيداً. لقد رأيت الأنوار ترتعش ثم تنطفئ. نعم، في وقت قولك لها، فكَّرت أنها كلمات غريبة. والآن، دعنا نرى. إذا ما أضأت مصباحاً كهربياً، فإنه ينطفئ ويعم الظلام على الفور. وإذا انصهر سلك، يحدث المثل. ولكن إذا ما ارتعش نور المصباح ثم انطفأ، فإن السبب في ذلك يرجع إلى أنه قد تلف. والآن، دعنا نرى.»

أنار جميع مصابيح الغرفة الواحد تلو الآخر، وأصدرت جميعها ضوءاً. ثم أطفأها مجدداً، واختفى ضوء كل منها في سرعة لحظية.
وقال: «لقد رأيت ذلك!»

ثم عاد إلى الخزانة الثالثة ومن رفها الثالث، أخرج الطبق ووضعها على الطاولة.
وقال: «هذا ما رأيته يرتعش ثم ينطفئ.»

اصطدم هيربستال والسيد ريكاردو أحدهما بالآخر بينما كانا يسرعان لفحص الطبق. ورأيا في قاع الطبق قطعةً من فتيل أسود، وقطعةً صغيرة من الشمع بدا أنها ذابت وتجمَّدت مجدداً.

تلثم السيد ريكاردو وهو يقول: «أنا لا أفهم.»

«ولكن الأمر واضح. لقد أضاء صديقي الشاب ويبستر هذه الشمعة وتركها تحترق لتتير الغرفة حتى يقول السيد ريكاردو، أو أي أحد آخر ينظر في هذا الاتجاه، لنفسه: «يا لهذا الشاب المجتهد! يا له من كنز!» ولكن للشمعة طول معين، ومن المتعارف عليه أنها ستنطفئ في وقت ما، وسيقول السيد ريكاردو، إذا كان لا يزال مستيقظاً: «لقد تأخر الوقت، لا بد أنه ذهب لينام. يجب ألا يُدمر الكنز صحته. إننا لا نعثر على أمثاله بسهولة.»

كان هذا ما حدث به السيد ريكاردو نفسه تمامًا، وبدأ وجهه يحمر بشدة بينما يستمع إلى هذا التفسير.

«ولكنه كان في الحقيقة خارج الشاليه. نعم، كل شيء على ما يرام، ولكنه نسي ارتعاش الضوء عندما يخبو لهب الشمعة ويقفز، ثم ينطفئ. آه! إن السيد ويبستر شخص مثير للاهتمام. إلى أين ذهب عندما ترك الشمعة تحترق؟ وماذا كان يفعل؟»

أعاد هانو الطبق بحرص إلى مكانه على رف الخزانة وأغلق بابها. في تجويف صغير في الجدار الذي يستند إليه رأس الفراش، كان ثمة بعض الكتب مرصوفة. سار هانو نحو الكتب وقرأ عناوينها بصوتٍ مسموع. كانت مجموعة غريبة للغاية من الكتب ليحتفظ بها رجل بجانب فراشه، وفي رأي السيد ريكاردو، لم يكن من المرجح أن يؤدي بعضها إلى إصدار تلك الأفكار الجميلة التي يجدر بالمرء أن يفكر فيها لتساعده على النوم.

قرأ هانو بصوتٍ عالٍ: «يوميات كازانوف». أفضل أعمال رويسبروك، الصوفي؛ الأنسة دو موبا؛ الاقتداء بالمسيح؛ الدفن في الجرار؛ الفتاة ذات العينين الذهبيتين. يا له من شخص مثير للاهتمام، السيد ويبستر! يا لها من مجموعة عجيبة من الكتب!

أمسك بكتاب «الآنسة دو موبا» وفتحه على صفحة الغلاف.

وقال متفهماً: «نعم. روبن ويبستر.»

أعاد الكتاب إلى مكانه وأمسك أحد أعداد يوميات كازانوف عشوائياً. كان هذا الكتاب أيضاً يحمل اسم روبن ويبستر على صفحة الغلاف. كان تجليد الكتاب الثالث الذي أخذه من على الرف أكثر اهتراءً من الكتب الأخرى، الأمر الذي أدهش السيد ريكاردو. فقد كان هذا الكتاب هو «أفضل أعمال رويسبروك، الصوفي»، وكان من غير المرجح أن تجد كتاباً مثل هذا مستخدماً بصورة مُتكررة في غرفة مدير كروم غنب. فتح هانو الكتاب. كان تقطيب الصفحات مفككاً، ولم تكن صفحة الغلاف موجودة من الأساس.

ولكن، كان السيد ريكاردو يقف الآن بجانب هانو، ولكنه لم يكن ينظر من فوق كتفه، فلم تُمكنه ضخامة جسم هانو من ذلك، بل كان يختلس النظر من حول مرفقه، وبينما كان هانو يغلق الكتاب صاح محتجاً من إهمال صديقه المحقق: «صديقي، أنت لم تعد قوي الملاحظة! كيف وصلت إلى هذه الحال؟»

صاح هانو بصوتٍ متحسّرٍ على جميع الأخطاء التي يرتكبها: «أخبرني أنت! أخبرني بسرعة!»

«صفحة غلاف هذا الكتاب ليست مفقودةً بسبب تفكك الكتاب. لا، على الإطلاق. لقد طُويت نحو كعب الكتاب وكُورت، ثم قطعت بحرص وعن عمد.»
عاد صوت هانو ليكتسب قوته مجدداً.

وقال: «لقد لاحظت ذلك. نعم، نعم. لا تزال ثمة بقايا من العبقرية التي عُرف بها هانو. لقد قُطعت صفحة الغلاف.»

صاح السيد ريكاردو شاعراً بالظفر: «ولكن لماذا؟ الأمر واضح تماماً. لقد غيّر روبن ويبستر اسمه.»

ردّ هانو: «فلنر.» ثم أخذ كتاب «الاعتداء بالمسيح». وكانت صفحة غلاف هذا الكتاب أيضاً مقطوعةً بحرص. ظل واقفاً يحدق في الكتاب لفترة طويلة. ثم أعاد الكتاب إلى مكانه ببطء، وقال ببطء مماثل: «ثمة تفسير آخر. وهو يقنعني أكثر من سابقه. فهو يفسر لي شيئاً عن روبن ويبستر ظل يُحيرني طوال اليوم.»

وواصل بحثه مسرعاً بين الأدراج بلمسات خفيفة مثل النساء، وخفة يُحسد عليها. لم يتبق سوى صندوق قديم، وفوق غطاءه المغلق كان هناك غليون أو اثنان، ومضرب تنس، ودليل هاتف، وخريطة، ومجلة أمريكية، تلك الأشياء المتفرقة التي يجمعها الرجال. أزاح هانو هذه الأشياء جانباً، وفتح الصندوق. أخرج هانو منه دثاراً ومعطفاً ثقيلاً وألقاهما على الأرضية، ثم وقف منتصباً ممسكاً في يده صندوقاً رخيصاً مستطيل الشكل مرصعاً بلؤلؤة كبيرة. هز الصندوق وسُمع صوت خشخشة في داخله في خفوت. حاول فتح الغطاء، ولكنه كان مقفلاً، فجلس إلى الطاولة. كان القفل رخيصاً مثل الصندوق. أخرج هانو من جيبه مجموعةً من الأدوات المعدنية الصغيرة المعلقة في حلقة. انتقى من بينها ملقطاً وسرعان ما انفتح الصندوق.

ثم قال: «أوه!»، وألقى على الطاولة حوالي ثمانية أو عشرة خطابات؛ إذا كان يمكن أن يُقال عنها إنها خطابات. فمن زاوية رؤية السيد ريكاردو على الجانب الآخر من

الطاولة، كانت تبدو وكأنها ملاحظات، وكان أغلبها مكتوبًا بالقلم الرصاص، وجميعها مكتوبًا في عجلة. قرأها هانو سريعًا، وتغيّرت ملامح وجهه.
وقال ببطء: «آه!» ورفع عينيه نحو السيد ريكاردو وأومأ برأسه مؤكدًا صحة تخمينه.

قال هانو الذي بدا أنه مسرور من مشاركة السيد ريكاردو في القضية حتى هذه اللحظة: «نعم، نعم!» ولكن بما أنه لم يكن مسموحًا للسيد ريكاردو أن يرى حتى التوقيع الذي ذُلت به هذه الخطابات، فلم يؤثر فيه هذا السرور كثيرًا. أعاد هانو الخطابات إلى الصندوق، والتفت نحو مورو.
وقال: «يجب أن تُصوّر هذه الخطابات، على الفور. أعتقد أن الأمر لن يستغرق منك بضع دقائق.»

قال مورو وهو يتجه نحو الباب: «سأحضر كاميرتي واللوح الصغير لفردها.»
ولكن استدعاه هانو. وقال: «لا. إن صديقنا ...» ثم قطع جملته. وعاد يقول: «قد يعود صديقنا السيد روبن فجأةً ويجعلنا نغادر دون أن نستكمل عملنا. من الأفضل أن تأخذها إلى غرفتنا، وتُصوّرها بأقصى سرعة ممكنة وتعيدها، إذا ما توفر لك الوقت لتفعل. وإذا لم تتمكّن من ذلك، فسيكون ذلك من سوء حظك. سنحتفظ بالصندوق على أمل ألا يُكتشف اختفاؤه في وقت قريب.»

كان يتحدث بثقة كبيرة، ولكنه كان يجلس «على أحر من الجمر» عندما ذهب مورو ليُنْفذ ما طُلب منه. كان يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بين الطاولة والنافذة، وينظر إلى الطريق، ثم يفحص مُجدِّدًا ركنًا كان قد فحصه من قبل وكان مظهره بالكامل يدل على أنه لا يطيق الانتظار. وفي نهاية المطاف، جلس إلى الطاولة مجددًا وضم يديه معًا أمام وجهه.

وسأل فجأةً: «لَمْ قد يحتفظ رجل بخطابات موجهة له من امرأة داخل صندوق مغلق؟ هل يمكنك أن تخبرني بالسبب؟»

ابتسم جوليوس ريكاردو. فقد كانت الإجابة بدهية. وردّ قائلاً: «لأنه مغرم بها. قد تتذكّر أنني رأيته ينحني على ظهر أحد المقاعد. وتأكّدت ملاحظتي بصرخته التي أطلقها هذا الصباح عندما اكتشفنا اختفاء جويس وبيل.»

نظر هانو بفضول إلى السيد ريكاردو.

وسأله: «هل تعتقد أن جويس وبيل هي من أرسلت تلك الخطابات، أو الملاحظات، أو القصاصات المكتوبة؛ أيًا كان ما تطلقه عليها؟»

قال السيد ريكاردو لائماً برفق: «لست بحاجة لأن أرى التوقيع الذي يُذيلها، والذي أخفيته ببراعة، لكي أعرف يا صديقي.»
التفت هانو نحو هيربستال فجأة.
وقال: «وماذا عنك أيها المفوض؟ لمَ قد يحتفظ رجل بخطابات موجهة له من سيدة في صندوق مغلق؟ هل ستقول مثل ما قيل؟ هل لأنه مغرم بها؟»
قال المفوض وهو يهز كتفيه: «ربما.»
قال هانو متشككاً: «حسنًا، ربما كان الأمر كذلك. ولكني أقول مجددًا إن ثمة تفسيرًا آخر، وأنا أفضله أكثر من الآخر.»
عاد مورو إلى الغرفة أثناء حديثه ممسكًا بالصندوق المرصع بين يديه. وقال: «أنجز الأمر.»
قفز هانو من مقعده، وأعاد قفل الصندوق بملقطه، وأعادَه إلى المكان الذي كان مخبأً به. وقال والراحة تكاد تقفز من وجهه: «جيد، لنذهب الآن! فقد سمحت للسيارة بالعودة!»
وغادر الرجال الثلاثة الشاليه وعادوا إلى شرفة المنزل.

الفصل الحادي عشر

آثار أقدام

كان هانو يشعر براحة حقيقية عندما وجد نفسه جالساً من جديد في الشرفة المفتوحة بقصر سوفلاك. وكان يضحك بصوت قرقرة منخفضة وهادئة بدت للسيد ريكاردو مُقلِّقةً وغريبة. أوماً هانو إلى ريكاردو بعينين تلمعان.

وقال: «لديك قصيدة. أنا أعرفه جيداً. إنه بارع في نظم القصائد. الحياة حقيقة، الحياة جادة، والقبر هدف أحدهم بلا أدنى شك. نعم، أنا في مزاج جيد للغاية. فقد اقتربنا من كشف الحقيقة. والآن، لنرَ ما الذي يحرسه حارسنا الهُمام من أجل تحقيقنا.»

وهبط درجات السلم وعبر المرج العشبي نحو حوض الزهور المستدير. في هذه اللحظة تمكّن السيد ريكاردو من رؤية أن الأشياء التي كانت تُحيرُه هي ثلاثة أطباق خزفية بنية اللون، كان أحدها مقلوباً على الحافة العشبية للحوض المستدير، والاثنتان الآخران مقلوبين على تربة حوض الزهور نفسه. حيّاً الحارسُ الواقف بالقرب من الأطباق هانو.

فسأله هانو مبتسماً: «هل أنت من اكتشف هذه العلامات؟»

«نعم يا سيدي. أمرني المفوض أن أبحث عن أي أدلة في الحديقة. عندما اكتشفت هذه العلامات، أسرعت على الفور نحو المطبخ لأحضر أطباقاً وأغطيها بها.»

قال هانو بابتسامة تقدير: «كانت هذه فكرةً جيدة.»

«ولكني عانيت معاناةً كبيرة حتى تمكنت من أخذه يا سيدي.»

أوماً هانو برأسه في شفقة، وقال: «ماريان.» شجّع تقدير هانو الحارس على أن يتخلى قليلاً عن وقفته المتصلبة. ونفخ أوداجه.

وقال: «إنها امرأة جبارة يا سيدي، إن كانت امرأةً من الأساس. لقد ضربتني على أذنيّ يا سيدي. كنت أمسك الأطباق بين يدي. وتحدّثتني أن أسقطها، وضربتني على أذنيّ

مجددًا. هل تدرك ما حدث يا سيدي، كنت عاجزًا. ثم قالت ... ولكن اعذرني يا سيدي، لن يكون من اللائق أن أكرر ما قالت.»

قال هانو مصرًا: «يمكنك أن تُكرّر ما قالت. فلا نساء هنا.» احمرّ وجه الحارس تحت قبعته العسكرية.

وقال: «لا، لم تكن وقاحةً من هذا النوع. بل كانت أسوأ.»

«لا عليك، كرره.»

قالت: «إذا لم تعجبك ضرباتي على أذنيك، أيها الوغد، يمكنك أن تنتقلها إلى سيدك الغالي هانو، الذي لا أكن له أي احترام على الإطلاق.»

بدا المفوض هيربستال مصعوقًا بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه هانو. وقال: «أشعر بانجذاب نحو ماريان. حسنًا، وحصلت على الأطباق وأحضرتها إلى هنا. أليس كذلك؟»

«ثم ذهبت إلى المفوض الذي أمرني بأن أوصل الحراسة حتى لا يعيث أحد بالعلامات.»

«حسنًا! هل اقترب أحد من حوض الزهور هذا بغرض العبث بالعلامات؟»

«لا يا سيدي.»

قال هانو: «هذا ليس جيدًا. والآن، أخبرني باسمك حتى أحفظه في ذاكرتي. ثم ابدأ بالكشف عن هذه العلامات على الأرض الواحدة تلو الأخرى.»

احمرّ وجه الحارس في سعادة للمرة الثانية.

وقال: «بالنسبة إلى اسمي يا سيدي، فهو كوربي؛ فيكتور كوربي في خدمتك يا سيدي. أما بالنسبة للعلامات، فانظر!»

ركع الحارس على ركبتيه ورفع الطبق من على الحافة العشبية حول حوض الزهور. وفي المكان الذي كان الطبق يغطيه، كان العشب مسحوقًا، وبالقرب منه عند حافة التربة كان هناك أثر قدم صغيرة ترتدي حذاءً مدببًا بكعب عالٍ.

قال السيد ريكاردو مؤكّدًا على أفكاره: «نعم. لقد أنزلت قدم امرأة في هذا المكان.» بينما كان لا يزال راکعًا على الأرض، مدّ فيكتور كوربي يده إلى الطبق الثاني عند منحدر حوض الزهور. ورفع الطبق وكشف عن أثر قدم أخرى. فحص السيد ريكاردو الأثر من حيث يقف.

وقال: «هذا الأثر صنعته المرأة نفسها.»

قال هانو: «ولكنك ستلاحظ أنه أثر القدم اليسرى، بينما ذلك الأثر الآخر عند حافة الحوض صنعته القدم اليمنى.»

قال السيد ريكاردو: «أوافقك الرأي يا عزيزي هانو. نعم، أوافقك الرأي.»
لم يعد المفوض هيربستال، الذي كان يُحدّق من وقت لآخر خلال الساعة الماضية في السيد ريكاردو، ثم ينقل عينيه من السيد ريكاردو إلى هانو مُتَحَيِّرًا، يعرف في تلك اللحظة إلى أي فئة أو جانب ينتمي. أما هانو، فعلى النقيض، كان تجسّدًا حيًّا للسرور.
قال: «يسعدني أنك توافقي الرأي.»

ثم أومأ إلى فيكتور كوربي الذي أسرع بالدوران حول حوض الزهور وأزال الطبق الثالث. كان هذا المكان هو الأقرب من المنزل، وبما أن آثار الأقدام تُشير إلى ناحية النهر في عكس اتجاه المنزل، فإن هذا الطبق سيكون تاليًا للطبقين السابقين. كان الأثر الذي كُشف عنه أثر قدم أيضًا، ولكنه أثر قدم رجل داخل حذاء ضخم ذي مسامير. كان الأثر أكثر ضخالة. ولكن لم يكن السيد ريكاردو ممن تثنيهم أي ملاحظات دقيقة. فقال بجرأة:
«من الواضح أن المرأة كانت تهرب، وأن الرجل كان يلاحقها.»

ولكن لم يكن هانو في تلك اللحظة يولي تصريحات السيد ريكاردو التقدير المعتاد. بل بدا أنه لم يسمع ما قال من الأساس. وقال:

«أعتقد أن أول ما علينا فعله هو اكتشاف أي من شابات قصر سوفلاك هي التي كانت تجري عبر حوض الزهور ليلة أمس، وإذا ما كانت قد جرت عبر حوض الزهور ليلة أمس وليس الليلة التي سبقتها. فيكتور كوربي، أحتاج إلى مساعدتك.»

أسرع هانو عائداً إلى المنزل، واختفى داخل غرفة نوم ديانا تاسبورو في البرج، ولم تكد تمر دقيقتان حتى ظهر مجدداً عند نافذة غرفة الاستقبال. وظهر من خلفه فيكتور كوربي. ثم جرى عائداً إلى حوض الزهور، وألقى كوربي بجانبه على العشب ثلاثة أحذية نسائية مسائية أنيقة. كان ثمة حذاء مطرز من الساتان يخص إيفيلين ديفينيش ولكنه كان أكبر من آثار الأقدام على الأرض، وكان الحذاء الثاني يخص ديانا تاسبورو ولكنه كان أعرض وأقصر من آثار الأقدام، ثم الحذاء الفضي الذي يخص جويس ويبل والذي طابق آثار الأقدام تماماً.

قال هانو وهو ينهض واقفاً: «لقد اتضح الأمر، إذن. كان ثمة شخص يرتدي حذاء جويس ويبل يجري عبر المرح العشبي، ثم تعثر في الظلام في حافة حوض الزهور ما جعل قدمه اليسرى تغوص بالكامل في التراب ثم قفز عبره حتى العشب على الجانب



«أعتقد أن أول ما علينا فعله هو اكتشاف أي من الشائبات هي التي كانت تجري عبر حوض الزهور ليلة أمس.»

الآخر من حوض الزهور. نعم ... ولكن» وقلب الحذاء في يده «ولكنها لم تكن ترتدي هذا الحذاء الرقيق. لقد سار هذا الحذاء على سجاجيد، وربما في الشرفة، ولكنه لم يغص في تربة حوض الزهور ليلة أمس.»

رأوا جميعاً عدم وجود أي أثر للطخات على الجلد الرقيق أو النعل. ولم يكن ثمة أثر للتراب يُلطّخ الحذاء. وكان الجزء الأمامي الداخلي من الحذاء جديداً كما لو أنه خرج من عند الإسكافي الآن، ولم يكن ثمة تغير في لون النعل تقريباً.

«كان هذا الحذاء الذي ركلت جويس ويبل فردتيه كل واحدة في اتجاه وهي في عجلة من أمرها ليلة أمس، عندما أَلقت الفردتين في الهواء وَغَيَّرت ملبسها.»
التفت هانو نحو كوربي بينما يتحدث وأعطاه أزواج الأحذية الثلاثة.
وقال: «فلتسرع يا صديقي وأعد هذه الأحذية إلى مكانها في خزانة الأنسة ديانا حيث أخذناها. ثم افعل المثل مع حذاء السيدة ديفينيش التعسة. أما حذاء جويس ويبل، فسنأخذه معنا.»

وقف هانو يراقب كوربي وهو يعدو لِيُنْفِذ ما كُلف به بقلق شديد لا يُبرِّره إلا مراعاة مشاعر سيدة قصر سوفلاك الشابة. ارتجف جسد السيد ريكاردو خوفاً عليها؛ فقد رأى هانو يعمل من قبل، ويذكر جيداً أنه لم يكن يوماً أكثر رقةً ولطفاً مثلما يكون قبل أن ينقض على فريسته. لم يكد كوربي يقطع نصف المسافة بين حوض الزهور والمنزل حتى ارتفع أخيراً صوت هدير محرك سيارة ثم توقف. أطلق هانو سباباً غير مسموع.
وغغم قائلًا: «لم أكن أريد حدوث ذلك.» ثم رفع صوته وصاح: «اجر يا كوربي، اجر!»

ثم ظل ينتظر في ترقب حتى اختفى كوربي داخل غرفة البرج. ولم يرفع عينيه عن الشرفة حتى رأى الحارس يعود عدوًا نحوهم من ناحية الطريق.
سأل كوربي بمجرد أن وصل إلى جواره: «ما الأمر؟ هل عادا؟»
رد كوربي قائلًا: «لا، ولكن انتشرت الأخبار المؤسفة. كانت هذه سيارة بعض الجيران الذين حضروا لتقديم بطاقتهم وتعازيهم.»
هدأ هانو. وعلا وجهه راحة غامرة.

وقال: «حسنًا! صديقي مورو، أحضر الجص واصنع قوالب من آثار الأقدام الصغيرة تلك على الفور. أما بالنسبة إلى آثار الأقدام الكبيرة تلك، فسوف نرى! كوربي، أريدك أن تواصل الجري، ولكنك ستجري هذه المرة ناحية أقبية النبيذ لتحضر البستاني. إذا لم يكن هناك، فستجده يعمل بين كروم العنب.»

كان البستاني رجلًا ضخم الجثة مفتول العضلات ذا وجه بشوش أحمر مثل تفاحة يانعة، وكان يُشرف على نقل العنب من العربات الصغيرة ووضعه في الحوض المُسطَّح لعصره. عاد البستاني مع كوربي، وكان هانو قد عاد ليركع على ركبتيه عند حافة حوض الزهور، وقال شيئاً مفاجئاً دون أن يرفع عينيه نحو البستاني.
قال: «لقد أمطرت في نهاية المطاف.»

أجابه الرجل: «نعم يا سيدي. كما أردنا تمامًا، أمطار خفيفة استمرت لساعتين كاملتين. سيكون هذا العالم عامًا جيدًا، في نهاية المطاف.»
قال هانو بصوت خافت: «هذا رائع. في أي ساعة بدأ هطول الأمطار؟»
«عند منتصف الليل يا سيدي، أو بعده ببضع دقائق.»
نظر هانو لأعلى في حزم، وقال: «هل أنت واثق بذلك؟ هذا أمر على جانب كبير من الأهمية.»

ضحك البستاني، وقال: «سيدي، ليس من المحتمل أن أخطئ في ذلك. فكّر في الأمر! كل منا مسئول عن رقعة صغيرة من كروم العنب. إن ساعتين من هطول الأمطار الخفيفة ليلة أمس من شأنه أن يحدث فرقًا كبيرًا في العنب الخاص بنا. فبدلاً من أن يكون نابلاً، سيكون نضراً. لم ينم جميع العمال في هذه المقاطعة جيدًا ليلة أمس، أوكد لك هذا. من منتصف الليل وحتى الثانية صباحًا. نعم يا سيدي، لقد كان مطرًا خفيفًا جيدًا، وهو بمثابة الماء المقدس للعنب.»

كان امتنان الرجل الحار ومنطقية حجته مقنعين. فقال هانو: «حسنًا إذن! لقد أمطرت السماء من الثانية عشرة وحتى الثانية. هذا واضح.»
قال البستاني في نفس واحد: «واضح مثل مثل السماء بعد انقشاع السحب يا سيدي، واضح ومظلم. وبالنسبة إلى آثار حذائي الضخم على حوض الزهور التي كان السيد يفحصها بعناية فائقة، لا أرى أنها تضعني تحت طائلة القانون الجنائي.»
وجّه هانو ابتسامة ساخرة للسيد ريكاردو، وقال: «إنها آثار أقدامك إذن؟»
«نعم يا سيدي، أنا واثق بذلك.»

«أرني!» وضع البستاني قدمه في أثر القدم الضحل. وكان مطابقًا تمامًا.
سأل هانو: «متى تركت هذا الأثر؟»
«بالأمس يا سيدي. وكان من المفترض أن أمحو الآثار صباح اليوم، ولكن على الحديقة أن تراعي نفسها بنفسها خلال هذين اليومين أو الثلاثة أيام.»
«أشكرك! هذا كل شيء.»

«هل يمكنني العودة إلى أقبية النبيذ يا سيدي؟»
قال هانو: «أرجو أن تفعل»، وذهب البستاني سائرًا بطريقة خرقاء. في الوقت نفسه، وجّه هانو ابتسامة خبيثة نحو صديقه ريكاردو. وقال: «أهاهاهاها! ماذا عن قصة الفرار والملاحقة الرائعة التي قلناها؟»

احمرَّ وجه السيد ريكاردو. فقد كان يدرك أن المفوض يراقبه بنظرة فضولية محرجة. ففقد السيطرة على أعصابه ووجه اتهامًا خطيرًا.

قال: «البستاني هو من كان يلاحق جويس ويبل.»

قال هانو بسعادة غامرة وهو ينهض واقفًا: «آه! هكذا الأمر إذن. لقد أصبحنا نتمسك بآرائنا. لقد حلَّ اللغز. مرحى للسيد ريكاردو، العقل المدبر!» وأزال قبعته ذات الحافة العريضة المصنوعة من اللباد الناعم عن رأسه، وانحنى انحناءً بالغة حتى كاد رأسه يمس الأرض. وقال: «نعم، إنه البستاني. كانت الأنسة ويبل تهرب بعد هطول الأمطار ... انظروا إلى الآثار العميقة التي تركها حذاؤها الصغير! ... كان البستاني قد بدأ ملاحقتها قبل يوم من هروبها ... انظروا إلى الآثار الأكثر ضحالة التي تركها حذاؤه الضخم ذو المسامير الحديدية في التربة الجافة. هل ترون؟ لا بد أنه أمسك بها. إنه لن يتمكن من مجارة سرعتها؛ ذلك الرجل الأخرق، ولكن إذا بدأ ملاحقتها قبل يوم من هروبها، فسوف يتمكن من الإمساك بها في نهاية المطاف، رغم بطئه. أسرعوا! دعونا نضغط على البستاني، وسرعان ما سنعرف كل شيء.»

لم تكن ثمة إهانة تفوق ذلك الفعل المخزي الذي حدث. فقد أظهر هانو أسوأ ما فيه. قفز هانو على جسد صديقه وكأنه جاموس هائج. وترك هذا التصرف السيد ريكاردو معقود اللسان ومتلعثمًا. ثم قال وهو يلهث بعد مدة: «لن أرد عليك.»

وافقه المفوض هيربستال قائلاً: «من الأفضل ألا تفعل.»

لحسن الحظ، تغير مزاج هانو سريعًا. ودار حول جانب الحوض إلى حيث كان الرجال الأربعة الآخرون يقفون. ونظر إلى آثار الأقدام الصغيرة ومنها إلى الباب الزجاجي لغرفة البرج.

ثم قال: «لعلكم تتخيّلون ما أشعر به من حيرة. في وقت ما بعد الثانية صباحًا، كانت جويس ويبل تجري بسرعة كبيرة عبر المرج، وتغرس قدميها في حوض الزهور، ثم تواصل الجري. أنا واثق بهذا التوقيت لأن آثار الأقدام دقيقة وواضحة. ومن المؤكد أنها حدثت بعد توقف الأمطار ببعض الوقت ما جعل التراب رقيقًا — ما الكلمة التي تصف ذلك؟ — ولزجًا. لا ريب في أن هذا حدث بعد توقف الأمطار، وإلا لأصبحت هذه الآثار مُرَقَّطة بقطرات المطر ومطموسة. حسنًا، إذن! في الثانية والنصف، مرَّ شخص ما بسرعة من أمام نافذة المكتبة، واختفى داخل غرفة الأنسة تاسبورو، وأقفل الباب، وانتظر في دُعر مُجَهَّزًا إصبعه على مفتاح المصباح الكهربائي. لقد سألت نفسي، هل كانت جويس ويبل

ملاحقة حقًا من قِبَل شخص ما تمكّن من الإمساك بها» ثم قال الكلمات التالية الواحدة تلو الأخرى ببطء «والذي كان يملك الحق في دخول غرفة الأنسة تاسبورو؟»

لم يكن ثمة شك في هوية الشخص الذي يقصده هانو. ولكن لم يتمكن السيد ريكاردو من التوفيق بين هذا الاقتراح وصرخة الحزن التي انطلقت من بين شفّتي روبن ويبستر عند اكتشاف اختفاء جويس ويبيل. ولكنه كان في هذه اللحظة قد فاض به الكيل من وضع النظريات وإعطاء التفسيرات. علاوةً على ذلك، رأى هانو ينظر إليه بقلق شديد. ثم قال: «في نهاية المطاف، هل كنت مُحققًا يا صديقي؟ هل حدث شيء رهيب في هذه الحديقة مباشرةً قبل أن تتسلّل إلى المكتبة لتُحضر كتابًا؟»

قال المفوض: «لم يسمع أحد صراخًا.»

وافقه هانو قائلاً: «هذا صحيح، وفي ليلة هادئة، كانت صرخة واحدة تُسمع من مسافة بعيدة. نعم!» ثم صمت والقلق باٍ على وجهه لبضع لحظات، ثم هزّ كتفيه الضخمتين. وقال: «دعونا نتتبّع مسار هذه الآثار. إنها لن تقودنا إلى حيرة أسوأ من التي نعيشها بالفعل.»

ترك مورو يصب الجص السائل على آثار الأقدام، وتقدّم إلى الأمام ومعه كوربي حاملاً حذاء جويس ويبيل. لاحظ السيد ريكاردو أن مسار خطوات الأقدام بدأ عند باب البرج وتقدم قُطريًا عبر الحديقة وصولًا إلى حوض الزهور. ومن بعد حوض الزهور، كان يستمر نحو النهر، ويمر مباشرةً تحت الأشجار الأخيرة من طريق الأشجار. كان هانو يسير على طول هذا المسار متمهلاً وعيناه مثبتتان على الأرض ولسانه لا يكف عن الشكوى.

قال: «كانت النساء يحبن تقديم المساعدة عندما كنت شابًا. كنّ يرتدين دبابيس — دبابيس في شعورهن ودبابيس في ملابسهن — وكنّ يُسقطنها في كل مكان بمجرد أن يبدأن العدو. أه!» ثم توقف عند حفرة صنعها كعب عالٍ، ثم واصل حديثه قائلاً: «كما كنّ يرتدين تنورات، وكانت تعلق في الكثير من الأشياء وتترك أثراً خلفهن. أما الآن، أصبحت ملابسهن تشبه القفازات و... أوه!» كان قد اكتشف حفرةً أخرى في العشب صنعها كعب مدبب. وقال: «على أي حال، نحن على المسار الصحيح؛» وتحت أغصان الأشجار عند نهاية الطريق، توقف للمرة الأخيرة.

وقف رفاهه بجانبه، وأشار نحو الأرض من دون أن يتكلم. كان العشب تحت أغصان الأشجار مسحوقًا أكثر مما هو عليه في المساحة المفتوحة. لم تصل إليه أشعة الشمس

لُتَجَفَّفَ، كما أن الأشجار كانت تقطر عليه ماءً لمدة طويلة بعد توقف هطول الأمطار. وفي هذه البقعة من العشب المبلل اللين، كان هناك أثر قدمين ظاهرين بوضوح، ولكنهما كانا متجاورين وقرييين من بعضهما، كما لو أن شيئاً في هذا المكان جعل الهاربة تتوقف وتتسمّر مكانها.

قال هانو: «نعم، لقد جفلت هنا وتسمّرت مكانها، فجأة. أيها الشاب كوربي، طابق الحذاء.»

ركع كوربي على الأرض ووضع الحذاء اللامع في آثار الأقدام، ومرةً أخرى كان مطابقاً تماماً، وراودت جميع الحاضرين رؤية واضحة خاطفة قبضت قلوبهم. رؤية عن فتاة تهرب في رعب، لكنها توقفت عن الهرب فجأة، وظلت واقفةً في الظلام تحت أغصان الأشجار بقدمين مضمومتين، وقد تصلّب جسدها من الخوف، وقلبها يدق بعنف في صدرها وصرخة ماتت على شفّتيها.

وقف هانو خلف آثار الأقدام ونظر إلى الأمام. وجد أنه ينظر مباشرةً إلى المرفأ الصغير المبني على ضفة النهر. صاح السيد ريكاردو. وقال: «بالطبع! بالطبع! الزورق!» التفت هانو نحوه بسرعة خاطفة.

«الزورق الذي يُحضر احتياجات القصر من بوردو، لا بيل سيمون. كان راسياً هنا في المرفأ بالأمس ومعه خزين القصر. وكانوا سيبدءون رحلة العودة مع تغير المد في الصباح الباكر في تمام السادسة. نعم، لقد تحدّثت مع قبطان الزورق عصر الأمس؛ في السادسة. لقد جرت جويس وبيل نحو الزورق لتحتمي به.»

سأله هانو بحماسة ومن دون أي أثر للسخرية أو الاستهزاء في صوته: «لماذا توقّفت هنا تحت الأشجار إذن، في الثانية والنصف صباحاً؟»

كان السيد ريكاردو يمتلك تفسيراً. فقال: «لقد رأيت صارية شراع الزورق يشق السماء، وربما رأيت ضوء مصباح أيضاً يهتز وسط حبال الصارية. إن المرفأ يبعد عن هنا بضع خطوات فحسب. لقد أدركت أنها أصبحت في أمان.»

كشف صوت السيد ريكاردو عن الراحة الكبيرة التي يشعر بها. كان يتمنى بشدة ألا يلحق بتلك الفتاة الحنون ذات الجمال الباهر أي أذى، والتي فضضت له بمشاعرها ومخاوفها على صديقتها في ليلة صيفية في لندن. كانت في أمان — كان هذا هو الاعتقاد الذي أبهجه — كانت آمنةً على متن الزورق، وربما أصبحت في هذه اللحظة قريبةً للغاية من الرسو على رصيف ميناء بوردو. ولكن لم يكن هانو يُشاركه اعتقاده. فقد ظلّ واقفاً في وجوم زاماً شفّتيه ومُقطباً جبينه.

فَكَرَّ السيد ريكاردو في ضيق وخيبة أمل: «هذا الرجل لن يقتنع بأي شيء لا يكتشفه بنفسه.» فَإِنْ لم يقتنع هانو، فربما كان يمتلك سبباً لعدم الاقتناع.

قال هانو: «لنرَ. أنا أدعوكم جميعاً لأن تظلوا واقفين حيث أنتم تماماً.»

وتقدّم بمفرده، بسرعة أبطأ كثيراً مما سبق وظل يفحص الأرض بتدقيق أكبر. ومع كل خطوة خطاها، كان ريكاردو يتوقع أن يدعوهم للتقدم. ولكن لم يحدث ذلك. واصل هانو فحصه حتى وصل إلى رصيف المرفأ، وظل هناك لمدة طويلة يذرع المكان جيئةً وذهاباً عدواً. ثم رفع يديه في الهواء تعبيراً عن الإحباط، ثم أسرع عائداً إلى رفاقه.

قال وهو يشير إلى فردتي الحذاء الموضوعتين جنباً إلى جنب: «لقد توقفت هنا! ولا توجد أي آثار أقدام بعد ذلك. في المنطقة المجاورة للمرفأ، هناك حصي ملطخ بالطين نثر عليه المد العالي المياه. من المفترض أن يكون هذا أكثر مكان نجد فيه آثار أقدام مطابقة لهذه. ولكن لا وجود لأي آثار أقدام. نعم، لقد وجدت آثار لحذاء ثقيل مدموج بالحديد، ولكن لا أثر لهذا الحذاء الصغير، لا! لم تقترب الأنسة جويس ويبل من المرفأ لما هو أبعد من هذه النقطة التي نقف عندها. مهلاً.»

تحرك فاحصاً الأرض الرطبة والنهر، ثم انتقل نحو أسفل الأشجار. كان هناك مسار واسع مرصوف بالحصى يمتد من منتصف الطريق، وعند نهايته يضيق إلى أقل من نصف عرضه، ثم ينحرف إلى اليمين باتجاه الرصيف. وعند نقطة التقاء العشب بالممر المرصوف بالحصى، وجد آثار الأقدام مرةً أخرى. وأشار إلى رفاقه أن يأتوا إليه. كان أثر القدم اليمنى يُشير إلى ناحية الطريق وكانت ظاهرةً عند حافة العشب. وكان أثر القدم اليسرى متأخراً عن الأثر الآخر، وكان يُشير في اتجاه المرفأ الصغير، وكان الأثران يصنعان زاويةً منفرجة.

قال هانو: «لقد صارت القصة أكثر وضوحاً الآن. خرجت هذه الشابة تعدو من المنزل عبر المرج مذعورة. وكانت عيناها الخائفتان تنظران إلى الخلف باستمرار، ثم تتعثر في حوض الزهور، وتعبره، وتواصل العدو حتى تجفل بسبب شيء ما، ويُسمّر مكانها. ثم تُفقي مما أصابها من رعب، وتستدير جانباً لتختبئ بين الأشجار، ثم تبدأ العدو مجدداً، ولكن بخفة هذه المرة، على أطراف أصابعها، ولا تكاد قدماها تمسان العشب. وبمجرد أن اختبأت بين أغصان الأشجار، توقفت عن العدو، وشعرت بالأمان في هذه اللحظة، وظلّت واقفةً في مكانها، ولكنها كانت تنظر خلفها، نعم، كانت تنظر في اتجاه المرفأ.» وبدأ يثبت فرضيته بأفضل طريقة رآها ممكنة. وراعى ألا يُفسد أثر القدمين على

العشب وهو يُقَلَّد الحركات التي كان يصفها. وعندما توقف، أخذت قدماه بطبيعة الحال الزاوية نفسها التي صنعها أثر قدمي جويس ويبل بدقة.

وكرر ما كان يقول بمزيد من التأكيد: «نعم، لقد نظرت ثانيةً ولبعض الوقت في اتجاه المرفأ — لكي تتأكد — ولكن مم؟»

ظهر الكثير من التخيُّلات المقيتة أمام عيني السيد ريكاردو. ربما رأت خيالاً للسلة يوضع على متن الزورق، وربما خَمَّنت بطريقة ما الرعب الذي تحويه. ربما رأت إيفيلين ديفينيش تُقتل ويدها تُقطع بفأس بكل وحشية. كما تخيلت قبطان الزورق وابنيه يطيعان الأوامر القاسية لشخص ما؛ ولكن قبل أن يركّز ريكاردو على هوية صاحب الأمر، انطلقت صيحة نصر قصيرة من بين شفّتي هانو. كان هو أيضاً يقف مُحدِّقاً في النهر في الأسفل، وكان هو أيضاً مصعوقاً، ولكن بسبب الأمل لا الذعر.

صاح بصوت مفعم بالانفعال: «هذا مُؤكَّد تمامًا! مُؤكَّد تمامًا!» ثم عاد يجري نحو المكان حيث كانت فردتا الحذاء اللامع موضوعتين متجاورتين على العشب، ووقف خلفهما. ثم صاح مُحدِّثاً ريكاردو: «يمكنك أن تقول إنني قد أصبحت مسنّاً. نعم، نعم! هانو المسكين! لقد أصبح خَرِفاً بعقل مهترئ! لا بد أن الأمر كذلك! أوه أوه!»

كان ضرورياً أن يقطع السيد ريكاردو هذا الحديث، لا لينهي تبجُّح هانو فحسب، بل أيضاً لكي يُشبع فضوله.

فقال مقترحاً بصوتٍ لاذع: «ألا يجدر بنا أن نعتبر أن جميع باقات الزهور قد رُميت عليك حقاً ونستمر في الاهتمام بالأمر المهمة؟» انحنى هانو بحدة حتى كاد يمس الأرض. وقال: «سنفعل ما يأمرنا به مولانا. لا غاية لنا في الحياة إلا إرضاء مولانا. نحن خدم مولانا. مولاي، العربة تنتظر.» وحكَّ جلده وعبس وكأنه صبي يلعب في المجارير. لا ريب في أن السيد ريكاردو فكّر أن هانو لا يُحتمل عندما يمرح. لحسن الحظ أنه لم يظل في تلك الحالة لمدة طويلة. فقد اختفى مرّحه.

وقال: «لم يكن ما رأيته جويس ويبل هو ما جعلها تظل واقفةً هنا وسلسلَ قدميها فلم تتحرّكا. لا يا صديقي. إنه ما لم تره. لقد ظلَّت تجري في خط مستقيم تمامًا من المنزل وحتى الزورق. فقد كان هذا أملها في النجاة؛ نعم، لا ريب في ذلك. وفجأةً، هنا عند نهاية الطريق، عندما أصبح المرفأ في مجال رؤيتها. لم يكن هناك زورق. كان قد رحل.»

«قبل موعدة؟»

«نعم.»

«وفي عكس اتجاه المد؟»

«نعم.»

«لماذا؟»

أجاب هانو بجدية، ولم تكن ثمة حاجة لأن يُوضَّح أكثر من ذلك: «ألا يُمكننا جميعاً أن نُخَمِّن السبب؟» عادت إلى ذاكرة رفاق هانو تلك اللحظات عندما عثر الصبيان اللذان كانا يلعبان بجانب النهر في الصباح الباكر، حيث كانت السلة بحمولتها المأساوية تتأرجح برفق فوق تموجات الماء، وتقترب ببطء من الضفة الأقرب من البحر بمسافة تسعة أميال، الأمر الذي قدَّم سبباً مقنعاً لرحيل الزورق المتعجل.

واصل هانو حديثه في جدية: «سيد ريكاردو، يُقال إنك ذكرت في جميع أطروحاتك وكتبك أن ثمة farkاً واحداً كبيراً بين الشرطة الإنجليزية والشرطة الفرنسية. فبينما تتقدمون أنتم بحذر كلما تكشَّفت حقيقة جديدة، فإننا نتخطى الحقائق ونثق بالحدس. ولا ريب في أنني أثق بحدسي الآن. لقد وقفت هنا، تلك الشابة، وقلبها يرتجف في يأس. ثم استدارت. عليها أن تعثر على مخبأ آخر. تعدو نحو الطريق حيث ستخفيها الأشجار، وعندما تصل إليها، تتوقف وتلقي نظرةً أخرى خلفها نحو المرفأ. فربما ضلَّلتها عيناها. وربما ترى صارية الشراع بارزةً وسط السماء. ولكن، لا! فتنطلق عدواً من جديد!»

حرَّك ذراعه باتجاه طريق الحمى بحركة واسعة. تأثر السيد ريكاردو نفسه بقدرة صديقه على الإقناع وشغفه. لم يكن لديه أدنى شك في أن تفسيره هو التفسير الصحيح. كانت جويس وبيل تفر مرعوبةً على هذا الطريق. بدأ يربط الحقائق التي يعرفها بالحدس الذي يثق به، ثم فجأةً، حنى جمل ثقيل من الندم ظهره لدرجة أن رفاقه قلقوا بشأنه. فقد شحب وجهه، ووقف مكانه يرتجف وكأنه دخل في حالةٍ من الذعر.

سأله هانو وهو يعدو ليقف بجانبه ويسنده من ذراعه: «ما الأمر؟ هل أنت مريض؟

لا، لا!»

قال السيد ريكاردو متلعثمًا: «لا، لست مريضاً. بل أشعر بالعار. ربما كانت جويس وبيل هي التي مرَّت مسرعةً بجانبني في الشرفة، وبعد ذلك فرَّت من هنا إلى الطريق. لنفترض أن هذا ما حدث! لنفترض أنها من تسلَّل إلى غرفة البرج! لنفترض أن الغرفة كانت فارغةً لسبب نجهله عندما دخلتها! لنفترض أن جويس هي من أقفلت الباب وانتظرت في رعب واضعةً أصابعها على مفتاح المصباح! لنفترض أنها بعد أن أطفأت الأنوار، تسلَّلت عبر الدرج إلى غرفتها! لعلَّك تذكر الفراش المبعثر والسؤال الذي طرحته

أنت: «هل أخذت من هذه الغرفة رغماً عنها؟» حسناً، كان بمقدوري إنقاذها. نعم، كنت أستطيع ذلك. كان كل ما عليّ فعله هو أن أخرج من المكتبة إلى الشرفة مباشرةً عندما مرت أمامي كي أريها من أكون.»

قال هانو معارضاً: «لم تكن لتنتظر حتى ترى.»

«ربما كان يجدر بي أن أتحدث عبر الباب الزجاجي بعدما انطفأت الأنوار. ولكني لم أفعل! تركتها تعتقد أنني واحد ممن يلاحقونها؛ كنت مضطرباً و...» ثم صمت فجأةً ووقف مكانه دون حراك. وعاد يقول: «مضطرباً! لا! لقد كنت خائفاً. كان بمقدوري إنقاذ جويس ليلة أمس، ولكني كنت خائفاً.»

جعلت فورة غضب السيد ريكاردو الجميع يشعرون بعدم الارتياح، فربت هانو على كتفه برفق.

وقال: «ولكننا لم نفقد الأمل في العثور على جويس بعد.»

ولكن هذا لم يخفف عن السيد ريكاردو. كان جُبنه سيصبح، في خلال دقيقة أو اثنتين، رفاهيةً أمام ما كان سيحدث له، ولكن لحسن حظه اكتشف كوربي، الحارس، لغزاً آخر زاد الأمر تعقيداً على تعقيد.

فقد صاح بصوت بحه الانفعال وقد جحظت عيناه من مَجْرِيهما: «سيد هانو. انظر! انظر!»

كان يقف في المساحة الخالية من الأشجار عند نهاية الطريق على بعد بضع ياردات من حيث يقف الرجال الآخرون، وبذراع مرتعشة مبسوطة عن آخرها، أشار نحو الأغصان السفلية لواحدة من الأشجار.

الفصل الثاني عشر

القناع

كانت الصيحة مُلِحَّةً للغاية حتى إن المسألة الحساسة المتعلقة بسلوك السيد ريكاردو قد نُسيت تمامًا. كان ثمة اندفاع نحو فيكتور كوربي، ولكن لم يتمكّن أحدٌ من رؤية ما يراه حتى أصبحوا بجانبه. أصاب الجميع صدمة غريبة عندما رأوا المشهد وتولّد في أنفسهم الانزعاج الذي عادةً ما تتركه الأمور الغريبة والعجيبة لدى البشر. ربما أصبحوا جميعًا على استعداد لأن يجفلوا ويروا العجائب أينما نظروا على هذا الطريق. كانت عيونهم الجاحظة تحاول أن ترى من بين أوراق الأغصان ما يشير إليه كوربي، ورأوا وجهًا ورأسًا يُطلان عليهم من أعلى كما لو كانا يراقبانهم. تصادف أن غصنًا صغيرًا كان يمر أمام العينين فأخفاهما، ولكن بقية الوجه كانت ظاهرة. كان الوجه محمرًا مع شفتين متورمتين، ولم يكن لونهما أحمر بل أرجوانيًا داكنًا. أما الشعر، فكان على النقيض، ذا لون أحمر فاتح. كانت ملامح الوجه جميلة، ولكن كان المشهد بأكمله مربعًا، مربعًا للغاية.

كانوا لا يزالون يتأملون هذا المشهد العجيب عندما هبّ ريح خفيفة أزاحت الغصن الصغير الذي يُخفي العينين، ورأوا على الفور أنه على الرغم من وجود رموش طويلة سوداء، رموش ناعمة لفتاة جميلة، لم تكن هناك عيناان. لم يكن الوجه سوى قناع، ولكنه كان مصنوعًا بمهارة مذهلة.

قال هانو: «علينا أن ننزله من مكانه.»

لم يكن القناع على ارتفاع كبير فوق رؤوسهم، ولم يكن في حاجة إلا إلى عصاه ذات المقبض المعقوف ل يتمكّن من إنزاله. سقط القناع على الأرض، وانحنى هانو والتقطه. كان قناعًا مصنوعًا من عجين الورق؛ ليس أكثر. ولكنه أعطاه إلى فيكتور كوربي وقال: «ضعه على وجهك!»



ظلوا واقفين مكانهم في رعب يُحدِّقون في الوجه، أو الرأس، الذي كان يُطل عليهم من أعلى الشجرة، تكاد الأغصان تخفيه. كان المشهد مربعًا، فتملَّكهم الذعر.

ألقي فيكتور كوربي قُبعته على الأرض، وملأت ابتسامة سعادة ريفية وجهه بينما كان يضع القناع على وجهه ورأسه، وتحوّل في لحظة من ريفيّ خفيف الظل بشوش الوجه إلى كائن مربع، كائن يفر المرء من أمامه مذعورًا. لم يُصدّق السيد ريكاردو أن مثل هذا التحول من النقيض إلى النقيض ممكن. وعلى الرغم من جمود ملامح القناع، كانت حية؛ أجل، حية. وأعطاه الشعر الأحمر الناري لمحةً أخيرة من قوة خارقة. أينما كان ينظر كوربي، لم تتغير الملامح البادية على القناع. بل على النقيض، كانت تبدو جميلةً وحزينة للغاية، ومنحت الرموش السوداء الطويلة الناعمة، حتى لأعين جاحظة مثل عيني

كوربي، حزنًا سرمدياً. كان هذا القناع يصلح ليكون وجه اليهودي المتجول بفضل سمة واحدة من سماته. كان شريراً — جميلاً، وحزيناً، وخبيثاً للغاية — كان قناع الشيطان، باختصار. كان هذا هو الانطباع الذي يتركه في نفوس الناس، لدرجة أنه عندما خلعه كوربي عن رأسه، تساءل أحد الرجال الذين كانوا يشاهدونه عما إذا كان في الحقيقة شيطانياً متنكرًا في هيئة شاب قروي وقد أعطاهم لمحةً عن هيئته الحقيقية.

قال هانو: «علينا أن نحافظ على هذا القناع في حالة جيدة أيها المفوض.» ولفَّ القناع في منديل كبير ملون أخرجه من جيبه. وقال: «ثمة رجلان فقط في العالم يمكنهما صنْع مثل هذا القناع. أحدهما في أمريكا. والآخر موجود في استوديو في نهاية شارع هايماركت في لندن. علينا أن نعرف في أقرب وقتٍ ممكن من منهما صنعه، ولصالح مَنْ. وحتى نفعل ذلك، أرجو ألا يقول أحد أي شيء عنه.» نقل عينيّه بين وجوههم ليفرض أمره عليهم جميعاً، وواصل حديثه بتلك الجدية الهادئة التي لم يسمعه السيد ريكاردو يستخدمها من قبل إلا مرةً أو مرتين فقط: «أعتقد أن جريمة قصر سوفلاك على صلةٍ وثيقة بهذا القناع. أعني أنه عندما تتكشف جميع الحقائق في نهاية المطاف، سنكتشف أن ما حدث كان أمرًا غير إنساني وشريراً. أعتقد أنه كان فعلًا عديم الشفقة. لذا، علينا نحن أيضًا أن نكون عديمي الشفقة.» واقشعر بدن السيد ريكاردو.

الفصل الثالث عشر

وجهات نظر متباينة

أعطى هانو أمراً للحارس. قال: «خذ هذا الحذاء وغطّه جيّداً وأعطه إلى سكرتير المفوض. ثم أخبر مساعدي بعدما ينتهي من عمله عند حوض الزهور أن يأخذ قوالب آثار الأقدام أيضاً ويغطيها.»

التقط كوربي الحذاء وأسرع يجري على الطريق لينفذ ما أُمر به. وتبعته بقية مجموعة البحث على الطريق نفسه ولكن بسرعة أبطأ.

وعندما أصبحوا على مسافة ٢٠ ياردة من المنزل، ظهر رجل ضئيل الحجم بدين يرتدي زي كاهن ويضع حزاماً قرمزيّاً على خصره على عتبة نافذة غرفة الاستقبال، ونظر حوله في حذر. كانت ثمة هالة غريبة من السرية تُحيط بمظهره. وعلى الرغم من أن هانو بدا غارقاً تماماً في أفكاره، فقد رآه على الفور. فتوقف عن السير، وأشار للآخرين بأن يتوقفوا أيضاً.

وسأل بصوت خافت: «من هذا؟»

ردّ عليه المفوض هيربستال: «إنه القس فاورييه.»

قال هانو: «آه، نعم!»

ولكنه لم يواصل السير.

بل همس قائلاً: «اثبتوا مكانكم»، فوقفوا يراقبون تحركات القس محتمين بالأشجار. تسلّل القس على أطراف أصابعه إلى حافة الشرفة، ثم دار حولها فاحصاً النوافذ العليا للبرجين. وعندما اطمأن أن لا أحد يراه من نقاط الرؤية هذه، تحرك على طول الأرضية الحجرية في اتجاه طريق الأشجار، ولكنه كان يتحرك ببطء دون أن يرفع عينيه عن الأرض وكأنه يتوقّع أن يتعثّر في عقبة. وعندما وصل إلى باب غرفة الطعام الزجاجي،

تنبّه مجددًا. ونظر إلى داخل الغرفة، ووقف على أصابع قدميه حتى يتمكن من الرؤية بصورة أفضل، ثم عبر الشرفة بوثة متعثرة عديمة الصوت، وألصق وجهه بالزجاج. همس السيد ريكاردو في انزعاج: «هذا غريب للغاية». كان مشهد قس يتلصص من المشاهد غير المقبولة بالنسبة إليه.

قال هانو: «صه!»، ثم قال مخاطبًا نفسه: «كم من الوقت بقي القس في غرفة الاستقبال ليُقدّم تعازيه؟» أجابه المفوض.

قال: «لم يكن نيافة القس ينتظر من الأساس. لا، أنا متأكد! أعتقد أن هناك شيئًا يود قوله، ما دام ينتظر هكذا. أوه! إن القس رجل ملتزم بالرسميات. ولقد التقى سيدات سوفلاك حقًا.»

قال هانو وقد ظهرت في صوته نبرة تنم عن الاهتمام: «أوه! هل فعل؟ أخبرني بما حدث أيها المفوض.»

«لقد جاء قبل أن تعود وصديقك من فيلبلانش. وطلب مني أن آذن له بأن يُقدّم خدماته الكهنوتية للسيدات. صحيح أن السيدات يتبعن المذهب البروتستانتي، ولكن في مثل هذه الفاجعة، يُنسى الاختلاف بين المعتقدات.»

قال هانو مُعلّقًا برفق: «وهل أعطيته الإذن؟»

أجاب هيربستال في حزم: «من دون أدنى تردد.»

أمال هانو رأسه. لا يمكن حتى للمحققين المشهورين من جهاز الأمن العام في باريس أن يُعادوا مفوضي الشرطة إذا كانوا يودون أن تسير تحقيقاتهم بسلاسة.

قال هانو مُعلّقًا، وكأن لا شيء سمعه حتى تلك اللحظة أسعده أكثر من ذلك: «وكنا تحت رقابة القس طوال هذه المدة.»

رد عليه هيربستال: «لم يحدث شيء من هذا القبيل. قابل القس الأنسة تاسبورو أولاً، ولم يقض وقتًا طويلاً معها. ثم توجه على الفور إلى غرفة السيدة تاسبورو التي توجد في الجناح الخلفي ولا تُطل على هذه الناحية من الأساس.»

فكر السيد ريكاردو أن ثمة خطأ فيما قال. من المهم معرفة متى غادر القس الغرفة في ذلك الجناح وتسلسل إلى غرفة الاستقبال. ولكنه لم يصحّح، وقال لنفسه: «يبدو أن المفوض مصاب بعقدة فاورييه.» ترك الأمر برمته في يد هانو، ولكن كان هانو قد عاد مجددًا لمراقبة الشرفة بعينين لا تطرفان.

بعدما اطمأنَّ القس أن لا أحد في غرفة الاستقبال قد يراه، استدار نحو غرفة ديانا تاسبورو وعاد يسير بالطريقة الشاردة نفسها في ذلك الاتجاه. أطلق هانو صافرةً خافتة، وسأل المفوض من دون أن يرفع عينيه عن الشرفة ولو للحظة واحدة: «هل قابل ديانا تاسبورو في غرفتها في ذلك البرج هناك؟»
«بالطبع.»

«والآن، ها هو يعود إلى الغرفة رغم أنها فارغة. نعم، كما يقول صديقي السيد ريكاردو، هذا أمر في غاية الغرابة.»

اقترب القس من البرج أكثر فأكثر، ثم دخل فجأةً عبر الباب. بدا أن هانو كان يتوقع أن يفعل ذلك. فخرج من مخبئه كلمح البصر. وعدا بسرعة لا تتناسب مع ضخامة بنيته. ووصل إلى الشرفة قبل حتى أن يبدأ رفاقه بالتحرك. ثم عدا عبر الشرفة دون صوت كما لو كان يرتدي حذاءً مطاطياً مراعيًا أن يظل قريباً من نوافذ المنزل. ثم توقف عند الزاوية التي يصنعها بروز البرج. لا ريب في أنه لم يسمعه أحد، وأنه لا يمكن أن يراه أحد حيث يقف. ومن ناحية أخرى، لم يكن ليتمكن من رؤية أي شيء يفعله القس داخل غرفة ديانا تاسبورو. ولكن بدا أنه لا يمانع ذلك. فقد ظل واقفاً في مكانه في صبر تام. كان أصدقائه قد أصبحوا في نطاق السمع قبل أن يظهر القس الذي كان لا يزال يتصرف وكأنه فيلسوف غارق في تأملاته ولا يعرف إلى أين تقوده قدماه. غير أن حدثاً مفاجئاً أيقظه من هذه الحالة. فقد تسلل هانو خلفه وانحنى وقال في أذنه: «نيافة القس.»

استدار القس حول نفسه في ارتباك شديد. ورفع هانو، الذي كان ممسكاً بالقناع الملفوف بالمنديل في يده اليسرى، قبعته بيده اليمنى وانحنى في احترام.

وقال: «لا ريب في أنك لاحظت أن إعادة التنظيم البسيطة قد تمت، أليس كذلك؟»
رغم أن العبارة كانت غريبةً على سمع السيد ريكاردو والمفوض، فإنها كانت تحمل معنىً واضحاً تماماً بالنسبة إلى القس فاورييه. فقد بدا الرعب جلياً في عينيه، وهرب الدم من وجنتيه، تارِكاً إياهما مرقطتين ببقع حمراء، واصفرَّ أنفه والجلد تحت عينيه بلون الشمع. وبدا وجهه في ثانية واحدة وكأنه انكمش ونجل. كان رجلاً قد بلغ من العمر أرذله. ولكنه كان يملك روحاً شابة. فرفع رأسه عالياً، وحلَّ محل الرعب في عينيه لمعة تحدُّ. ونصَّبَ قامته، ثم التفت قليلاً نحو المفوض هيربستال، وقال بصوت جاف: «لا ريب في أن هذا الرجل هو السيد هانو الشهير الذي يتحدث بالألغاز. فالألغاز هي الطريق المختصر لتحقيق الهيبة والشهرة، كما أنها تبدو مخيفةً للغاية بالنسبة إلينا نحن معشر الريفيين ذوي الفهم البطيء.»

كان هذا إعلان حرب واضحًا وصريحًا؛ تخيّل السيد ريكاردو، بطريقته الخاصة، القس الضئيل والمحقق الضخم وكأنهما داود وجالوت. لا ريب في أن هانو قد وضع فخًا، ولكن رفض القس الوقوع فيه. والآن، بعد أن تمالك نفسه، ووقف يرتجف قليلًا من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، ليس من الخوف، بل من تركيز إدراكه بالكامل، بدا كرجل ضئيل من الأفضل الحذر منه. وتساءل السيد ريكاردو عمّا إذا كان يُخفي مقلعًا في ثيابه، مجهزًا بحجر كبير وثقيل.

قال هانو: «إذا كنت قد وارىت ما أعنيه يا نيافة القس حتى لا يتمكن أحد من فهم ما أقصد إلا أنت، ويبدو أنك فعلت، فيجدر بك أن تشكرني على مراعاتي، لا أن تلومني. ولكن بما أنك لا تُحب ألغازي، فسأسألك الآن بكل وضوح عن سبب وجودك داخل غرفة الأنسة منذ لحظات مع مراعاة ألا يراك أحد؟»

«سأجيبك بأن عليّ واجبات يجب أن أؤديها، مثلك تمامًا يا سيد هانو. ويمكن القول إن واجباتي تبدأ من حيث تنتهي واجباتك أنت، وهذه هي الحقيقة. وجميع هذه الواجبات مؤسفة، وشاقة، وسرية. ولكن إذا أردت أن يبارك قس مسكين واجباتك، أيّا كانت»، وأضاف بنبرة مرحة: «فلا أمانع في أن أمنحك إياها.» ثم سار مبتعدًا بانحناءة بسيطة، إلا أن هانو دار على عقبيه كجندي، قفز إلى جواره بدقة تامة، وكأنه ترس يتطابق مع مسننات عجلة.

وقال في هدوء: «بالتأكيد. سألقي القبض على المجرم أولاً، ثم تنقذ أنت روحه بعد ذلك. أرى أن هذا توزيع صحيح لواجبات كل منا. ولكننا نشترك في الواجب الثالث نفسه أيها القس.»

قال القس: «بل ألف واجب يا سيد هانو. ظللت أعلم الناس الدين طوال ٣٠ عامًا، ولكنني لم أصل إلى نهاية واجباتي بعد.»

«ولكن ثمة واجب واحد أهم منها جميعها.»

أدرك القس الضئيل أن الضربة آتية.

فقال: «أدرك ذلك يا سيد هانو.»

«واجب المواطن الصالح.»

«صحيح ما قلت.»

«وفي ظل ضغوط هذا الواجب الثالث، قد يتداخل واجب أو اثنان في بعض الأحيان.»



ابتعد القس مرتعباً. فقال هانو في هدوء: «بالتأكيد. سألقي القبض على المجرم أولاً، ثم تُنفذ أنت روحه بعد ذلك.»

كان الرجلان يسيران جنباً إلى جنب بعيداً عن المفوض والسيد ريكاردو. ولم يمانع السيد ريكاردو ذلك؛ فقد كانا لا يزالان ضمن نطاق سمعه. ولكن، رغم أن القس لم يُبدِ أي أمارات على التعجل، كان ينحرف بثبات نحو باب غرفة الاستقبال.

ردّ القس: «عندما يحين ذلك الوقت، أوكد لك أنني سأؤدي واجبي على أكمل وجه.»

«لقد حان ذلك الوقت أيها القس.»

«لا أعتقد ذلك يا سيد هانو، وأنا الوحيد الذي يمكنه تحديد ذلك.»

«أرجو منك أن تنظر في هذه المسألة بتمعّن أكبر يا نيافة القس.»

كان الحوار برمته جافاً، ورسمياً، ومُهدّباً، رغم أنه من حين لآخر كنت تسمع نبرة صوت غاضبة، أو كلمة لاذعة يتم التراجع عنها سريعاً، ما أظهر العداء الشديد بين الرجلين. ولكن جعل هذا الاحتقار القس فاورييه يزل.

فقال بشفتَيْن مضمومتَيْن: «إن أي شيء تقوله يا سيد هانو سيجعلني بالطبع أُمعن التفكير في كل شيء.» وسرعان ما استغلَّ هانو هذه الزلة.

فقال: «إن ما أقول مجرد مثال يا سيدي. على سبيل المثال، هناك مسألة سرقة ملابسك الكهنوتية ليلة أمس.»

ارتجَّ وجدان القس. وكان الدليل على ذلك هو أن توقَّف عن السير وصمت لثانية. ثم عاد يتحدَّث بنبرة تنم عن لوم الذات:

«سيد هانو، لقد كنت أتحدث بلا مبالاة في هذا المنزل ليلة أمس. أنا أشعر بالخجل، وفرضتُ على نفسي كفارات معينة عقابًا. وجدت ملابسي الكهنوتية مُعلَّقة في غرفتي الكنسية صباح اليوم، وارتديتها في وقت مبكر عند الساعة السادسة، عندما سعت للحصول على بركة القديس متى لكروم العنب الخاصة بنا أمام جمهور متواضع مكون من امرأتين مسنَّتين فحسب.»

بدت الدهشة واضحةً على وجه هانو. فصاح: «هل أُعيدت إليك في الساعة السادسة من صباح اليوم؟» ابتسم القس.

وقال: «نحن، من لا نعمل في مهنتك نفسها يا سيد هانو، يُسمح لنا بأن نمتلك روحًا متسامحة بما يكفي لأن نعتقد بأنها لم تُسرق من الأساس.»

قال هانو بخشونة: «هذا غير مقبول.» كان الرجلان يقفان وجهًا لوجه، وكان القس يُخفي ما يعرف خلف قسما وجهه الجامدة، وبينما كان هانو ينظر إليه من أعلى كما لو كان يستجوبه. وأهملت المجاملات المُهذَّبة على غرار «نيافة القس» و«السيد هانو» مثلما تهمل النساء فساتين السنة الماضية القديمة. وقال هانو: «إنك لم تعثر على ملابسك الكهنوتية كاملةً في غرفتك الكنسية صباح اليوم. فهناك واحد في مشرحة فيلبلاش ملطخ بدماء شابة تناولت العشاء معك على الطاولة نفسها في هذا المنزل ليلة أمس، وقُتلت بوحشية بعد ذلك.»

كتم السيد ريكاردو بالكاد صيحةً كادت تفر من بين شفَتَيْهِ، عندما فهم استقراء هانو الدقيق بأن ثوب الكاهن هو نفسه قطعة الكتان الناعم الممزقة التي كانت جثة إيفيلين ديفينيش ملفوفةً فيها. ولكن كان القس هو من أطلق تلك الصيحة. وفغر فاه، ووقف في مكانه يُحدِّق في وجه المحقق، وأصبح أشبه بتمثال يُجسِّد الرعب.

ثم تلعثم وهو يقول: «هل أنت واثق بهذا الرجس؟» ولكنه لم ينتظر إجابةً عن سؤاله. فقد تخلَّى عن جميع دفاعاته. ولم يكن يمتلك حجرًا ضخمًا أو مقلعًا لإطلاقه.

فسار مترنحاً نحو أريكة وألقى بجسده الثقيل عليها، وعبث في ملابسه حتى أخرج منديلاً مسح به جبهته. ولكن لم يكن ليتركه هانو في شأنه. فتقدّم منه ووقف أمامه. وأخرج فجأةً القناع من تحت غطاءه كاشفاً عن جماله الغريب المنفّر، ووضعهُ أمام عينيّ القس. وسأله: «هل تعرف فيم يُستخدم هذا؟»

قال القس وطيّف ابتسامة يرتسم على وجهه: «يُستخدم في وقت المهرجان.» لم يكن قد نظر إلى القناع عن كثب. ولكن كان هانو يُمسك به بحيث لا يمكن لعينيّ القس أن تتجنباً النظر إليه، فنظر إليه، وعاد ينظر إليه، ثم أبعد جسده عنه كما لو أن لمسه قد ينقل له عدوى. ثم نهض واقفاً.

فقال هانو وهو يقف أمامه: «كانت هناك امرأة شابة تعيش في هذا المنزل ليلة أمس، ولكنها قُتلت بوحشية.»

ثم التفت نحو القس الذي قال: «فليرحمها الله.»
«ولكن اختفت أيضاً فتاة لا تزال في مقتبل العمر، فتاة تستمتع بحياتها، وتُلهم الآخرين أن يفعلوا المثل. ماذا عنها يا نيافة القس؟»
«سأدعو ألا يصيبها مكروه.»

«ولكن لا شيء آخر تساعدني به!» رنّ صوت هانو في جميع أركان الشرفة والحديقة. كانت كلماته مليئةً باللوم، بل وأكثر من اللوم؛ الاتهام. ولكن لا حياة لمن تنادي. فقد كانت عينا القس تُحدّقان في تلك اللحظة في الأفق البعيد. هل انتهت حياة أو اثنتان؟ هل تعرّضت لبضع ساعات من المعاناة؟ لم يكن القس فاورييه ينظر إلى الحديقة، ولا إلى وادي جيروند، ولا إلى الساحل المرتفع خلف نهر جيروند. بل كان يتأمل في أن حياة امرأة أو اثنتين، أو معاناتهما لبضع ساعات، لن تُغيّر شيئاً في صيرورة الزمن.

قال في احترام شديد: «سيدي، لقد ارتكبت جريمة مريعة. وربما كان هناك تفسير مُخيف لهذه الجريمة. إنك تعرف ما حدث أكثر مما أعرف أنا. أرجو أن تعذرني.»
كان هانو يرى أنه انكسر. وأنه عانى عصر اليوم من صدمة ليس من المُرَجَّح أن يتعافى منها. بل إن هانو أفسح الطريق أمامه وتركه يمر حتى اختفى داخل نافذة غرفة الاستقبال المفتوحة من دون أي محاولة أخرى لمنعه. ولكن بمجرد أن انصرف القس فاورييه، تغيّر سلوك هانو. فظلَّ يُحدّق في النافذة عابساً كطفل صغير.

ثم قال بصوت خافت: «يا للماكر العجوز! إنه يعرف أكثر بكثير مما سيخبرنا. ولكنه، على أي حال، أخبرني بأكثر بكثير مما كان يود إخباري به عبر عزوفه عن إخباري بأي شيء من الأساس.»

ثم التفت نحو السيد ريكاردو، وقال: «لقد تناولت العشاء هنا ليلة أمس، وكذلك القس فاورييه، أليس كذلك؟»

«بلى.»

أمسك هانو بذراع ريكاردو وجذبه ليجلس بجانبه على الأريكة. وقال: «أخبرني على الفور بكل ما قاله هذا الرجل ليلة أمس؛ وبكل ما فعل.»

كل ما فعل! نعم، كان هناك شيء فعله. تذكر السيد ريكاردو المشهد ... كان هناك شيء ما قد قيل ... نعم ... وسكت القس عن الكلام ... وصنع حركة بسيطة بيده ... نعم! قال السيد ريكاردو: «حلت لحظة عندما رسم علامة الصليب تحت مفرش الطاولة.» قال هانو في إصرار وهو يضغط على ذراع صديقه: «أوه! أخبرني بما حدث في تلك اللحظة!»

قال السيد ريكاردو: «دعني أتذكر! لم يحدث شيء مهم وإلا لكنت تذكرته. نعم! شعرت بالحيرة في تلك اللحظة. كنت أشعر بالحيرة بكل تأكيد!» علّق هانو في صبر: «أمر غريب أن تشعر بالحيرة.» «نعم، هذا صحيح. ولكنني كنت متحيراً.» ثم ابتهج السيد ريكاردو. فلم تخنه ذاكرته. فقد تذكر جيداً أنه كان متحيراً.

قال هانو: «حسنًا يا صديقي، ثمة أمر أشعرك بالحيرة.» ردّ عليه السيد ريكاردو بقليل من خيبة الأمل: «هذا صحيح. أؤكد لك أنني لا يمكن أن أتحيّر إلا إذا كان هناك أمر يجعلني متحيراً. ولكن ماذا كان؟» «أجل! ماذا كان؟ تخيل مشهد طاولة العشاء في ذاكرتك. السيدة تاسبورو هنا، والقس هناك ...»

صاح السيد ريكاردو فجأة: «وجدتها. أحدهم ... كان يجلس بالقرب مني ... مهلاً! على الجانب نفسه من الطاولة؛ أجل!» رفع يده في الهواء وبدأ التركيز الشديد على وجهه. وصاح: «إيفيلين ديفينيش! كانت قد ارتجفت فجأةً وبغنف.» «أجل.»

«وشخص ما؛ أوه، بالطبع، كان هذا ما حيرني؛» ثم أسند السيد ريكاردو ظهره على ذراع الأريكة وجلس راضياً عن نفسه.

قال هانو بأكثر نبرات صوته رقة: «ولكنك لم تخبرني بما جعلك تشعر بالحيرة.» ولكن، صاح السيد ريكاردو متألماً، وقال: «أنت تؤلم ذراعي.»

كانت أصابع هانو قابضةً على الذراع وكأنها قيد. فأرخی قبضته على الفور. وقال: «آسف يا صديقي.»

قال السيد ريكاردو لائماً بينما كان يُدلك ذراعه المكدومة: «يجدر بك أن تأسف. ستكون هناك كدمة كبيرة في هذا المكان غداً. المرة الأخيرة التي ألمتني ذراعي كما تؤلني الآن، كانت بعد تجمع لهواة الرماية في الريف. لم أكن بارعاً في استخدام القوس ... وكان هذا في أحد بيوت بيركشاير ... نعم! دعني أذكرك! كان بيت مَنْ؟»

كان هذا منذ مدة. كان السيد ريكاردو قد بدأ يراجع في ذهنه أسماء معارفه في بيركشاير ليعرف من استضاف هذا التجمع، عندما علّق هانو قائلاً: «لقد ارتجفت إيفيلين ديفينيش فجأةً وبعنف إذن.»

حدّق السيد ريكاردو لثانية أو نحوها في وجه رفيقه وأعاد ذهنه من بيركشاير على متن أول قطار سريع.

وقال لهانو بجدية: «لم يكن يجدر بي أن أنحرف عن إخبارك بما كنت أخبرك به. نعم، ارتجفت إيفيلين ديفينيش، وصاحت جويس ويبل أيضاً بعنف، وقالت: «لا جدوى من النظر لي يا إيفيلين. لست أنا من يورّع البرودة.» بدا لي حينئذ أن ثمة هيسستيريا خفية لدى كل من إيفيلين وجويس ويبل. لا ريب في أن كليهما كانتا عصبيتين؛ وخاصةً جويس. فقد تغيّر صوتها الخافت العذب بطبيعته، ليُصبح أجش وقاسياً. لم أتمكن من اكتشاف أي سبب للانفعالات التي تسيطر على هاتين المرأتين الشابتين. ولكنها ظهرت فجأةً، واختفت أيضاً فجأةً - مثل وميض البرق. ولكن فهم القس ما يحدث. فرسم علامة الصليب في الخفاء، ولم يتحدث مطلقاً حتى انتهى العشاء. لم ينطق كلمة واحدة! لم يفعل شيئاً سوى الجلوس يراقب ما يحدث على طاولة العشاء بعينين لامعتين ... مثل ... مثل عيني طائرًا!»

ربت هانو على ركبة صديقه، وجلس متجهماً. وكرّر عبارة: «لست أنا من يورّع البرودة.» ثم رفع عينيه نحو هيربستال، وقال: «هذه عبارة غاية في الغرابة أيها المفوض. ولكن ذلك الماكر العجوز فهم ما تعنيه. يجب علينا أن نفهم ما تعنيه أيضاً. فأنا أعتقد أنها مفتاح حل القضية برمتها.»

ثم نهض كما لو أن كل ما يريده من الشرفه والحديقة قد انتهى. ولكن قبل أن يتمكّن من الابتعاد، سمع صوت سيارة تقترب وتقف أمام الجانب الآخر من المنزل. فقال: «لقد عاد المتجولان.» ثم أخرج ساعته ونظر فيها.

وقال: «إنها السادسة!»

كان الوقت قد مر سريعًا بالنسبة إلى مجموعة الرجال في الشرفة. لم يُصدّق السيد ريكاردو أن ثلاث ساعات قد مرت منذ أن غادرت ديانا تاسبورو وروبن ويبستر ليرسلا برقيةً من بويك.

قال هانو: «كان أفضل ما فعلناه هو أن خرجا من المنزل.» وأخرج من جيبه علبة سجائر سوداء مُغلّفة بورق أزرق فاتح. وقَدَّمَ سيجارةً إلى المفوض هيربستال، الذي أخذها، وسيجارةً أخرى إلى السيد ريكاردو، الذي لم يأخذها. ثم أشعل عود ثقاب كبريتيًّا، وراقبه والنار تشتعل فيه، وأشعل سيجارة المفوض في احترام. ثم أشعل سيجارته، وعاد ليجلس، وبدأ يقص في هدوء حكايةً عن تجربة قديمة مرَّ بها عندما كان مبتدئًا في سلك الشرطة.

الفصل الرابع عشر

هانو يجفل

توقّف عن الاسترسال في حديثه عندما دخل «المتجولان» الشرفة، ورسم على وجهه ابتسامة تهنئة وجهها إلى ديانا تاسبورو التي استعاد وجهها بعضًا من حُمرته.

قال هانو: «لقد أصبحت في حال أفضل يا آنسة. هل أرسلت البرقيات؟»

قالت: «نعم.» ثم أضافت: «أقنعني السيد ويبستر بأن نطيل الرحلة قليلًا.»

تحدّث روبن ويبستر مُبرّرًا نصيحته تلك بمخارج الألفاظ الصحيحة والدقيقة تلك التي كان يراها السيد ريكاردو، في كل مرة، غريبةً لأن يستخدمها شاب على هذه الدرجة من الأناقة.

وقال: «قلت إن الآنسة تاسبورو ستستفيد من ذلك، وإننا لن نتسبّب بعودتنا الفورية إلا في إعاقة مسار تحقيقاتك، وإننا ربما نقدم لك بعض العون إذا ما طرحنا بعض الأسئلة على الجيران.»

أطلق هانو، الذي كان يستمتع لما يُقال بتركيز شديد، صيحةً مفاجئةً باندفاع شديد لا يناسب الموقف:

«أنا واثق بأنكما ستفيدانني!» وعندما لاحظ بعض الدهشة على وجه روبن ويبستر، غيّر من أسلوبه في الحديث. وقال: «هذه حكمة كبيرة منكما. هل أوصلتكما الأسئلة التي طرحتماها إلى شيء؟»

هزّ روبن ويبستر رأسه نفيًا. وقال: «لم يرَ أحد جويس ويبيل.»

تهدّج صوته وشحبت وجنتاه لمجرد نطق اسمها، وغيمَ الحزن على عينيه لدرجة أن السيد ريكاردو أراد أن يواسيه ببعض الكلمات. كان هذا الشاب واقعًا في الحب، ولطالما كان قلب السيد ريكاردو يرقُّ للشباب الواقعين في الحب. لا ريب في أن الشمعة التي ظلّت تحترق حتى ساعة متأخرة من الليل في غرفته الفارغة تُثير بعض الشكوك. ولا يمكن

التغاضي عن ذلك. ولكن ربما كان ذلك مجرد حيلة ليُخفي موعدًا مع جويس ويبل، لم تلتزم به في نهاية المطاف. ربما كان روبن ويبستر يبحث عنها في استماتة بينما الشمعة تحترق حتى نهاية فتيلها. ولا ريب أيضًا في أن هانو تخيل أنه قد عثر على كشف مهم آخر في الشاليه. لم يكن السيد ريكاردو واثقًا تمامًا من ذلك، ولكن تلك العبارة العرضية الحادة «أنا واثق» التي قالها منذ دقيقة، كانت تؤكد هذا الكشف. ولكن قد يخطئ هانو مثل أي إنسان. فقد يصيح قائلًا «هذه بجعة» عندما يرى إوزة، وبصوت عالٍ مثل أي إنسان آخر، والسيد ريكاردو لن يُكَلِّف نفسه عناء أن يُصَحِّح له معلوماته. ولكن بدا أن هانو أيضًا مندهش من صدق مشاعر الشاب. فقد كان صوته يحمل نبرة شفقة وهو يقول:

«يجب ألا تفقد الأمل. إن رجال السيد هيربستال يفتشون الحي بكل دقة، فمن المحتمل أن تكون تلك الفتاة المسكينة فقدت ذاكرتها، مثلما يحدث عادة. أما إذا كانت ثمة جريمة ارتكبت بحقها، فأؤكد لك أن لا سيارة، أو عربة تجرها الخيول، أو حتى عربة يدوية يمكنها الفرار من الطوق الذي أحطنا به هذه المنطقة من دون أن تخضع لتفتيش دقيق لا يُفَوِّت أدق التفاصيل. إن جميع الطرق، وجميع مسارات العربات، وجميع الدروب تحت المراقبة.» أوماً السيد هيربستال برأسه مُؤكِّدًا. وقال: «الحال على هذا المنوال منذ الصباح.»

قالت ديانا مؤكِّدة في أمل: «نعم. لقد وقفونا أكثر من مرة عصرَ اليوم.» ولكن لم يكن روبن ويبستر يشاركها أملها. فقد قال وهو يحدق في وجه هانو في تعاسة: «هذا كله جيد. ولكن جل ما أخشاه أن الوقت قد فات، وحتى لو أحضرت الجيش الفرنسي بالكامل وجعلته يُعسكر على الطرقات، فلن يعيدها ذلك إلينا. أخشى أن...» ولكن اختنقت الكلمة في حلقه ولم يتمكن من نطقها. قال هانو: «تخشى أن تكون قد قُتلت.»

اعترت وجه روبن ويبستر لمحة ألم. وأجابه هامسًا: «نعم.» نهض هانو فجأةً من على الأريكة، الأمر الذي أدهش المحيطين به في الشرفة. كان التغيُّر الذي حلَّ عليه قد غيَّر من مظهره أيضًا. فقد وقف مهيبًا وضخمًا، وتحدَّث بنبرة حملت هيبةً لا مثيل لها.

وقال: «أنا واثق بذلك. إذا كانت جويس ويبل حيةً الآن؛ فهي لن تموت بسبب العنف.»



قال ويبستر في تعاسة: «ولكن جل ما أخشاه أن الوقت قد فات، وحتى لو أحضرت الجيش الفرنسي بالكامل وجعلته يُعسكر على الطرقات، فلن يعيد جويس إلينا.»

أخذ روبن ويبستر شهيقًا عميقًا كما لو أنه استمد شجاعةً من هذه الكلمات. وصاح: «أنت تعتقد ذلك! أنت؛ أوه، أنت عثرت عليها!» وتعلّق بهذه الفكرة، واقتنع بها، وحدّق في وجه هانو بشفتين فاغرتين وعينين لامعتين.

«لا! لقد عثرت على بعض آثار الأقدام؛ ليس أكثر من ذلك. لقد كانت تعدو عبر المرج ليلة أمس. ولكني لا أعرف عن مكانها الآن أكثر مما تعرف أنت يا سيدي.»
«ولكنك قلت إنها آمنة.»

«آمنة؟ لا. قلت إن القاتل لن يجرؤ على قتلها، هذا إن كان يُخطّط لقتلها من الأساس. وللمرة مائة الألف خلال تاريخ العنف الطويل، يُثبت أنه يصعب القضاء على الضحية

الميتة. فثمة قَدَر يتدخَّل في الأمر. ثمة عدالة تتدخل في الأمر. إن مَنْ قتل إيفيلين ديفينيش لن يجرؤ على أن يقتل مجدداً.»

«هل تُعلن أن قتل إيفيلين ديفينيش واختفاء جويس وبيل يتعلقان بالجريمة نفسها؟»

التفت هانو نحوه وقال: «انظر حولك. هذا الحي ذو المنازل المتناثرة. وعدد السكان القليل. هل من المحتمل أن يكون هذان العاملان الفظيعان اللذان ارتكبا في الليلة نفسها، وتحت سقف المنزل نفسه، عمليْن منفصلين؟ لا، لنكن عقلانيين. البديل الوحيد لذلك هو أن تكون جويس وبيل شريكة في الجريمة؛ وجفلت ديانا تاسبورو الجالسة على الأريكة بجانبه.

التفت هانو نحوها على الفور. كانت جالسة وقد بدت على وجهها أعتى أمارات الرعب، فسألها: «هل تعتقدين ذلك يا آنسة؟»

هزّت ديانا رأسها نفياً بعنف. وقالت: «بالطبع لا. جويس صديقتي. لم أفكر في ذلك على الإطلاق. كل ما هنالك أن كلماتك ذكّرني بأنه يبدو دائماً أن ...» لم تُسعف الكلمات ديانا للتعبير عما تعنيه دون أن تتسبّب في أي ضرر.

قال هانو مصراً برفق وهو ينحني ناحية الفتاة: «ماذا؟»

قالت ديانا في تردد: «كان يبدو دائماً أن هناك ضغينة بين جويس وإيفيلين.»

تراجع هانو في دهشة. وقال بتؤدة وبصوتٍ يحمل نبرة إدراك: «هكذا الأمر إذن؟» ولكن عارضته ديانا سريعاً. فلم تكن لتتركه يعتمد على هذا الكشف أو أن يعطيه وزناً ضمن أفكاره.

فقالت في إصرار: «لا تلقِ بالاً لذلك. لم يكن ثمة توافق بينهما. هذا كل شيء؛ أنا واثقة بذلك. كان ثمة القليل من العداوة بينهما دون سبب محدد. أنا غبية أنني ذكرت الأمر لك من الأساس. لم يكن يجدر بي أن أفعل، إلا إذا ذكرت أنت الأمر.»

أصبح هانو على الفور حريصاً على أن يزيل من نفسها أي شعور بتأنيب الضمير. فقال: «أيتها الآنسة، صدقيني، كان من الأفضل بكثير أن تخبريني بالأمر بمثل هذه الصراحة والبساطة، بدلاً من أن أكتشف الأمر بنفسي فيما بعد. كنت سأضع وزناً كبيراً لهذه التفصيلة اليسيرة إذا ما اعتقدت أنك أخفيتني عني.»

شعر السيد ريكاردو بالحيرة. كان منطق هانو سليماً دون أدنى شك، ولكن لم تكن ثمة حاجة له. لم تكشف ديانا تاسبورو شيئاً عندما أقرت بوجود عداوة بين إيفيلين

ديفينيش وجويس ويبل. كان قد قص صباح اليوم قصة كهف المومياوات، وأضاف إليها عصر اليوم حكايته عن ثورة غضب جويس الغريبة أثناء تناول العشاء. كان هانو يعرف حقاً جميع التفاصيل التي كان ضرورياً أن يعرفها حتى هذه اللحظة. وأضاع باستهتاره وقتاً ثميناً عندما استخرج المعلومات نفسها من ديانا للمرة الثانية.

فكّر السيد ريكاردو: «إنه يضل طريقه بين التشعُّبات الكثيرة لهذه القضية. يجب أن أُعيده إلى الطريق الرئيسة.»

كان قد بدأ يُصدر مهممةً خافتة تمهيداً لإبداء اعتراضه، ولكن رمقه هانو بنظرة فاترة قاسية جعلته يعيد التفكير ويعدل عن موقفه.

وقال: «أعتقد أن السيد ريكاردو على وشك أن يقول تعليقاً مبرراً على أننا نُضخّم كثيراً من تفصييلة غير مهمة على الإطلاق.»

اتجهت جميع الأعين دفعةً واحدة نحو ريكاردو الذي شعر فجأةً بالعصبية ونقل ثقل جسده من إحدى قدميه إلى الأخرى. وقال: «هذا صحيح. كنت على وشك أن أقول هذا التعليق حقاً.»

وشعر بالراحة عندما أُشِيحت الأعين بعيداً عنه، ولكن تخلَّل شعوره بالراحة هذا فكرة مؤرقة بأنهم تجاهلوه وكأنه شخص تافه. أعاد روبن ويبستر دفة الحديث إلى المشكلة الأخطر التي بدأ بها.

فقال: «أنت واثق، يا سيد هانو، بأنه إذا لم تكن جريمة قتل ثانية قد ارتُكبت، فإنها لن تُرتكب. من ناحيتي، أتمنى لو أمكنني تصديق ما تقول. ولكن مَنْ قتل إيفيلين ديفينيش سيكون يائساً. ولا بد أن يستمر في مخططه. لقد تورَّط، وبغض النظر عن المخاطرة، يجب أن يستمر، هذا ما استنبطته من موقفه. وسيتخذ تدابير احترازية.»

قاطع هانو قائلاً: «ألم يتخذ تدابير احترازية عندما قتل إيفيلين ديفينيش؟ إنه يعرف أن التدابير الاحترازية تفشل.»

رغم كل ما قيل، لم يبدُ روبن ويبستر راضياً. فقد وقف في مكانه ممتقع الوجه وعيناه تنظران إلى المحقق ثم تتهرَّب منه. كان يدور في ذهنه خوف لا يمكنه التعبير عنه بالكلمات. ثم قال في نهاية المطاف كلمةً مريعة بصوت خافت خالٍ من أي نبرة: «الدفن.» قالها في صيغة سؤال. ألم يكن هذا الإجراء الاحترازي الذي لن يفشل هذه المرة؟ وطار السيد ريكاردو بخياله، الذي أيقظته هذه الكلمة المرعبة، فوق كروم العنب والغابات وعثر على كومة من التراب لقبر صغير حديث مخبأ تحت أوراق الشجر، تهبط ببطء لتُصبح

مساويةً لسطح الأرض من حولها مع تعاقب الفصول. ولكن دَوَّتْ إجابة هانو عن هذا السؤال كهزيم الرد.

قال: «جُرِبَ هذا الحل في إنجلترا ومُني بالفشل. وجُرِبَ في فرنسا ومُني بالفشل. سيدي، لو كنت مثل» تردد للحظة ثم أعاد صياغة كلامه «مثل شخص أعرفه، وكنت أريد إدانةً دامغةً في محكمة الجنايات بدلاً من إنقاذ حياة، لقلت: «إنها دُفنت!» لن تكون ثمة حجة أقوى من ذلك!»

بعد هذا الاستنتاج المقيت الصادم، التفت نحو ديانا تاسبورو مجدداً. وقال: «يا آنسة، نود أن نُعفيكَ من الإزعاج قدر إمكاننا. يجب أن تُغلق غرفتا السيدتين بالطبع. وسيكون ثمة مندوب عن الشرطة حاضراً داخل المنزل، ونواب آخرون في الأراضي المحيطة به. وأثق تمام الثقة بأنهم سيكونون محل ترحيب من قبلك ومن قبل عمك الكريمة. أما بالنسبة إلي، فأعتقد أنه يجب أن أعود على الفور إلى بوردو لأنه لن يكون مقبولاً أن أحل عليكم ضيفاً في مثل هذه الظروف، وأرى أنه من الأفضل أن يعود السيد ريكاردو معي إلى بوردو.»

ردت عليه ديانا في امتنان: «هذا كرم كبير منك»، ثم أصبح صوتها جافاً وهي تضيف: «ومن المؤكد أن السيد ريكاردو سينعم في بوردو بنوم أعمق مما فعل في قصر سوفلاك.»

واصل هانو حديثه مسرعاً: «سأتركك إذن بين يدي المفوض، وبالنسبة إليك يا سيد ويبستر، أمل أن يكون نجاح حصاد العنب بشارة خير.»

ثم انحنى في احترام شديد. ووجه حديثه إلى ريكاردو قائلاً: «سيتوفّر لك وقت لتحزم أغراضك بينما أُجري والمفوض ترتيباتنا»، ثم دخل غرفة الاستقبال. انحنى ريكاردو بدوره وتبع هانو. عبر هانو الغرفة إلى الباب المؤدي إلى الردهة — الباب في الجدار الخلفي — وعندما أمسك مقبضه في يده، استدار نحو الخلف نصف استدارة. كان ينظر نحو الشرفة، وبدا ذاهلاً.

همس قائلاً: «يا إلهي! ألقِ نظرةً واحدة فحسب يا صديقي؛ ليس أكثر. إنك لم ترَ في حياتك شيئاً مثل هذا!»

ثم انسل عبر الباب إلى الردهة. حاكى السيد ريكاردو ما فعله هانو ونظر خلفه عبر النافذة الزجاجية إلى الشرفة غير مبالي. ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى هذا القدر من التمثيل. فقد كان ينظر مباشرةً إلى روبن ويبستر الذي كان يقف شارداً الذهن، لا يتحرك وكأنه

تمثال حجري، في نفس المكان حيث تركوه. ولكن كان الغضب قد أشعل نارًا حمراء في وجهه. وكان ينظر نحو ديانا تاسبورو بعينين جاحظتين لا ترمشان. كان هانو محققًا. لم يرَ السيد ريكاردو شيئًا مرعبًا مثل هذا في حياته. حتى القناع لم يكن ليُقارن بما يرى.

الفصل الخامس عشر

الفيكونت يطلي بوابته

جلس السيد ريكاردو على حافة فراشه واضعاً رأسه بين يديه، بينما كان الخادم يحزم أمتعته. كان ثمة صخب شديد يدور في رأسه. كان كل ما رآه وسمعه ذلك اليوم مختلطاً في ذهنه ... آثار الأقدام، والقناع، والشمعة الذائبة، والسريّر المبعثر، وصورة القناة الكبرى التي لم تعن له شيئاً، والقس وقضاياه الجدلية ... أه، وسوار جويس وبيل ... نعم، وتصريح هانو المذهل بأن قتلة إيفيلين ديفينيش لا يجرون على تكرار جريمتهم ... وما رآه هانو في غرفة ديانا تاسبورو ولم يره هو ... وما استنتجه هانو من الكتب بجانب سريّر روبن ويبستر ولم يستنتجه هو ... وغضب روبن ويبستر الحاد والمروع على الشرفة. ألمه رأسه بينما كان يعدد مصادر حريته، وشعر بالامتنان لهانو على منحه طريقاً مريحاً للهروب من هذا المنزل المأساوي. وسيتوفر له في بوردو ما يكفي من وقت ليستعين بجداول ملاحظاته ويُعيد ترتيب الأمور، حتى لو كان الأمر يعني فقط ترتيب جهله في شكل مُنظَّم. كما كان سيُغفى من النفور الذي يبدو جلياً أن ديانا تشعر به تجاهه. لذا، أشعل سيجارةً وحاول أن يطرد هذه الفوضى من ذهنه بالكامل.

ولكنه لم يتمكن من ذلك. فقد بدأت ذاكرته تنشط. فاعتدل في جلسته وشهق. رفع إلياس تومسون رأسه من داخل حقيبة السفر ورأى سيده يحرق في الفراغ مشدوهاً. فسأله: «هل أنت بخير يا سيدي؟» ولكن لم يسمعه السيد ريكاردو. فقد قفزت إلى ذهنه فكرة، فكرة مكتملة الجوانب، فكرة ألمعية، فكرة وكأنها الشفق القطبي بالنسبة إلى الأفكار. أخذ إلياس تومسون ببراعة من بين أصابع ريكاردو السيجارة التي كادت أن تتسبّب في اشتعال اللحاف. لم يلاحظ السيد ريكاردو ذلك. وعاد إلياس تومسون ليُكمل حزم الأمتعة.

وقال: «إنها تلك الجريمة الغريبة. لطالما كنت مغرمًا بالجرائم منذ أن حلت القضية التاريخية في إيكس، أليس كذلك يا سيدي؟»
ولكن لم تتخط تلك الثثرة صيوان أذن السيد ريكاردو. كان من شأن إطراء أكثر تملقًا أن يسعد قلبه. لقد لاحظ هو أيضًا أمرًا لم يلحظه أحد غيره. حتى هانو لم يسمعه أو يره. ولكنه على قدر من الأهمية أكبر من أي شيء آخر.
في تلك اللحظة سمع طرقًا على الباب. وكان الطارق هو جولس أماديه يخبره بأن ثمة سيارة في انتظاره أمام باب المنزل وأن هانو ينتظره في بهو المنزل. قفز السيد ريكاردو واقفًا.

وصاح في إلياس تومسون قائلاً: «ضع الأمتعة في سيارة السيد هانو وسافر معها.» ومنح جولس أماديه نفحة كبيرة وأسرع الخطى على طول الرواق. وعند طاولة البهو، كان هانو واقفًا في لا مبالاة يُقلّب في عدد من البطاقات التي تركت عند باب المنزل عصر اليوم. اندفع السيد ريكاردو نحوه، وصاح في انفعال ونشوة.

قال: «ثمة ما أريد أن أخبرك به يا صديقي.»
قال هانو في هدوء بينما كان إلياس تومسون وجولس أماديه ينقلان الحقائب إلى السيارة: «ولكنك مخطئ يا سيد ريكاردو.»

صاح السيد ريكاردو لاثمًا: «ولكني لم أخبرك بما أريد إخبارك به بعد.»
ردّ عليه هانو: «هذا صحيح. ولكن ما ستخبرني به سيكون خطأً. ولكني أريد أن أخبرك بشيء غريب ومثير للاهتمام.»

تراجع السيد ريكاردو خطوةً إلى الخلف وشعر بالاختناق. كانت ثمة عبارة لطيفة تتعلق بإلقاء ماء بارد على رجل. شعر السيد ريكاردو وكأن البحار القطبية قد غمرته بالكامل. وسأل نفسه، هل ثمة غرور أكبر من هذا؟ لا شيء يستحق الملاحظة إلا ما لاحظته هانو. لا شيء يستحق الاستماع إليه إلا ما يقوله هانو. حسنًا! والآن يجب أن يُعاقب هانو على ذلك. لقد حان وقت تعليمه درسًا في التواضع. سيحتفظ السيد ريكاردو باكتشافه لنفسه. وسيبدأ بدراسة جميع الملابس بمفرده في بوردو. وقد يستجديه هانو لكي يخبره به. ولكنه لن يفعل ذلك إلا في الوقت الذي يراه مناسبًا. فابتسم وقال بهدوء: «عليك أن تخبرني بهذا الأمر العجيب.»

نظر هانو عبر الباب المفتوح. كان تومسون وجولس أماديه مشغولين بتكديس الحقائب في السيارة التي لا تتسع لها.

وقال: «وجدت أنه من الغريب أنه من بين جميع الذين حضروا عصر اليوم لتقديم واجب العزاء، هناك شخص مهم غائب.»

قال السيد ريكاردو في لا مبالاة: «حقاً؟»

قال هانو: «نعم» ثم صمت. لا ريب في أنه رجل مزعج للغاية. ففي تلك اللحظة، كان على السيد ريكاردو أن يسأله عن الشخص الذي لم يُعبر عن تعاطفه معه.

أجاب هانو: «الفيكونت كاساندر دي ميراندول.»

«أوه!» أدهش الخبر السيد ريكاردو. إن الأخلاق الحميدة أمر ضروري للغاية بالنسبة إلى الفيكونت كاساندر دي ميراندول، ولا يمكنه أن يتركها في المنزل وكأنها قفاز مهمل، حتى وإن أراد ذلك. ولكن كان ريكاردو ناقماً على هانو في تلك اللحظة ولم يستطع أن يُقر بذلك.

فقال: «إن السيد دو ميراندول ظل ساهراً حتى ساعة متأخرة من ليلة أمس.» ردَّ هانو وهو ينظر في ساعته: «ربما فعل، ولكننا أصبحنا في ساعة متأخرة من نهار اليوم.»

حاول السيد ريكاردو أن يجد مبرراً آخر: «ربما أصيب بنزلة برد وهو في طريقه إلى منزله.»

«لم يكن ذلك ليمنعه عن إرسال بطاقة.»

قال السيد ريكاردو بتعالٍ: «إنه موضوع تافه على أي حال.» كان يعني أنه تافه مقارنةً بالأمر الشديد الأهمية الذي قرَّر أن يحتفظ به لنفسه. «هل هو كذلك؟ إنه أقرب جار على الإطلاق، وكان يتناول العشاء هنا ليلة أمس. أرى أن هذا غريب.»

وافقه السيد ريكاردو على مضمض: «حسناً إذن. إنه غريب»، وخرج الرجلان من قصر سوفلاك معاً. كان مورو وإلياس تومسون قد ركبا سيارة الشرطة الخاصة بهانو حقاً، وأدار مورو السيارة بعد إيماءة من هانو.

قال هانو: «فلنتبعهما»، واستعاد السيد ريكاردو في ذهنه ذكرى لأمر حدث صباح اليوم، فصاح في سائقه سريعاً: «إلى بوردو.»

قال هانو بهدوء: «لقد أعطيت هذا السائق الممتاز تعليماته حقاً»، وتحركت السيارة الكبيرة من أمام الباب، وظل السيد ريكاردو يقفز إلى أعلى وأسفل على زنبركات مقعده في تلملم. كان يرى أن تبلد مشاعر رفيقه فيما يتعلق بأدق التفاصيل السلوكية أمر لا يُحتمل.

قال هانو: «أنت منزعج مني يا صديقي». وأخرج من جيبه علبة سجائر ماريلاند الزرقاء وأشعل لفافة تبغ مستدقة الطرف بعود ثقاب بدا وكأن شرره سيظل يتطاير إلى الأبد.

قال السيد ريكاردو في برود: «أحب بعض الأمور، وأكره أمورًا أخرى». رد عليه هانو في جدية: «أنا أيضًا أحب أن تسير الأمور وفق نهج معين». «على سبيل المثال، أحب أن أكون أنا من يعطي التعليمات لسائقي». أبدى هانو فجأةً أسفًا شديدًا. وصاح في ندم: «لقد أخطأ هانو! لا يستحق هانو عفوك. سيفرض هانو على نفسه بعض الكفارات مثلما فعل القس فاورييه. ولكني لم أتمكن من منع نفسي عن إعطاء أمر لسائق سيارة رولز رويس، كما لو أنها ملكي! لا، لا يمكنك أن تتوقع أن يقاوم رجل شرطة فقير مثل هذا الإغراء». جعل هذا المبرر السيد ريكاردو يهدأ قليلًا. فقد كان ينطوي على إطراء. ربما لم يكن سريع البديهة مثل المحقق العظيم، ولكنه يمتلك سيارة رولز رويس. ومن ثم، كان تعبيره عن استيائه مما حدث أقل حدة.

وقال: «لا أحب أن يتجاهلني أحد».

«آه، ولكن هذا أمر مختلف! أولاً، لا يمكنني أن أعبر عن مدى أسفي على ما فعلت! نعم، هانو؛ هذا العظيم يركع أمامك». واستدار ليووجه ريكاردو وينحني وهو يضع يده على صدره. وقال: «ولكن فكر! فلتر الصعوبات التي أمر بها! يمكنك أن تأتي عدوًا إليّ في بهو المنزل مُحَمَّلًا بالمعلومات، وجولس أماديه في إثرك حاملاً حقائبك. إذا ما تركتك تتحدث، فبمجرد أن نرحل، سيعدو هو أيضًا. ولكن إلى سيدته! تلك الفتاة المسكينة التي تحمل ما يكفي من البؤس على عاتقها حقًا، ستعتقد جزافًا أننا نشك في أنها شريكة في الجريمة. جزافًا! نعم!» قالها مُؤكِّدًا في حسم. واستطرد: «فقد أخبرتنا صراحةً بأنها طافت بالسيارة بين منازل جيرانها. هل الأمر الأكثر ترجيحًا من ذلك هو أن تلتقي بالسيد تيدون، قاضي التحقيقات، أثناء تحقيقاته؟ وإذا ما التقت، فإن الأكثر ترجيحًا هو أن يقول: «لم يحظ السيد ريكاردو بقدر كافٍ من النوم ليلة أمس في قصر سوفلاك!» آه، اضطررت لأن ألهييه في شيء».

حدّق السيد ريكاردو في وجه رفيقه في ذهول. ثم قال: «كنت تعرف إذن ما أردت إخبارك به!»

«بالطبع، كنت أعرف. هذا عملي. كنت تريد أن تقول لي بأعلى صوتك: «لم أخبر أحدًا بأنني لم أنم جيدًا ليلة أمس إلا لشخصين؛ هانو والقاضي. ولكن ها هي الآنسة ديانا تعرف أيضًا!» أليس هذا ما كنت تريد قوله؟»

قال السيد ريكاردو في تواضع شديد: «أجل.» ذهب اكتشافه العظيم سدًى. كان هانو قد توصل إلى الاكتشاف نفسه في الوقت نفسه ولكنه فسّره بالشكل الصحيح. وذلك في الوقت الذي لم يحاول هو تتبّع تداعياته من الأساس.

واصل حديثه بنبرة مرارة في صوته: «نعم. الإلهاء! اضطررت لأن تلهيه بشيء!» ولكن أثناء حديثه، احتلّت صورة وجدانه، صورة روبن ويبستر في الشرفة وهو يُحدّق في ديانا بنظرة غضب نارية.

فصاح قائلاً: «ولكن، مهلاً! إذا ما اعتقدت أن ديانا تاسبورو قد ارتكبت خطأً، فقد فعل روبن ويبستر المثل! هذا التفسير اليسير البدهي؛ لا، لن يصلح. نعم، لقد التقيا بقاضي التحقيق! نعم، ولقد أخبرهم؛ ربما بكل ما أخبرته به في مبنى محافظة فيلبلاننش. إنه أحمق، ذلك القاضي. ولكن كان من المتفق عليه أنها يجب ألا تعرف أي شيء أخبرته به عندما نلتقي في وقت لاحق...»

سأله هانو بحدة: «من المتفق عليه بين من؟»

«بين روبن ويبستر وديانا تاسبورو. ولكنها نسيت الاتفاق، وزل لسانها، الأمر الذي لا يجدر بنا أن ننساه.»

اضطجع السيد ريكاردو مسندًا ظهره وهو يشعر بالسرور أنه قلب الطاولة على صديقه الفخور بنفسه. وفرك يديه معًا وكأنه يقول: ما رأيك في ذلك؟ كان هانو منبهراً بهذه الحُجج. فزَمَّ شفَتَيْه وهز رأسه.

وقال مطرّقاً: «لا أتفق معك على أن السيد تيدون أحمق. ولا أقول ذلك بسبب أنه رئيسي المباشر. لا! بل أعتقد أنه على النقيض تماماً من ذلك، إنه داهية. ربما كان ثرثاراً في هذا الموقف، ولكن من المؤكد أنه كان هناك سبب لفعل ذلك. نعم، أعتقد أنه سيحصل على منصبه في بوردو، بما أنه يود ذلك. أما باريس، فهذا شأن مختلف. ولكن، بوردو، نعم.» وابتسم في سرور وكأنه يهنئ القاضي على منصبه الجديد. وعاد يقول: «أما بالنسبة إلى ويبستر، فهذا شأن آخر. ربما سأكلّفك بأمره، ما رأيك؟ فهو... وحاول أن يستخدم تعبيراً اصطلاحياً خاطئاً كعادته، فقال: «مادة جيدة!»

قال السيد ريكاردو مُصَحِّحًا على الفور: «بل خامة جيدة.» كان يُفَضَّل إذا ما استُخدمت التعبيرات الاصطلاحية الشائعة أن تُستخدم بالشكل الصحيح. لم يكد يُنهي تصحيحه حتى توقفت السيارة فجأة، وفتح رقيب شرطة الباب.

قفز هانو خارج السيارة وأبرز بطاقة هُويته وحصل على اعتذار مُغلَّظ. ولكنه لم ينتظر ليسمع الاعتذار. وقال: «لا بد أن يكون الحارس حازمًا. أرجو أن تُعامل الجميع بهذه الطريقة نفسها.» كانت السيارة قد توقفت أمام بوابة حديدية أنيقة، ومن خلفها، ظهر مسار عريض للعربات ينحني إلى ما هو خارج مجال الرؤية. فسأل هانو: «إلى منزل مَنْ يؤدي هذا الطريق؟»

أجابه الرقيب: «منزل السيد دو ميراندول.»

بدأت الحيرة على وجه هانو. ونظر إلى الطريق من خلفه. كان قصر سوفلاك لا يبعد سوى نصف ميل من حيث يقف، بينما كانت الأبراج الحجرية لمنزل الفيكونت تظهر من خلف أجمّة من الأشجار لا تبعد سوى ١٥٠ ياردةً عن البوابة الحديدية. فقال: «كنت أعتقد أن منزل السيد دو ميراندول منزل أبيض طويل منخفض على قمة تل مقابل لقصر سوفلاك.»

وافقه السيد ريكاردو قائلاً: «لقد أخبرنا القاضي بذلك.» كان ريكاردو قد خرج من السيارة ووقف عند حافة الطريق بجانب هانو.

قال الرقيب مُفسِّراً: «هذا منزل ميراندول الصيفي القديم. ويمكن الوصول إليه عبر هذا القصر أو عبر الطريق الذي يمر بالريف المفتوح أمام منزل سوفلاك. ويستخدمه الفيكونت محلّ إقامة له. فهو منزل هادئ ويحتوي على مكتبة ضخمة. وأصبح القصر الكبير حالياً منزل ضيافة وإدارة.»

سأل هانو: «أعتقد أن سيدة قصر سوفلاك الشابة قد زارت هذا المنزل عصر اليوم، أليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي.»

نظر هانو إلى السيد ريكاردو مبتسماً. وقال: «لقد عرفنا أخيراً السبب الحقيقي لعدم تقديم السيد دو ميراندول تعازيه. فقد قدّمها حقاً في منزله.» ثم نظر إلى ساعته، وقال: «سنحاكي ما فعلته سيدة قصر سوفلاك. تعال!»

ترك الرجلان السيارة في عُهدة الرقيب، وفتحا البوابة، وعبرا المسار إلى المنزل. عادةً ما تكون أقبية النبيذ مجاورةً لمبنى المنزل الرئيس بحيث يظل أمام الفناء والشرقة ممر دائم لدخول المنزل والخروج منه. تحدث هانو إلى رجل كان يُوجّه أوامره لآخرين.

وقال: «أين أجد الفيكونت؟» أشار الرجل إلى امتداد لمسار العربات وعاد ليستكمل عمله. كان المسار يميل لأعلى عبر أجمة من الأشجار الصغيرة، ثم يضيق وينتهي أمام بوابة صغيرة بيضاء. ومن خلف البوابة، كان هناك ممر للمشاة يلتف بين الشجيرات، وفجأة وجد هانو وريكاردو أنفسهما في قطعة مفتوحة من مرعى بري بدلاً من العشب المعتنى به، وظهرت أمامهما الواجهة اللامعة للمنزل المكون من طابقين. وكانت ثمة بلاطة حجرية واحدة موضوعة أمام الباب. كانت عمارة المنزل بأكملها بسيطة، ومريحة للعين والعقل. دق هانو جرس الباب، وأوحى الرنين العالي بأن المنزل خالٍ. ولكن بعد وهلة، فُتح الباب وظهر خادم يقف على عتبة. كان بديناً وأصلع ذا مظهر خبيث، وألبسته سنوات خدمته الطويلة مظهرًا سطحيًا شبيهًا بسيد. تساءل السيد ريكاردو عما إذا كانت يداه مبتلتين، وكان ممتناً أنه كان قادرًا على مواصلة التجول. فقال هانو: «هل الفيكونت موجود؟» قال الرجل: «إنه هناك عند نهاية هذا الدرب يطلي البوابة.»

«سنعثر عليه.» كان الدرب الذي حدّده الخادم يحيط بقطعة أرض عشبية ثم يختفي بين شجيرات الورد في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي أتيا منه. وشكّل الضلع الثاني العمودي لمثلث قاعدته الخط المرسوم بين الدربين عبر الأرض العشبية من عند نقاط ظهورهما من بين الشجيرات. سار هانو والسيد ريكاردو على طول هذا الدرب الثاني، وبعد التفاتة أو اثنتين رأيا الفيكونت خالغاً معطفه، وممسكاً بعلبة طلاء في يده، وفرشاة ضخمة في يده الأخرى، وكان ينحني بجانب بوابة خشبية صغيرة مؤدية إلى طريق. كان قد رأى زائريه في نفس وقت رؤيتهم له، فنصب قامته.

وقال مبتسمًا: «سيد ريكاردو. للأسف! لا أستطيع مصافحتك. إن الطلاء يغمرنى بالكامل.»

كان الطلاء أخضر اللون. وكان قد وضع طبقة سميكة منه على البوابة، وكانت ثمة طبقة مماثلة على ملابسه ويديه، وطبقة على وجهه لا تقل سمكًا عنها. قال الفيكونت: «لم أحظّ بشرف التعرف إلى رفيقك يا سيد ريكاردو. ولكن أحضرت لي صديقتي الشابة التعسة من سوفلاك أخبارًا سيئة عصر اليوم، ويمكنني أن أخمن من يكون. هل أنت السيد هانو؟»

انحنى هانو، وقال: «في خدمتك سيدي الفيكونت.»

«يا له من حدث غامض ومريع يا سيد هانو. من حسن حظ هذا الحي أنك كنت في بورديو بالمصادفة.»

«ولكنني في بوردو لشأن آخر يا سيدي الفيكونت. وأنا في طريق عودتي إليها الآن. وأصدقك القول، لم أحقق الكثير من التقدم هنا.»

حُثَّه دو ميراندول في قلق: «ولكنك ستعود إلى سوفلاك. إن جريمةً رهيبيةً مثل تلك يجب ألا تُترك دون حل.»

«سأعود سيدي الفيكونت. ولكن، هل سأعود في الوقت المناسب؟ هذه مسألة أخرى. لقد ضاع يوم، وربما حتى بضع ساعات، ولم أتوصل إلى أي شيء.»

قال الفيكونت راجئاً: «سُمعة المقاطعة وأمنها على المحك.»

رد عليه هانو واجباً: «سأبذل قصارى جهدي.» لم يكن صوته يوحي بالثقة. وبدا وكأن الإحباط يغمره حتى عنقه، ولكنه قال: «إلى أين ذهبت السيدة ديفينيش بعدما تسَلَّكت خارجةً من نافذة غرفتها ليلة أمس؟ مَنْ يمكنه أن يخبرنا؟ كانت القرية أجمعها نائمة. ولم يكن ثمة حراس على كل طريق ودرب مثلما هي الحال الآن. لقد أخذنا جذرنا، كما قد يقول السيد ريكاردو، بعدما سبق السيف الاعتذار.»

ترك السيد ريكاردو المثل الخاطئ يمر مرور الكرام؛ فقد كان هانو يائساً. وكان من القسوة أن يحاول تصحيح المثل له.

قال الفيكونت: «أرجو أن تعذراني، فلا بد أن أكمل عملي.» وعاد ينحني ليوصل أعمال الطلاء، وهو يقول: «يجب أن أنهي طلاء البوابة قبل حلول الظلام، ولكنني لست ماهراً في ذلك، كما تريان.» ونثر الدهان بفرشاته وهو يتحدث أثناء عمله، وقال: «كل رجالي يعملون في كروم العنب اليوم. أرجأت طلاء هذه البوابة حتى فقدت حرارة شمس الصيف قوتها. واستيقظت اليوم تراودني فكرة «إما اليوم أو أبداً.»»

قال هانو بأدب: «سيدي الفيكونت، أنت مثال يُحتذى به.»

أبقى الفيكونت على البوابة مفتوحة عبر مزلاجها بيده اليسرى المكسوة بقفاز بستانى سميك، بينما كان يدهن البوابة بيده اليمنى. انسلَّ هانو من خلفه وخرج إلى الطريق خلف البوابة. ووجد نفسه ينظر في خط مستقيم عبر أرض مفتوحة إلى قصر سوفلاك بلونه الزهري الفاتح. كان الطريق الذي يقف عليها تنحدر على التل عن يساره وتندمج في آخرها بطريق أوسع تمر بمباني مزرعة سوفلاك ومرآبها، ثم تصعد وصولاً إلى القوس الكبير في واجهة المنزل. وقف هانو يمسح المشهد بعينه، وكان مشهداً جميلاً وهادئاً تغمره شمس الأصيل، ولكن صدرت عنه بعد ذلك هفوة رأى السيد ريكاردو أنه من المستحيل تبريرها.

قال هانو: «هذا طريق مختصر.» كان يتحدث بأدب ويمد ذراعه عن آخرها نحو قصر سوفلاك. ولكنه لم يعد يُحكم قبضته على القناع تحت معطفه. فانزلق. ظهر المنديل الذي كان القناع ملفوفاً به، وعلى الرغم من أن السيد ريكاردو سعل، وتنحنح، وضرب بقدميه، ونقر بأصابعه، سقط المنديل على الأرض قبل أن يتمكن من لفت انتباه هانو. وما زاد الطين بلة أن المنديل انفتح. وأصبح القناع بشعره الأحمر، وملامحه الشاحبة، وشفتيه الأرجوانيتين، ظاهراً أمام العالم بأكمله ليراها.

وقف هانو للحظات مذعوراً. ثم انحنى فوق الشيء الذي من المفترض أن يكون سرياً، وغطّاه، وأدخله داخل معطفه وأغلق أزراره.

سأل السيد ريكاردو نفسه: «ما الفائدة مما حدث الآن؟» وكان يشعر بانزعاج شديد واستياء من هذا الإهمال. «لا ريب في أنه قد سبق السيف العذل.» أما الفيكونت كاساندر دي ميراندول، فقد تظاهر بأنه لم يرَ شيئاً. وواصل طلاء بوابته بهمة.

وقال مخاطباً السيد ريكاردو الذي كان يقف خلفه: «أنا فخور بعملتي. بالنسبة إلى شخص مبتدئ قضى حياته بأكملها في الدراسة، هذا ليس سيئاً. لقد قضيت صباح اليوم كله أحرق الدهان القديم وأكشطه من على الخشب. وقضيت مدة العصر بأكملها أضع الطلاء الجديد.» وانفجر ضاحكاً عندما تناثرت نقطة كبيرة من دهان الزيت السميك على رأسه الأضلع. وتناثرت نقطة أخرى أو نقطتان من الدهان على بدلة السيد ريكاردو الرمادية الأنيقة، وجفل السيد ريكاردو ثم أدرك السبب في ذلك. لا ريب في أن الفيكونت لم يكن خبيراً بمثل هذا العمل، ولكن كانت يداه ترتعشان أيضاً. كان المزلاج يرتج تحت يده اليسرى، وفرشاة الدهان ترتعش في يده اليمنى. نعم، كان قادراً على التحدث بثبات والسيطرة على صوته؛ وكان يتحدث لكي يُخفي عن زائريه أنه لا يستطيع التحكم في يديه. قال هانو وهو يتمالك أعصابه مرة أخرى: «هذا طريق مختصر. إنه يُسهّل زيارتك لأصدقائك، أو زيارتهم لك، وأرى أنكم تستغلونها على الوجه الأكمل.» وكان يُشير إلى آثار إطارات السيارات على الطريق. فكانت تشير إلى أن أكثر من سيارة توقفت أمام هذه البوابة واستدارت.

ثم عاد هانو إلى داخل الحديقة ووضع دو ميراندول فرشاة الطلاء في العلبة ووقف ومدّد ظهره وقد ظهرت على وجهه أمارات الألم.

ثم قال ساخراً من عدم شعوره بالراحة: «أوه! أوه! أوه! هذا العمل يُناسب من هم أصغر سناً. سألزم الفراش بسبب آلام الفقرات القطنية طيلة أسبوع كامل.»



كان دو ميراندول قادرًا على التحدث بمرح وثبات عن عمله على دهان البوابة؛ وكان يتحدث لكي يُخفي عن زائريه أنه لا يستطيع التحكم في يديه.

قال هانو مبتسمًا: «عليك أن تأخذ حمامًا ساخنًا على الفور سيدي الفيكونت، وستكتب دراسةً متعمقة مليئة بالأفكار الجديدة قبل أن يحل موعد النوم. لن نُعطِّك أكثر من ذلك.»

اعتذر الفيكونت إليهما. فقد كان يود أن يُري هانو الشهير كرم الضيافة الذي تشتهر به المقاطعة. ولكنهما شهدا بأنفسهما المأزق الذي وقع فيه. خلع الفيكونت القفاز الجلدي السميك عن يده اليسرى ومدَّها أمامهما ضاحكًا.

وقال: «هذا الجزء الوحيد من جسدي غير المغطى بالطلاء. أما بالنسبة إلى البقية»: ونظر في أسفٍ إلى يده اليمنى المُلطَّخة بالطلاء حتى المعصم، وقال: «لو اجتمع أبرع كيميائيي بوردو، فهل سيتمكنون من تنظيفها؟»
تركها واقفاً في مكانه، وعادا عبر الدرب الذي أتيا منه حتى وصلا مجدداً إلى سيارة ريكاردو. لَوَّح هانو بيده إلى رقيب الشرطة.

أمر السيد ريكاردو سائقه عبر البوق الداخلي قائلاً: «إلى بوردو»، وانسابت السيارة في سلاسة مبتعدةً على الطريق الأبيض المُترب. مرَّت السيارة ببضعة قصور تشتهر بكروم العنب، وعبرت قريةً تحف منازلها جانبي الطريق، ثم تحدث هانو قائلاً:

«إنه أكاديمي عظيم، أليس كذلك؟ بلى. ومتقف للغاية؟ أجل. إن دراساته في مجال الفلسفة تُعجب الشابات في بوردو كثيراً. نعم! ولكنه، يا صديقي، لم يكن يدرس في مكتبته في تمام الثانية من صباح اليوم. لا! فمكتبته تقع في الطابق الأرضي من هذا المنزل الصيفي على يسار الباب. لقد نظرت داخل المنزل عندما مررنا أمامه. نعم، نظر هانو عبر النافذة ورأى الكثير من الكتب المُكدَّسة تكاد تصل إلى السقف مستندةً إلى الجدران، وانسحق قلبه تحت ثقل كل هذه الكتب.» فقد صوته نبرته الساخرة، ومال ليقترُب من ريكاردو قليلاً، وقال: «ولكن ما كان هانو يود معرفته حقاً — ويراها — هو الغرفة الطويلة في الطابق الأول التي ظلت أنوارها مضاءةً حتى الصباح.»

غرق في الصمت مجدداً لوهلة، ثم قال وهو يبتسم ابتسامَةً صفراء: «اليدان، يا لهما من خائنتين! يمكن للمرء السيطرة على صوته وتعبيرات وجهه. نعم، حتى المبتدئ الذي قضى حياته بأكملها في مكتبته يمكنه فعل ذلك. ولكن ماذا عن اليدين؟ لا يمكن لأحد السيطرة عليهما، حتى الأكثر دهاءً على الإطلاق.»

صاح السيد ريكاردو: «هل لاحظت أن يديه كانتا ترتعشان؟ ولكنك كنت بعيداً تقف على الطريق.»

ابتسم هانو في تواضع زائف. وقال: «نعم، لقد لاحظت ذلك. هذا عملي يا صديقي العزيز.»

رد عليه السيد ريكاردو بانفعال شديد: «ربما كان عملك أيضاً أن تُسقط أقنعةً مميزة على طرق فرنسا السريعة.» ولكن جعله الخجل البادي على وجه هانو يهدأ بمجرد أن بدأ التحدث. إذا لم يكن من يُحدِّثه هو هانو من الأيام الخوالي، لكان أكثر لطفاً معه، ولحاول أن يُخفي عنه انتكاسته لأطول مدة ممكنة.

قال ريكاردو في تسامح: «أفاضلنا يخطئون في بعض الأحيان.» وافقه هانو قائلاً: «وكذلك المجرمون.» واصل ريكاردو حديثه قائلاً: «لقد فعل الفيكونت شيئاً مأكراً في النهاية. لقد أَرانا يديه.» نظر له هانو سريعاً نظرة غريبة مليئة بالتقدير، وقال: «نعم، لقد أَراني كلتا يديه.» صاح السيد ريكاردو: «لِيُثَبِّتْ لك أَنهما لا ترتعشان. كان حريصاً على أَن تَرى أَنهما ثابتان تماماً!» أشاح هانو بعينيّه عن وجه صديقه واضطجع في جلسته في راحة. وقال ببطء: «كان هذا هو السبب إذن، أليس كذلك؟ لقد وصلنا!» توقفت السيارة بغتةً أمام مبنى فخم في شارع ضيق. قال السيد ريكاردو وهو يُمسك ببوق السيارة الداخلي: «وصلنا إلى بوردو! مستحيل!» قال هانو في هدوء: «إلى بوردو، لا! ولكن إلى مكتب بريد بويك. هيا بنا!» خرجا من السيارة ودخلا البهو الكبير. أظهر هانو بطاقة هُويته أمام شاب واقف ورقيقه إلى غرفة خاصة. ودخل عليهما موظف ضئيل ملتج يعرض خدماته. قال هانو: «سأكون مديناً لك، يا مدير مكتب البريد، لو أخبرتني بما إذا وصل للآنسة جويس وبيل أي طرد مسجل من إنجلترا في بداية هذا الأسبوع.» أحضر مدير مكتب البريد كتاباً طويلاً ومَرَّرَ إصبعه على مدخلات إحدى صفحاته المُصَفَّرة.

ثم قال: «نعم، صباح يوم الثلاثاء.»

«هل جاءت لتسلّمه؟»

خرج مدير مكتب البريد، وسأل أحد موظفيه، وعاد، وقال: «لا يا سيد هانو. سُحِن الطرد لها في قصر سوفلاك.»

«ووقَّعت على تسلّمه بالطبع؟»

«بالطبع.»

سأله هانو: «هل يمكنني رؤية توقيعها؟» وعندما وُضع دفتر الإيصالات أمامه، نقله أمام السيد ريكاردو، وقال: «هل هذا توقيعها؟»
«نعم.»

قال هانو مؤكداً: «أنت واثق بذلك! هذا أمر مهم للغاية.»

رد عليه السيد ريكاردو بتوكيد أقل قليلاً: «لقد راسلتني ذات مرة لتُذكّرني بالحديث الذي دار بيننا في لندن. كما أَني رأيت توقيعها في دفتر الزوار.»

قال هانو: «يمكننا أن نتأكد.» وضع يده في جيب صدر معطفه وأخرج غلافًا أصفر اللون لرواية فرنسية. كُتِبَ على الغلاف، تحت العنوان، اسم «جويس ويبل». «كان الكتاب موضوعًا على طاولة في غرفة نومها. نُشِرَ هذا الكتاب منذ بضعة أسابيع. وهو متاح في جميع المكتبات. ومن المُرجَّح أن الآنسة اشترته من كي دورسيه خلال رحلتها إلى بوردو.»

وضع الورقة بجانب التوقيع في دفتر الإيصالات وكان الاسمان متطابقين تمامًا من حيث رسمُ الحروف.

قال هانو: «كُتِبَ كلاهما باليد نفسها إذن. أصبح من المؤكد أن الآنسة ويبل قد تسَلَّمت الطرد المُسَجَّل بيدها.» رفع عينيه مجددًا إلى مدير مكتب البريد، وقال: «هل يمكنك أن تخبرني بوزن الطرد؟»

نظر مدير مكتب البريد في دفاتره مجددًا.

ثم قال: «اثنان هكتوجرام.»

قال هانو مفسرًا للسيد ريكاردو: «أي ما يعادل سبع أوقيات بالنسبة إليكم.» ثم ظل صامتًا ووجهه يتجهم وينبسط، ثم يتجهم من جديد بينما يُحاول أن يُخَمِّن محتويات الطرد، ثم رفض التخمين، وقال فجأة: «أنا أضيع الوقت. سأرسل برقية.»

وضع مدير مكتب البريد نموذجًا أمامه، وأخرج هانو من جيبه خطابًا من السير هنري بريور من المختبر في ليدز، وكتب اسمه وعنوانه في متن البرقية الطويلة.

وقال: «سأرسل هذه البرقية إلى شرطة سكوتلاند يارد الإنجليزية. وسيخبرونني بما أريد بأقصى سرعة. هل سترسل البرقية على الفور؟ أشكرك. علينا أن نذهب نحن أيضًا.» صافح مدير مكتب البريد. وقال: «سنذهب هذه المرة إلى بوردو حقًا.» وظلَّ صامتًا حتى توقفت السيارة أمام الفندق الفاخر الذي ينزل فيه السيد ريكاردو في كور دو لينتندانس.

قال هانو: «ربما لن أتمكن من رؤيتك غدًا. ولكن إذا ما جدَّ جديد، فسأخبرك به. حتى ذلك الحين، ثمة مسألة علينا أن نفكر فيها. ما الضرورة التي جعلت الفيكونت كاساندر دي ميراندول يطلي هذه البوابة بالتحديد بيده؟ إن البوابة الأخرى التي مررنا بها ونحن في طريقنا إلى المنزل تحتاج إلى طلاء جديد أيضًا! لماذا لم يولِ اهتمامه إلا إلى تلك البوابة المؤدية إلى الطريق التي تنحدر وصولًا إلى قصر سوفلاك؟ هل بسبب أشعة الشمس الحارقة؟ محض هراء يا صديقي! لماذا لم تُطلَّ قبل موسم حصاد العنب؟ لماذا لم يُؤجَّل طلاؤها إلى ما بعد موسم حصاد العنب؟» ثم أومأ برأسه مبتسمًا وسار مبتعدًا.

بلاييت يضيف المزيد إلى قصة ديانا

حاول السيد ريكاردو أن يصرف الجريمة التي ارتكبت في سوفلاك عن ذهنه تمامًا. وذلك لكي يتمكن من العودة إلى الأمور المحيرة فيها بمنظور جديد تمامًا عندما تكون ثمة حاجة إلى مساعدته مجددًا. فبدأ اليوم برعاية راحته الشخصية، فخرج يتنزه سيرًا على الأقدام في الحدائق النباتية ووصل من دون قصد إلى بركة المياه المزينة حيث يرسو قارب لو بوتى موسى بعجلات مجدافه اليدوية في انتظار الناس الذين يرغبون في الخروج في نزهة عصر يوم عطلة الأحد. وتذكّر على الفور الزورق وقبطانه، وتلميحاته الخبيثة بأن الزورق سيصبح ملكه قريبًا للغاية من دون الحاجة إلى دفع ثمن شرائه. تصلّب جسده في مكانه، وأدرك فجأة أنه لم يخبر هانو بأي شيء عن هذه المحادثة. لا ريب أن هانو كان يعرف بأمر الزورق، ولم تساوره أي شكوك عن أن الزورق قد خرج من المرفأ قبل ساعات من تحول المد، وذلك بغرض إغراق السلة التي تحتوي على جثة الضحية في وسط مجرى النهر الواسع بينما لا يزال الظلام يُغلفه. يمكن ائتمان هانو على البحث عن القبطان وابنيه. نعم، ولكن هذه المحادثة التي لم يقصها مهمة للغاية. حدثت هذه المحادثة العصر، وارتكبت الجريمة في الليلة التالية لمدة العصر هذه. وهذا يثبت، أو إن لم يثبت، فإنه يقترح، أن قتل إيفيلين ديفينيش كان مُخطأً له مسبقًا. دار السيد ريكاردو حول نفسه فجأة. فلم يكن ما يفعله يساعد في صرف هذه المسألة عن تفكيره. ثم سار خارجًا من الحدائق، وانطلق بخطى ثابتة دون هدئ، ليجد نفسه في ميدان أنيق أمام منزل قديم رائع، يقع داخل ساحة خلف جدار طويل، وكان أحد تلك المنازل التي كان يسكنها النبلاء وأصبحت السلطات البلدية تشغلها في الوقت الحالي.

سأل أحد المارة قائلًا: «هل تخبرني من فضلك، ما هذا المبنى؟»

رد عليه الرجل: «هذا قصر رئيس الأساقفة. يرجع تاريخ بنائه إلى القرن السادس عشر، ويحتوي على بعض اللوحات والمنحوتات الجميلة، وسيُرحَّب بالأغرب الذين يودون رؤيتها.»

كان هذا هو المكان المناسب لريكاردو في ذلك الصباح. سيدخل عبر ذلك الباب الضخم في الجدار الطويل. ربما يستعين بالروائع العتيقة لرؤساء أساقفة بوردو، ويقارنها بعثة العصر الحالي. كان يتخيل الممرات مزدحمةً برجال البلاط يرتدون سترات ضيقةً وقلائد ضخمة. ولو أمكنه تذكُّر بعض المشاهد التاريخية، لأعاد تمثيلها — تسليّةً لنفسه — وباختصار، كان سيحرّر عقله من هوسه بلغز سوفلاك.

كان يقترب من الباب الضخم عندما اندهش لرؤيته هانو يخرج من الساحة. وتوقف السيد ريكاردو مجددًا. ما الحدث الجلل الذي أتى بهانو إلى قصر رئيس الأساقفة؟ هل كان يطلب مباركةً خاصة لعمله؟ ولكن دحض المنطق العام والخاص على حدٍّ سواء هذا التفسير. وطُرأت على ريكاردو فكرة تتماشى مع الموقف تماشيًا أفضل. كان هانو يود قول شيء ما عن القس فاورييه. كان يتأكد من أن هذا الرجل الصموت سيؤبَّخ من قبل رئيس الأساقفة على عدم امتثاله للقانون. ورأى السيد ريكاردو أنه محق في ذلك. على أي حال، كان من الجلي أنه لن يتمكن من طرد جريمة قصر سوفلاك من ذهنه. فدار على عقبه وسار عائداً إلى الفندق. وهناك، بدأ يُضيف إلى جداوله السؤال تلو الآخر، والرابط تلو الآخر، بينما كان إلياس تومسون يزحف في أرجاء الغرفة دون صوت ملبيًا في مهارة احتياجات سيده الذي كان يراه «أبرع من يحل ألغاز الجرائم».

بحلول الخامسة مساءً، وبعد قراءة ما قالته جميع الصحف، نقلًا عن علماء الجريمة الخاصين بها، وإرهاق جميع قواه العقلية في الاستنتاجات، والاستقراءات، والمقارنات، والتخيلات، توصل إلى استنتاج. في كل القضايا التي سمع عنها من هذا النوع، لطالما كان هناك أبرياء. في الواقع، كان هناك أبرياء أكثر من المجرمين، وحتى اللحظة الأخيرة قبل أن تنقُض الشرطة، غالبًا ما كان يظهر المحرّض الرئيس بمظهر من الاحترام والالتزام القانوني لا يقل اكتمالًا عن مظهر مُشرف الكنيسة. ربما لم يكن السيد تشارلز مثالًا تاريخيًا على ذلك. ولكن الأمر الفريد المتعلق بمسألة سوفلاك هو أنه لا يبدو أن هناك شخصًا بريئًا واحدًا في المكان. فكلما تعاملت مع أي شخص عن كثب، زاد وضوحًا أن ذلك الشخص الذي تتعامل معه متورط في المسألة حتى النخاع. إن غرفة ديانا تخفي سرًا، ولكن السر ليس مخبوءًا في نسخة لوحة تينورتو. وكان سلوك القس فاورييه مثيرًا جدًّا للشبهات. وكان روبن ويبستر أكثر الأشخاص المثيرين للشبهات وضوحًا وجلاءً على

الإطلاق. لم تكن إيفيلين ديفينيش ذات طبيعة محبة مطلقاً؛ أما جويس، رغم أناقتها وجاذبيتها، ومع السرير المبعثر، كان عليها الكثير لتوضيحه قبل أن يتسنى ترسيخ الثقة بها. لطالما ظل السيد ريكاردو متشككاً بالاعتقاد بأن وريث الحملات الصليبية سيبقى وفياً للقيم والتقاليد النبيلة التي ورثها عن أسلافه. ولكن حتى هذا الاعتقاد لم يعد صالحاً. لم يكن الفيكونت كاساندر دي ميراندول ذو اليدين المرتعشتين أفضل حالاً من الباقيين. ولم يعد يساور السيد ريكاردو أدنى شك في أنه لو قضى خمس دقائق في حديث حميمي مع السيدة تاسورو العجوز لوجد أنها غارقة في الفجور هي الأخرى.

صاح بأعلى صوته وهو يُلَوِّح بذراعه في يأس: «جميع من في قصر سوفلاك فاسدون.» وفي اللحظة نفسها، فتح هانو الباب ودخل الغرفة بتلك الطريقة الاستعراضية التي يستهجنها السيد ريكاردو بشدة.

وقال وأطراف أصابع يديه تعبت بعلبة ثقاب: «الناس يطرقون الباب. ثم ينتظر المرء الإذن بالدخول...»

قال هانو بهدوء: «المرء يُقَدِّم لك رجلاً نبيلًا مهمًّا للغاية.»

دخل الغرفة رجل ضئيل ونحيل في الخمسينيات من عمره، حليق الذقن، نحيل الوجه، ذو عينين شديديتي الزرقعة. كان يرتدي بدلة صوفية داكنة بسترة ذات صفين من الأزرار، وبدا من هندامه الأغبر الأشعث ومظهره القذر أنه قد أنهى الآن رحلة طويلة. دخل الغرفة على استحياء ووجَّه التحية إلى السيد ريكاردو دون أن يبدي أيًّا من مظاهر الود. أغلق هانو الباب، ودعا ريكاردو ضيفه المجهول إلى الجلوس على مقعد وثير. ولكن هز الرجل رأسه رافضاً.

وقال بصوتٍ متحشرج أجش: «سأجلس هنا.» وأشار إلى أحد المقاعد حول الطاولة. ووضع قبعته على الطاولة.

قال هانو: «هذا هو السيد دينيس بلاكيث. ورد ذكر وفاة السيدة ديفينيش المأساوية في عدد متأخر من إحدى الصحف المسائية في لندن يوم أمس. وانطلق السيد بلاكيث على الفور وركب طائرة ليلة أمس.»

تسلَّم دينيس بلاكيث طرف الحديث وقال: «لقد خرجت من المطار وتوجهت مباشرة إلى مبنى المحافظة، ووجدت هناك ذلك الرجل المهذب المسئول عن القضية. لا أحدث الفرنسية بطلاقة، وفهمت من السيد هانو أنه على الرغم من أن إلمامه باللغة الإنجليزية أفضل من أغلب أبناء بلده، هناك بعض التعبيرات الاصطلاحية التي لا يعرفها...» صمت دينيس بلاكيث ودار بعينيَّه في الغرفة ليكتشف مصدر الذهول الذي ملأ وجه ريكاردو.

كاد السيد ريكاردو أن يقع من على مقعده مصعوقًا من الاعتراف المذهل الذي جرى على لسان صديقه. «تعبيراتك الاصطلاحية! أنا أعرفها جيدًا!» كم لاقى من معاناة بسبب هذه العبارة، ولا يزال يعاني من التحريفات الفجة للغة الإنجليزية التي تتبع هذه العبارة دائمًا! ولكن، ها هو هانو يعترف بعدم كفاءته في استخدام التعبيرات الاصطلاحية! أمر لا يُصدّق. كان أمرًا لا يُصدّق، ولكن أدرك ريكاردو فجأة الغرض منه. كان تعبيرًا عن الصداقة. هذا هو المبرر المحتمل الوحيد الذي يمكن لهانو أن يقوله عن حضور ريكاردو هذا اللقاء. كان يشرك صديقه العزيز السيد ريكاردو في أعمق أعماق هذا اللغز. وجّه ريكاردو إلى المحقق نظرة تقدير وامتنان، وواصل دينيس بلاكيت حديثه:

«قال السيد هانو إنك صديقه، وبما أنني لا أريد أن أسهب في الكلام من غير داعٍ، فقد قبلت اقتراحه الكريم بأن تكون مترجمي.»

ثم جلس على المقعد الذي أشار إليه. تحوّل ذهول السيد ريكاردو من تواضع هانو الاستثنائي إلى دينيس بلاكيت. لم تكن ثمة مشاعر في نبرة صوته أو ملامح وجهه. بدا وكأنه يتحدث عن صفقة أسهم ليست مهمة بالمرّة وليس عن قتل ابنته بوحشية. أجبر ريكاردو نفسه على الاعتقاد بأن هذا الرجل لم يبدأ رحلته الطويلة بالطائرة إلى بوردو إلا بعد ساعة أو نحوها من معرفة الخبر.

سحب هانو مقعدًا آخر إلى الطاولة، وقال: «لا أملك أدنى فكرة عما قد يخبرنا السيد بلاكيت به. ولكنني أعدّه الآن بأنه فيما عدا ثلاثتنا والسيد تيدون، قاضي التحقيقات؛ لن يعرف أحد أي شيء باستثناء ما يتطلّب تحقيق العدالة. حسنًا!» ثم التفت نحو دينيس بلاكيت الذي بدأ حديثه على الفور، قائلاً:

«أعتقد أنك سمعت من الآنسة تاسبورو ما تعرفه عن القطيعة التي وقعت بيني وبين ابنتي. ولكن لا أحد في العالم، فيما عداي وابنتي، يعرف الحقيقة الكاملة. لم أهتم قط، ولا أفعل الآن، بالدفاع عن نفسي ضد أي اتهام بالقسوة، ولم تتفوّه هي ببنت شفة مراعاة لمصالحها الخاصة. سأكسر هذا الصمت الطويل لكي يُقدّم قاتلها إلى العدالة ويُعَدّم» على الرغم من عدم تسلل أي مشاعر إلى نبرة صوته الأبحش، فإن حُمْرة خفيفة زحفت على وجهه الأبيض، وزُمت شفاته «وأعلم أن ما أنا بصدد إخباركما به قد يساعدكما.»

صمت لبضع لحظات لكي يُرتّب كلماته. جرّ السيد ريكاردو مقعده قريبًا من الطاولة، وكانت حواسه المستمتعة تلذّذ باللحظة وتسعد بهذا التأخير لتطول أكثر. جلس هانو دون حراك وكأنه صنم وعيناه مثبتتان على وجه دينيس بلاكيت.

قال دينيس بلاكيث: «منذ يوم ميلاد ابنتي — ومن الملاحظ أنه لم ينطق اسمها قط — بدأتُ بجمع اللالكى حتى أصنع لها عقدًا منها يستحق أن أهديه لها في عيد مولدها الحادي والعشرين. وعانيت معاناةً شديدة في اختيارها. كنت أشتري أربع أو خمس لالكى كل عام، وعندما أقيمت حفل عيد الميلاد هذا في مورفين، على لسان مول البحري، كنت أحتفظ في المنزل بذلك العقد القيم لأهديه لها، وكان مُكوَّنًا من ١٢٠ لؤلؤة كبيرة، وكانت متدرجةً في الحجم بدقة، وكانت بمواصفات نقاء ولمعان لا تضاهيها حتى كنوز العائلات الملكية العظيمة. لم أخفِ عنها ما أنوي فعله حتى ذلك الحين إذ كانت أختي تشعر بشيء من القلق. وقد علمت بالأمر. علمت أنني أنوي منحها العقد في صباح يوم ميلادها. ولكن في الليلة السابقة ليوم مولدها» ثم صمت ليُبَلِّ شفتيه بطرف لسانه «سرقته. عندما أبحرت وعشيقها على طول اللسان البحري وعبرا بحيرة لينه ووصلا إلى أوبان، كانت قد أخذت هذا العقد معها.»

نظر دينيس بلاكيث إلى يديه اللتين كانتا مستندتين إلى الطاولة أمامه ومضمومتين معًا في استرخاء، وعندما تتبّع السيد ريكاردو مسار نظراته، سنحت له الفرصة، وللمرة الثانية، أن يلحظ مدى خيانة الأيدي لأصحابها. لم تكن ثمة اختلاجة في صوت بلاكيث، أو ظهور تعبير على وجهه، قد يدلان على أي شيء سوى أنه يُقدِّم عرضًا مغريًا لاثنتين من زملائه في العمل. ولكن خاتنه يداه. فقد كانتا ترتعشان ارتعاشًا خفيفة.

ثم تابع حديثه قائلاً: «لم أخبر أحدًا بذلك. ولكني تحدثت سرًّا مع تجار هاتون جاردن والصاغة. إن اللالكى القيمة معروفة. لا يمكن أن تتهرب اللؤلؤة الجيدة من تاريخها ولونها ووزنها مثلما لا يمكن أن يتهرب أي ممن يلاحقهم السيد هانو من بصمات أصابعه وتهمه السابقة. كنت واثقًا تمام الثقة بأن هذا العقد سيصل إلى الأسواق إن عاجلاً أو آجلاً، بل عاجلاً وليس آجلاً، ولم أكن أريد أن يرتديه أحد آخر. إنه يساوي ٢١ عامًا من عمري. ولكن لا تسيئًا فهمي من فضلكما!» ورفع عينيه من على يديه إلى وجهي الرجلين اللذين جلسا يُصغيان إليه.

كانا جالسين حذرين من إحداث أي حركة أو تغيير سلوكهما حتى لا يقطعاً تلك القصة الغريبة. كانا جالسين وكأن على رأسيهما الطير بفضل ذلك الكشف الهادئ السلس الذي يجري على لسان رجل لم يُعرِّ نفسه أمام أحد من قبل. فلم يُجبه أي منهما.

قال دينيس بلاكيث مُوضِّحًا: «لا. لم تُحرِّكني أي مشاعر. بالنسبة إليّ كان العقد دليلًا على حماقة كبيرة ارتكبتها. وكان لا يزال موجودًا؛ هناك في مكان ما من العالم.

لم أكن مرتاحًا. وكنت أريد استعادته. كنت أريد أن أغرقه في مضيق مول البحري. كنت أراه وكأنه خطاب مليء بالتنازلات كتبته رجل ذات مرة ويعرف أنه لا يزال موجودًا، وهو على استعداد لدفع المال مقابل استعادته. كانت الرسالة التي نشرتها بين التجار أنني سأدفع مقابل العقد إذا ما أحضروه لي كاملاً؛ ١٢٠ لؤلؤة بالتمام والكمال. كانت لؤلؤة واحدة ناقصة تعني أن جزءًا من خطاب تنازلاتي قد قطعه شخص ما واحتفظ به. منذ أسبوعين، عُرض العقد على تاجر مجوهرات كبير في هذه البلدة. وعُرض عليه مقابل مبلغ أقل بكثير من قيمته الحقيقية. ولسبب ما، ربما كان عرضه بهذا السعر الزهيد، شعر التاجر بشيء من التردد. ولكنه عُرض عليه مجددًا منذ ١١ يومًا. كان يعرف جيدًا ماهيته. وكان يدرك أنه سيحقق ربحًا جيدًا إذا ما اشتراه. واشتراه حقًا هذه المرة. وعلمت بعد يومين من شرائه أنه أصبح في حوزته. أرسلت له برقية مفادها أن يحتفظ بالعقد حتى نهاية الشهر عندما يتوفر لي الوقت لأن أذهب إليه بنفسني، وأطمئن أنه خطاب تنازلاتي حقًا، وأخذه معي وأعود أدراجي. ولكن هذه» وتغيّرت قسّامات وجه الرجل الحديدي لجزء من الثانية «جريمة القتل الوحشية هذه ربما وقعت قبل إتمام البيع. إذا كانت الحال على هذا المنوال، فربما يصبح تاجر المجوهرات مفيدًا لك.»

سأله هانو: «ما اسم تاجر المجوهرات يا سيدي؟»
«دومينيك بوشيت، شارع أليه دو تورني.»

قال هانو: «سأرسل في طلبه على الفور وفي طلب العقد.»
نهض دينيس بلاكيت من على مقعده، وقال: «لقد استغرقت رحلتي نحو ٢٤ ساعة بدون توقف. لا أريد شيئاً سوى الاستحمام وتناول الطعام وتغيير ملابسني. إنها السادسة الآن. قد يأتي تاجر المجوهرات في السابعة، ويجدر بي أن أُجهّز نفسي للقائه.»
بدا هانو منزعجًا، وأكّد دينيس بلاكيت على هذه النقطة بابتسامة، وقال: «لقد خارت قواي يا سيد هانو. ومن الضروري أن أرتاح لساعة.»
كان واضحًا أنه بعد أن حكا قصته، بلغ منه الإرهاق مبلغه. فسار بخطى متثاقلة نحو الباب. فقفز هانو ورنّ الجرس.

وسأل النادل: «هل حملت حقيبة ملابس السيد إلى غرفته؟ نعم؟» ثم التفت نحو دينيس بلاكيت، وقال: «سنلتقي بعد ساعة إذن، وحتى نلتقي، أرجو أن تتأكّد من أنك نلت امتناني واحترامي.»

قال بلاكيت: «لا عليك.» ومضى مُترنّحًا وهو يخرج من الغرفة.

الفصل السابع عشر

كيف يدفع تاجر المجوهرات ضرائبه

وقف دومينيك بوشيت — وهو رجل ضخم الجثة، رسمي في مظهره، وذو لحية بنية مربعة، ويرتدي سترَةً طويلة عتيقة الطراز مصنوعةً من الجوخ — عند عتبة الباب وانحنى، وأخذ من مورو حقيبة أوراق سوداء صغيرةً ووضعها على الطاولة. وتلقَّى مورو بعد ذلك إيماءةً من هانو خرج على إثرها من الغرفة وأغلق بابها. أخرج دومينيك بوشيت مفتاحًا صغيرًا من جيب صدريته، وفتح الحقيبة وأخرج منها علبة مجوهرات. ثم نقل بصره بين هانو، وريكاردو، ودينيس بلاكيت، ثم سلَّم العلبة دون تردُّد إلى الأخير. كانت العلبة بالية، وكان الجلد الذي يكسوها مقطوعًا في عدة أماكن، وظل بلاكيت يقلب العلبة بين يديه لبضع لحظات، وبدأ خائفًا من فتحها. ثم فتح العلبة بحركة سريعة عنيفة، وأخرج العقد منها، وترك اللآلئ الناعمة الملساء تنساب بين أصابعه. كانت ثمة ابتسامة مرتسمة على شفتيه، ولكنها ابتسامة مريرة. كان يمسك بين يديه ٢١ عامًا من عمره. كانت كل حبة من حبات اللؤلؤ جائزة صفقة ناجحة تَمَّت بعد عملٍ مضنٍ، وجميعها كانت من أجل ابنته الحبيبة.

قال بلاكيت: «نعم، هذا هو العقد. هذا هو المشبك الماسي الذي يحمل أول حرف من اسمها «إ.»». ثم ألقاه على الطاولة وهو ينظر له كما لو كان أفعى ملوثة ذات لسان مشقوق تستعد للانقضاض عليه.

قال هانو: «حسنًا! أصبحنا واثقين بالأمر الأول. هذا العقد يخص السيدة ديفينيش. والآن بالنسبة إليك يا سيد بوشيت. كنت مُترددًا في شراء العقد رغم أن سعره أقل بكثير من قيمته الحقيقية. ما السبب؟»

ردَّ عليه التاجر بحذر: «لقد عرضه عليَّ شخص لا أثق به تمام الثقة.»
«رجل أم امرأة؟»

«امرأة»

«امرأة شابة؟»

«لا»

كانت الإجابة، التي خرجت من فمه بعد تردد، مفاجئة لكل الجالسين حول الطاولة، ولكنها كانت مفاجئة مفاجأة خاصة للسيد ريكاردو. كان يُمعن التفكير في التواريخ التي ذكرها بلاكيت. كان اليوم عندما رأى إيفيلين ديفينيش في كهف المومياوات يتوافق معها تمامًا. لم يكن يساوره أدنى شك، حتى هذه اللحظة، في أن إيفيلين ديفينيش نفسها هي من باعت عقد اللؤلؤ إلى بوشيت، وأنها سافرت إلى بوردو خصوصًا في ذلك اليوم من أجل بيعه.

صاح هانو بنبرة غاضبة: «إنها امرأة عجوز إذن. أخبرني عنها من فضلك. من تكون وما سبب عدم ثقتك بها».

قال تاجر المجوهرات معترضًا وهو يضغط بأناقة على أطراف أصابع إحدى يديه بأطراف أصابع يده الأخرى: «مهلاً. يتضمن عملي الكثير من العلاقات السرية ولن يزدهر إذا لم تُراعَ السرية. أنا في موقف عصيب. إن العلاقة بيني وبين عملائي يجب أن تكون مماثلة للعلاقة بين الطبيب ومرضاه».

قال هانو الذي بدأ صبره ينفد: «أخشى أن القانون لا يعترف بهذه العلاقة. وستتكرّم بإخباري بكل شيء تعرفه عن هذه المرأة».

بدا بوشيت وكأنه يولي اهتمامًا خاصًا بهذه العبارة وهو يقول: «كل ما أعرفه؟! في الحقيقة أنا لا أعرف شيئًا عنها».

«كل ما لديك مجرد شكوك إذن».

بدأ دومينيك بوشيت يتلفّح حوله. ثم داعب لحيته بيده برفق، وقال: «إن الشكوك قد تؤدي بالرجل إلى مواقف سيئة للغاية. إنني أستمحك عذرًا».

انحنى هانو فوق الطاولة فجأة، وقال: «وأنا أرجوك ألا تضعي وقتي. ما الأمر؟ لقد ارتكبت جريمة وما يُعطّلنا تردّد تاجر مجوهرات!»

جفل بوشيت وصاح: «جريمة؟»

«حسنًا! لا بد أنك قرأت عنها في الجريدة الصباحية. ولا بد أنك سمعتني أذكر اسم

مالكة هذا العقد منذ دقيقة؛ السيدة ديفينيش».

تلعثم تاجر المجوهرات بوشيت وهو يقول: «معذرةً يا سيدي؛ أنا لم أربط بين الاسم والجريمة التي وقعت في سوفلاك».

«آه! آه! آه! هل تحاول أن تتذاكي عليّ أنت أيضًا؟ كفانا من التردد يا صديقي. هيا قُل، من المرأة؟»

وبالطبع، رفض بوشيت أن يخبر أحدًا باسمها سوى القاضي، وأشارت تهديدات هانو إلى أحد الحاضرين في الغرفة أنه يدرك مدى ضعف موقفه. ولكن بما أن دومينيك بوشيت سيُصبح متورطًا في القضية لا محالة، فقد كان فطنًا بما يكفي ليدرك أن موقفه سيصبح أقل ضعفًا إذا ما أخذ جانب الشرطة عن طيب خاطر.

فقال: «الأرملة تشيشول من أحضرت العقد لي.»

كرّر هانو الاسم ببطء كما لو كان يبحث في ذكرياته: «الأرملة تشيشول.» ثم هز رأسه، وقال: «لا أعرفها.»

استطرد بوشيت حديثه: «صحيح أنها لم تتعرض لأي اتهامات في السابق، على حد معرفتي. ولكن هذا لا يعني أنها تتمتع بسمعة حسنة. وأؤكد لك بكل صراحة يا سيد هانو أن سمعة الأرملة تشيشول سيئة. إنها من المواطنين السيئين في هذه البلدة. إنك لن تسمع اسمها إلا في أقذر مستنقعات عالم الجريمة.»

«ولكنك تعرفها رغم كل هذا يا سيد بوشيت.»

رد بوشيت: «سأشرح لك الأمر.» ومد ذراعيه في حماسة نحو هانو لدرجة أن أكمام معطفه انحسرت إلى الخلف، وظهرت أساور قميصه. ثم قال: «لا شيء مريب. مهلاً لحظة! لقد جاءت لي مرة أو مرتين سرًا وكان معها دائمًا شيء قيم لتبيعه. أنا لا أعرف شيئًا عنها. وبعدما فحصت الشيء الذي تريد بيعه، قلت لها: «لا أعرف إن كنت سأتمكن من بيعه أم لا. خذيه وارحلي وعودي بعد ثلاثة أيام.» وكما تعرف يا سيد هانو، نحصل من الشرطة من وقتٍ لآخر على قوائم بالمجوهرات المسروقة أو المفقودة. ولطالما كنت أفحص هذه القوائم بعناية فائقة. ولكني لم أعثر على أي وصف يتوافق مع القطع التي عرضتها عليّ الأرملة تشيشول. ورغم ذلك، كنت لا أزال مترددًا. وجعلت شغلي الشاغل أن أعرف من تكون الأرملة تشيشول. نعم — أصدقكم القول — سمعتها سيئة للغاية. وسمعة منزلها سيئة وشريرة. لا، إنها ليست حسنة السمعة. وعندما عادت مجددًا بعد ثلاثة أيام، سألتها صراحةً عن كيفية حصولها على هذه الأشياء القيمة للغاية. وفَسَّرت لي الأمر. ثمة سيدات نبيلات يرغبن من وقت لآخر في بيع بعض من مجوهراتهن دون أن يعرف أحد. وتحصل هي على عمولة صغيرة مقابل تلبية رغباتهن. وكان هذا التفسير واقعياً تمامًا. هؤلاء النساء النبيلات لهن شئون خاصة. وأنا من جانبي لدي تجارتي.»



ماطل السيد بوشيت في حذر: «لا أعرف إن كنت سأتمكن من بيع هذا العِقد أم لا. عودي بعد ثلاثة أيام.»

ابتسم السيد دومينيك بوشيت. وكان السلوك الذي اتبعه على قدر كبير من الصراحة والأمانة. كان تاجرًا أمينًا يعمل وفقًا للقانون، ويتحمل حصته من عبء الضرائب القومية الكبير عن طريق المواظبة على إتمام صفقات تجارية ناجحة.

قال بوشيت: «لذا وضعت شكوكي الضعيفة تلك في جيبي ومعها تلك المجوهرات القيمة. ولكن حدث أمر ما. ربما اعتقدت أن تعليمات الشرطة في نهاية الخطاب مبالغ فيها. لا أعرف. ربما كان يجدر بي أن أضع لها معنى أشمل. يجدر بك أن تخبرني أين أخطأت.» قالها مُوجَّهًا ابتسامة عريضة نحو وجه هانو الجامد. كان تاجرًا يقظ الضمير يتوق لأن تُصحح له أخطاؤه إن كان قد فسّر فحوى توصيات السلطات بطريقة حرفية بإفراط.

قال هانو بجفاف: «سأخبرك.»

قال بوشيت بامتنان: «سيكون هذا كرمًا منك. حسنًا، أحضرت الأرملة تشيشول لي خاتمًا مرصعًا بزمردة كبيرة جميلة للغاية، من بين أحجار أخرى لامعة غير ذات قيمة تُذكر. كنت أرى أن هذه الزمردة خالية من العيوب تمامًا، وعليكم أن تعرفوا أيها السادة أنه من الصعب للغاية العثور على زمردة خالية من العيوب. كانت زمردة ذات لون أخضر داكن نقي، وكان في داخلها لون ممتزج به وكأن شعلةً تحترق في داخلها. كان حجرًا يخص أميرًا هنديًا. كان، على ما أعتقد، هديةً من أمير هندي.»

وفجأة، قفز هانو من مقعده واقفًا بعد أن ظلَّ جالسًا دون حراك وكأنه مومياء مسندًا يديه على ذراعي مقعده، وأخذ يُحدِّق في وجه تاجر المجوهرات.

وقال بصوت مختنق: «هدية إلى جين كوريسو؟»

«أظن ذلك. أعتقد أن هذه الشابة كانت موجودةً في بوردو في أوائل فصل الصيف.» كانت جين كوريسو واحدةً من تلك النجمات الشقراوات اللاتي يتألَّقن طوال موسم كامل في سماء منتصف الليل. ربما تمكَّنتُ من رؤية إحداهن في بوردو إن كنت محظوظًا، ولكن من المؤكَّد أنك تستطيع رؤيتهن في أبهى صورهن من دوفيل عبر باريس إلى مونت كارلو. إذا ما كنت في واحدة من أماكن الرؤية الشهيرة تلك، فسوف تراهن وهن يرتبطن بتابعين جدد بينما يتمايلن وينطلقن ويثرن الشغب ويُحدِثن قدرًا كبيرًا من الاضطرابات بين النجوم الرزينة. وفي نهاية المطاف، يصطدمن بالقمر الذي لطالما كن يردن الاصطدام به، أو الأرض أو المريخ، ويدرن حول أنفسهن إلى أعماق الظلام، ويدخلن إلى أحد متاجر الرهونات حاملات أجزاءً من شعلاتهن لبيعها. انفصلت جين كوريسو عن أميرها الشرقي منذ نحو ستة أشهر. واختفت من على وجه البسيطة إلى ركن مظلم من العالم لا يعلمه أحد، ولم يهتم به أحد. فهناك نجوم لامعة أخرى تنبض بحيوية الشباب تحاول جذب الأنظار بانحناءاتهن ورقصاتهن. كانت جين كوريسو «واحدةً من تلك النساء»، مراعاةً للأدب، ولكن ولَّت أيامها.

الأمر الذي كان يعرفه السيد ريكاردو جيدًا؛ فقد كان خبيرًا بأمور الحياة. كان يعرف أنه من الطبيعي أن تبدأ ببيع قطع من مجوهراتها هنا وهناك. ما لم يفهمه ريكاردو هو السبب الذي جعل هانو يهتم بهذا الأمر الذي يحدث بصورة يومية. وها هو ذا زاهل بسبب كشف مفاجئ، ويبدو مريعًا، نعم، ويبدو خائفًا أيضًا. عاد هانو يجلس على مقعده مجددًا ببطء.

وقال: «ماذا بعد؟»

واصل بوشيت حديثه قائلاً: «حسنًا. أنا لم آخذ هذه الزمردة. لم أعرض سعرًا لها. لا. وقلت للأرملة تشيشول: «أحضريها لي بعد ثلاثة أيام.» لم أكن أعرف أن هذا الخاتم موجود في قائمة الأشياء المفقودة. ولكنه كان كذلك. نعم يا سيد هانو، لقد أخرجت القائمة من خزنتي بمجرد أن خرجت الأرملة، ووجدته في القائمة.»

قال هانو: «ولكنك لم تبلغ الشرطة.»

«آه!»

قرَّب دومينيك بوشيت مقعده من مقعد هانو قليلًا. والتفت نحوه وهو يبتسم بثقة وبراعة.

وقال: «ها أنا ذا أرحب بنصائحك. إنني أقرأ رسائل الشرطة بعناية شديدة. وهي واضحة تمامًا. يجب إخطار مخفر الشرطة فور أن تُصبح أي من هذه القطع في حوزتي. هذا نص الكلمات. ولكن هذا الخاتم لم يدخل في حوزتي. ولم يحدث ذلك قط. فقد رفضت شراؤه بعد ثلاثة أيام. ربما كان يجدر بي أن أضفي معنى أكثر شمولًا على هذه العبارة. لا أعرف. لقد قلت لنفسني مبررًا: «إن الشرطة تعرف ما تريد. ومن أكون أنا لأعرف أكثر منهم؟» والآن عليك أن تخبرني إذا كنت مصيبًا أم مخطئًا.» واضطجع بوشيت في جلسته ولا يزال يبدو بريئًا ومبتسمًا.

ولكن نحى هانو السؤال جانبًا. وطرح سؤالاً آخر بدلاً منه: «متى عرضت عليك تلك المرأة المدعوة تشيشول الخاتم؟»

«أمهلني لحظة!»

أخرج بوشيت مفكرة صغيرة من جيب صدريته وطلعها، ثم قال: «كان هذا في الثاني من يونيو. يمكنني أن أؤكد التاريخ. فقد كنت مدعوًا إلى مأدبة غداء مهمة مع شركائي في «شابون فين». وصلت الأرملة تشيشول في العاشرة من تلك الليلة.»

رفع هانو حاجبيه، وقال: «إنها ساعة متأخرة لتبقى في مكتبك يا سيد بوشيت.»

ظهرت لمحة خاطفة من عدم الارتياح على وجه دومينيك بوشيت، ثم قال: «لقد جاءت إلى شقتي وليس إلى مكتبي.»

كان هذا الاعتراف كافيًا بالنسبة إلى هانو. وتقبله. ربما ألقى بشبهة مقبلة على العلاقة بين الأرملة تشيشول ودومينيك بوشيت تاجر المجوهرات. لقد أحضرت الأرملة تشيشول بضاعتها تحت ستار الليل؛ نعم! وصمت دومينيك عندما عُرضت عليه البضاعة التي كان يدرك أن شراؤها يُعد تهورًا؛ نعم! يجب التفكير في هذه المسائل غير المهمة في

وقتٍ لاحق. أما الآن، فثمة حاجة مُلحة للاهتمام بجويس ويبل التي يجب العثور عليها مخبوءة في مكان ما تحت كل هذه الفوضى من الجريمة والخداع. «ومن ثم، رفضت شراء زمردة جين كوريسو يا سيد بوشيت. نعم، أعرف ذلك. وأصبحت حذرًا للغاية، منذ تلك اللحظة فصاعدًا، عند التعامل مع الأرملة تشيشول. ولكنك اشتريت عقد إيفيلين ديفينيش.»

«نعم!» انتهى السيد بوشيت من تبريراته بزفرة راحة تشبه كما لو كان سباحًا انتهى من الغوص في مياه عميقة، ثم قال: «لم تكن الشرطة مهتمةً بهذا العقد. وتأكدت من ذلك. ولم يرد على أي قائمة. ولكني كنت أعرف أن السيد دينيس بلاكيت سيدفع بسخاء مقابل الحصول عليه. فاشتريته.» ثم هبَّ من مقعده، وقال: «وأرجو أن يُشرفني السيد دينيس بلاكيت غدًا لتحديد السعر المناسب.»

أخذ العقد من على الطاولة من أمام دينيس بلاكيت، وتأرجح العقد في يده ولع ثم اختفى داخل علبته، كما لو كان ثعبانًا يختفي بين الشجيرات، وكان على وشك أن يعيد العلبة إلى داخل الحقيبة عندما مد هانو يده.

«سأصادر هذا العقد. وسأعطيك إيصالًا مقابله. وثمة شهود حاضرون سيشهدون أنني أخذته.»

ثم خط بعض الكلمات سريعًا على ورقة على طاولة الكتابة، ووقعها باسمه وأعطى الورقة إلى بوشيت.

ثم قال: «والآن، أريد منك أن تخبرني بعنوان الأرملة تشيشول.» أطرق السيد بوشيت مفكرًا. ولم يكن ثمة أدنى شك لدى أي من الحاضرين في أنه يُفكّر. هل سيكون من الحكمة أن ينكر معرفته بعنوان تلك المرأة العجوز؟ هل يمكنه أن يقول: «لقد كنت أراعي جيدًا باعتباري تاجرًا أن أبدي اهتمامًا ضئيلًا للغاية بوضعها ومحيطها.» ويُقنع الحاضرين بهذا الدفع؟ بوجه عام؛ لا، بالطبع لا!

فردَّ وهو يهز كتفيه: «هذه المرأة لا تسكن أيًا من شوارعنا الراقية.» قال هانو: «أنا واثق بذلك.»

«إنها تسكن شارع جريجوار.»

سأله هانو وهو يُدوّن الاسم: «وأين شارع جريجوار؟»

قال دومينيك بوشيت وهو يُشير إلى النافذة المطلة على كور دو لينتندانس: «إنه هناك. ناحية الشرق من هنا. إنه يوجد ضمن أبرشية سان ميشيل. إنه يبدأ عند ميدان صغير في هذه الأبرشية، وهو شارع طويل وضيق ومظلم يمتد حتى أرصفة الميناء.»

لم يتمكن السيد ريكاردو من كبح جماح نفسه أكثر من ذلك. أبرشية سان ميشيل؟ حسنًا إذن! إن شارع جريجوار قريب من كهف المومياوات. فصاح مخاطبًا بوشيت: «هل اشتريت العقد يوم الإثنين من الأسبوع الماضي؟ اليوم الجمعة. هل اشتريت هذا العقد منذ ١١ يومًا؟»
رد دومينيك بوشيت:

«أمهلني لحظة!» وطالع مفكرته مرةً أخرى. في خضم انفعاله، بدا للسيد ريكاردو مشهد الكتاب الصغير بين الأصابع العريضة للصائغ متناقضًا وسخيفًا.
رد دومينيك وهو يرمق المشارك الجديد في الحوار في ترقب ويحاول تخمين السبب في أن هذا التاريخ يجعله يفعل هكذا: «لقد كتبت ملحوظة؛ نعم. رأيته للمرة الأولى يوم جمعة. واشتريته يوم الإثنين؛ منذ ١١ يومًا.» ولكن لم يرفع السيد ريكاردو عينيه عن وجه هانو. لقد ظهرت حلقة أخرى من السلسلة أمام ناظره.
وصاح: «هل تذكر؟ لقد رأيت إيفيلين ديفينيش عند برج سان ميشيل في عصر ذلك اليوم. لقد سلّمت عقدها إلى الأرملة تشيشول في شارع جريجوار. وكانت في طريق عودتها ...»

قاطع هانو بإيماءة من رأسه، وقال مُكرّرًا: «كانت في طريق عودتها، فقد دُفع ثمنه، أليس كذلك؟ ثم زارت كهف المومياوات. ثم أطلقت هذه التنهيدة العميقة توفًا لأن تعود الأيام حينما كان الناس يُعاقبون بمثل هذه القسوة ... أليس كذلك؟ هل هذا ما حدث حقيقةً في نهاية المطاف؟» ... ونظر عبر الطاولة وعينه تنقدان غضبًا وسط جمجمته الضخمة، ووجهه شاحب من الخوف. وقال: «هل دُفع مقابل عودة هذه الأيام مجددًا؟ ... ولكن ... نعم، ولكن حينئذٍ ...!»

تمكّن السيد ريكاردو من استكمال الجملة المبتورة. ولكن حينئذٍ ... كانت إيفيلين ديفينيش هي من هلكت. هل دبّرت عقاب جويس ويبل ودفعت مقابله؟ هل كانت تلك النظرات الحقود في غرفة استقبال سوفلاك تعني أن التنفيذ وشيك ... ولكن حينئذٍ ... كانت إيفيلين ديفينيش ذات اليد المقطوعة هي الضحية؛ ضحية انتقام سادي.
كان دومينيك بوشيت طوال تلك المدة يداعب لحيته البنية بعصبية، ويحدّق من وقت لآخر في رفاقه الجالسين حول الطاولة. كانت ثمة أسئلة مطروحة في تلك اللحظة تمنى من أعماق قلبه ألا تكون له أي علاقة بها. فنهض واقفًا.

وقال: «هل يمكنني أن أنصرف الآن؟ هناك عمل ينتظرني. ويجب أن أغلق مكتبي.»

نظر هانو نحوه بود أكبر ممّا توقعه ريكاردو. كما كان هناك شبح ابتسامة على شفّتيه.

قال: «نعم. في نهاية المطاف، أنت لم تُصعّب الأمور علي. ربما عارضتني وقلت إنك لن تفصح عن شيء إلا أمام قاضي التحقيق وفي حضور مستشارك القانوني. سأضع ذلك في الاعتبار لصالحك. وبالطبع، كان يجدر بك أن تبلغ الشرطة بمجرد أن عُرض حجر الزمرد القيم عليك. ولكن، نعم، الحياة صعبة والضرائب باهظة. هيا، اذهب!»
لم يكن تلميذ يغادر صفه عند انتهاء الدوام ليختفي بهذه السرعة التي أظهرها دومينيك بوشيت.

قال هانو مبتسمًا: «يا للمسكين! لقد صدمناه! إنه سيتبع التعليمات حرفيًا بعد ذلك. لنعد الآن إلى عملنا.» ثم رفع صوته ليصيح: «مورو!»
وعلى الفور، ظهر مورو — الذي كان يقف حارسًا خارج الباب — داخل الغرفة وكأنه جني من إحدى الحكايات العربية.

قال هانو وهو يُدوّن شيئًا على الورق بسرعة: «الأرملة تشيشول تسكن شارع جريجوار. هل معك جندي؟ نعم. سترسله بالخطوة السريعة إلى السيد المحافظ ليوصل هذه الرسالة. يجب مراقبة منزل الأرملة تشيشول بحذر ودون لفت الأنظار من الآن فصاعدًا؛ ضع رجلًا عند نهاية الشارع عند رصيف الميناء، ورجلًا آخر في الميدان الصغير عند بداية الشارع، وثالثًا عند المنزل نفسه. ثم نصب رجلًا كُفؤًا كي يشرف عليهم. يجب ألا يُقدم أي منهم على أي تصرف، إلا عند الضرورة. ولكن يجب إخباري على الفور إذا ما دخل المنزل أي زوار.»

أغلق مظروف الرسالة وأعطاهما إلى مورو. ثم التفت نحو دينيس بلاكيت.
وقال: «جزيل الشكر لك يا سيدي. سنفعل ما يمكننا فعله. وخلال ذلك، هل ستظل في بوردو؟»

قال دينيس بلاكيت: «نعم، سأظل هنا.»
«حسنًا! وأنت يا سيد ريكاردو، أرجو منك أن تقبل دعوتي لك على العشاء الآن في فندقي المتواضع. إنه ليس أنيقًا مثل هذا الفندق، ولكنهم يقدمون طعامًا جيدًا، وعندما يكون هناك عمل كثير على المرء أن يؤديه، فمن الحكمة أن يأكل جيدًا قبل أن يبدأ.»
كانت ثمة نبرة حماسة في صوته، وحملت عيناه تلك النظرة اللامعة الغريبة والقاتية التي تلوح في أعين كلاب الصيد عندما ترى بندقية. كان يبدو مثلما رآه ريكاردو ٢٠ مرة

سابقة عندما تبدأ أجزاء اللغز تتضح ولا يحتاج الأمر إلا إلى عين مدققة لترى الصورة الكاملة. الأمر باختصار أن هانو كان في تلك الحال المزاجية التي تتطلب من أي من أصدقائه المخلصين أن يُقَوِّمَهُ، ولم يكن السيد ريكاردو ليتهرَّب من هذه المهمة. فقال: «هناك أمر علينا فعله قبل أن نذهب إلى العشاء يا صديقي. أنا لا أتهمك بالإهمال. لا، هناك الكثير من التفاصيل لتفكر فيها. ومن المحتم أن تُهمل بعض الإجراءات الاحترازية المهمة من وقتٍ لآخر.»

تغيَّرت تعبيرات وجه هانو، واختفت الثقة من أسلوبه، وتهدَّج صوته من فرط القلق، وصاح في يأس: «هل هناك إجراء احترازي أهملته؟» بدا وكأنه سيقنطع شعره من جذوره. وقال: «أخبرني أنا تابعك الذليل.»

ابتسم السيد ريكاردو في سماحة.

وقال: «لا حاجة إلى أي أفعال بطولية. يمكن تدارك هذا النسيان الليلة. يمكن لأي إنسان أن ينسى. أتحدث بالطبع عن قبطان الزورق وطاقمه الذين غادروا المرفأ الصغير في سوفلاك في عكس اتجاه المد قبل ساعاتٍ من موعد الانطلاق المحدد.»

حلت خيبة الأمل محل الرغبة الصادقة في تصحيح الخطأ على وجه هانو. وهز رأسه مؤنبًا. وتحدث بنبرة ملؤها الإحباط. وقال: «صديقي العزيز، هل كنت تقصد موضوع الزورق فحسب؟ ولكن بالطبع ... بالطبع ... إن قبطان الزورق وابنيه محبوسون في زنازين منفصلة منذ وصولهم إلى بوردو ليلة أمس. إنهم لن يتمكنوا من الإبحار بقارب لو بوتتي موس في حديقة البلدية عصر الأحد. هل ستأتي معي؟»

بدا الخجل الشديد على وجه السيد ريكاردو الذي تواضعت نبرة صوته.

وقال: «نعم، أمهلني لحظة» كان قد تأثر بعبارة دومينيك بوشيت المفضلة «أمهلني

لحظةً لأغسل يدي.»

رد هانو: «بل لحظتين، وعليك أن تستدعي سيارتك. أنا رجل متفطرس. نعم. أفضل ركوب سيارة رولز رويس. كما أنها تتحرك بسرعة من دون أن تشعر بأنها تتحرك بسرعة وسنتحرك بسرعة إلى مكان بعيد الليلة!»

كان ثمة حماس في صوت هانو، ولمعان في عينيه بددا على الفور استياء السيد ريكاردو. كان شديد الحساسية فيما يتعلَّق بموضوع الزورق. وشعر بالإهانة أن هانو تذكر أن يقبض على طاقمه. كان الزورق هو إسهامه في كشف غموض القضية، وشعر بالاستياء من أن الإسهام قدَّمه شخص آخر. ولكن من الواضح أن هانو كان في حالة

كيف يدفع تاجر المجوهرات ضرائبه



تلقَى القبطان عقابًا قاسيًا في بوردو!

ترقب. كان بصدد قلب الطاولة على الجميع. لقد حدّد أعداءه. كان يُفترض أن يكون سريعًا ورهيبيًا.

صاح ريكاردو متحمسًا: «على الفور». وعدا نحو الباب واستدعى سيارته وعاد عدوًا أيضًا. وقال: «الرولز رويس جاهزة. يمكنك أن تُوجّه الأوامر لسائقي. ستكون السيارة تحت تصرفك. سنتحرك بسرعة إلى مكان بعيد الليلة!»

رد هانو: «ولكن ليس على الفور يا صديقي. في خلال ساعة ونصف الساعة في فندق العصفور الذهبي. وحتى عندما يحين ذلك الموعد، سيظل ينتظر قليلًا. لهذا السبب، علينا أن نتصرف بطريقة مختلفة عن دومينيك بوشيت. إننا لن نُغلق مكاتبنا الليلة.»

الفصل الثامن عشر

هانو يتناول العشاء

كان الفندق الصغير الذي يُقيم فيه هانو يقع عند حافة ساحة كينكونس الشاسعة وعلى الجهة المقابلة من النصب التذكاري الأبيض الضخم للجيرونديين. كان الطابق الأرضي منه عبارةً عن مطعم، وقد جلس هانو والسيد ريكاردو بجانب نافذة مفتوحة. وفي الخارج، كان ثمة بعض طاولات ذات أسطح رخامية ومقاعد حديدية مصفوفة على الرصيف تحت مظلة، ولكن لم يكن يجلس إلى إحداها سوى رجلين يشربان مشروباً مُقبّلاً، وكانا بعيدين عن نطاق السمع.

قال هانو بعد أن طلب وجبة عشاء: «دعونا نحذو حذوهما. نبيذ فيرموت سيكون رائعاً، على ما أعتقد. نعم، أعدك بأننا سنستمتع بطعامنا هنا.»

فتح علبة جديدة ذات لون أزرق فاتح من سجائر ماريلاند وأشعل واحدةً من أنابيب التبغ السوداء تلك في استمتاع. ربما لم يكن هانو رائعاً كما كان يعتقد مساعده مورو دائماً، والسيد ريكاردو في بعض الأحيان. ولكنه كان يمتلك خصلةً لا يمكن لأحد أن يكون عظيماً من دونها. كان قادراً على التخلص من جميع مخاوفه بمجرد أن تُتاح له مدة راحة من عمله ولو قصيرة. بمجرد أن حان وقت الراحة، أغلق كتابه، وبدأ يلهو. اضطجع في جلسته يريح ذهنه ويغسله وسط هذه النجمة الخماسية الشاسعة من الأشجار والنهر الذي صبغته أشعة الشمس باللون الأحمر. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يملك ذهنًا محترفاً. كان يجب أن يظل مشغولاً طوال الوقت، وكان النهر بما يحويه من سفن ضخمة متناثرة يُذكّره بالمناطق الريفية التي تقع خارج المدينة، ويضع أمام عينيه سلةً من الخيزران تتأرجح برفق متجهةً نحو ضفة مكسوة بالعشب.

صاح ريكاردو: «يجب أن تُخبرني إلى أين سنذهب الليلة بعد العشاء. لم أعد أحتمل عدم معرفة ما يحدث حولي.»

أفاق هانو من شرود ذهنه ببطء شديد، وكرّر بدهشة كبيرة: «أين سنذهب الليلة؟» ونظر إلى ريكاردو قلقًا، ومدّ يده وتحسّس نبضات قلبه. وقال: «أنت تسألني عن ذلك الآن بعدما بدأ كل هذا الغموض في التكشف؟ لا وجهة لنا إلا المكان واحد فقط.» قال السيد ريكاردو عابسًا وهو يبعد يده: «يمكنك أن تحتفظ بالسّر لنفسك إذا أردت، وأحب أن أحتفظ بنبضي لنفسي.»

تعجّب المحقق مستخدمًا تلك العادة المقيّنة بأن يتحدث عن نفسه بضمير الغائب: «كان هانو مخطئًا. كان يجدر بهانو أن يدرك أنه يجب أن يفخر باستضافة السيد ريكاردو. ولكنه كان بدلاً من ذلك، يتصرف مثل القط مع فأر ... هذا ليس جيدًا ... أليس كذلك!» رأى علامات الاستياء تتجمع على جبين السيد ريكاردو بسبب استخدامه لتشبيه مستفز كهذا، فسارع بالانتقال إلى موضوع آخر: «سأخبرك إلى أين سنذهب. سنذهب إلى قصر ميراندول ونقاطع الفيكونت بينما هو منكب على كتابة مقال شائق حول الطقوس الباطنية لجماعة الوردّة الصليبية، لقراءته على مسامع الشابات في بوردو. ثم سنطلب منه بكل أدب أن يرينا الغرفة العلوية التي كانت الأنوار مضاءةً فيها في ساعة متأخرة منذ ليلتين.»

تسبّب صوت هانو في فتح نافذة صغيرة داخل ذهن صديقه أكثر ممّا فعلت كلماته. ورأى مجددًا ذلك الصف الطويل من الأنوار التي تلمع عبر الأراضي الريفية النائمة. ماذا كان يحدث في تلك الغرفة الكبيرة؟ ما الطقس الغريب الذي كان يُجرى فيها؟ بدأت أجزاء صغيرة من الأحجية تتضح بالنسبة إليه أيضًا؛ سرقة رداء القس وإعادته، صمت القس الغريب والمتعمّد، وزيارة هانو هذا الصباح إلى قصر رئيس الأساقفة.

فصاح: «هل تعتقد أن ...؟» وجلس يُحدّق في وجه صديقه الذي اعتقد أنه على وشك أن يخرج بكشف رهيب.

أوماً هانو برأسه، وقال: «أيّا كان ما حدث منذ ليلتين، فقد حدث في تلك الغرفة العلوية الطويلة.»

«هل تقصد قتل إيفيلين ديفينيش؟»

«نعم.»

«لا، أنا لا أصدق ذلك!»

عبس هانو وبدت الشراسة في ملامح وجهه. ورفع يده ثم تركها تسقط جواره. وصاح في إحباط مفاجئ: «بالنسبة إلى ذلك، لا يمكنني أن أخبرك بأكثر مما يمكنك أن

تخبر به نفسك. فأنا لا أعرف أكثر من ذلك! أنا لا أفهم!» ثم جلس مثبتاً عينيه الحزینتين على مفرش الطاولة وقَسَمات وجهه تختلج. ثم بعد بضع لحظات، مال نحو الأمام وهمس: «على كلِّ منا أن يدعو الله سرًّا أن تخبرنا جويس وييل الشجاعة بكل ما نريد أن نعرفه بلسانها قبل أن يطلع الصبح.»

ثم تراجع بسرعة عندما اقترب صاحب المطعم من الطاولة حاملاً أطباقه الصغيرة المليئة بالفجل والزيتون الأسود. ثم قال: «هيا! لنأكل! لن نكون قادرين على فعل شيء ما لم نأكل.»

قالها ناصحاً بصدق. كان الطعام شهياً في مطعم «العصفور الذهبي» الصغير، على الرغم من أن النادل الوحيد كان هو نفسه صاحب المطعم مرتدياً بدلةً من الصوف، وكانت كل خطوة يخطوها تُسمع بوضوح على الألواح الخشبية العارية. أدرك السيد ريكاردو أنه لم يأكل شيئاً طوال اليوم سوى غداء خفيف في مطعم «شابون فين»، بينما بدا هانو وكأنه لم يأكل شيئاً منذ عام كامل.

قال السيد ريكاردو، وكان فمه ممتلئاً للأسف: «هذا الطبق من كركند الكاردينال لذيذ للغاية.» كان قد بدأ ينظر إلى مغامرة الليلة بنظرة أكثر إشراقاً وتفاؤلاً. وافقه هانو قائلاً: «إنه ليس سيئاً. كما أن هناك طبق البط المطهو مع السلطة سيأتي بعده.»

قال ريكاردو: «رائع.»

أحضر صاحب المطعم إلى الطاولة زجاجةً سوداء في مهد من القش، ووضعها برفق كما لو كانت طفلاً رضيعاً، وهو مربيه الحنون. فقال هانو: «كنت أعتقد أنه سيكون ملائماً تلك الليلة بالذات من بين جميع الليالي الأخرى أن نشرب زجاجةً من نبيذ ميراندول المعتق. إنه فرز ثان بلا ريب، ولكن طبقاً للكثير من الحكام، كان يجدر به أن يُصنَّف فرزاً أول. ما رأيك؟»

نعم، كان هذا دور السيد ريكاردو في الحكم. وأصبحت الكرة الآن في ملعبه. نبيذ ميدوك الأحمر! إنه لم يكن يسافر مرةً كل عام من بوردو إلى أركاشون سدًى! وضع هانو ملء ملعقة مائدة من النبيذ في كأسه أولاً ثم ملأ كأس السيد ريكاردو. ابتسم السيد ريكاردو. أخلاق طيبة، ونبيذ جيد؛ هل ثمة انسجام مُحبَّب أكثر من ذلك؟ رفع كأسه ليمر النور عبره. وكان لون النبيذ أحمر وصافياً كالياقوت. ثم أنزله أمام أنفه وشم عبقه في استمتاع. وقال: «ممتاز.» ثم بدأ يرتشف منه في تلذُّذ، وصاح وهو يشرب مُجدِّداً:

«رائع!» شعر وكأنه يسبح إلى أعلى بين سُحب وردية. وستُسَوَّى مسألة سوفلاك اليسيرة تلك سريعًا. فقال: «نبذ ليشربه صديقان وسط صمت مبهج على جانب ميدان تاريخي في فرنسا الجميلة.»

كان من المؤسف أنه يتعين عليه إنهاء جملته الأدبية تلك بابتذال مقيت مثل «فرنسا الجميلة». ولكن، كانت هذه طريقته، وتقيل هانو المجاملة بشكل شخصي كما لو كان هو فرنسا الجميلة نفسها. وكانت هذه طريقة هانو أيضًا. فقال مُعلِّقًا: «إن قبو النبيذ هنا لا بأس به.» شرب ريكاردو مجددًا. وبعد الكثير من تدوير النبيذ على لسانه، وضع الزجاجاة بقوة كادت تكسر قاعدتها.

وأعلن قائلًا: «إنه إنتاج عام ١٩٩٣»؛ وانحنى هانو في إعجاب بحاسة تذوق صديقه المرفهة. فكّر ريكاردو مُدليًا ساقيه تحت الطاولة، أنه مع وجود مُحقق فرنسا العظيم، ومعه صديقه الذي يستطيع أن يُحدّد على الفور أن النبيذ من نوع كلاريه إنتاج عام ١٩٩٣ لمساعدته، فمن الأفضل اعتبار أن جريمة سوفلاك قد حُلّت، وأن الجناة أوشكوا على الدخول في قفص الاتهام.

فقال وهو ينحني نحو الأمام بمكر ويرفع كأسه التي أعاد مَلأها: «في صحة الأرملة تشيشول.»

ردّ عليه هانو: «صدقت. في صحة الأرملة تشيشول!»

ولكن لم تجعله العبارة يشعر بأي بهجة. بل أعادته إلى المزاج السيئ. ثم دخل في نوبة من احتقار الذات لم يعتدها في نفسه. وقال: «أعتبر نفسي رجلًا ذا أخلاق عالية، وأنت أيضًا.»

عارضه السيد ريكاردو قائلًا: «لا أتفق معك في أنني أعتبر نفسي رجلًا ذا أخلاق عالية.»

قال هانو: «أنا لم أعبرَ عمّا أقصد جيدًا. كنت أقصد أنك تعتقد أنني رجل ذو أخلاق عالية.»

أجاب السيد ريكاردو بعد التفكير لوهلة: «لم أعد واثقًا بذلك طوال الوقت.» «لأ؟ ثمة أوقات نتصرف فيها بطرق سيئة لا تُعبرُ عن ذواتنا الحقيقية. ولكنك تتعافى من ذلك بسرعة كبيرة للغاية يا صديقي. ربما تبدو مُتشككًا لدقيقة ثم أفعل شيئًا يسيرًا وتقول على الفور — أوه، بارتياح كبير! — «يا لهانو هذا! يا له من عبقرى! ولكن، برغم ذلك» وهزّ كتفيه «ثمة مرات كثيرة عندما أعادتني حادثة يسيرة إلى الطريق القويم.

الحوادث اليسيرة ... نعم ... إنها تقع. أن تعرفها فور رؤيتها، وتقتنصها، وتستخدمها؛ فهذه نصف مهارتي. ولكن عليك أن تظل يقظاً بالطبع لتتمكن من رؤيتها.»

كان هذا مبدأً هانو القديم الذي قصّه مرات كثيرة. إن المصادفة أكثر الآلهة حباً، ولكنها الأكثر غيرةً أيضاً. إنها تتطلب ذهنًا حاضرًا ويدًا حديدية. وتُظهر وجهها لجزء من الثانية فقط، ما يكفي من وقت لتهمس برسالتها فحسب، ثم تتراكم الغيوم مجددًا. وثمة عيب في أذنك إذا لم تتمكن من سماع الكلمات سريعًا.

«إليك جين كوريسو مثالاً. إنك تعرف شيئاً عن أولئك النساء بالطبع؛ فأنت رجل عاركتَ الحياة. قلة منهن متزوجات، وكثير منهن يضعن أموالهن في أماكن آمنة، ولكنّ بقيتهن، عندما يذبل شبابهن» وأعطى إشارة بيده كما لو أنه يُلقي حجرًا في بركة «لا يتبقّى لهن أصدقاء يسألون عنهن. وبعض النساء الأخريات اللاتي تراهن حول أحد الملاهي الليلية في الثانية صباحًا، قد يقلن في لا مبالاة: «فيفي الصغيرة! لم أرها منذ شهر. هذا غريب.» ولكن هذا كل ما سيقبلنه عن الأمر. لقد ضاعت فيفي الصغيرة في الظلمة الخارجية. ولن يهتم أحد بأمرها. وستموت في البالوعات، وربما ماتت حقًا. هل أنا محق؟» قال الرجل الخبير بأمور الحياة: «نعم.»

واصل هانو حديثه قائلاً: «حسنًا إذن. نجت جين كوريسو من حالة نسيان مماثلة بفضل ظرف واحد فقط. والداها، وكانا قرويين مسنين يملكان مزرعةً بالقرب من فونتنبلو وعاشا لسنوات على إعانات من جين. كان يصلهما كل موسم المزيد من المال لشراء مزيد من الأراضي وضمها إلى المزرعة، وكان جين وعشيقها يأتیانهما كل عام في زيارة مهيبة. فكانا يصلان في سيارتهما، ويتناولان الغداء في غرفة الجلوس ذات أغطية المقاعد المزركشة، وبعد الغداء يجلسان خارج المنزل في الشرفة بينما يمر بهما كل من أفراد العائلة واحدًا تلو الآخر ويحصل على بعض الإطراء ومبلغ من المال. آه، لا يجدر بك أن تندهش يا صديقي! عائلة كوريسو ليست الوحيدة على هذه الشاكلة. صدقني!»

ثم مر عام كامل من دون إعانات. وتوقفت الزيارات المهيبة. وخيم الرعب على عائلة كوريسو. هل أدارت جين ظهرها لأقاربها المساكين؟ لا، جين فتاة طيبة. كُتب لها خطاب بكثير من اللهاث والكثير من ارتعاش الأصابع الواهنة. ولكنه أُعيد إلى مُرسله عبر مكتب بريد الخطابات غير القابلة للتسليم. لقد أبحر أميرها الصغير عائداً إلى موطنه في الشرق. واختفت جين كوريسو؛ وكذلك أموالها ومجوهراتها.

استطرد هانو قائلاً: «وصلت الآن إلى الحقيقة الواقعة الوحيدة. كتبت جين كوريسو وصيةً قسمت فيها ممتلكاتها بين أفراد عائلتها، واحتفظت بهذه الوصية في المكتب المصنوع

من خشب شجر الجوز في الغرفة ذات أغطية المقاعد المزركشة. كان يجب الحفاظ على هذا الكنز. أليس كذلك! يجب فعل شيء ما. وعليه، ذهب وفدٌ من عائلة كوريسو مكون من الأب وأحد أبنائه، وطرق أبواب جهاز الأمن العام. وتوليت أنا القضية، واعتقدت أنها ستكون سهلة. كانت جين فتاة بغاء حريصة، ولكي تتجنب الأخطاء والمشكلات، ذكرت في وصيتها بالتحديد، وبكل وضوح، قطع المجوهرات التي يجب أن يحصل عليها كلٌّ من أفراد عائلتها. لقد أعطاك دومينيك بوشيت تلميحًا عن نوعية الخطوات التي يجدر بنا أن نُقدم عليها، ولكننا لم نسمعه يقول صراحة. لو أن محتالًا تمكّن من وضع يده على هذه المجوهرات، لتكتم على وجودها تمامًا. ولكن بعد مدة، وصلتنا معلومات عن جين نفسها. كانت قد أتت إلى بوردو خلال الشتاء. فتتبّعناها، ولكنها اختفت مجددًا. أخبرتك بالأمس أنني كنت في بوردو لأتولى مسألة أخرى غير مسألة قصر سوفلاك. كانت جين كوريسو شغلي الشاغل، وكانت أول معلومة تصلني عنها تلك المعلومة التي أعطانها دومينيك بوشيت الليلة. ولكنني عرفت معلومات أخرى. على سبيل المثال، اختفت ثلاث نساء من البلدة، بنص العبارة، غير جين كوريسو، في بوردو خلال السنة الفائتة.»

خفض صوته أثناء حديثه ومال نحو الأمام وأخرج رأسه من النافذة ليتأكد من أن أحدًا لن يمكنه سماع ما يقول.

صاح السيد ريكاردو: «ثلاث نساء؟!»

أجابه هانو وهو يومئ برأسه: «نعم. ثلاث نساء من النوعية التي وصفتها لك. نساء لن يلتفت أحد إلى غيابهن. وإني أتساءل عما إذا كانت الأرملة تشيشول قد ذهبت إلى شقة السيد بوشيت في الليل لتبيع له أيًا من ممتلكاتهن بئس بئس.»

اضطجع السيد ريكاردو في جلسته واختفى كامل الانتعاش الذي اكتسبه من وجبة العشاء. اختفاء النساء الثلاث، الزيارات الخفية التي قامت بها المرأة ذات الاسم الشرير لتاجر الأحجار الكريمة تحت ستار الليل، التأكيد على أن مجوهرات جين كوريسو قد عُرضت عليه ليشتريها؛ جميع هذه الحقائق أعطت حيازتها لعقد إيفيلين ديفينيش معنى رهيبًا للغاية.

قال السيد ريكاردو: «هذا العقد لم يُسرق. فقد اشتراه بوشيت قبل تسعة أيام من مقتل إيفيلين ديفينيش. وربما كانت لتكتشف اختفائه إن كان سُرق. لقد تخلّت عنه بمحض إرادتها في عصر ذلك اليوم عندما التقيتها في كهف الموميאות. لقد باعته مقابل المال، إذن؛ نعم، مقابل المال.» وظهرت أمام عينيه مجددًا غرفة الاستقبال في قصر سوفلاك

ونظرة الكراهية التي طَلَّتْ من عَيْنِي إيفيلين ديفينيش عندما انحنى روبن ويبستر فوق مقعد جويس ويبيل. ولكن حينئذٍ؛ عاد مجددًا إلى دوامة الفكر القديمة. كانت إيفيلين ديفينيش من دفعت الثمن!



لم تتمكَّنْ عينا السيدة ديفينيش من إخفاء كراهيتها عندما رأت جويس تتحدَّثْ مع ويبستر.

نظر السيد ريكاردو عبر الطاولة إلى هانو الذي كان يُدخِّنْ سيجارًا يحمل سوادًا مثل سواد سجاثره.

وقال: «أنت تعتقد أن جويس ويبيل موجودة في قصر ميراندول.»
لم يُجب هانو عن هذا السؤال.

«لقد شككت في ذلك عندما حرصت على إخبار الجميع بأن الشرطة تُحاصر المنطقة بأكملها.»

لم يُقر هانو بذلك تمامًا، ولكنه قال: «كنت آخذ احتياطاتي. فليس من المسموح لي أن أفعل أكثر من ذلك. وستتذكر أيضًا أنني تفوّهت بتحذير آخر.»

«عن جريمة القتل الثانية؛ نعم. ولكن اليائسين لا يابهون بالتحذيرات.»

رد عليه هانو بتأنٍ يدل على أنه يسعى إلى إقناع نفسه أكثر من إقناع صديقه. قال: «ميراندول يعرف أنني أشك في منزله. لقد زرت له لكي أريه أنني أشك فيه حقًا. وتحدّثت عن آثار إطارات السيارات لأريه أنني أشك فيه. وأسقطت القناع على الطريق لأريه أنني أشك فيه. ودلّته يداه المرتعشتان على أنه أدرك أنني أشك فيه. ولن يجروا على ارتكاب جريمة أخرى في هذا المنزل بعد الآن. إذا كانت هذه الشابة هناك، فسيحاولون تهريبها منه. وسيفعلون ذلك الليلة.»

صاح ريكاردو: «سيأخذونها إلى النهر»، رمقه هانو بنظرة غريبة للغاية، واقشعرَّ

جسده.

كانت هذه الحركة التي تدل على الخوف قويّة وغريبة بالنسبة إلى هذا الرجل بالذات، الأمر الذي أفزع ريكاردو. فصاح وهو ينهض: «علينا أن نذهب على الفور. إننا نُهدر دقائق ثمينة على الطعام الشهي»، وأزاح الأكواب الفارغة التي كانت تحتوي على الشمبانيا الفاخرة جانبًا في اشمئزاز.

قال هانو في جدية: «أنت مخطئ يا صديقي.» بدا وكأنه يحاول أن يجد تبريرًا لموقفه، فقال: «الساعة لم تدق الثامنة بعد. وإذا ما ركبنا سيارتك وانطلقنا الآن، فسنصل إلى قصر ميراندول قبل التاسعة والنصف. وهذا وقت مبكر للغاية! وستكون المنطقة لا تزال مستيقظة. وحينئذٍ، سنكون قد حذّرناهم من أننا نتعقبهم.»

كانا يتحدثان بصيغة «الجمع»، ولم يجروا ريكاردو على ذكر أسماء بسبب احترامه لمهنته الذي يملأ وجدانه، ولم يطعن في أحد لم يتأكد بعد من أنه مذنب. أدرك ريكاردو أن هانو لم يذكر السبب الحقيقي لتأخّرهم، وأشعل سيجارة أخرى. وكان الغسق يتحوّل سريعًا إلى ظلام. أثار السائق أنوار السيارة تحت أشجار الليمون الضخمة التي تحف الطريق، وتعجب السيد ريكاردو بشدة من صبر صديقه.

ثم طرأت على ذهنه عقبة من المؤكد أن تُفسد جميع خططهما. بالأمس، أوضح هانو للفيكونت دو ميراندول أنه يشك في منزله الأبيض الطويل. ولكن لم يكن قادرًا على فعل المزيد. واعترف بذلك.

فسأل قائلاً: «لم تكن لديك أي صلاحية لدخول المنزل بالأمس، أليس كذلك؟»
قال هانو: «على الإطلاق!»

«هل تعتقد أن دو ميراندول الذي لم يكن من المرجح أن يسمح لك بدخول المنزل بالأمس، سيسمح لك بدخوله الليلة؟»

رد عليه هانو: «على الإطلاق.»

«ولكن هل تمتلك الصلاحية لدخوله الآن؟»

«نعم، حتى وإن لم أكن أملكها، سأدعي أنني أملكها.»

«أليس في ذلك خطر عليك؟»

«وهي مخاطرة قررت واعياً أن أقدم عليها.»

«منذ متى؟»

«منذ أن عرفت أن الفيكونت كاساندر دي ميراندول يطلي بوابته بنفسه.»

كان يجدر بالسيد ريكاردو أن يرتضي بهذا التفسير الذي يبدو له أنه ليس تفسيراً من الأساس. وأغلق هانو فمه كأنه محارة. لم ينطق بأي إجابة على أي تخمين، ولا أي تعليق على أي فرضية. كل ما فعله هو أن جلس يُدخّن دون انقطاع، وكان يشعل السيجار من سابقه، كان يجلس هادئاً مطمئن البال كما لو كان رجلاً يستمتع في هدوء بهضم وجبة عشاء دسمة. هل كان يبدو هكذا ظاهرياً فقط؟ لا، ليس تماماً. ولولا الدرس الذي تعلّمه في اليوم السابق، لكان السيد ريكاردو أطلق فيضاً من اللوم، والرجاء، والانتقاد، والوعيد دفعةً واحدة عبر الطاولة. على الرغم من أن هانو كان يدخّن بلا توقف، وكان طرف سيجاره المشتعل يتوهّج ويخفت بإيقاع منتظم كالآلة، فإن يديه كانتا ترتعشان من وقتٍ لآخر مثلما ارتعشت يدا دي ميراندول عندما انحنى عند بوابته.

ثم قفز واقفاً فجأة، وكشفت تلك الحركة العفوية عن كامل اضطرابه.

وقال: «هذا الرجل قادم من أجلي.»

كان هناك شرطي بلدية يُقبل بخطوات حثيثة من جهة شارع كور ٣٠ يوليو. أطل هانو برأسه من النافذة، فتوجّه الشرطي نحوه مباشرة.

وقال: «هل أنت السيد هانو؟»

«نعم. أعطني إياه!»

سَلَّم الشرطي الرسالة إليه عبر النافذة. مَزَّق هانو الظرف وقرأ الخطاب، بينما ظل السيد ريكاردو يدرس تغير تعبيرات وجهه. كانت الرسالة طويلة رغم أنها كُتبت

على عجل، وتحولت تعبيرات وجه هانو، التي بدأت بخيبة الأمل، إلى الملل، ثم إلى الحيرة وانتهت بالضحك. لم يشعر السيد ريكاردو في حياته من قبلُ بدهشة مماثلة. كان هانو يضحك بصوت عالٍ؛ ذلك الرجل الذي كان يرتجف منذ ١٠ دقائق. كان يضحك في سعادة وسرور. كان فرحاً ومبتهجاً. بدت القهقهة العالية التي سمعها السيد ريكاردو غريبةً وغير معتادة. ثم أدرك ذاهلاً أنه لم يسمع أي ضحكات على مدار اليومين الماضيين حتى هذه اللحظة.

فصاح قائلاً: «وصلتك أخبار جيدة أخيراً.»
هزَّ هانو كتفيه. وقال: «إنها ليست من نوعية الأخبار التي قد تُرسلها إلى المنزل.»
سأله ريكاردو في حيرة: «أي منزل؟»
ردَّ هانو: «منزلك بالطبع يا صديقي.»
أطرق جوليوس ريكاردو ولمع الفهم في ذهنه. فقال في استسلام: «فهمت. أنت تعني أنها ليست من نوعية الأخبار التي أرسل منزلي بشأنها.»
استفسر هانو لائئماً: «أعني؟ هذا ما قلت.»

«أوه، حسناً! أنت قلت ذلك! هل يمكنني أن أسمعها منك الآن؟»
«بالطبع! لقد وصل زائر آخر من لندن. وهو أيضاً قرأ الجريدة المسائية. فعبر بحر الشمال على متن قارب في الليل ولحق بقطار الجنوب السريع من باريس. ولكن تأخر القطار. حسناً، سيراسل جريدة «تايمز» بهذا الشأن. ثم استقل سيارةً من المحطة إلى مبنى المحافظة. ولكن، أين المحافظ؟ تقول الصحف إن هانو يتولى القضية. حسناً إذن! أين هانو؟ اللعنة، أين الجميع؟ أكرِّر لك، هذا الشاب سُبيلي بلاءً حسناً في مجال التجارة.»
صاح جوليوس ريكاردو: «برايس كارتر. هل وصل؟»

«نعم، فارس الخطابات الحارة. أوه! لا أزال أنفخ في أصابعي عندما أتذكَّرها؛ حسناً! لقد احتلَّ مبنى محافظة بوردو. إنهم لن يجروا على إخباره بأن هانو يتناول عشاءه. لا، سوف يدمِّر كل شيء إن فعلوا. لا! ولكن، اللعنة، مورو رجل ذكي. لقد أخبره بأن هانو يعمل متنكِّراً. صه! وقد أفلح ذلك إلى حدٍّ ما. هانو يضع لحيَةً مستعارة! يا لها من نعمة! عاد هانو ليكون قائد التشيكا مجدداً! ومن ثم، أرسله مورو إلى فندقك الفاخر في كور دو لينتندانس ووعده بأن يحصل على رسالة مني إذا لم يدمر المدينة عن بكرة أبيها. آه، علينا أن نُرسل له رسالةً قصيرة.» ثم نادى مالك المطعم: «جورج، أحضر بعض الحبر! ماذا أكتب في الرسالة يا صديقي؟ ما رأيك في جرعة ضئيلة من المماطلة؟» قالها وانتهى مرحة وجلس واجماً يومئ لصديقه.

«ليس من السهل اختلاق تلك الجرعة الضئيلة من الماطلة...»
وبعد ذلك كتب على ورقة ثم مزَّقها. وقال: «هذا يعد بالكثير». ثم كتب مرة ثانية ومزَّق هذه الورقة أيضًا. وقال: «هذا لا يعد بأي شيء على الإطلاق، ولقد وصل إلى هنا حقًا». ابتسم آسفًا وحك رأسه، وبدأ يكتب مجددًا. ثم قال: «هكذا! ثم أضع خطأ تحت هذه الكلمات. هكذا! اسمع! لقد كتبت ما يلي:

«سأتي لك في وقتٍ ما قبل أن يطلع الصبح. وحتى أفعل، أنصحك بأن تُغيّر ملابسك وتحلق لحيتك. — هانو.»

ووضعت خطأ تحت تغيير الملابس وحلاقة اللحية. ما رأيك؟» واضطجع في جلسته ينتظر نظرات الإعجاب وهو يُعدّل جميع تجاعيد صدريته.
وافقه ريكاردو في لطف: «ليس سيئًا.»

قال هانو ببساطة: «بل جيد جدًّا». ثم وضع الخطاب في مطروف وأغلقه، وكتب عليه عنوان المرسل إليه وسلمه إلى شرطي البلدية. وقال: «إنها لفظة جميلة. أن يُهرع هذا الشاب عابرًا إنجلترا وفرنسا لكي يهرب محافظ بوردو. أين ذلك الكسول هانو؟ لماذا لا يرأسني ليخبرني بما يجري؟ اللعنة! نعم، إنها لفظة جميلة، أؤكد لك ذلك؛» ثم أشعل مرة أخرى سيجاره الذي انطفأ بينما كان يختلق تلك الجرعة الضئيلة من الماطلة، ثم أردف: «أؤكد لك أننا سنحتاج إلى جميع اللغات الجميلة التي يُمكننا أن نعثر عليها عندما يحين وقت قص تلك القصة الكثيبة المريعة من بدايتها إلى نهايتها.»

ثم عاد إلى صمته مجددًا. كان النهر قد تحوّل إلى اللون الرمادي. وتحوّل الغسق إلى ليل. تألّقت الأضواء الحمراء والخضراء على الأعمدة الشامخة في ساحة كينكونس قرب رصيف الميناء مبرزة أهميتها. وتحت أشجار الليمون، لمعت أنوار مصابيح سيارة ريكاردو. ووجّه هانو بصره نحوها مرة أو مرتين. وكاد يُقرّر ألاّ ينتظر أكثر من ذلك. ولكنه كان يكبح جماح نفسه في كل مرة. وقال بصوتٍ خفيض: «يجب أن أكون على حق؛» لم تكن يدها وحدها هي التي ترتجف هذه المرة، بل صوته أيضًا. لم يره ريكاردو من قبل والقلق يُمزّقه لهذه الدرجة أو التوتر يغمره بالكامل هكذا. أثقلت كاهليه وطأة الشعور بالمسؤولية وجعلته يُبدّل من وضعية قدميه على الأرض، ثم يضرب الطاولة بقبضته. تلعثم قائلاً: «قلت منذ البداية إنني أخشى هذه المسألة»، ثم أطلق صيحة ارتياح ودفع مقعده إلى الخلف وخرج عدوًّا إلى الرصيف. كان ثمة رجل يعدو نحوه، رجل قصير، وبدين، وعريض، إنه مورو.

قال السيد ريكاردو: «أخيرًا!» ثم لَوَّحَ إلى سائقه الذي هبط من مقعده وفتح باب السيارة الفاراهة. خلع ريكاردو قبعته. وقال: «يمكننا أن نتحرك الآن»، ثم أسرع نحو السيارة. ولكنه نظر خلفه وذهل عندما رأى الرجلين، الرئيس ومساعدته، برأسيهما المتقاربين، يسيران ببطء في الشارع المظلم. كان باب السيارة مفتوحًا، ومُحرَّكها يعمل، والليل خيمٌ، وكان قصر ميراندول على مسافة ٥٠ كيلومترًا؛ ولكنهما كانا لا يزالان يثرثران. كان من الممكن أن يصرخ ريكاردو مُوبِّخًا.

ولكنه صاح في مرارة مناجيًا العالم بذراعين بسطهما تمامًا: «رائع! عظيم! هل تعتقدان أنني عديم الإحساس...؟»

ولكن قُطعت مناجاته. فقد استدار هانو وعدا نحوه ومن خلفه مورو. وقال بصوتٍ كالفحيح: «هيا بسرعة!» وكان صوته مشبوبًا بالحماسة. ودفع ريكاردو بقوة إلى داخل السيارة وقفز داخلها بعده. جلس مورو في المقعد المجاور للسائق وتحركت السيارة من تحت الأشجار. وعند بداية الميدان، استدارت نحو اليسار. وشعر السيد ريكاردو بضيق شديد.

وقال: «لقد أخطأ السائق. علينا أن نستدير ناحية اليمين إلى طريق ميدوك»، ومدَّ يده أمام هانو ليمسك ببوق السيارة الداخلي. ولكن كان هانو قد أمسكه قبله.

وقال: «إنه على صواب. طُلب منه أن يستدير ناحية اليمين إلى طريق جريجوار.» انزلت السيارة من دون ضوضاء أو جهد منحدرةً على الشارع الطويل المستقيم تاركةً أنوار المدينة المُكْدَّسة معًا خلفها، ودخلت إلى طرق أضيق باردة ومظلمة وتحفُّها منازل مهجورة. ثم استدارت نحو اليمين ثم نحو اليسار. وظهرت أمامها مساحة أرض شاسعة. عند أحد جانبيها تقف كنيسة ضخمة متشحة بالسواد. وفي منتصفها، يُرى برج ضخم يشق السماء وكأنه رمح عملاق، وقِمته تختفي في الظلام. توقفت السيارة بجانب هذا البرج.

همس السيد ريكاردو: «هذا برج سان ميشيل.» قال هانو: «هيا أسرع! لا يمكننا أن نُضيع لحظةً واحدة.» عند البقعة نفسها التي وقف عندها ريكاردو مترددًا عند مدخل كهف الموميאות، الأمر الذي بدا له وكأنه قد حدث منذ عصور، اقتربت فرقة البحث هذه. قال هانو لاهتًا: «ابقوا قريبين مني، ولا ينبس أحدكم ببنت شفة.» وعبر الميدان نحو ناصية شارع صغير. كان هناك حارس يقف بجانب مصباح سقط نوره على عتاده. لم يبرح الحارس مكانه. دخل هانو وجماعته الشارع. كان شارعًا قصيرًا

هانو يتناول العشاء



لم يبرح الحارس مكانه.

ومستقيماً. وكانت أنوار رصيف الميناء ظاهرةً عند طرفه الآخر. ولكن كانت المنازل في هذا الشارع قذرة، وحالكة، وسوداء، وترتفع لأدوار عالية بدا لهم معها أنهم يسرون داخل مغارة. ظهر فجأةً رجلان كما لو أنهما نبتا من أحجار أحد الأسوار، واقتربا منهم من الخلف.

همس هانو قائلاً: «لا يُصدر أي منكم صوتاً». عند منتصف الشارع، ظهر رجلان آخران خرجا من ممر مسقوف ضخم. وقال أحدهما: «إنه هنا».

همس هانو قائلاً: «الباب.» فقد كان الباب المزدوج الضخم مغلقاً. قال الرجل: «لقد فتحناه عندما رأينا أنوار سيارتكم.» وانفتح الباب بمجرد أن لمسه الرجل. مروا عبر الباب الواحد تلو الآخر، وانغلق الباب من خلفهم برفق وأُقفل مزلاجيه. وجدوا أنفسهم في ظلام دامس. في الماضي في عصر ازدهار مدينة بوردو، عندما كان الملك يعقد بلاطه في هذا المنزل، وكان السيد دي تورني يستدعي أعظم فناني أوروبا ليستعيد جماله، وكان هذا المنزل في شارع جريجوار محل إقامة بعض التجار الأثرياء. أما الآن، فقد انحدرت به الحال، فالطرف البعيد من ممره المسقوف مبني بالطوب، وأصبح الشارع سيئ السمعة، وأصبح المنزل قذراً وقديماً، وتشبعت جدرانه القذرة بالرطوبة.

وقف السيد ريكاردو في الظلام وقلبه يدق داخل صدره بعنف. كان يتوق للإثارة والانفعال. ولكن ها هو الآن يرتجف بسببهما مثل ورقة شجر في مهب الريح. سمع صوتاً خافتاً أشبه بتلامس مفتاحين، ثم همسة من هانو تقول: «صه!» وفي لمح البصر، أظهر ضوء المصباح الكهربائي الرفيع مكان ثقب مفتاح باب المنزل، ورأى رجلاً ينحني أمامه، ثم انفتح الباب.

همس هانو همسة خافتة لدرجة أن الرجل المجاور لريكاردو لم يكن ليسمعها إذ قال: «أمامك درجة سلم.» ثم شعر ريكاردو بمن يمسك بذراعه بقوة ويرفعها عندما وصل إلى درجة السلم. ودل الهواء، الدافئ الخانق الثقيل، على أنه داخل رواق. وسمع صوت هانو مرة أخرى يهمس في أذنه: «لقد أصبحنا داخل منزل الأرملة تشيشول!»

الفصل التاسع عشر

الحقيقة الصادمة عن الأرملة تشيشول

ظلوا واقفين صامتين لبضع لحظات، وكانوا يسترقون السمع، ويحبسون أنفاسهم. ولكن لم يسمعوا أي صوت آتٍ من أي اتجاه. لم يُسمع حتى صوت خطوات أقدام على الأرضية. ولا حتى صرير لوح خشبي أو باب في هذا المنزل العتيق. ربما كانوا يقفون معًا داخل سرداب موتى على عمق ١٠٠ متر تحت الأرض. ثم شق شعاع رفيع من ضوء ذهبي الظلام مجددًا وسقط على جدار مغطى بالعفن وسقف فَقَدَ لونه، وسار في خط مستقيم بعد ذلك ليسقط على باب بعيد. تحرك هانو إلى الأمام ليدخل دائرة الضوء ويفتح هذا الباب برفق دون أن يُصدر صوتًا. وفتحه بما يكفي لأن يمر بجسده منه. وتبعه الآخرون؛ كان السيد ريكاردو يشعر برعدة خوف لذيذة تسري في عموذه الفقري. لم يكن ليستبدل لحظة أخرى في حياته أيًا كانت بهذه اللحظة. كان منهمكًا في تمثيل دوره بتركيز شديد، لدرجة أنه لولا خشيته من هانو، لكان أمسك بزمام القيادة وأصدر الأوامر بصوت عالٍ. وكان يتفرج على نفسه أيضًا. تخيل نفسه يجلس بين المقاعد ويؤدي إعجابه بأدائه. وفكر في نفسه قائلاً: «أتعرف أعظم ممثلي العالم؟! تبًا لهم جميعًا!» كان قد رآهم والتقاهم — كان قد رآهم أكثر مما التقاهم، لتحري الدقة — ولم يبهره أي شيء بهم على الإطلاق. من منهم تسلل تحت ستار الليل مع رجال شرطة بملابس مدنية إلى منزل امرأة سيئة السمعة لبحث عن؛ حسنًا، عن ماذا؟ ثم وقف في مكانه، وطرح على نفسه هذا السؤال. هل من المعقول أن تكون الأرملة تشيشول هي المجرمة؟ لا ريب في ذلك، فالطوق الأمني حول سوفلاك محكم للغاية، ولا يمكن لأحد اختراقه. ولكن في نهاية المطاف؛ هل من الممكن أن تكون الأرملة تشيشول؟ هل جميع هذه الاحتياطات ضرورية؟

أمسك هانو بالمصباح اليدوي في يده، وبدأ يستكشف به هذا البهو الداخلي. ولكن كان أقرب إلى الرواق من البهو؛ فقد كانت في نهايته نافذة، وبابان على اليسار، ودرج

عريض على اليمين، وبالقرب من قاعدة الدرج يوجد باب آخر مغطى بالجوخ الأخضر الملهل. لم يُسمع أي صوت من خلف الأبواب الثلاثة، ولم يتسرب أي ضوء من تحت عتباتهم. فتح هانو البابين على اليسار ليتأكد من أمانهما. كانت الغرفتان تطلان على شارع جريجوار، ولكنهما كانتا مغلقتين وخاليتين. كانت إحدهما مفروشة بأثاث غرفة جلوس رخيص، وكانت الأخرى مجرد مكان يحتوي على خزانات وأرضية عارية. بعد ذلك، وقف لوهلة ينظر إلى أعلى عبر الدرج ويُنصت بكل جوارحه، كما بدا حينئذٍ. ولكن كانت الطوابق العليا صامتةً مثل البهو الذي يقفون فيه. خيم صمت قاتل على المنزل كله. قادهم الباب المكسو بالجوخ الأخضر إلى المكاتب والمطبخ، وهناك بدءوا يرون علامات الحياة؛ فقد كانت هناك ساعة تدق معلقةً على الجدار ورأوا في الموقد ضوءاً أحمر خافتاً لنار خابية.

قال هانو: «هناك أقبية كثيرة جيدة لهذا المنزل العتيق»، ورغم أنه كان يتحدث بصوتٍ خافت هادئ، بدا الصوت لحواس ريكاردو المتوترة عالياً بما يكفي لإيقاظ البلدة بأكملها.

وصل في نهاية الرواق إلى درجٍ حجري ضيق يلتف هبوطاً إلى الظلام. حنى هانو رأسه ثم أدراه وهزه في إيماءة إلى رفاقه. بدا وجه هانو شاحباً ومرتبباً في ضوء الصباح اليدوي الذي يمسكه، وقفز الخوف من وجهه ليغزو وجوه جميع المحيطين به. شعروا جميعاً للحظات بصدمة نتجت عن شعور عارم بالفشل.

همس هانو: «ولكن يجب أن يكون هنا! يجب أن يكون هنا!»

لم يعارضه أحد، وكذلك لم يوافق أحد. بل وتقارب الرجال بعضهم من بعض قليلاً كما يفعل الناس عادةً في مواجهة كارثة محققة. تسببت هذه الحركة اليسيرة في انتزاع الذعر من وجه هانو. ورفع رأسه في تحدٍّ.

وقال بعناد: «يا إلهي، ولكن كان من المفترض أن يكون هنا!»

وبثلاث إشارات خاطفة من يده، أمر اثنين من رجاله ومعهما ريكاردو بالبقاء حيث يقفون، وأمر الباقيين بأن يتبعوه. وهبط هو أيضاً نحو الأسفل، ولكنه كان لا يزال في نطاق رؤيتهم عندما صدرت من تحت أقدامهم، من مكان قريب للغاية، على ما يبدو، صرخة حادة بددت الصمت.

تملأ السيد ريكاردو الفزع. واستحوذ الذعر على قلبه. وتراجع إلى الخلف ليستند إلى الجدار وهو يلهث. ولكنه كان مندهشاً بقدر فزعه نفسه. فقد كانت عيناه مثبتتين على

وجه هانو ورأى الارتياح والظفر باديين على قسماته. استغرق الأمر بضع لحظات ليربط هذا التعبير بصرخة الرعب الرهيبة التي اعتقد أنها لو انطلقت من حلق إنسان، فلن يظل على قيد الحياة بعدها. ثم فهم ما حدث. لقد وصل هانو في الوقت المناسب، وكان هانو محققًا.

سمع بابًا ثقيلًا يُصفق بعنف، وشعر وكأنه قد رجَّ المنزل أجمعه. ورأى هانو يقفز. ومن خلف هانو، بدأت المجموعة بالكامل تُصدر جلبةً وترتجف، ريكاردو والرجلان اللذان أُمرّا بالبقاء معه، وكذلك بقية الرجال.

صاح السيد ريكاردو في إشارة غامضة لأبطال قوميين آخرين: «أعتقد أنه حان وقت عصيان الأوامر»؛ ثم سمعوا هانو يصيح بصوت رنان: «انتبهوا!»

وصل إليه التحذير في الوقت المناسب. فتوقف فجأةً عند حافة هوة في أرضية القبو، وتمكَّن بالكاد من استعادة توازنه. استعاد توازنه ليرى خطأً من الضوء يتسلَّل من تحت عتبة باب عند الجانب الآخر من القبو وهو يختفي فجأةً وليسمع صوت مصباح ثقيل يتحطَّم على الأرض. وقبل أن يتوقف صدى الصوت عن التردد، كان هانو قد وصل إلى الباب. كان الباب مصنوعًا من خشب سميك صلد. هزَّه هانو، ولكنه كان مقفلًا بالمزلاج. ولكن كانت ثمة فتحة عند مستوى العين لتهوية القبو في الداخل. وفتحها هانو عنوة. ولثانية، سقط ضوء مصباحه اليدوي، الذي كان يمسك به في يده اليسرى، على الجدار والسقف والأرضية. ثم أدخل يده اليمنى في جيبه، وأخرجها وشيء يلمع فيها — فوهة مسدس — وأدخل تلك اليد أيضًا داخل الفتحة.

وصاح قائلاً: «ساعدوني ثلاثتكم. هيا!» ثم تحدث مخاطبًا الرجال من خلفه. وقال: «أريد مصباحًا! أسرعوا!» اشتعل عود ثقاب، وأُضيء مصباح. «والآن، أيتها الأرملة تشيشول، افتحي الباب!»

مرَّت لحظة صمت، ثم سُمع صوت حفيف قدمين ترتديان خفًا منزليًا على بلاطات الأرضية. صاح هانو أمرًا: «يداك حيث أراهما يا أمي، حتى تصلين إلى الباب! هكذا أفضل!»

سحب المسدس خارج الفتحة مع اقتراب المرأة من الباب حتى لا تتمكَّن من خطفه من يده، ثم سُحب المزلاج بصعوبة خارج تجويفه، وانفتح الباب. دلف هانو عبر عتبة الباب وعلَّق المصباح على مسمار. وقف هانو في قبو مربع صغير طُليت جدرانها بالجص الذي كان مقشرًا عن جدران القرميد، ولم يكن الهواء يدخله إلا عبر الفتحة ومن تحت

عتبة الباب. وعلى الفور، كنت تشعر بجو المكان الخانق ورطوبته اللزجة المزعجة. إذا ما أوصدت ذلك الباب الثقيل، وأغلقت تلك الفتحة بسرعة، لتحوّل المكان إلى زنزانة مظلمة كالليل نفسه. تراجعت المرأة التي فتحت مزلاج الباب إلى ركن على يمين الباب، ورقدت على الأرض متكومةً مع رفاقها. كان هناك ثلاثة منهم، جميعهن من النساء؛ شابة ذات وجه متجهّم وشعر أسود فاحم كانت ترقد على الأرض، وامرأة في منتصف العمر ضخمة وعريضة وقوية مثل الرجال، وكانت يداها مغطاتين بالطين، ثم الأرملة تشيشول نفسها، وكانت امرأةً قبيحة ذات عينين غائرتين عميقًا داخل وجهها الملطّخ ببقع سوداء كما لو أن جسدها قد بدأ يتعفنّ قبل أن تموت. على الرغم من أنها كانت ترتدي خفًا منزليًا، فقد كانت ترتدي فستانًا قديمًا من الحرير الأسود، مثلما يجدر بـ «سيدة» هذا المنزل أن ترتدي، وعلى الرغم من رثائته، وأطرافه المهترئة والخرز القديم الذي يزينه، أضاف إلى هذا المشهد تنافرًا كابوسيًا.

قالت المرأة منتحبة: «أنا لم أؤذيها يا سيدي. يمكنك أن ترى ذلك بنفسك.»
«إنك لم تؤذيها حقًا! لقد أعطيتها صالونًا جميلًا لتراتح فيه بينما تُجهّز غرفتها المجاورة، أليس كذلك أيتها الأرملة؟» قالها هانو بسخرية لازعة، وانكلمشت المرأة العجوز أمامه وهي تُتمتم بأعذار ووعود.

وقالت: «هناك أناس آخرون في مراكز عالية في العالم يستحقون أن يُوجّه إليهم اللوم أكثر مني. اسمعني جيدًا! أنا امرأة فقيرة وجاهلة؛ ماذا يجدر بي أن أفعل عندما يُوجّه لي هؤلاء العظماء أمرًا ويرهبونني؟ أوه، يجدر بي أن أخبرك بمن يكونون ... سأخبرك بالطبع ... إنهم أشرار، صدقني؛» قاطعتها صيحة من هانو.

قال وهو يبسط ذراعيه عن آخرهما: «وما هذا؟» رأى السيد ريكاردو من فوق كتف هانو أنشودةً مربوطة بحبل قصير تتدلى من خُطاف مغروز في السقف المنخفض حيث كان المصباح معلقًا. «هذا العقد الجميل يتوافق مع الصالون تمامًا! إنه هدية من فتاة طيبة، أليس كذلك أيتها الأرملة؟ سيدي!» قالها وهو يلتفت نحو رجل يقف عند عتبة الباب ينظر ويبدو عليه أنه الأعلى سلطةً بين المجموعة. «هؤلاء الحيوانات رهن إشارتك.» دخل الرجل واثنان من مساعديه إلى القبو، وأحاطوا بالنساء الثلاث، وأصبح الركن المقابل للباب مرئيًا بالنسبة إلى السيد ريكاردو، وفي هذا الركن، عند أبعد نقطة عن الأرملة تشيشول ورفيقتها، كانت تقف جويس ويبل ملتصقةً بالجدار.

وكان مظهرها غريبًا لدرجة أن السيد ريكاردو خرج من دهشة ليدخل إلى أخرى. هل يقف على رأسه أم على عقبه؟ كان العالم بأسره يبدو له مقلوبًا رأسًا على عقب.

والحقيقة الغريبة المتعلّقة بترك جويس ويبل لفستانها اللامع ليلة اختفائها أصبحت الآن قابلةً للتفسير. ولكنها أصبحت قابلةً للتفسير بفضل ملابس غير قابلة للتفسير. كانت جويس ترتدي في هذه اللحظة ما بدا للسيد ريكاردو وكأنه بدلة صبي أنيقة من المخمل الأسود، وسروال يصل إلى ركبتيهما، وجورب من الحرير الأسود. ولا ريب أن الحذاء مصنوع من الساتان الأسود الذي في قدميهما يخصها؛ أكدت آثار الأقدام في سوفلاك ذلك. ولكن، لم يتمكّن السيد ريكاردو من فهم ما تعنيه تلك الملابس. وكي تزيد من جمال ملابسها، كانت ترتدي فوق البدلة المخملية سترة قصيرة بلون قرمزي لافت. كانت السترة بلا أكمام ومكشوفة الكتفين لكي تلبس من فوق الرأس مثل قميص بلا أزرار، وكانت تصل بالكاد إلى خصرها. سترة قصيرة مثل تلك التي كان الخدم يرتدونها في العصور الوسطى — نعم، هكذا كانت — أو ربما كانت رداءً كهنوتياً قرمزي اللون.

بدأ السيد ريكاردو يحدث نفسه قائلاً: «جميع ملابسها غريبة.» ولكنه نظر إلى وجه جويس ويبل، وزحفت عليه لمحة من الشفقة والرعب أنسته كل شيء إلا شدة محنتها. كانت عيناها المذهلتان من فرط الرعب تلمعان وسط وجهها الشاحب الدائم الاختلاج. كانت ترتجف لدرجة بدا معها أن قدرتها على الوقوف أمر إعجازي، وبشعرها الأشعث وملابسها الملطّخة بالجص والتراب، ظلّت تنقل عينيهما من وجهه إلى وجهه في ارتياح. ولكن أشرقت عيناها عندما سقطتا على ريكاردو. فقد كان الشخص الوحيد ضمن هذه المجموعة الذي رآته من قبل، وظلت عيناها تنظران إليه وصارعت معرفتها به شكّها في هويته وسيطرت عليها تدريجياً.

قالت بصوت مبجوح وأجشّ بسبب حلقها الجاف من العطش، فحتى لو صرخت بصوت عالٍ لكانت غمغمة من أي من الحضور لتغطي صرختها: «هذا أنت! أنت!» مدّت يديها نحوه فجأة، ورأى أنهما كانتا مُكبّلتين معاً عند الرسغ.

قالت متوسلة: «أزلهما عن يدي»، وهزت ذراعيها حتى تصدر حلقات السلسلة صليلاً. وقالت: «أرجوك! أسرع! وإلا فساموت من الخوف.»

ولكن كان هانو قد وصل إلى جوارها حقاً. وقال: «تشجّعي يا آنسة! انظري، قُضي الأمر! لقد تحرّرت!»

همست قائلةً وهي تُبعد يديها إحداهما عن الأخرى وتضمهما ثم تبعدهما مجدداً غير مصدقة أنها تحررت: «نعم. نعم، لقد تحررت.»

نقل هانو بصره منها إلى القيود التي كانت تُكبّل يديها، ثم قلبها وحنى رأسه إلى أسفل وأوماً لنفسه.



شهقت قائلة: «أنت! أنت! اخلع القيود عن يدي بسرعة يا سيدي. أوه! سأموت من الخوف.»

وقال: «مورو! انظر هنا! وهنا!» كان يشير إلى بعض العلامات على الحديد، وصدر سباب من فم مورو.

وصاح قائلاً: «إنها ملك الدولة. آه! آه! إنها جرأة كبيرة من أولئك الأشخاص.» قال هانو في هدوء شديد: «ولكن هذا كان متوقعًا. يجب أن نحافظ على تركيزنا! فالقيود لا تنمو على الأشجار. لا، عندما نحتاج إليها لتقييد الشابات الفضوليات، يجب أن نحصل على أفضلها. كان هذا متوقعًا بكل تأكيد يا مورو»، وبينما كان يُسلم القيود إلى مساعده، زفرت جويس ويبل وسقطت على الأرض بجانبه متكومة. وقف هانو ينظر إليها، وقال لها زاجراً: «تشجعي يا آنسة!» وضحكت جويس ويبل بضعفٍ من مكانها على الأرض وقالت:

«من الرائع أن تقول: «تشجعي يا آنسة.» ولكن ماذا يمكن للآنسة أن تفعل يا سيدي، يا صديقي، إذا لم تستطع ساقا الآنسة أن تحملها؟ لا يمكنها إلا أن تجلس على الأرض، تلك الفتاة المسكينة، وتحكي قصصًا حزينة عن موت الملوك»، وخفت صوتها تدريجيًا حتى اختفى وانحنى كتفها بينما تزحف على الأرضية. ثم غطت وجهها بيديها فجأة، وعلى الفور أصبحت ترتجف من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها وهي تبكي مثل طفل صغير، وكانت الدموع تنهمر من بين أصابعها.

لم يفهم هانو أيًا مما قالته جويس ويبل، ولكنه كان يفهم ما تمر به جيدًا. ثم أمر بإحضار ماء بصوت حازم، وعندما أحضر كوب الماء، ركع على الأرض بجانبها وأحاط كتفها بذراعه الضخم، ورفع رأسها ووضع الكوب أمام شفتيها. تنهدت وهي تشرب الماء قائلة: «أوه!» وأمسكت معصمه وتعلقت به بكلتا يديها سريعًا خوفًا من أن يبعد الكوب عن شفتيها قبل أن ترتوي. سألتها هانو بعد أن انتهت من الشرب: «هل تريدين المزيد؟» صاحت بصوت أكثر قوة: «أوه، المزيد ثم المزيد»، وبدأت تضحك ولكن بطريقة غير هستيرية، وضحك هانو معها متعاطفًا. كان مورو يحمل دورقًا من الماء، فملأ الكوب مجددًا. وقف هانو أمامها بينما تشرب الماء، وأشار بيده لإخراج السجينات. دُفعت السجينات إلى الخارج بينما لا تزال جويس تشرب، وبعد وهلة أطلقت صرخةً واستندت على ركبتيها وألصقت جسدها بالجدار.

قال هانو: «أنت آمنة يا آنسة.» ولكنها لم تسمعه. كانت عيناها تنظران إلى الباب الذي خرجت منه النساء وإلى القبو المظلم خلفه. ركعت واقفةً على ركبتيها وأذت كتفها بسبب الضغط عليه بعنف إلى الجدار. وارتجفت. وبدا أنها على وشك الإصابة بنوبة زعر مجددًا.

قال هانو: «لا، لا يا آنسة.» كان يتحدث بأسلوب أمر. أردف: «لم يعد ثمة ما تخافين منه. يجب ألا تخافي من شيء!» ثم وجّه حديثه إلى مورو: «تأكد من حبس هؤلاء النساء في واحدة من الغرف حتى يحين وقت زهابنا، وأرسل شخصًا إلى الميدان ليحضر سيارة السيد ريكاردو.» ثم التفت إلى جويس ويبل مجددًا، وقال: «سأخبرك بما سنفعل. سننقلك في سيارة السيد ريكاردو الفاخرة إلى فندق السيد ريكاردو الفاخر حيث ينتظرك صديق لك ...»

سألت جويس مقطبةً جبينها في حيرة: «صديق لي؟» ثم صرخت في زعر: «ليس من ...» قاطعها هانو بنبرة حازمة للغاية: «لا، لا، لا، ليس من قصر سوفلاك. هل تفضلين بالاستماع لما أقول؟ أنا أتولى أمرك الليلة. أنا رهن إشارتك.»

قال السيد ريكاردو موضحًا: «إنه يقصد مربيك يا جويس.» وانخرط جميعهم في ضحك بدا سخيًا ولكنه ينم عن إدراك الحقيقة في الوقت نفسه. كانت جويس ويبل تدرك غريزيًا أن التمسك بالأمور الصغيرة والهزلية هو السبيل الوحيد لترميم ما أصابها من جراح وهلع خلال هذا اليوم، بينما كان هانو يرى في الضحك وسيلةً لإنقاذها، بشرط

ألا يتجاوز الحد الفاصل ويتحول إلى نوبة هستيرية. ولكنه لم يكن يعرف يقيناً سبب الضحك. فلم يكن شيء مما قال هو ما أثاره. كان قد استخدم تعبيراً اصطلاحياً مثيراً للإعجاب في الوقت المناسب. ولكنه كان سعيداً بأنهم قادرون على الضحك، وشحذ سمعه ليلتقط أول دلالة على حدوث نوبة هستيرية، وظل طوال الوقت يصنع من كتفه العريضة حائلاً بين الفتاة المكومة على الأرض بملابسها الممزقة، والأداة التي كانت ستستخدم في قتلها. كانت الأنشطة والحبل القصير اللذان يتوعدان بعذاب بطيء وتشويه مريع يتدليان من الخطاف في السقف. ولكنهم ظلوا يضحكون تحتكما حتى رنت جدران هذه الغرفة المقيتة تحت الأرض بصوت جذل لم يُسمع من قبل قط. بدا الأمر للسيد ريكاردو وكأن ضحكاتهم تُعيد أشباح الكثير من الجرائم إلى سباتها وتُطهر القبو مما فيه من شرور.

قال هانو مخاطباً الفتاة: «تعالِي. سأحملك ما دامت قدماك لا تستطيعان حملك.» أوقفها على قدميها، ثم حملها بين ذراعيه بسهولة كما لو كان وزنها لا يزيد على وزن طفل رضيع. لم يكن في القبو سوى ثلاثتهم في تلك اللحظة. فقال هانو: «هل تحمل المصباح؟ ستترك هذا القبو على حاله ليفحصه مفوض الشرطة، وستنير لي الطريق بحرص شديد حتى لا أصدم رأس هذه الشابة في الجدران.» تقدمهما السيد ريكاردو حاملاً المصباح إلى القبو الخارجي. ورأى بوضوح تلك الحفرة التي تفادى الوقوع فيها بالكاد. كانت بعض ألواح الأرضية الخشبية قد أُزيلت، وحُفر خندق ضحل في الطين؛ إنه قبر. وفكر أنه إذا كان هانو استسلم لمناشداته في مطعم «العصفور الذهبي»، أو إذا كان استسلم لشكوك نفسه، أو إذا تأخر مورو في الحضور واستدعائهما، أو لم تُصدر صرخة الموت المريعة دويّاً من تحت أقدامهم، لأصبح هذا القبر مشغولاً بجثة، وجعلت هذه الفكرة قلبه ينقبض داخل صدره وملأته بلوعة لا يمكن نسيانها. كان سيصبح شريكاً في هذه الجريمة. وظل الندم يلاحقه لما تبقى من حياته، وامتلأت نفسه بالامتنان لصديقه. وفي تلك اللحظة، ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يرى هانو حاملاً جويس ويبل بين ذراعيه ويجعل تلك الحفرة خلف ظهرها حتى لا تراها. وحققاً لم تراها أثناء مرورهما من أمامها. كان مدخل الممر المسقوف الضخم مفتوحاً على مصراعيه، وكان هناك حراس يرتدون ملابسهم الرسمية يقفون الآن عند الباب وفي الشارع، وكانت السيارة تقف تحت الممر المسقوف وأنوارها مضاءة. حمل هانو جويس ويبل إلى السيارة ووضع قدميها على مرقاة الصعود إلى السيارة، وساعدها على دخولها. وأشار إلى أحد الجنود الواقفين في الردهة أن يصعد إلى المقعد المجاور للسائق.

قال وهو يُغلق باب السيارة: «حسنًا! سنُعطّك لدقيقة. هل ما زلتِ تشعرين بالخوف؟»

أجابته وهي تبتسم في وجهه عبر نافذة السيارة وتأخذ شهيقًا عميقًا: «لا. ولكن...»
«ما الأمر؟ لا تترددي يا آنسة. إن العالم بأسره رهن إشارتك الليلة.»
«حسنًا إذن! سأطلب منك شيئًا واحدًا. أريد أن أستنشق الهواء الطلق، وأن أشعر به يصطدم بوجهي وعنقي. اختصارًا، هل تأمر بفتح سقف السيارة؟»

زحف على وجهه هانو ببطء تعبير سرور حقيقي. وقال: «يا آنسة، سقف هذه السيارة لا يفتح. إنها سيارة صديقي ريكاردو، وسقفها لا يفتح. لا. صدقيني. إن الأنواع الأكثر فخامة من السيارات فقط هي التي يفتح سقفها. غدًا سأقلّك في سيارتي من نوع فورد، وستجدينها مختلفة.»

استدار ليووجه الردهة ووجّه ابتسامة مأكرة إلى السيد ريكاردو. ولكنه تراجع عن هذه الابتسامة بعد لحظة واحدة.

وقال: «هناك ما أريد قوله إلى الأرملة تشيشول. ويجب أن تسمع ما سأقول. سيكون من المثير أن ترى كيفية استقبالها للأمر.»

كان هانو يتحدث ببطء، ويتلذذ بكلماته المتباعدة وابتسامة صفراء مرتسمة على وجهه لم يرها السيد ريكاردو على وجهه إلا مرةً أو مرتين فحسب. وفي لحظة من الخيال الجامح، أطلق عليها اسم الضربة القاضية. أسرع عائدًا إلى المنزل متتبعًا خطوات هانو. فقد كان هانو يريده إلى جواره ليريه كم هو بارع في تسديد الضربات. كانت الأوامر قد أُعطيت حقًا عندما وصل ووُضع مفتاح في مزلاج أحد الأبواب. فتح أحد الحراس باب غرفة الجلوس.

قال هانو: «أنتِ! أيتها الأرملة تشيشول. تعالي هنا!» وخرجت المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض والبقع السوداء في وجهها إلى دائرة الضوء ورمشت بعينيهما.
وقالت: «هل تريدني أنا يا سيدي؟ نعم؟ أنا رهن إشارتك. لعلك تتذكر أنه لم يلحق بها أي أذى. ربما شعرت ببعض الخوف! كان هذا هو كل ما كنا ننوي فعله؛ نعم! لا ريب في أن هذا لم يكن صوابًا ويجب أن نتعرّض لبعض المعاناة؛ نعم.»

قاطعها هانو برفق: «أنصحك بأن تلتزمي الصمت. احتفظي بمهراتك لتلقيها على سمع رئيس محكمة الجنايات، ولا ريب لديّ في أنه سيستمع إليك. أما بالنسبة إليّ، فثمة تحذير أريد أن أقوله لك، وأرجو أن يفيدك. لا ريب في أنك زُرت في أحد أيام الأحد تلك التحفة الرائعة التي تشتهر بها هذه البلدة: كهف الموميאות.»

قالت الأرملة تشيشول وعيناها مثبتتان بقلق شديد على وجه هانو: «نعم يا سيدي. لقد زرتة.»

«حسنًا! أثناء أبحاث أجريتها اليوم في بوردو، صادفت حقيقةً مفزعة أثق بأنها ستهمك. هذا المنزل يا تشيشول» ورنَّ صوته في المكان بنبرة أعلى وأكثر حزمًا «هذا المنزل مبني فوق تلك المقبرة القديمة التي أُخرجت المومياوات منها.» رمشت الأرملة تشيشول في وجهه بحثًا عن مغزى لكلماته. ولم يتركها تترقب لمدة طويلة.

وصاح بصوتٍ عالٍ وهو يشير نحو الأرضية تحت قدميه: «هل هي هنا؟ هل هي هنا؛ جين كوريسو؟ والآخرون الذين اختفوا من على وجه الأرض؟ سنعرف غدًا.» وعندما استدار وسار نحو الباب، صرخت الأرملة تشيشول وسقطت على الأرض كحجر.

الفصل العشرون

الوجه المطل من النافذة

قفز هانو خارج السيارة عند باب الفندق في شارع كور دو لينتندانس. وقال مخاطبًا جويس ويبل: «انتظري هنا! سأحضر عباة»؛ وعاد بعد دقيقة. لفت جويس العباة حولها ووُجهت نحو غرفة جلوس ريكاردو. دخل هانو الفندق معها، وصعد ريكاردو الدرج معهما، ولكنه استحضر في يده، بطريقة سحرية، طبقًا من البسكويت أثناء سيره.

قال وهو يعد كرسيًا من أجل جويس أمام المائدة ويضع طبق البسكويت أمامها: «والآن يا آنسة، ستجلسين هنا، وستأكلين بعض البسكويت بينما أستكمل الترتيبات.» ثم خرج من الغرفة، وعاد مجددًا بسرعة كما لو أن الوقت لم يتمكّن من الصمود أمام طاقته. كانت جويس ويبل لا تزال تأكل قطعة البسكويت الثانية عندما رفع هانو الطبق من أمامها بهدوء. وقال: «هذا يكفي.»

صاحت جويس وهي تتعلّق بالطبق بكلتا يديها: «لا! أنا جائعة.» علّق السيد ريكاردو مؤنبًا: «إنها ليست وجبة عشاء كبيرة.» قال هانو: «هذه ليست وجبة عشاء من الأساس. ولكنها ستسد شهيتها إلى العشاء. هلاً تتركين الطبق من فضلك يا آنسة؟»

ولكن هزت جويس ويبل رأسها في إصرار وتشبّثت بالطبق أكثر. كانت تبدو وكأنها صبي صغير عنيد لدرجة أن هانو بدأ يضحك، ولكنه ظل يجذب طبق البسكويت منها بيده الضخمة، وظلت متشبّثة بالطبق بيديها الصغيرتين. وقالت بصوتٍ متهدج وعينين دامعتين: «أنا أتضور جوعًا.»

فرد عليها برفق: «أعرف يا صديقتي الصغيرة. أعرف ذلك جيداً». وأحاطت ذراعه الحرة كتفيها. وقال: «عليك أن تستمعي إليّ وستعرفين كم أنا حكيم. انظري! لقد حجزت غرفةً من أجلك ... رقم ١٨ ... ها هي بطاقتها ... غرفة ذات مغطس ... آه، أنت لا ترين أنك متسخة مثل الصبي الذي يُنظّف المداخل. كما أنني طلبت عشاءً من أجلك ومعه زجاجة شمبانيا صغيرة، وسيدفع السيد ريكاردو ثمن كل هذا. واستعرت منامةً من مديرة الفندق. البيجاما ذات لون برتقالي داكن؛ لا! لقد فقدتها في فندق الليدو. ستلتقين إذن بصديقك هنا لدقيقة. ثم تستردين بياض بشرتك بالاستحمام. ثم تضعين نفسك داخل منامة المديرة وتذهبين إلى الفراش. ثم يُحضّر العشاء لك، وربما تواصلين الحديث مع صديقك أثناء تناول العشاء. ثم تغطين في النوم؛ ويجب ألا تخشي شيئاً؛ فقد وضعت حارساً عند باب غرفتك. لا حاجة بنا إلى أي حارس، كما تعلمين. لقد وضعته هناك فقط لأنني عطوف وحريص للغاية. وإذا ما استيقظت خلال الليل وتخيّلت فجأةً أنك لست في مكان ترغبينه، فكل ما عليك فعله هو أن تنادي قائلة: «هل أنت موجود يا ألفونس؟» وسيرد عليك: «نعم يا آنسة، بكامل عتادي». وإذا قلت: «هل أنت هنا يا هايسنث؟» فسيجيبك بالإجابة نفسها.»

ظل هانو يثرثر في محاولة منه لجعل ذلك الوجه المتنعّب يبتسم، وضحكت حقاً فجأةً ووضعت يدها الصغيرة على قبضته الضخمة. قالت وهي تنهض على قدميها مترنّحة: «حسنًا. ولكنك ظلّلت تذكر صديقاً المرة تلو الأخرى. وفيما عداكما أنتما، لا صديق لي في بوردو.»

«سنرى.»

توجّه هانو نحو الباب وفتحه ونظر خارجه، ثم دخل برايس كارتر الغرفة. أطلقت جويس صيحة دهشة عندما رآته. وقالت: «أنت؟» جلست مرةً أخرى على مقعدها وهي تُحدّق فيه. وقالت: «ولكن، متى أتيت؟»

قال برايس كارتر: «هذا المساء. نشرت الصحف في لندن خبراً عنك ليلة أمس.»

«وهل شددت رحالك إلى هنا على الفور؟»

«بلا أدنى شك. لقد أتيت على الفور.»

«أوه!» مررت جويس إصبعها المتسخ إلى الأمام والخلف على مفرش الطاولة وزمّت شفّتيها اللتين ابتسمتا ببطء.

وقالت: «هذا عطف كبير منك.» رمق هانو السيد ريكاردو وقلب يديه أمامه في يأس. لم تكن ثمة حاجة به لأن ينفخ في أصابعه الآن. هذا الرجل صاحب الخطابات الحارة كان يقف جامدًا مثل عمود وسط صحراء قاحلة لا يقول إلا «بالطبع»، و«أتيت على الفور»، وكأنه طبيب يؤدي عمله. وكانت هي جالسةً تنظر إلى أصابعها المتسخة وتقول في أدب: «يا له من عطف كبير منك!» ما أغرب هذا الشعب؛ اللعنة عليهم!

قال هانو محاولاً أن يجعل تصريحه مفاجئاً قدر الإمكان: «حسنًا، سننصرف، أنا والسيد ريكاردو.» ولكن جاء تصريحه عديم التأثير مثل تقديمه برايس كارتر. فلم يُلْغَف الشابان أنفسهما عناء السؤال إلى أين سيذهب هو وريكاردو، أو يوليان حتى أدنى اهتمام بتحركاتهما. كان برايس كارتر يحدّق في جويس، وكانت جويس تحدّق في مفرش الطاولة. حاول هانو مرةً أخرى. وجّه إلى ريكاردو ابتسامةً واثقة، وكأنه على يقين بامتلاكه سحرًا نافذًا لجذب انتباه الفتيات.

وقال: «سنذهب لنجلب لكِ ملابسك يا آنسة.»

لا ريب في أن ما قاله كان له تأثير، ولكنه لم يكن التأثير الذي توقّعه. كان ينتظر تعبيرًا عن الحماسة والامتنان. كل ما حدث هو أن جويس رفعت عينيهما بخجل لتنظر إلى وجه برايس كارتر وتقول مع ضحكة خفيفة: «إنه يقول إنني أشبه صبية تنظيف المداخل.»

تفحّص برايس كارتر ما أمكنه تفحّصه منها بجدية. ثم رد قائلاً:

«لم أرَ صبية تنظيف المداخل من قبل، ولكنني أعتقد أنه محق.»

لم يستطع هانو أن يتحمل المزيد. فخرج من الغرفة مسرعًا، ووجده السيد ريكاردو يستند منحنيًا إلى جدار الممر والذهول بادٍ على وجهه، وذراعهما يتحركان في حركات عشوائية تدل على العجز.

وصاح قائلاً: «ما أغرب هذا الشعب!»

أما السيد ريكاردو، فعلى النقيض، كان لديه منظور مختلف للأمر. فقد كانت التصرفات الرشيدة والسيطرة على النفس تسمان قلبه دائماً.

فقال في صرامة: «لسنا معتادين على التعبير عن مشاعرنا على الملأ بهذه الطريقة حتى في ظل أقوى المغريات.»

قال هانو عابسًا: «كنت مخطئًا بشأن هذا الشاب. إنه لا يملك العقلية المناسبة. ولن يبلي بلاءً حسنًا في عالم الأعمال.»



ضم برايس «صبية» تنظيف المداخل بين ذراعيه.

ولكن رنّت صرخة قصيرة من خلف الباب المغلق. وسرعان ما سُمع صوت برايس كارتير الخفيض الملتاع بعد الصرخة. «جويس! جويس!»
استدار هانو في لمح البصر وفتح الباب. وتسمّر هانو في مكانه لجزء من الثانية وكأنّ دوره قد حان ليصبح عموداً حجرياً. رأى برايس كارتير واقفاً بجانب الطاولة وبين ذراعيه صبية تنظيف المداخل، وكان ذراعاها ملتفين بإحكام حول رقبته، ووجهها مدفوناً في معطفه. أغلق هانو الباب برفق.
وقال معترفاً بخطأ حكمه على الشاب: «إنه يملك العقلية المناسبة وسيبلي بلاءً حسناً. هيا بنا!»

سارت السيارة هذه المرة في طريق فونداوديج وخرجت منه بموازة طريق ميدوك. وبحلول العاشرة، كانت السيارة لا تزال تسير بين منازل البلدة. انتهى الشارع الطويل فجأةً بطريقة مفزعة، وانطلقت السيارة في ظلمة الريف المفتوح. ولكن كان الطريق ممتدًا أمام مصابيح السيارة القوية وكأنها وشاح من الثلج، وكانت الأشجار التي تحف الطريق تلتقي باستمرار صانعةً غابة كثيفة ثم تنفتح لتسمح للمارة بالعبور. ومن وقتٍ لآخر، كانوا ينطلقون فوق طرق مرصوفة بالحجارة بين منازل بيضاء شاحبة تاركين قريةً أخرى تغرق في الظلام من خلفهم؛ ومن وقتٍ لآخر أيضًا، كانت نوافذ حانة مضاءة تنافس أنوار سيارتهم على إنارة الطريق، ثم تختفي من خلفهم. جلس هانو صامتًا تمامًا في عتمة السيارة الفارحة، وكان السيد ريكاردو يجلس على أحر من الجمر مانعًا نفسه عن قطع تأملاته. لا ريب في أن الرجل العظيم كان يضع الكثير من الخطط في ذهنه. في ذلك الوقت، لمع ضوء ضئيل ما دل على اقترابهم من بويك. كانت مغامرات الليلة تقترب من نهايتها. ثم تحدث هانو فجأة. وقال: «كنت أفكر يا صديقي».

«كنت حريصًا على عدم قطع حبل أفكارك.»

«كنت أراجع في ذهني كل ما قيل وحدث هذا المساء.»

«من الطبيعي أن تفعل.»

«ثمّة أمر وحيد يحيرني.»

سأله السيد ريكاردو حاسدًا: «أمر واحد فقط؟»

رد عليه هانو: «أمر واحد يا صديقي. ولكنه أمر يمكنك أن توضّحه لي.»

دلت سلسلة من الحركات البسيطة عند الركن الآخر من العربة أن السيد ريكاردو كان يُعدّل من وضع ياقته، ويرفع كتفيه باعتداد، ويشد كميّه، ويُعدّل من هندامه بوجه عام بما يتناسب مع هذه المناسبة.

وقال: «سأبذل أقصى ما في وسعي. ها تِ ما عندك يا هانو!»

حينئذٍ، استسلم هانو لما يُحيرُه، وقال: «هل من عادة الإنجليز أن يجلسوا على الأرض

ويقصوا حكايات حزينّة عن الملوك الراحلين؟»

«لا يا صديقي، ولكن هذا يُسمى اقتباسًا إنجليزيًا، عندما يوظّف بالطريقة

الصحيحة.»

أدار هانو رأسه وسط الظلام في حماسة. وقال: «آه! الأنسة الفاتنة وبيل؛ هل قالت

عبارةً على هذه الشاكلة في القبو؟ هل استخدمت تعبيرًا اصطلاحياً؟»

«يمكنك أن تُطلق تلك التسمية على عبارتها.»

قال هانو في سعادة: «حسنًا. أنا أيضًا أستخدم التعبيرات الاصطلاحية.»
لم يكن السيد ريكاردو يفهم كيف يمكن لعقل محترف يضع خطة محكمة ويعمل على تنفيذها أن ينتقل للتفكير في التفاهات بينما ينتظر نتيجة عمله.
فصاح: «هل تعني أنك طوال تلك المدة كنت تجلس في ركن من سيارتي تُفكّر في طرح سؤال سخيف عما إذا كان يمكنك أن تحشر في بعض الأحيان عبارة غير معتادة سمعتها للمرة الأولى في حديثك؟ أنت تقترب من ميراندول. تنتظر كمهام رهيبة هناك؛ وأنت تفكّر في عبارة اصطلاحية سخيفة. لا أريد أن أكون قاسيًا في الحكم عليك، ولكن التهاون يبقى تهاونًا.»

لم يؤثّر هذا التوبيخ في هانو.
ردّ قائلاً: «إن القادة الكبار، يا صديقي، بعدما يتجهّزون لمعاركهم، ويعطون إشارة البدء، يمكنهم أن يحملوا سنانيرهم ويذهبوا لصيد الأسماك. فلن يمكنهم فعل المزيد. لن يمكنهم أن يُغيّروا من استراتيجيّة المعركة متى بدأت. ينطبق الأمر نفسه على هانو. لقد اكتملت خطته. وأتباعه ينفذونها حاليًا. وهو يتعلم تعبيرًا اصطلاحيًا.»
كان قد انتهى من فوره من هذه المقارنة التي تخلو من التواضع عندما تأرجح فوقهم مصباح جيئةً وذهابًا، وتوقفت السيارة بعد ضغط جميع مكابحها بعنف. سقطت أنوار المصابيح الأمامية على حبل مثبت بعرض الطريق عند مستوى غطاء المحرك، وحوله ثلاثة حراس يرتدون أزياءهم الرسمية ومحقق محلي بملابس مدنية. فتح المحقق باب السيارة، وعندما رأى من بداخلها، أدّى التحية.
وقال: «إننا نحيط بقصر ميراندول إحاطة السّوار بالمعصم. كل ما عليك فعله هو أن تُطلق صافرتك وسنذهب لمساعدتك على الفور.»

سأله هانو: «هل الفيكونت بمفرده؟»
قال المحقق ضاحكًا: «لا، قاضي التحقيقات برفقته. السيد الطموح تيدون. اشتهر عنه أنه يطمح لتولي منصبه نفسه في باريس، وهذه هي القضية التي ستُعَلّي من شأنه. إنه لم يدع الفيكونت دو ميراندول يغيب عن ناظريه طوال اليوم، أوكد لك ذلك.»
«وماذا عن سوفلاك؟»

«لم يخرج منه أحد طوال اليوم.»
«حسنًا!» أخرج هانو رأسه من النافذة وتحدّث مع المحقق همسًا. وسمع ريكاردو المحقق يرد: «نعم.» ثم يقول مجددًا: «نعم.» ثم وجّه هانو رأسه نحو مورو الجالس على

المقعد المجاور للسائق. وقال: «سندخل القصر عبر البوابة التي كانت تُطلّى.» وعندما أراح الحراس الحاجز عن الطريق، التفت هانو نحو المحقق مجدداً. وقال: «لا حاجة بنا لهذا الحبل بعرض الطريق بعد الآن. عليك ألا تدع أحداً من قصر سوفلاك أو قصر ميراندول يمر. ولكن يمكنك أن تسمح لأي مارة آخرين بالعبور بحرية.»

هدرت السيارة وكأنها قطعة ضخمة أثناء مرورها أمام بوابة ميراندول الحديدية على اليسار ومزارع سوفلاك على اليمين. وصلت السيارة إلى قوس مدخل منزل سوفلاك وكانت جدرانها الوردية تلمع تحت النجوم وكانت أنوار جميع نوافذه مطفأة. ثم دارت السيارة لتتهبط المنحدر الذي يمر عبر مباني المزرعة والمراب، وتعبر المراعي وتهبط التل. على بعد ٥٠ ياردةً من البوابة، طرق هانو على الزجاج الأمامي فتوقفت السيارة. ومن هذا المكان، أكمل الرجال الثلاثة الطريق سيراً في هدوء. كان سفح التل ينحدر عن يمينهم، وسياج ملكية ميراندول يرتفع عاليًا عن يسارهم، بينما كانوا يسرون على هدى الوميض الخافت للطريق الأبيض. عند إحدى النواصي، عثروا على فجوة في السياج. تقدّم السيد ريكاردو إلى الأمام مطرقاً ومد يداً نحو البوابة. ولكن جذبه هانو إلى الخلف بعنف. وقال هامساً: «لا تلمسها!»

رد عليه السيد ريكاردو بالنبرة نفسها: «القليل من الطلاء غير الجاف؛ ما أهمية ذلك؟»

«قد يكون هناك أكثر من مجرد طلاء غير جاف. فلنتوخّ الحذر!» وضع قفازاً على يده اليمنى. وعلى الرغم من أن الجماعة كانت تتحرك دون إصدار أي صوت، لم يلمس مزلاج البوابة إلا بعد أن بزغ شعاع من الضوء وسقط على وجوههم ثم خبا. تقدم رجل من بين شجيرات الحديقة وفتح البوابة لهم. غمغم هانو: «أحسنست المراقبة. أشكرك.»

تسللوا بين الشجيرات العالية إلى المرح الذي يقع أمام المنزل المنخفض. وحول حواف الستائر الداكنة السميكة المسدلة على نافذة المكتبة، تسلل بعض الضوء. ولكن كان كل شيء آخر مظلماً. فكّر ريكاردو أنه في تلك الغرفة، كان قاضي التحقيقات الطموح يراقب المجرم الذي ستؤدي إدانته إلى انتقاله إلى باريس. فزحف إلى الأمام عبر الدرب على أمل أن تمنحه إحدى هذه الحواف التي يتسلل الضوء عبرها لمحةً عما يحدث داخل الغرفة. ماذا يفعل هذان الرجلان؟ هل يثرثران ويشربان زجاجةً من النبيذ وكأنهما صديقان؟ لم

لا توجد أي دلالة على أنه على أحد جانبي المدفأة يجلس مجرم وعلى جانبها الآخر يجلس قاضٍ يعرف ما ارتكب من جرائم؟ أم أنهما يجلسان في صمت مطبق وعينا أحدهما تنتقلان من المقعد إلى الطاولة، ومن الكتب إلى التحف، ومن اللوحات إلى محرك النار اللامع؛ تجوّل بعينه في أرجاء الغرفة كي لا تلتقيان بعيني الرجل الآخر الذي يجلس في ثبات محددًا بعينين لا تطرفان في وجه جامد كالفلواز. كان السيد ريكاردو يتوق لأن يعرف. فزحف مقتربًا من النافذة ونظر عبرها، ثم أطلق صرخة مكتومة وقفز فجأة إلى الخلف. أمسكه هانو من ذراعه.

وقال: «صه! ماذا رأيت؟» ولكن كان ريكاردو تعرض لصدمة مفاجئة، ولدفعة غريبة من الرعب جعلته غير قادر على الرد. شعر وكأن الدم قد تجمّد في عروقه وأن معدته قد انقلبت.

قال لاهثًا وهو يشير نحو النافذة: «انظر! انظر!» اقترب هانو بدوره من النافذة ونظر عبرها. وجفل أيضًا. كان الفيكونت دو ميراندول يقف بين الستائر والنافذة ملصقًا وجهه في الزجاج، ويداه مكورتان حول عينيه لئلا تمنع أي لمعان من أنوار الغرفة عن الوصول إليهما، وكان يحرق في الظلام في الخارج، ولم يكن يتحرك وكأنه صنم هندي قديم. كان يراقبهما كما لو أنه طالب سهران يستذكر، وأقلقه صوت غصن يتكسر في حديقة منعزلة، فراح يراقب من وراء الستائر، وحين أدرك وجود لصوص، تجمد في مكانه من الذهول. لم يكن يفصل بين السيد ريكاردو وذلك الوجه الأبيض الكبير ذي الشفتين السميكتين البغيضتين والجهة الصلعاء إلا سُمك زجاج النافذة، ولم يتحرك الوجه على الإطلاق. لم يرَ ريكاردو في حياته مشهدًا أكثر إزعاجًا وقبحًا من ذلك. ثم وقف بجانب هانو مترددًا ومضطربًا. وقف الرجلان على بعد قدم من النافذة مذهولين. هل يعتقد الفيكونت أنه غير مرئي؟ إنهما يحرقان فيه دون أن يرياه؟ صحيح! ولكنه تحرك، وكانت حركته أكثر غرابة، بل وأكثر إثارة للرعب من جموده. فقد انفجرت أساريه عن ابتسامة كشفت عن صفّي أسنانه، ثم رفع إصبعًا سميكًا مشيرًا بإيماءة دعوة. وللحظة، انحسرت الستارة الثقيلة، ورأى الرجلان في الحديقة قاضي التحقيقات آرثر تيدون، ينحني نحو الأمام من المقعد حيث يجلس في الغرفة المضاءة، وعلى وجهه تعبير ترقّب غامض. وسرعان ما أسدلت الستارة مجددًا وأخفت المشهد. ولكن، منحت تلك اللمحة العابرة ريكاردو تصورًا جديدًا وغامضًا عن آرثر تيدون، قاضي التحقيقات. هل هو حقًا ذلك القاضي البار الذي يجالس ضحيته، ويتلاعب بها، مؤديًا دور داود مع جوناثان، حتى تصل الشرطة؟ لا!

لو كانت الأمور جرت كما هو متوقع، لظهرت علامات الابتهاج على وجهه. ولكن كان الترقب هو البادي على وجهه. وسأل نفسه، هل هذه ملامح تعبر عن الخوف؟ لا. ربما بعض الحسابات الذهنية، ولكن الترقب هو الغالب بشفتيه المغورتين وعينيّه الجاحظتين المحدقتين المترقبتين.

سرعان ما توقفت تأملات السيد ريكاردو حين انفتح الباب فجأة، لينطلق منه شعاع ضوء كبير امتد فوق الحصى البيضاء في الممر.

وصل الصوت الجهوري البغيض إلى أسماع المراقبين يقول: «هل أنت السيد هانو؟»
«أجل، إنه أنا.»

«هلاً تفضّل بالدخول؟ السيد تيدون معي هنا. كان من المقلق أن أرى الكثير من الزوار المفاجئين في حديقتي في تلك الساعة المتأخرة. ولكني أود أن تخبرني بكل ما فعلتموه في بوردو.»

قال هانو بصوتٍ جاف صارم: «كل شيء؟ لقد كنت مشغولاً للغاية يا سيدي الفيكونت. مورو!»

خرج مورو من الظلام، وتبع الزوار الثلاثة الفيكونت إلى داخل الردهة. ولكن مر اثنان منهم فقط عبر عتبة باب المكتبة. فقد ظل مورو واقفاً أمام الباب.

الفصل الحادي والعشرون

غاز الخردل

كان قاضي التحقيقات يُزَرِّر قفازًا في يده اليمنى. وأومأ بود إلى هانو والسيد ريكاردو. وقال آسفًا: «لقد خيبت ظني يا صديقي هانو. لم أزل في مكاني نفسه بعيدًا عن بوردو مثلما كنت منذ يومين.»

ردَّ هانو مبتسمًا: «بل على النقيض يا سيدي. لقد أصبحت هناك حقًا.»
بدأ بعض الدهشة على وجه قاضي التحقيقات تيدون. وقال: «ممتاز.» بدا وكأنه على وشك أن يطلب توضيحًا لما قيل، ولكنه عدل عن تفكيره وارتضى بتكرار تلك العبارة بحماسة أكبر: «نعم، ممتاز! آه، شرطة باريس! لا يمكن إخفاء شيء عنهم لمدة طويلة.»
هز هانو رأسه نفياً. وقال: «سيدي، كلما طالت فترة مزاويتي لمهنتي، زاد تواضعي ...» من بين كل الأكاذيب التي سمع السيد ريكاردو هانو يقولها، وهي كثيرة، كانت هذه هي التي أصابته بأكبر قدرٍ من الدهشة، وغمرته بشعور قوي بالإعجاب. ثم قال هانو: «لكي أوضح لك الأمر أكثر، يرجع القسم الأكبر من نجاحنا إلى الحظ والأخطاء التي يرتكبها الآخرون.»

قال قاضي التحقيقات في أدب جم: «يجدر بك أن تقنعني بذلك صباح الغد.» ثم نهض واقفًا ومد يده يلتقط قبعته بيده اليسرى.

لم يرد هانو على هذه الدعوة. بل عبر الغرفة في خط مستقيم وأصبح يقف حاليًا أمام المدفأة، وكان أبعد الموجودين في الغرفة عن بابها. ولكن بدا للجميع أنه يمسك بمقبضه. ثم سأل بهدوء: «هل ستصرف سيدي القاضي؟» فتوقف تيدون، وبدا وكأنه رجل يستجدي الإذن بالانصراف وهو يجيب:

«إن سيارتي تنتظرني منذ مدة ...»

قاطع هانو: «منذ حوالي ساعة.»

«لا بد أنك مررت بها في فناء القصر.»

قال هانو: «جئنا عبر البوابة التي راعى السيد دو ميراندول طلائها بنفسه بالأمس.»
شعر السيد ريكاردو بوطأة أحداث رهيبة، ولكنه لم يستطع تخمين هذه الأحداث، فخطب نفسه: «كل ما يحدث غريب. إن الرئيس، قاضي التحقيقات الواسع النفوذ، يطلب من أحد مرءوسيه أن يسمح له بالانصراف، وتحجّر جميع من في الغرفة كأنهم أعمدة ملحية بمجرد أن ذكر ذلك المرءوس أنه أتى عبر البوابة التي طُلّيت حديثاً.»

لا ريب في أن الأمر كان عجيباً. كانت هناك نبرة تهديد خافتة وغامضة للغاية في حديث هانو. فلم تكن من عادته أن يتباطأ في نطق الكلمات، ولكنه كان يتباطأ في نطق هذه الكلمات، وبدا الاضطراب على كلّ من الفيكونت والقاضي. كان القاضي هو أول من استعاد رباطة جأشه.

فقال مبتسماً: «أوه، لقد جئت عبر هذا الطريق الطويل. إنه يجعلك تمر أمام قصر سوفلاك. نعم، أعرف أنك أكثر من يريد أن يعرف ما يحدث هناك.»

قال هانو: «لم تكن هناك أي أنوار تصدر من نوافذه.»
استغل القاضي تيدون هذه المقاطعة. وكانت هذه إشارته، واغتنمها على الفور، وكأنه ممثل عظيم.

فقال: «لا. نحن معشر الريفيين ننام مبكراً»، ثم نظر إلى ساعته. وقال: «يا إلهي! يجدر بي أن أفرض على نفسي غرامة. ماذا سيقول أهل فيلبلاننش الطيبون عندما يقضّ صوت سيارة القاضي مضاجعهم في تلك الساعة المتأخرة؟»

قال هانو: «من المؤكد أنك لن تذهب بعيداً.» بدت كلماته وكأنها مطرقة دقت على سندان. فقد استدار القاضي على عقبيه، كما لو أن يدًا خفية ماهرة جذبتة من ذراعه.

ولكن واصل هانو حديثه في لباقة: «إنه على مرمى حجر من هنا. على مرمى حجر.»
لم يكن ثمة مجال للخطأ في فهم ما تعنيه النظرات التي تبادلها الرجلان. كان أحدهما يسأل: «ما الذي تعرفه؟» وكان الآخر يجيب: «لن أخبرك.» فيسأل الأول مجدداً: «هل جرؤت على تهديدي؟» فيرد الآخر: «منحني واجبي هذه الجراءة.» ظلّا واقفين يحدق أحدهما في الآخر، وشعر السيد ريكاردو بأسى شديد عندما أدرك أن قاضي التحقيقات لم يرقَ إلى تصورات المسبقة عنه. كانت البنية الهرمية للقانون تنهار وتتحوّل إلى سحابة من الغبار مثل منزل عتيق ظل قائماً لقرن من الزمان. أوه، هذا لا يصح. لا يصح على الإطلاق!

استطرد هانو حديثه قائلاً: «ولكن هناك بعض الريفيين يحولون الليل إلى نهار. إليك السيد الفيكونت مثلاً.»

لم يبد الفيكونت سعيًا بجر اسمه إلى هذا النقاش. فابتسم ابتسامة شاحبة. وقال: «نعم، نعم. أنا أعمل حتى وقت متأخر من الليل.»

«ولكن ليس في مكتبك الزاخرة.» جاءت هذه العبارة في صيغة سؤال أكثر من كونها تصريحًا: «وهذا أمر أثار بعض الدهشة في نفسي.»

ولكن لم يجد الفيكونت صعوبة في الرد. فقد رد بسرعة وبإجابة وافية، وكأنه قد سمع هذا السؤال المخرج من قبلُ وجَهَّز إجابته النموذجية.

قال الفيكونت: «في الشتاء، أُوَدِّي أعمالي غير المهمة هنا. فالأشجار تحجب الريح عني. ويصبح المكان هادئًا هنا بينما ترتج جميع النوافذ في الطابق العلوي، كما أنه دافئ. ولكن في الصيف، أنا أستخدم غرفتي الكبيرة في الطابق العلوي. وهي بالطبع الغرفة التي نُجري فيها لقاءاتنا الأدبية والفلسفية. نعم، كما أن لنا رابطة صغيرة في ميدوك، ويُشرفني كثيرون بالحضور من بوردو ليحضروا هذه اللقاءات. وأغلبهم من النساء، للأسف! أعلم أن السبيل إلى إحداث تأثير دائم هو الوصول إلى الرجال، ولكننا نحن البسطاء لا يمكننا تحقيق ذلك. أما السيدات، فنعم، يمكنهن ذلك! قد تُفاجأ بعدد النساء المثقفات الكبير في هذه المنطقة الصغيرة من فرنسا ...»

قاطع هانو بسخرية لازعة تلك العبارات السلسلة الأنيقة التي تخرج من ذلك الفم المتناهي الصغر ذي الشفاه الشديدة الحمرة.

وقال: «وهل تُحسب الأرملة تشيشول ضمن هؤلاء المثقفات؟»

تخيل السيد ريكاردو قلبَي هذين الرجلين بين مطرقة وسندان ويتلقيان الضربة. فقد تسمَّرا مكانهما زاهلين، وكأنهما دميَّتان أو رجلان حين أصيبا بإصابات مميتة. ثم ضم الفيكونت راحتي يديه معًا ومسح العرق الذي أغرقهما.

وقال مكرراً: «الأرملة تشيشول؟» في صوتٍ خافت وغريب، ولكن كانت شفاته ترتعشان وكان ينطق الاسم على نحو خاطئ تمامًا. حدق تيدون في صديقه وارتفع حاجباه إلى وسط جبهته وكأنه يقول: «هذا الرجل مجنون»، ولكن كان وجهه شاحبًا كالوتى وعيناه حمراوين وكأنهما جمرتان. واصل دو ميراندول حديثه قائلاً: «من تكون الأرملة تشيشول؟ لم أسمع هذا الاسم من قبل. سيد هانو، قد يهكم أن ترى الغرفة التي أعمل فيها عندما يكون الطقس دافئًا. وسيُعجبك اختياري كثيرًا، على أي حال.»

هز هانو كتفيه، وردَّ قائلاً: «بما أنك دعوتني لرؤيتها يا سيدي، فلن يكون هناك ما يستحق أن أراه.» ولكن دو ميراندول لم يقبل الرد أو يفهمه.
فقال: «ولكنك مخطئ يا سيد هانو. لمرة واحدة فقط بكل تأكيد. أرجو أن تأتي وتحضر صديقك معك.»

كان قد عاد مبتسماً ومهذباً. فتح الباب ولكنه تراجع بحدة.
وقال: «نسيت أنكم ثلاثة.»

«السيد نيكولاس مورو، مساعدتي.» سار هانو نحو الأمام من دون أي حماسة. فكان يلبي رغبة مضيفه وكان يتصرف وكأنه رجل أصابه الملل. أما السيد ريكاردو، فعلى النقيض، كان متحمساً للغاية. كان يشعر بأنه من المرجح أن يلاحظ هو تفاصيل مهمة لم يلاحظها الآخرون. وقرَّ له بضع دقائق في تلك الغرفة ليتمكن من استخدام عينيه والشعور بجوها والكشف عن أسرارها. كان في مزاج الكشف عن الغوامض. كان الفيكونت يسير أمامهم. التف الممر إلى اليسار خلف المكتبة، وعند جانب المنزل كان هناك سلم يصعد إلى بسطة صغيرة. وظهر أمامهم باب ضخم. فتح دو ميراندول الباب وأضاء الأنوار. دخل هانو والسيد ريكاردو غرفةً طويلة ذات جدار مغطى بالألواح الخشبية عن يسارهم وصف من النوافذ عن يمينهم.

لم يخطئ السيد ريكاردو داخلها في البداية. بل ظل واقفاً عند عتبة بابها. كانت تلك الغرفة الطويلة ذات السقف المنخفض تحوي رسالةً على صف النوافذ على اليمين، حيث كانت ثمة أنوار مضاءة حتى الثانية صباحاً ثم خبت. ما الرسالة؟ أفرغ السيد ريكاردو ذهنه من جميع الأفكار. وغرق بكامل وجدانه في الغرفة. دع جو الغرفة يرسل نبضات تحوي رسالتها، وسيكون هو أسطوانة الشمع في جهاز الديكتافون الذي سيستقبلها. ولكنه لم يستقبل أي شيء.

جال ببصره في أرجاء الغرفة. كان هناك صف من المقاعد مصفوف بجانب الجدار، مقاعد جاهزة لوضعها في أماكنها لعقد مؤتمر أو إلقاء محاضرة. وكانت هناك طاولة طويلة في المنتصف وُضعت على أحد طرفيها بعض الكتب، ونشافة حبر، وحبر، وقلم حبر ضخم أحمر اللون، وكومة أوراق لكتابة الخطب بجانب نشافة الحبر. وعند طرفها البعيد المقابل للباب توجد منصة مثل تلك التي تراها في أي صف دراسي وُضع عليها مكتب المعلم ومقعده على مستوى أعلى من مستوى أرضية الغرفة. كانت هناك طاولة مكسوة بالجوخ تقف على المنصة بجانب الجدار، وفوق الطاولة كانت هناك أبواب خزانة كبيرة. لم يكن في الغرفة شيء خفي، أو غامض، أو غير مألوف، أو إحائي، أو غريب، أو مثير

للقلق. لم تكن تنطوي على أي رسالة. كانت مكاناً مناسباً لعقد المؤتمرات الفلسفية التي يتألف أغلب حضورها من النساء. شعر السيد ريكاردو بالحيرة. ووقف في منتصف هذه الغوامض مثل سفينة تقف داخل عين إعصار. وتحيط بها الرياح العاصفة من جميع الجوانب، بينما هنا في المركز يسود هدوء خادع. ولم يشعر في حياته بمثل هذا القدر من خيبة الأمل.

قال الفيكونت دو ميراندول: «أعتقد أنك أدركت الفارق بين هذه الغرفة والمكتبة خلال الليالي الصيفية. إنها معتدلة البرودة وجيدة التهوية. أجلس في مكاني إلى هذه الطاولة. إذا ما رفعت عيني، يمكنني النظر عبر النافذة المفتوحة ورؤية سوفلاك ونهر جيروند. وأرى أنوار السفن الطافية على سطح النهر. وأغرق نفسي في هدوء الليل ومداه البصري المفتوح. وتلوح الأفكار، ويستقبلها العقل.»

لم يرتكب الفيكونت خطأ ديانا تاسبورو نفسه ويقر بمعرفة أن السيد ريكاردو قد رأى الأنوار مضاءة في الثانية صباحاً. وركز أكثر على تفسير سبب إضاءة الأنوار. فجلس على مقعده أمام الطاولة الطويلة مواجهًا النافذة، ولوح بيده ليبيّن مدى اتساع الريف المظلم وما يراه من أراضٍ ونهر ونجوم في السماء. وغمغم قائلاً: «رائع! رائع!»

سأله هانو من فوق المنصة: «هل تلقي محاضراتك من عند هذه الطاولة؟» قال الفيكونت: «نحن نبعد الطاولة إلى الأمام بعيداً عن الجدار ونضع مقعداً خلفها.» ثم ملأت وجهه ابتسامة. وقال: «أريد أن أعترف لك بشيء يا سيد هانو. لا تبدأ حياتي إلا عندما أجلس في هذا المقعد خلف هذه الطاولة وأرى جميع هؤلاء المساكين تحت رحمتي طوال ساعة كاملة.»

وجه هانو نظرة خاطفة غريبة للغاية نحو دو ميراندول. وقال: «تبدأ حياتك إذن؟ نعم، سيدي الفيكونت، أعتقد أنك لم تقل شيئاً صادقاً أكثر من ذلك في حياتك. أنا أفهمك جيداً.» كان جاداً للغاية وينطق بسلاسة الكلمة تلو الأخرى بوضوح تام. كان السيد ريكاردو لا يزال غارقاً في انفعال الحماسة. ولكن ظهر أمام عينيّه مشهد مختلف تماماً. تخيل نفسه يجلس مرة أخرى على أحد المقاعد التي تُتيحها الحكومة في المحكمة الرئيسية في أولد بيلي. وأمامه يقف أحد المحامين المكيين المشهورين، يخاطب هيئة المُحلفين التي تجلس عند الجانب الذي يقابله من المحكمة، مختتماً مرافعة الادعاء في محاكمة جريمة قتل، بوضوح متزن واستخدام قاتل للكلمات اليسيرة.

رفع هانو يديه نحو أبواب الخزانة، ومنهما كان بابان يلتقيان عند منتصفهما ومقوَّسين عند قمتيهما. وقبل أن يحاول فتحهما، قال دو ميراندول:

«هناك درج في الطاولة يوجد به المفتاح.» رفع هانو طرف مفرش الجوخ الذي كان يتدلى على جوانب الطاولة وفتح الدرج. ولكنه نصب قامته مرةً أخرى فجأةً دون أن يترك مفرش الجوخ أو يرفع عينيه عنه.

قال الفيكونت قبل أن يطلب منه هانو أي تفسير: «كان المفرش القديم ملطَّخًا بالكثير من بقع الحبر وأصبح رثًا للغاية فخلجت منه.»

قال هانو معلقًا: «فوضعنا مفرشًا جديدًا على الطاولة بالأمس، أليس كذلك؟» رد دو ميراندول وارتعش صوته قليلًا: «بالأمس ... أو أمس الأول ... أو منذ شهر. خادمي يعرف متى حدث ذلك.»

قال هانو في إصرار هادئ: «أظن أن هذا حدث بالأمس.» ولم يعترض الفيكونت. أخذ هانو المفتاح من الدرج وفتح مزلاجي بابي الخزانة ثم فتحهما على مصراعيهما حتى لامسا الجدار. ونظر داخل التجويف الصغير للخزانة، كانت خاويةً دون أي رفوف وتشع بطلاء أبيض. ضغط هانو طرف إصبعه برفق على الطلاء وسحبه وقد تلطَّخ باللون الأبيض.

وقال: «آه! أرى أنك لم تقم بطلاء بوابتك فحسب.» قال دو ميراندول وهو يهز كتفيه: «قد تؤدِّي فكرة إلى أخرى.» «نعم، نعم، وقد يؤدِّي الطلاء الأبيض إلى الطلاء الأخضر، وربما الطلاء الأخضر إلى الطلاء الأحمر، أليس كذلك؟ أعتقد أن الأحمر هو اللون الذي نطلي به مقاسلنا.» ابتسم الفيكونت ابتسامةً شاحبة. ثم نظر نحو السيد ريكاردو، مُظهرًا بتكلف، نوعًا من التوافق بينهما في الأخلاق والتربية الرفيعة. كانت تلك الدعابات السمجة متوقعةً من رجال الشرطة، ويجدر بالرجال الحكماء أن يتجاهلوها.

ثم سأل هانو: «هل رأيت كل ما تريد رؤيته؟» رد هانو وهو يغلق باب الخزانة ويضع المفتاح في جيبه: «لقد رأيت أكثر مما توقعت أن أرى. كما أن قاضي التحقيقات ينتظرنا، وهذا لا يليق على الإطلاق.» فتح باب الغرفة كما لو كان هو صاحب المنزل ودعا مرافقيه للخروج.

قال دو ميراندول: «لا ريب في أن السيد تيدون قد انصرف.» رد عليه هانو وهو يبتسم بأدب: «لا أعتقد ذلك.» ثم أغلق باب قاعة المؤتمرات، وكان محققًا فيما قال. فبعد أن هبطوا الدرج، رأوا على الجدار الرئيس للرواق الخيال المشوَّش

للقاضي يسقط عبر عتبة الباب المفتوح بفضل مصابيح المكتبة. كان مورو لا يزال يقف حارساً في الردهة حيث تحدّث هانو إليه.

وقال: «هل يمكنك أن تحضر المحقق إلي؟ سأنتظر هنا. الأمر مهم.»
أدّى مورو التحية وخرج من المنزل. تحرك الخيال على الجدار فجأة ثم هدأ مجدداً. بدا وكأن القاضي فكّر في التدخل ولكنه عدل عن الفكرة وقرّر أن ينتظر. لم يتحدث أي منهم طوالم مدة غياب مورو. كان قد ترك الباب مفتوحاً، وكان حفيف الأغصان الصغيرة التي تحرّكها الريح الخفيفة يملأ الرواق بصوت يشبه صوت أمواج البحر وهي تزحف فوق شاطئ مليء بالحصى. غطّى هذا الصوت صوت وقع أقدام، وظهر مورو والمحقق لدى الباب.

قال المحقق: «هل أرسلت في طلبي يا سيد هانو؟»
«نعم. في غرفة الطابق العلوي توجد خزانة فوق طاولة موضوعة على منصة. سأكون ممتناً لو وسمتها بختمك. وكذلك يجب وسم الغرفة نفسها بختمك بعد إغلاقها. وبالطبع ستحتاج إلى إذن المفوض. لذا، أستمحك عذراً أن تُسرّع في الحصول على إذنه في أسرع وقت ممكن، وأن تترك حارساً على الباب حتى تفعل. ها هو المفتاح.»
استدعى المحقق رجلاً من الحديقة ونصبه حارساً عند قمة الدرج، واحتفظ هو بالمفتاح.

وقال: «سأتولى الأمر»، وسمع صوت تيدون يستدعي هانو إلى المكتبة. تبعه السيد ريكاردو حتى باب المكتبة، وهناك تردّد في الدخول فقد كان الذوق والفضول يتصارعان في داخله. ولكن دعاه قاضي التحقيقات للدخول، وكان يجلس في مقعد وثير، ويرتدي قفازه، ويضع قبعته على ركبته، ويمسك عصاه بيده اليسرى.
وقال: «نعم، لا توجد أسرار لأخفيها. ادخل أنت أيضاً يا دو ميراندول. هل يمكنك أن تغلق الباب؟ حسناً!»

كان القاضي يتصرّف بتحضّر، ولكن كان وجهه شاحباً، وكانت قسمات وجهه تختلج من وقت لآخر بسبب تشنجات يسببها ألم جسدي.

قال القاضي بصوت هادئ وبطريقة رسمية: «سيد هانو، بينما كنت في الطابق العلوي، جلست أفكّر في الفكرة التي شغلت ذهني طوالم اليوم. أنا قلق بالطبع من أن قضية على هذا القدر من الأهمية قد تنهى على عجل، أو دون تحقيق العدالة. ولكنني على قناعة تامة بأنه قد حان الوقت لأن أمارس سلطتي. أنا أعفيك من الآن فصاعداً من أي مهام تتعلق بهذه القضية.»

بُهِت السيد ريكاردو! لقد أُعفي هانو من مهامه بطريقة مخزية وغير مشرفة من قبل قاضٍ صغير من الأقاليم! كان إعلان مثل هذا يُعدّ تجديدًا يرتقي إلى مرتبة تدنيس المقدسات. كما أنه يُعدّ سخافةً أيضًا. لا ريب في أن السيد ريكاردو أُجبر لمرة أو مرتين على تصحيح مسار المحقق الشهير وتوجيهه إلى مسار أفضل. ولكن رغم إجراء هذه التصحيحات، كان هانو محققًا في نهاية المطاف. وها هو السيد تيدون الصغير يورط نفسه من فرط جهله بالدوس في أعقاب هذا الرجل العظيم، كما قد يفعل كلب بكيني صغير مع كلب لابرادور ضخم. مجرد جملة واحدة قصيرة — كان هذا كلُّ ما يتطلبه الأمر — وستجد ذلك الكلب البكيني يُهرع ليختبئ تحت أقرب أريكة. وكان بمقدور السيد ريكاردو أن يتفوّه بها. وتساعد في داخله شعور عارم بالاستياء ونخوة جارفة. كان على وشك أن يتفوّه بتلك الجملة لولا ابتسامة التقدير الغريبة التي ملأت وجه هانو. كان هانو مسرورًا.

استطرد قاضي التحقيقات الذي اندهش من ردة فعل هانو على عزله: «إن سمعة السيد هانو الحسنة المستحقة ليست خافيةً عني، ولا يجدر به أن يعتبر قرارى قليلًا من إمكاناته. هذا ليس صحيحًا على الإطلاق! وسأوضح ذلك في تقريرى النهائى. ولكن هذه القضية بالذات معقدة بطريقة غير عادية ولا تندرج تحت فئة القضايا البدهية التي يُستدعى جهاز الأمن العام عادةً لتوليها. إنها ليست حادثة شجار لعصابة أباتشي في أحد الملاهي الليلية، ولا عملية سطو في شارع الشانزليزيه. إن الوضع الاجتماعى لجميع الأطراف المتورطة في القضية يفرض أكبر قدر ممكن من الدقة. ويجب أن يُتحرّى في شأنها بدقة على الفور في سوفلاك. لقد كانت ...» ثم اعتدل القاضي في مقعده. وزاد صوته قوةً وظهرت بوضوح نبرة استياء فيه. بدا وكأن كلماته قد أسكرته ومنحته ثقةً بالنفس. وقال: «لقد مُنيت بخيبة أمل كبيرة عندما ذهب السيد هانو إلى بوردو بنفسه. أعلم جيدًا أن هناك تحقيقًا مضيئًا تطلب منه كامل وقته وطاقته ...» وأومأ هانو برأسه.

وقال مقاطعًا: «قضية الأرملة تشيشول».

كان غريبًا بالنسبة إلى السيد ريكاردو أن مجرد ذكر اسم هذه العجوز الشمطاء يُحدث اضطرابًا. فقد انحنى الفيكونت دو ميراندول وكأنه شجرة في مهب الريح. وبدا السيد تيدون وكأنه قد سُلِبَ لبه. فقد جلس بعينين جاحظتين فاغرا فاه كأنه أبله، وتجمدت جميع كلماته الفصيحة على شفّتيه، وظلت يدها تختلجان على ذراعى مقعده. كانت الأرملة تشيشول هي عبارة الاختبار، ورقة عباد الشمس الخاصة بالتجربة. ولكن كما أدرك هانو منذ البداية، كان آرثر تيدون رجلًا ذا قوة كبيرة.

فتابع حديثه في ثبات قائلاً: «أيًا كانت القضية، لا ريب في أنها تطلّبت تركيزك ووجودك بشخصك. بناءً على ذلك، سأطلب إذن دو ميراندول باستخدام هاتفه.»
صاح دو ميراندول فارغاً راحتي يديه معاً: «بالطبع يا صديقي. اعتبر نفسك في منزلك.»

رفع قاضي التحقيقات نفسه من مقعده بيد واحدة. كانت كلماته توحى بالثقة ولكن لم تكن ساقاه قادرتين على حمله. فوقف حتى وازن نفسه على قدميه، وخطا خطوةً نحو الأمام. ولكن كان الهاتف عند الطرف الداخلي من الغرفة، وكان هانو يقف بينه وبين القاضي، ولم يتحرك هانو من مكانه.

وقال في احترام أدesh صديقه: «سيدي القاضي، مع فائق احترامي، أرجو أن تخبرني بالرسالة التي تريد إرسالها. أطلب منك ذلك باعتباره معروفًا.»

رد عليه تيدون بعطف: «لن أسبّب لك أي ضرر. سأتصل هاتفياً بمفوض الشرطة وأخبره بأن خدماتك القيمة مطلوبة في بوردو، ومن ثم فإنني أنهي أسفاً خدمتك في سوفلاك...» ثم صمت للحظة، وقال: «بدايةً من هذه اللحظة.»

ولكن لم يتحرك هانو من مكانه.

وقال: «أرجو ألاّ تعتبر سؤالي وقحاً، ولكن هل يعني ذلك أن أوامري بإغلاق غرفة الاجتماعات ووسمها بالختم الرسمي لن تُنفذ؟»

«يعني ذلك أنني أنا من سيقرّر ما يجب فعله، وما يتعلق بجميع المتورطين في القضية، بنفسني. وأرجو منك أن تتنحّى جانباً.»

كان السيد ريكاردو يتربّح تصرفاً بطولياً يُدّكره بأمجاد العصور الغابرة، مثل تحدي قاضي التحقيقات، أو ربما طرحه أرضاً بلكمة واحدة إذا اقتضى الأمر ذلك. ولكنه كان في دولة تُقدس تسلسل السلطة. فتتنحّى هانو جانباً. وقال في خضوع: «أمر مؤسف سيدي القاضي. كنت آمل أن تعود إلى بوردو معي الليلة.»

توقف تيدون عن السير ونظر نحو هانو بحدة، وقال بابتسامة صفراء: «أنت من سيعود، ولن أكون أنا بصحبتك.»

لا ريب في أنها كانت لحظة غريبة لمراعاة إبراز الضمائر أثناء الحديث. وشعر السيد ريكاردو بالحيرة من تحذلق القاضي أثناء حديثه. ولكنه كان صاحب اليد العليا، وكان يراعي أن يستغلها إلى أقصى مدى ممكن.

ردَّ عليه هانو وقد بدأ يتحدث بصورة غامضة: «يا للأسف. يدك تحتاج بشدة إلى رعاية ماهرة لن تجدها إلا في عيادة الطبيب. وحتى إذا حصلت عليها، فلن يُشفى الجرح قبل ستة أسابيع.»

صاح القاضي في غضب: «يدي!»

واصل هانو حديثه قائلاً: «يدك اليمنى. عندما تشرفت والسيد ريكاردو بمناقشة أمر جريمة سوفلاك مع السيد القاضي صباح أمس، كان من الجلي أنه يشعر بألم مبرح. وسيزداد الألم قوة، باستمرار، إذا لم تحصل على العلاج المناسب.»

وقف القاضي يحاول أن يُخضع هانو بنظراته. ولكنه كان قد فقد سيطرته خلال اللحظات الفائتة. كانت نظراته صارمة بما يكفي لإخضاع جيش من المرءوسين، ولكنه كان قد فقد ثقته بنفسه. ثم صاح فجأة:

«إذا كنتُ قد أحرقت يدي يا سيد هانو، ما شأنك أنت بذلك؟»

رد عليه هانو بهرود: «لا دخل لي على الإطلاق بأنك أحرقت يدك. ولكنك لم تحرق يدك سيدي القاضي. لقد لمست بها بوابة ما منذ ليلتين؛ وكذلك فعل روبن ويبستر.»

صاح تيدون: «بوابة ما! بوابة ما! هذا الرجل مجنون!»

واصل هانو حديثه في هدوء: «بوابة سيدي الفيكونت التي حرص على حرق طلائها القديم وتنظيفها وإعادة طلائها بالأمس. ولا ريب في أن لديه حقاً ليفعل كل هذا. كان الورنيش اللزج الذي غطَّى تلك البوابة يحتوي بشكل أساسي على ...» وأخرج برقية زرقاء من جيبه وراجعها؛ ثم قال: «مادة ثنائي كلورو إيثيل الكبريتيد ...»

قاطعها قاضي التحقيقات في شفقة وهو يومئ برأسه نحو دو ميراندول: «يا للمسكين! يا للمسكين! لقد جُن الرجل.»

وافقة دو ميراندول قائلاً: «لا ريب في ذلك.» كان السيد ريكاردو قد توصل إلى الاستنتاج نفسه على استحياء، حتى أخرج هانو البرقية من جيبه. كان هانو قد أرسل الكثير من البرقيات مساء أمس من بويك، ومن بينها واحدة أرسلها إلى شرطة سكوتلاند يارد لتوجيهها إلى رئيس أحد مختبرات العقاقير في شمال إنجلترا.

استطرد هانو حديثه قائلاً: «هذه المادة معروفة لدى العامة باسم غاز الخردل ...» وصمتت في هذه اللحظة جميع الاتهامات التي وُجّهت له بأنه مجنون، فقال: «اخترع هذا الورنيش في عام ١٩١٧ عندما كانت موارد الحلفاء المالية ضئيلة. وعندما اقتضت الحاجة معرفة هويات الأشخاص الحقيقيين الذين كانوا يجتمعون في مواعيد محددة داخل كوخ

معين على الساحل الغربي لأيرلندا. فطلّيت بوابة الكوخ بهذا الورنيش، وتلطخت أيدي كل من دخل الكوخ به. لا يحدث أي شيء طوال ساعة كاملة. ولكن مع اقتراب الساعة من نهايتها، تبدأ قرحة في الانتشار. في أفضل الأحوال، تحتاج هذه القرحة ستة أسابيع حتى تتدمل، ومن ثم كان تحديد هُويات هؤلاء الأشخاص أكثر دقة وبساطة حتى من بصمات الأصابع. استُخدمت الطريقة المبتكرة نفسها على بوابتك منذ ليلتين يا سيدي دو ميراندول. ووقع ثلاثة أشخاص في شركها.»

تعجب السيد ريكاردو الذي كان يستمع بفم مفتوح بعدما لم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك: «ثلاثة؟»

حوّل هانو عينيه من دو ميراندول، الذي كان يقف مسندًا مرفقه على رف المدفأة، إلى تيدون، الذي غاص في أحد المقاعد، وضحك مبهجًا، وقال: «ستلاحظ يا سيد ريكاردو أنك الوحيد الذي تعجّبت عندما قلت إنهم ثلاثة أشخاص. فهذا العدد ليس مفاجئًا بالنسبة إلى هذين الرجلين المحترمين.»

استدار الفيكونت وفرد يديه. وقال بصوت ساخر مرتعش: «من العجيب ألا يوجد أثر لهذا السم الغامض على يدي.»

رد عليه هانو في بساطة: «وكيف كان سيصل إلى يديك؟ لقد عدت إلى منزلك من قصر سوفلاك في وقت مبكر عبر الطريق المعتاد. لقد فعلت ذلك دون شك! عدت مبكرًا لأنه كان لديك بعض الترتيبات لتجهيزها، وعدت عبر الطريق المعتاد لأنك لم ترغب في لفت الانتباه إلى أنك غيّرت من عاداتك. لم يطل غاز الخردل إلا بوابتك الصغيرة الخاصة التي استخدمها زوار مُعيّنون في ساعة متأخرة من الليل بعدما خلد العالم بأسره إلى النوم.»

كرر السيد ريكاردو حديثه قائلًا: «ولكنك قلت إنهم ثلاثة؟» ربما أخطأ عندما تدخل في مناقشة رسمية، ولكنه لم يكن يطيق صبرًا ليفهم هذه النقطة قبل أن تُثار نقاط أخرى تنحّيها جانبًا. ولكنه قال: «أتفق معك على اثنتين. السيد تيدون وروبن ويبستر؛ ولكن من الثالث؟ من غيرهما تقرّحت يده بسبب لمس هذه البوابة؟»

قال هانو: «إيفيلين ديفينيش.»

الفصل الثاني والعشرون

القاضي يدخن سيجارة

قفز السيد ريكاردو في الهواء حقًا عندما سمع الاسم الثالث. ونظر نحو هانو في ترقُّب. كيف يمكنه أن يعرف ذلك؟ لقد تخطى تخمينه هذه المرة جرأته المعتادة، وكذلك ثقته المعهودة بنفسه. ولكن لم يتفوّه أي من الرجلين بكلمة اعتراض، ما جعلهما متهمين. فجلس القاضي تيدون محني الظهر في مقعده ووجهه شاحب مثل ورقة بيضاء، وعيناه مثبتتان على نار المدفأة. ووقف الفيكونت دو ميراندول وكأنه صبي ضخم مترهل أمسكت به مربيته متلبسًا بإحدى حماقات الطفولة. وكان يرتجف من قمة رأسه الأصلع إلى أخمص قدميه، وكانت تصدر من بين شفّتيه همسًا صيحات مكتومة ثم يتراجع عنها، ثم يهمس بها مجددًا. وتكشّفت تلك الحُجة اللعينة تدريجيًا مثل ورق البرشمان أمام عيني ريكاردو. لقد ذهب إيفيلين ديفينيش إلى منزل الفيكونت بعدما نام العالم. ولاقت حتفها بعنف في غرفة الاجتماعات، وظهرت على يدها نفس التقرحات التي ظهرت على يدي القاضي تيدون وروبن ويبستر مدير قصر سوفلاك. ولهذا السبب قُطعت تلك اليد بعد موتها. كان إجراء احترازيًا وحشيًا ارتكبه رجال أفزعهم الخوف ولم يكن عقابًا ساديًا. لم يكن ليفيدهم إغراق جثة المرأة في نهر جيروند، حتى وإن تُبِتت في القاع بالرصاص، وفي راحة يدها الجرح نفسه الذي يؤلم يد كل من المدير روبن ويبستر والقاضي تيدون! لا، لا! إن الجثث يُعثَر عليها في الأنهار. يجب استخدام العقاقير بالتأكيد. ويجب اتخاذ الإجراءات الاحترازية خشية أن تنكشف حقيقة أن القاضي تيدون والمدير روبن ويبستر عبرا البوابة نفسها في الليلة نفسها.

كان القاضي هو أول من استعاد رباطة جأشه، وقال: «لا أعرف أي شيء عن السيدة ديفينيش، بكل تأكيد. ولكنني لا أنكر أنني استخدمت هذه البوابة منذ ليلتين. لمَ قد أنكر

ذلك؟ دو ميراندول صديقي. لقد ذكرت كلمة فيخاخ يا سيد هانو. نعم، إلا أنك قد تضع فخاً لحيوان قاقم ولكن قد يفقد عصفور ساقه. الفخاخ لا تصطاد إلا الأبرياء ...» فكر السيد ريكاردو، يا له من تغيير طراً على الرجل! منذ خمس دقائق كان يقول: «اخرج! أنت مُعقّى من مهامك!» أما الآن فيقول: «ثمة تفسير لذلك. فقط اسمعني، واسمع كلامي المعسول!»

ولكن كان هانو مستعداً لذلك، فقاطعه قائلاً: «سيدي القاضي، أستمحك عذراً. أنا، كما أوضحت لي، مرءوسك. لا يصح أن أستمع إلى ... هل يمكنني أن أُطلق على ما تقول تبرئة ساحة؟ ... من رئيسي. ولكن من ناحية أخرى، كلّفني محافظ بوردو بأن أُسلم خطاباً لك. فهو أيضاً قلق بشأن القضية. يبدو أن لها الكثير من الأذرع. إنها قضية أشبه بأخطبوط، ويتوق المحافظ لأن يسمع كل ما يمكنك أن تخبره به.»

قال القاضي مكرّراً: «محافظ بوردو.» مدّ يده نحو هانو الذي أخرج الخطاب من جيبه. وقرأ الخطاب بتمعّن مرة، ثم مرةً أخرى. وقال في صرامة: «كان يجدر بك أن تخبرني بأمر هذا الخطاب على الفور. ولكن يبدو لي أنك جرّوت على التلاعب بي يا سيد هانو. لقد عرفت الآن أن العيادة والمحافظة مصطلحان مترادفان. سأضع في اعتباري أن أعرض ما فعلت أمام الجهة المناسبة، كما أعتبر أنه من واجبي أن أمتثل لرغبة المحافظ وأرافقه إلى بوردو رغم تأخر الوقت.»

أخفى هانيمته بثقة مثيرة للإعجاب. أقرّ له السيد ريكاردو بذلك. ولكنها كانت هزيمة في نهاية المطاف. لم تعد ثمة حاجة إلى الاتصال بمفوض الشرطة هاتفياً في فيلبلانز وإبطال أوامر هانو. ثم نهض واقفاً من كرسيه.

وقال: «أعتقد أن سيارة هذا الرجل النبيل تحت إمرك، أليس كذلك؟»

فانحنى هانو. وقال بأدب: «إن السيد ريكاردو يعاملني بكرم كبير.» وفتح باب الغرفة. وقف مورو في الرواق في وضع الانتباه. فقال له هانو: «مورو، القاضي يرغب في العودة معنا. هل يمكنك أن تصحبه إلى السيارة؟ سأتابعكما.»

تردّد تيدون لجزء من الثانية عند عتبة باب الغرفة. هل أدرك أنه على الرغم من أن الكلمة لم تُقل بطريقة رسمية، فإنه، قاضي المقاطعة الطموح، قيد الاعتقال؟ أم أنه كان يُفكّر بعمق في حجة بارعة من شأنها أن تبرّئه من أي مشاركة في الجريمة؟ لم يستطع السيد ريكاردو أن يُخمّن. وضع القاضي قُبعتة على رأسه، وسوّاها فوق رأسه في رضا، ثم خرج من الغرفة. بعد لحظات، سمع ريكاردو صوت خطواته وصوت خطوات مورو على حصى الدرب خارج المنزل. وداخل الغرفة، التفت هانو نحو الفيكونت دو ميراندول.

وقال: «سيدي، لا أعرف بعدُ إن كان يمكن إنفاذ القانون عليك أم لا. أم أنه من الأفضل ترك الرأي العام ينهشك حتى النخاع، ولا ريب في أن هذا سيحدث. في الوقت الحالي أنت قيد الإفراج المؤقت.»

دار هانو حول نفسه وخرج من المنزل. وأمسك بذراع السيد ريكاردو وقاده نحو البوابة.

وقال: «ثمة شيء آخر يُقلقني. سنرى.»

كان قاضي التحقيقات قد ركب السيارة حقًا عندما عبر هانو وصديقه البوابة. وركبا السيارة بدورهما، حيث جلس ريكاردو بجانب تيدون، وجلس هانو في مواجهته على المقعد المقابل.

وقال: «شغل الأنوار الأمامية يا مورو وانتبه.» واستدار هو أيضًا في مقعده وظل يراقب الطريق من بين كتفي مورو والسائق. انسابت السيارة بسلاسة هبوطًا على تل، وعبرت المرعى، ومرت أمام المرأب قبل أن يحدث الأمر الذي كان يتوقعه هانو. تقدم رجل من جانب الطريق حاملاً حقيبة ملابس. توقفت السيارة، وسُلمت الحقيبة إلى مورو، وانحنى هانو إلى خارج النافذة.

وسأل في ترقُّب: «هل سمعك أحد؟»

«لا أحد. كانت السيدتان لا تزالان في غرفة الاستقبال عندما صعدت إلى الطابق العلوي. أنا واثق بذلك.»
«حسنًا!»

تحركت السيارة مجددًا، ودارت حول القوس الزهري الفاتح لقصر سوفلاك، ومثلما قد يفعل أي شخص يُدرك مدى فداحة المهمة وضيق الوقت، حافظت على تقدُّم سريع، وثابت، ومنتظم طوال الطريق إلى بوردو.

تحدث قاضي التحقيقات بنبرة نَمَتْ عن بعض الاهتمام. وقال: «أعتقد أن ما سُلِّم إليك في السيارة حقيبة ملابس، أليس كذلك؟»

أجابه هانو: «بلى.»

«هل هي من قصر سوفلاك؟»

قال هانو: «نعم، طلبت من المحقق المسئول عن هذا الطريق أن يحضرها لي دون أن يلفت الأنظار قدر الإمكان.»

تبع ذلك لحظة صمت، ثم قال القاضي: «هذا غريب. لا ريب في أنها تحتوي على بعض الأدلة المهمة.»

قال هانو: «لا، سأخبرك بما في الحقيقة أيها القاضي. كان من المهم أن أحصل عليها من دون أن يعرف أي من سكان قصر سوفلاك أي شيء عنها. ولن أتمكن من التحرك حتى الغد. لهذا، لم أكن لأتمكن من معرفة حقيقة الأمر كاملةً حتى الغد. لدي شكوكي، ولكنها ليست كافية. والآن، إذا ما عرف سكان القصر أن هذه الحقيقة قد أُعدت وأُخذت سرًا، فمن الممكن أن يحدث تدخُّل من شأنه أن يُضرّ بمسار تحقيق العدالة.»

ظل القاضي صامتًا لوهلة، وظل ساكنًا أيضًا. ولم يتحدث إلا عندما كانت السيارة تمر كالبرق في بويك.

فقال: «سأكون ممتنًا يا سيد هانو لو تكرّمت وأوضحت أمر هذه الحقيقة أكثر.»

ردّ هانو في ود: «بالطبع. لا أسرار بين ثلاثتنا. تحتوي الحقيقة على بعض الملابس من أجل الأنسة جويس وبيل.»

سأل تيدون من رُكنه المظلم داخل السيارة: «لقد عثرت على هذه الشابة إذن؟»

رد عليه هانو: «يُسعدني أن أقول نعم. كانت ضربة حظ، التي يجب أن أغتنمها في عملي، قادتني إلى منزل الأرملة تشيشول في شارع جريجوار. ووصلت في الوقت المناسب.»

«إنها على قيد الحياة إذن؟»

«نعم. تعرضت لمعاملة سيئة. ولكنها شابة. وأعتقد أنها حصلت الليلة على تعويض مناسب، وغذاء سنعرف كل ما حدث في قصر ميراندول منذ ليلتين بالتفصيل.»

قال القاضي: «أخبار عظيمة. لم أكن لأمل في أفضل منها.»

استمر هانو في الحديث عن موضوع الحقيقة بطريقة رآها السيد ريكاردو غير ضرورية: «لذا، يمكنك أن تتخيّل مدى راحتي عندما حصلت على الحقيقة دون أن يعرف أي من أصحاب المنزل. إذا ما عُرف أن جويس وبيل في أمان وأن الحقيقة الكاملة ستظهر غدًا، فأنا أتوقع، كما قلت، أن يحدث شيء يعرقل مسار تحقيق العدالة...»

فكّر السيد ريكاردو أن هذا معناه أنه قد تكون هناك حالة انتحار، وربما اثنتان، وربما ثلاثة. مَنْ يعلم عدد سكان سوفلاك المتورطين في تلك الجريمة الغامضة؟

قال القاضي: «أفهمك تمام الفهم.» وعاد إلى صمته مجددًا.

ولكن عندما بدأ شعاع من الضوء يلوح في السماء فوق بوردو، قال: «أريد أن أدخّن.»

ووضع يده داخل جيبه ليُخرج علبة السجائر.

ضحك هانو في راحة تامة، وقال: «كنت متشوقًا لأن أسمعك تقول ذلك.» ونبّه صوت حفيف الورق السيد ريكاردو إلى أن علبة سجائر ماريلاند الزرقاء بين أصابع هانو.

القاضي يدخن سيجارة

وقال هانو: «معي ثقاب. اسمح لي.» صدر صوت احتكاك، وشعلة صغيرة، ثم ضوء أزرق متنامٍ استمر لبضع ثوانٍ، ثم سطع اللهب الأصفر، وتحول الظلام داخل السيارة الفارهة إلى مكان يعج بالظلال الراقصة مع وجهين فقط يظهران في بؤرة الضوء. أوصل هانو عود الثقاب إلى سيجارة تيدون، ثم أشعل سيجارته، وظل الرجلان يحدقان بثبات في بعضهما لبضع لحظات.

قال القاضي بهدوء: «أشكرك.»



أوصل هانو الشعلة إلى سيجارة تيدون ... وظل الرجلان يحدقان بثبات في بعضهما لبضع لحظات.

احترق عود الثقاب كله وانطفأ، وخيم الظلام مجدداً. ظل الرجلان يدخنان في صمت، وسيجارتاهما تتوهجان وتخفتان، ثم سقطت سيجارة تيدون على أرضية السيارة، وأثناء ما داسها هانو بقدمه، ملأت رائحة اللوز المر السيارة. فتح هانو نافذة السيارة. وصاح قائلاً: «أخرج فمك في الهواء يا صديقي»، وأطاعه ريكاردو مبعداً جسده عن ذلك الشيء الذي أصبح يهتز ويتمايل مع كل حركة تفعلها السيارة وهو راقد خلفه في أحد أركان السيارة. كانوا عائدین حقاً إلى المدينة. وبعد بضع دقائق، وقفت السيارة أمام الفندق في شارع كور دو لينتندانس. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً، ولم تكن أي من غرف الفندق مضاءة، ولا أي غرفة في الشارع بأكمله.

قال هانو: «سيدق مورو الجرس ليستدعي البواب الليلي. ولن تتفوه بشيء عما حدث. أنا أخدم القانون. ولن أسمح لأحد بأن يلحق به العار إلا في حدود ما هو ضروري.» قال السيد ريكاردو وهو يرتعد رعباً: «لقد أعدمته.»

قال هانو عابساً: «لست أفضل من الرجل الذي يستخدم المقصلة.» ساعد السيد ريكاردو على الخروج من السيارة وأسنده حتى عبر الرصيف. أجلسه على مقعد في بهو الفندق وأمر البواب أن يحضر كاساً مليئة بالبراندي، ووقف بجانب ريكاردو حتى شربها. ثم سأله باهتمام: «هل أساعدك في الصعود إلى غرفتك؟» ولكن هز السيد ريكاردو رأسه نفياً. واستند إلى الدرابزين أثناء سيره؛ فقد كانت ساقاه ترتعشان تحته، وبدأ يصعد الدرج. عاد هانو إلى السيارة، وبعد دقيقة، أصبح الشارع فارغاً مجدداً.

الفصل الثالث والعشرون

السيد ريكاردو يتناول الغداء

قضى جوليوس ريكاردو يومًا شاقًا كان من شأنه أن يرهق حتى شخصًا أكثر شبابًا وحبًا للمغامرة، ووقعت على رأسه في نهاية اليوم صاعقة كبيرة أفقدته إدراكه. ولم يكن غريبًا على الإطلاق أن ينام كلوح خشب. تلاشت صور القاضي تيدون، والفيكونت دي ميراندول، وإيفيلين ديفينيش، وروبن ويبستر، وهانو، والسيدة المسنة المتعجرفة في سوفلاك، والقس ذي الخطوات المتسللة، وديانا تاسبورو، وحتى جويس وبيل التي شغلت أرق مواضع قلبه، حتى صارت شبه شفافة مثل خيوط العنكبوت. وبدأت تختفي حاملة معها ما أثارت من تساؤلات وحيرة. ولم يتخيل على وسادته أي شبح، ولم يغز أي سؤال أحلامه. نام كما ينام الصبية بعد لعب مباراة كرة قدم. ولم يكن سطوع شمس النهار ولا جميع دقات ساعات بوردو ليستطيعا إيقاظه. دقت الساعة منتصف النهار عندما رأى، في جزء من الثانية، أحد تلك الكوابيس المعبدة التي تتجلى أحيانًا قبيل لحظة الاستيقاظ الحقيقية. كان الكابوس معذبًا لأنه لم يستطع أن يصرخ أو يتحرك، وكان يجب أن يظل راقداً كما لو كان ميرلين آخر سقط ضحيةً لتعويذة أبدية. كان يحلم بأنه يرقد في جحيم من الدخان الحار، بينما يمسك القاضي تيدون بيده ويشير قائلاً: «هناك! هذا هو المكان.» وقطعت السيدة تاسبورو المسنة ذراعه من عند المرفق بسكين فاكهة بسلاسة ودون أي جهد يُذكر. جلس في فراشه صارخًا وقلبه يدق في صدره بقوة. كان هانو يجلس بجانب فراشه، وسيجارة سوداء بين أسنانه وأصابعه تقيس عدد دقات قلب السيد ريكاردو. بعدما بدأ السيد ريكاردو يسمح تدريجيًا نحو استعادة وعيه وإدراك أنه صرخ من فرط خوفه، رفق زائرته في استيائه.

وقال هو يهز يده في الهواء إلى أعلى وأسفل كما لو كانت زعنفة سمكة: «ربما كنت رجعيًا، ولكنني لا أستطيع أن أتحمل في غرفة نومي إلا أخف أنواع التبغ التركي.»

ردَّ عليه هانو في ود: «حسنًا!» ولكنه لم يتوقَّف عن نفث الدخان من فمه. وقال: «هذا يعني أنني كلما زدت من نفث دخان سيجارتي الماريلاند، نهضت أنت من فراشك أسرع.»

عادت أحداث الأمس تتزاحم في عقل ريكاردو. فصاح: «أنت تحتاج إليَّ. يجب أن أدلي بشهادتي. لقد أقدم قاضٍ على قتل نفسه في سيارتي الرولز رويس. هذا أمر مهم للغاية. أرجوك تقاعد.»

كان السيد ريكاردو قد أزاح ملاءات السرير ورن جرس استدعاء إلياس تومسون. وفي خلال ساعة كان في طريقه إلى مبنى المحافظة، فلم يكن لديه ما يفعله خلال يومه إلا تأييد رواية هانو. ولكنه عرف كيف مات تيدون حقيقة. كان يحتفظ في علبة سجائره بسيجارة ذات سُمك خاص. وكانت محشوةً من عند طرفيها بكمية ضئيلة من التبغ، ولكنها كانت في الحقيقة مملوءةً بأنبوب يحتوي على جرعة من حمض البروسيك بتركيز ٩٠ في المائة.

قال هانو عندما جلس مع صديقه بعد ذلك لتناول الغداء في مطعم شابون فين: «لقد أخبرتك بأنه رجل بارع للغاية. كان قد استعدَّ لجميع الاحتمالات.»

قال السيد ريكاردو: «وكنْتَ تعلم أنه قد استعدَّ لذلك.»

هز هانو كتفيه. وقال: «لقد شككت في الأمر، وأصدقك القول، شعرت بالسُرور أنه اختار تلك الطريقة ليخرج من المأزق. إنه أحد أعضاء الهيئة القضائية. كانت الفضيحة ستصبح مدويةً عندما تُكشف جميع الحقائق في محكمة الجنايات. وكان من الخطر على سلك القضاء أن يعيش السيد تيدون حتى تُصدر المحكمة حكمًا ضده.»

سأل السيد ريكاردو متحيرًا: «هل كانت ستحكم عليه بتهمة قتل إيفيلين ديفينيش؟»

فأسرع هانو بمقاطعته.

وقال: «أوه، لا، لا يا صديقي.»

فرفع السيد ريكاردو يديه في الهواء. وصاح: «أنا تائه وسط الضباب. يمكنني سماع صافرات الإنذار وأبواق التنبيه آتيةً من هذه الناحية وتلك لتخبرني بموقعي، ولكن كلما سمعت المزيد منها، زادت سماكة الضباب، وقلت ثقتي بصحة موقعي.»

قال هانو وهو يجول ببصره في أرجاء الغرفة: «جرب هذا السلمون المدخن. خلال المرات النادرة عندما يصحني صديق ثري لتناول الغداء في مطعم شابون فين، لا أكون واثقًا بما إذا كنت أتناول الغداء في في مطعم شابون فين، لا أكون واثقًا بما إذا كنت أتناول الغداء في حديقة صخرية أم في قاع حوض أسماك.»

كان السيد ريكاردو معتادًا على ذلك المزاج المحير لذلك الضابط في جهاز الأمن العام عندما يؤدي دور الرجل الغامض رغم أنه يعرف كل شيء، فصاح بشيء من اليأس: «أريد منك أن تخبرني بأمر واحد. أريدك أن تخبرني بكيفية اكتشافك أن تيدون آذى يده.»
أجابه هانو ضاحكًا: «نعم، هذا سيثير اهتمامك.» ثم ملأ كأس صديقه وكأسه بخمر لافيت من إنتاج عام ١٨٩٩. ثم قال: «طرات عليّ فكرة غير مؤكدة في البداية. ثم أيدها لي سائقك. ثم جئت أنت وأكّدتها بصورة أكثر من رائعة.»

اعتدل السيد ريكاردو في جلسته. وتحدّث بقدر كبير من الوقار.
وقال: «أتوقع منك دائمًا قدرًا معينًا من السخرية. أكثر من ذلك! عندما تُسهب في الحديث في سياق معين وأقاطعك أنا، أعلم يقينًا أنك ستهاجمني وتعلّقني على حبل المشنقة. ربما لا يعجبني ذلك، ولكني لا أستاذ منه. أعلم أنني رجل مُسن محدود الأهمية حابه الحظ بأن أصبح صديقًا لشخص متميز للغاية. ولكن بعدما تُخبرني بأن الأمر برمته قد انتهى، ويصبح مزاجك هادئًا بينما أتحرق شوقًا لكشف ما لا أعرفه، فإني أقر بأنني أفضل أن تُخفّف عني حيرتي.»

وعلى الفور، خيم الندم على وجه هانو الضخم. وصاح قائلًا: «سيدي العزيز، قد لا يُقدّر أحد علاقة صداقة مثلما أقدّر أنا علاقة الصداقة التي أتشرف بأنها تجمعني بك؛ أنا لا أتلاعب بك. لا! سأخبرك بالحقيقة!» كان يدافع عن نفسه بصدق، وكان متأثرًا بشدة، فقال: «اسمع! ذهبنا — أنا وأنت — إلى مبنى محافظة فيلبلانش. حسنًا! والتقينا السيد تيدون الذي اصطحبنا إلى مكتبه.»
وافقه ريكاردو قائلًا: «نعم.»

«ووضع قبعته على عصاه المستندة إلى طاولة جانبية. حسنًا! ولكنه لم يخلع قفازه. وظل يرتدي قفازه طوال المقابلة. والآن اسمعني. نعم، لا يخلع الممثلون قفازاتهم وهم على خشبة المسرح. ولا أعرف السبب. السيد كليمنسو يفعل ذلك أيضًا. ولكن، بغض النظر عن الممثلين والسيد كليمنسو، يخلع الناس قفازاتهم في الغرف المغلقة. جعلني ذلك أتساءل. ثم حلّت لحظة عندما كنت أنت تقص قصتك، وكانت لحظة شديدة الغرابة. كنت تتحدث عن تلك الغرفة التي طرقت على بابها تحت جناح الليل. قلت: «وكانت غرفة ديانا تاسبورو.» وفي خضم غضبه من صعوبة المشكلة، ضرب سطح طاولته بيده اليمنى. هل تذكر ذلك؟»

«نعم.»

«ثم استدار على الفور مولياً ظهره لنا ووجهه إلى النافذة.»

«نعم.»

«ورفع ذراعه اليسرى وبدأ يعبث في مزلاجها.»

بدأ ذلك المشهد من غرفة القاضي يتضح أكثر فأكثر في ذاكرة ريكاردو بفضل تحفيز رواية هانو لها.

فوافقه قائلاً: «نعم.»

«ولكن بالنسبة إلي، بدا وكأنه يتشبَّث بهذا المزلاج. وتمايل جسده قليلاً. بدا لي الأمر بوضوح وكأن الرجل يكاد يفقد وعيه. ثم تحدَّث، ولكنه تحدَّث بصوتٍ ضعيف وخافت لدرجة أنني أشفقت عليه. ولم يستدر ليُوجِّهنا مجدداً إلا بعد مدة طويلة. فزادت التساؤلات في داخلي. وتذكرت أن روبن ويبستر قد جرح يده أيضاً. وعندما وصلنا إلى قصر سوفلاك تلکأت لأجعلك تسبقني لأتحدث مع سائقك على انفراد. نعم، لم يعجبك أن أتحدث إلى سائقك. لا، ولكن كان من الجيد أن أتحدث إليه. فقد عرفت أمرين؛ نعم، أولهما عبارة اصطلاحية، سأستخدمها في الوقت المناسب، وثانيهما تأكيد مهم لفكرتي. قلت: «عندما تعلّق ذلك الرجل بيده اليسرى في مزلاج النافذة، ما الحالة التي كان عليها؟» طرحت عليه هذا السؤال، وكانت إجابته، دعني أتذكر ما قال، كالآتي: «يا للهول، كاد يهلك. كان يحاول استجماع قواه.» كانت عبارة يا للهول جيدة، وقرّرت أن أتذكرها، ولكن بقية الإجابة: «كاد يهلك. كان يحاول استجماع قواه.» فقد وجدتها صعبة إلى حدٍّ ما، رغم إلمامي بلغتكم. فأجريت بحثي، ووجدت أن السائق كان يعني ما توقعت. كان تيدون على وشك فقدان وعيه. كان قد صدم يده بسطح مكتبه، وشعر بألم مبرح لدرجة أنه اضطر لتعليق نفسه في مزلاج النافذة ليمنع نفسه عن السقوط مغشياً عليه. هذا بالنسبة إليّ والسائق. والآن، لنتحدث عنك.»

قال السيد ريكاردو وهو يميل إلى الأمام في استمتاع وقد نسي كل شيء عن كرامته واستيائه: «نعم، لنتحدث عني الآن.» كان بصدد أن يسمع الدور الجيد الذي لعبه في هذا التحقيق. لم يكن واثقاً تماماً بجذواه. ولكنه سيعرف الآن.

قال هانو: «كنا، أنا وأنت، في شرفة سوفلاك. ونظرت أنت عبر النافذة ورأيت في ظلال الغرفة رجلاً يوليك ظهره.»

«نعم.»

«وصحت قائلاً بثقة تامة: «هذا قاضي التحقيقات.»»

«نعم.»

«ولكنه لم يكن قاضي التحقيقات. بل كان روبن ويبستر. إن هذين الرجلين يشبه أحدهما الآخر. أليس كذلك! ولكنهما، على النقيض، لا يشبه أحدهما الآخر كثيرًا. فسألت نفسي، وبالطبع سألتك، إذا تذكر، لم ارتكبت هذا الخطأ بهذا القدر الكبير من الثقة. ولم تتمكن من إخباري بالسبب. ولكن هذا لم يمنعني عن التساؤل. لا بد من وجود سبب. ثم توصلت إليه. ذلك الرجل المسكين كان يعلق يده اليمنى بين أزرار معطفه مثلما كان روبن ويبستر يعلق يده اليمنى في حامل. فتحت هذه الحقيقة اليسيرة عالمًا كاملاً من الارتباطات والاحتمالات أمام عيني. لا ريب في احتمالية أن الإصابة التي لحقت بويبستر سببها معصرة النبيذ. ولكني فكرت أكثر في احتمالية أن كلاً من قاضي التحقيقات وويبستر قد أصيبا في المكان نفسه وبالطريقة نفسها. وبدأت أسأل نفسي، هل يُمثّل قاضي التحقيقات الممتاز هذا خصمًا لي؟ لقد ساعدتني، على مدار التحقيق في هذه القضية، لقد ساعدتني كثيرًا.»

سأله السيد ريكاردو متشوّقًا وهو يضع في طبقه شريحة لحم طرية: «كيف؟ كيف؟ هل يمكنك أن تعطيني مثالًا؟»

ردّ عليه هانو: «سأعطيك مثالًا على المساعدات البسيطة وآخر على المساعدات المهمة. بالنسبة إلى المساعدات اليسيرة، أنت من أخبرني بالتغير الكبير الذي طرأ على الأنسة تاسبورو، وكيف أنها، بعدما كانت سيدة جماعتها الصغيرة، أصبحت تابعةً خائفة مسكينة ولم يبدُ أنها تلاحظ ذلك التغير في وضعها. كان هذا أمرًا مثيرًا للاهتمام جدًّا بالنسبة إلي. وجدت امرأة عجوز، ظلت سنوات طويلة من دون نفوذ، نفسها فجأةً في موضع السلطة، وتمسّكت بها، واستماتت عليها، وأصبحت ناقدةً لتصرفات غيرها وفظة، هذا فهمته بسهولة. أما الملكة الشابة بملابسها الأنيقة، وأمّوالها، ومنازلها، فتخضع للأوامر والتوبيخ — في هذه الأيام — بل وتؤرقها ... لا، لقد حيرني ذلك. إن المضايقات اليسيرة وتصيّد الأخطاء المستمر من شأنهما أن يحطّما الأعصاب. يظل استياء المرء منها يزداد أكثر فأكثر بدلًا من أن يكف عن ملاحظتها. كانت تلك التفصيصة مهمة، وربما كانت أكثر أهمية من حقيقة أنها اختارت ترك لندن في ذروة موسمها لتقيم في بياريتز في مدة ركودها. لقد لفت انتباهي إلى انقلاب غريب للغاية في شخصية الأنسة تاسبورو، ظهور هوس كبير. نعم.»

جلس هانو برهةً مبتسمًا. كان دأبه أن يذكّر نفسه صباحًا ومساءً قائلاً لها: «عليك أن تتعامل مع أشخاص، لا مع دُمى.» وكان يشعر بمتعة كبيرة عندما يكشف له أحد

التغيرات الطفيفة في السلوك أو الشخصية، والذي قد يبدو للوهلة الأولى غير مهم، عن حقيقة تختبئ وسط غابة كثيفة من الألغاز. ولكن لم يكن السيد ريكاردو سعيداً بأن يتركه مُعلّقاً لمدة طويلة من أجل تأملاته الراضية.

فقال: «ماذا عن المساعدات الكبيرة التي قدّمتها لك؟»

«لا ريب في أن هذا الجبن الأبيض ممتاز، أليس كذلك؟ في مطعم شابون فين، سواء كنت في حوض أسماك، أو في حديقة حجرية، ستستمتع بطعامك. ما رأيك! هل تريد بعض القهوة وبعضاً من المشروب الأفضل في المطعم؟ نعم؟ وسيجاراً ضخماً سميّكاً من شأنه أن يفسد تناسق بدلتك السياحية الفاخرة. حسناً. سأشعله سريعاً، ثم سأخبرك بما تريد أن تعرف. وإلا فسأجد جرعة مركزة بنسبة ٩٥ في المائة من حمض البروسيك داخل السيجار القادم الذي ستعطيه لي. نعم يا صديقي، ثمة مساعدات كبيرة أعطيتها لي. إن لم تكن قد رأيت أنوار غرفة الاجتماعات في قصر ميراندول مضاءة في الثانية صباحاً، لكننا لا نزال تائهين في الضباب الذي تحدثت عنه، ولكانت جويس وبيل الجميلة راقدة ساكنة وصامتة تحت التراب في شارع جريجوار بدلاً من التسكع بحالة اللامبالاة التي تُميّز شعبها بفستانها الأزرق الأنيق، وجوربها الحريري الأسود، وحذاءها اللامع المنقوش، وتتناول غداءها في مطعم شابون فين مع حبيبها.»

أضاءت وجهه نظرة سرور وود أثناء حديثه، ودار السيد ريكاردو في مقعده لينظر خلفه. وكانت جويس وبيل تقف على عتبة مدخل المطعم دون أن تُبالي بأحد سوى برايس كارتر الذي كان يطلب من رئيس النُدُل طاوله. لم يصل إلى علم الصحف بعد أي تطورات بخصوص جريمة سوفلاك لتقدّمها إلى قرائها. لم يكن أي من رواد المطعم، فيما عدا هانو وريكاردو، يعلم أن تلك الفتاة الأنيقة الجميلة التي تقف بجانب الباب هي الفتاة التي كان من المفترض أن اختفائها حير الشرطة. ولكن كانت ثمة علامات التقطتها عينا السيد ريكاردو على المحنة التي مرّت بها تمتلّت في شحوب وجنتيها والهالات السوداء حول عينيها الواسعتين، وفي إيماءة ونظرة معينة بدت عليها بينما تجلس على مقعدها أمام الطاولة، كما لو أنها لا تستطيع أن تُصدّق أنها لا تزال حية وحرّة. ولكن سرعان ما عاودت النظر إلى وجه رفيقها.

قال هانو: «يجدر بنا ألا ننظر نحوهما، أليس كذلك؟ ولا حتى نظرة واحدة! ولا حتى نظرة واحدة إلى هاتين الساقين النحيلتين الشابتين. أليس كذلك! سندعهما يتحدثان، وأعتقد أنهما لا يتحدثان عن الملوك الراحلين. لا، يا للهول!»



كانت الفتاة التي من المفترض أنها حيرت الشرطة تقف عند مدخل المطعم دون أن ترفع عينيه
عن برايس كارتر ... ولم يعرف أحد سوى ريكاردو وهانو أنها جويس وييل.

ترك جوليوس ريكاردو العبارة الفظة تمر دون تأنيب. إذا كان هانو يطمح في
التحدث بطريقة سوقية، فهذا شأنه. لن يتدخل ريكاردو في الأمر. وشعر بالألم فجأة.
فقد ألمه جور أصدقائه عليه.

كانت جويس وييل جالسةً إلى طاولة عند الجانب الآخر من المطعم، وعيناها تلمعان،
والحُمرة تكسو وجنتيها ثم تختفي، ولكنه لم يمر بخاطرها للحظة واحدة. هل روت
قصة مغامرته ذلك الصباح أم لم تفعل؟ نعم، فعلت. وهل يعرف هانو القصة؟ نعم،
يعرفها. لا ريب في أنه قد تصرف بناءً عليها، أليس كذلك؟ بلى، فعل. حسنًا، إذن! كان
الرجل الوحيد الذي أخفي الأمر عنه. يا للفضيحة!

صاح ريكاردو بإسقاط يديه أمامه: «أنا لا أعرف حتى من قتل إيفيلين ديفينيش.»
رد عليه هانو في جدية: «يمكنني أن أجيبك كالاتي: قُبض على روبن ويبستر في
الحادية عشرة من صباح اليوم بتهمة القتل.»

سأل السيد ريكاردو: «وماذا عن ديانا تاسبورو؟»

«لا، لا، لا، يا صديقي. هذه الشابة لا دخل لها بالأمر.»

«هل تقول ذلك على الرغم من الهوس الذي تحدّثنا عنه؟»

أجابه هانو: «بل بسبب هذا الهوس». وشعر السيد ريكاردو براحة غامرة، فتابع حديثه قائلاً: «وماذا عن الملكة المتوجة العجوز؟»
رد عليه هانو: «لا تزال جالسةً على العرش». ولكن شعر السيد ريكاردو بالخجل من عدم شعوره بالراحة أو بأي شعور آخر.
ولكن تمكن أخيراً من إقناع هانو بأن يُفصح عن مكنونات نفسه، وبدأ سيل من الأسئلة ينطلق من بين شفّتيه تقفز وتتصادم وتدور وكأنها مياه طاحونة تندفع عبر بوابة نصف مفتوحة.

«لَمْ قتل روبن ويبستر إيفيلين ديفينيش؟ وأين؟ وماذا كانت جويس وبيل تعني عندما صاحت: «لست أنا من يوزّع البرودة». ولمَ رسم القس فاورييه علامة الصليب على نفسه ثم عاد إلى المنزل مُتسللاً بعد ذلك؟ وماذا اكتشفت أنت، يا هانو، في غرفة ديانا تاسبورو؟ وأين كانت ديانا عندما أطفأت جويس وبيل أنوار الغرفة بينما كنت أترق على بابها الزجاجي؟ وكيف وصل القناع إلى أعلى الشجرة؟ نعم، وأريدك أن تحدثني عن الفراش المبعثر من فضلك. وكيف وصلت جويس إلى شارع جريجوار رغم طوقك الشرطي المحكم؟ وكيف عرفتَ بقدموها؟ ولمَ أغلقت خزانة فارغة، وغرفة لا تحوي شيئاً سوى بضعة مقاعد وطاولات؟ نعم، وبما أننا نتحدث عن قصر ميراندول، مَنْ وضع غاز الخردل على البوابة، ولماذا؟ أجبني عن بعض من هذه الأمور المحيرة وحينئذٍ سأطرح عليك مائة سؤال آخر. على سبيل المثال، كيف وصل سوار جويس وبيل إلى السلة؟ وكيف...؟»
ولكن في هذه اللحظة، أمسك هانو جبهته بيديه في غضب يائس جعل السيد ريكاردو يصمت.

وقال مُحذراً: «إذا ما استمررت على هذا المنوال، فسأقول هراءً في دقيقة واحدة». قال السيد ريكاردو مُصحّحاً كعادته في تحري الدقة: «سأقول هراءً في كلمة واحدة». فقال هانو: «قل هراءً إذن إذا أصررت — رغم أنه كان يجدر بي أن أقول — حسناً، هاتِ ما عندك. إذا ما طرحت المزيد من الأسئلة، فلن يمكنني أن أقول إلا هراءً. نعم، ففي هذه اللحظة، لا يمكنني أن أُجيب على نصفها. ربما في خلال يومين. أوه، ستعرف كل شيء يا صديقي، لا تخف، ولكن دعني أولاً أرَتب بعناية تاريخ هذه القضية المشؤمة الشريرة.»

واعتمد في جلسته وبسط مفرش الطاولة الأبيض بحركات مسح رقيقة براحتي يديه، كما لو أنه يُزيل التجاعيد والطيّات من سجل هذه الجريمة المذهلة. ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة ورفع عينيه إلى وجه رفيقه.

وقال: «وحتى أفعل ذلك، سأجيب عن سؤالين لم تطرحهما. لماذا كان هناك شيء مألوف في الطريقة المتحذقة المدققة لنطق روبن ويبستر للكلمات؟ آه! إنك تقفز. نعم، لقد نسيت الأمر. ولماذا قُطعت صفحة الغلاف من بعض كتب تلك المجموعة الغريبة التي وجدناها عند رأس الفراش؟ آه! إنك تقفز مجدداً. حسناً! من الجيد أنك تقفز في مكانك. الإجابة عن هذين السؤالين واحدة: روبن ويبستر قس مارق.»

إذا كان ريكاردو قد قفز قفزات يسيرةً بينما يسمع الأسئلة، فقد قفز بقوة خارج مقعده عندما سمع الإجابة. وشعر للحظة وكأن شعره يقف فوق رأسه. ثم عاد يُجلس نفسه مجدداً ببطء.

وقال هامساً: «بالطبع.» ثم رفع عينيه في رجاء يقطع نياط القلوب، وقال: «عندما أقرأ كتاباً، يجب أن أنظر إلى صفحته الأخيرة أول شيء. لا يمكنني منع نفسي عن فعل ذلك.»

فابتسم هانو. وقال: «أعتقد أن كل ما كان عليك فعله هو أن تجول بعينيك في أرجاء الغرفة وتنتظر إلى الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب.» ولكنه جفل أثناء حديثه، ورمق رفيقه بنظرة محدرة. فقد كانت جويس وبيل وبراييس كارتر يمران بالقرب منهما إلى طاولتهما. مدت جويس يدها لتصافح كلا الرجلين.

وسألت في صوت خافت: «لم أركما إلا الآن. كيف يمكنني أن أشكركما؟» ولكن اغرورقت عيناها بالدموع، وبدا هذا للرجلين شكراً كافياً.

فرد هانو: «سأخبرك كيف تشكريننا. أن تجلسي معنا وتحتسي بعض القهوة.» ولكن هزت جويس رأسها. وقالت: «لا داعي للقهوة؛ فأنا أريد أن أعود إلى فراشي. يمكنني أن أنام ليومين كاملين»، ورغم أنها كانت تضحك، تضاءبت برقة. كان هذا أقصى ما أمكنها فعله لتحافظ على عينيها مفتوحتين.

صاح هانو: «لدي فكرة. يمكنك أن تنامي ليومين كاملين يا آنسة. هذا قدر الوقت الذي أحتاج إليه. وبعد يومين، سنتناول الغداء معاً، أربعتنا، وفي فندقني المتواضع في ساحة كينكونس، وحينئذٍ، سيخبر كلُّ منا الآخرين بما يعرفه، وسيتمكّن هذا المسكين، السيد ريكاردو، من النوم، يا للهول!»

بدا بعض الحيرة على وجه جويس وبيل، وسعد السيد ريكاردو بملاحظة أنها أيضاً ذات تربية راقية درّبتها على تجاهل أي ألفاظ غير متوقعة.

الفصل الرابع والعشرون

الغرض من غرفة الاجتماعات

مر أسبوعان قبل أن تنتهي الإجراءات الروتينية وتضع خيوط الجريمة المتشابكة بين يدي المحقق العظيم. وحينئذٍ، ذهب مرةً أخرى لزيارة السيد ريكاردو وسيارته الرولز رويس الفارهة، وبعد ساعة كان الرجلان يقفان عند قمة الدرج أمام غرفة الاجتماعات. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، وكانت أشعة الشمس تتدفق عبر جميع النوافذ وتلقي ببقع ذهبية كبيرة على الأرضية، وكان المنزل ساكنًا وكأنه مقبرة. فقد كان الفيكونت لا يزال قيد الإفراج المؤقت، وذهب إلى مسكنه في بوردو، ووضعت الشرطة يدها على القصر المطل على نهر جيروند. فقد أزيلت أشرطة الكتان العريضة المختومة بالأختام الرسمية، ولكن الباب كان لا يزال موصدًا، وكان هانو في مزاج منزعج للغاية؛ فقد قضى وقتًا طويلًا في البحث عن المفتاح في جيوبه.

قال السيد ريكاردو بصوت متهدج: «لقد قُتلت إيفيلين ديفينيش في هذه الغرفة إذن.»

قال هانو: «لقد قُتلت هنا. ربما في اللحظة نفسها التي كنت تنظر فيها من نافذة غرفة نومك ناحية النوافذ المضاءة.»

قال السيد ريكاردو وهو يهز رأسه: «لم أسمع صراخًا.» لم يكن قد نسي المسافة التي تفصل المنزلين، ولكنه لم يصدّق أن جريمةً رهيبة قد ارتُكبت في هذه الغرفة المبهجة من دون رسالة تطفو في الهواء عبر صمت الليل المظلم لتوقظه من غفلته.

رد هانو: «إنها لم تصرخ.» كان واثقًا تمامًا مما يقول وكأنه قد شارك في الجريمة. ثم قال: «ربما أطلّقت أنيئًا، أو حشرجةً من حلقها، وحتى هذه الأصوات ربما كانت تُطلقها بالكاد ...» ثم أدار المفتاح في مزلاج الباب وفتحه.

كان قد أعد مؤثراته وكأنه مخرج مسرحي بارع. لم تعد الغرفة الطويلة تبدو وكأنها غرفة اجتماعات، وأصبحت تبدو وكأنها مكان للتجمع. فقد تغيّر تصميم الطاولة الطويلة، وقصر طولها كثيراً، وأصبحت تشغل بالكاد أحد أركان الغرفة. من ناحية أخرى، أصبحت المقاعد، التي كانت مصطفة على الجدار الجانبي، مرتبة الآن في صفوف منظمة تواجه المنصة، مع ممر مستقيم يمتد من الباب يقسمها إلى نصفين وكأنه ممشًى. ولكن كان مظهر المنصة نفسها ما استرعى انتباه السيد ريكاردو وجعل عينيه تطرفان في حالة من عدم التصديق. فقد وُضعت الطاولة أمام الجدار وعلى مسافة منه، وبدلاً من مفروش الجوخ الأخضر، كانت الآن مكسوة بغطاء كفن أسود يُطوّقه شريط أبيض. وفوق الغطاء، كانت هناك ثلاثة كتب ضخمة ذات شارات واسعة من الحرير القرمزي ومشابك ذهبية مغلقة، وكأس وصندوق مُطعم بالذهب، وشمعدانان ذهبيان كبيران لكل منهما ستة أفرع، وكل فرع يحمل شمعة سوداء طويلة مصنوعة من الكبريت والقار. كانت الشموع مضاءة، وكان يتصاعد منها لهب أزرق ورائحة شنيعة. وشُهد صليب ضخم مقلوب رأساً على عقب مصنوع من خشب الأبنوس مصلوب عليه تمثال عاجي للمسيح.

أدرك السيد ريكاردو مصدوماً ومشمئزاً أنه يُحدّق في تقليد مريع لمذبح. رفع عينيه إلى ما يعلو المنصة. كانت الخزانة مفتوحة، وكان باباها ذوا القمة المستديرة مفتوحين على مصراعيهما على كلا الجانبين حتى لامسا الجدار، وكان الطلاء الأبيض الذي كان يُلطّخ تجويف الخزانة بطبقة سميكة وطرية خلال زيارته السابقة، قد كُشط الآن بعناية فائقة. شعر كأنه يحدّق في لوحة مذب رسمها فنان منحط غمس فرشاته في ألوان كابوسية. كان مرسومًا على أحد الألواح أجساد عارية تمسك بأيدي بعضها وترقص رقصة وحشية وظهورها في ظهور بعض، وكانت أشبه بأجساد مشوهة ذات وجوه بشرية بيضاء بدينة تقذف الرعب في القلوب، وكانت تزحف وتحتشد في منبع الآلام. كانت المكافآت مرسومة على جانب، والتعذيب على الجانب الآخر، وبينهما على جدار التجويف، رُسم جسد شاب، تجسيد للجمال الخالص، نحيل، وممشوق القوام، وأبيض كأنه فتاة، وكان ذا ملامح رقيقة لا تصلح لتكون ملامح رجل، وعينين زرقاوين لامعتين تجذبان جميع الأعين الأخرى وتحترقان بحزن يفوق الوصف. أبعد ريكاردو عينيه مرتعداً. والتفت نحو النافذة ورأى أشعة الشمس المبهرة تغمر كروم العنب الخضراء، والنهر البني، وأشرعة السفن البيضاء. ولكنه شعر، على الرغم من ذلك، بهاتين العينين الزرقاوين تواصلان حرق ظهره، وترجوانه أن يلتفت نحوهما ويشاركهما تعاستهما التي لا تهدأ.



حدّق السيد ريكاردو في جسد يُجسّد الجمال الخالص؛ شاب ذي عينيّن لامعتين تحترقان بحزن لا يوصف.

سأل بصوتٍ خافت وكأنه رجل يتحدّث داخل معبد: «هل كانت الغرفة على هذه الحال عندما نظرت نحوها من نافذة غرفتي في قصر سوفلاك؟» كان يتحدث دون أن يُحوّل نظره بعيداً عن النافذة المطلة على نهر جيروند، وتشبّنت يداه بإطارها دون أن يشعر.

قال هانو من خلفه: «ثمة اختلاف واحد جوهري»، وللمرة الأولى على الإطلاق، خمد فضول السيد ريكاردو. كان يخشى حتى أن يخمّن ذلك الفارق. وبحركة عنيفة، فتح مزلاج النافذة وفتح مصراعيها وانحنى إلى خارجها يتنفس الهواء النظيف المنعش. كان يخشى الآن أن يعرف ما حدث في هذه الغرفة. كان قد ألقى نظرة خاطفة داخل الهاوية التي تقبع في قاعها مخلوقات بشعة مكدّسة في مستنقع من الوحل. سمع هانو يتحرّك في الغرفة وينفخ في الشموع ليطفئها.

فسأله: «ما هذه الكتب الثلاثة؟»

أجابه هانو بفخر وكأنه رجل تعلّم شيئاً جديداً الآن: «إنها «كتاب تعاويذ هونوريوس»، و«كتاب ليمييجيتون أو مفتاح سليمان الأصغر»، و«كتاب التعاويذ الكبرى».»
 لم يكن السيد ريكاردو يعرف شيئاً عنها. فسأل: «عمّ تتحدث؟»
 «استحضار الشياطين وطقوسه. هذا الكتاب» قالها وهو يلمس «كتاب التعاويذ الكبرى»، وقال: «يستدعي سيد الظلام الأكبر باستخدام عصا القوة التي طردت آدم وحواء من الفردوس. أما هذا» ولس «كتاب مفتاح سليمان الأصغر»، وقال: «فتحدث عن الصلوات التي يمكن باستخدامها استحضار الأرواح الشريرة لإلحاق الأذى بمن تكره، وهذا»، ولس «كتاب تعاويذ هونوريوس»، وقال: «يُعتقد أنه يحث على القتل.»
 كان قد بدأ حديثه بنبرة ساخرة، ولكنها لم تُسغه إلا في الحديث عن الكتاب الأول. أما بالنسبة إلى الكتابين الآخرين، فلم يثيرا في نفسه إلا الازدراء والسخط؛ فقد كان يدرك الجريمة التي جُمعا معاً على الطاولة لارتكابها.

سأل السيد ريكاردو: «من الشاب المرسوم في لوحة المذبح؟»
 أجاب هانو: «إنه سيد جميع الشرور. إبليس، الشيطان؛ وله اسم آخر أيضاً، أدونيس.» وبينما بدا الفزع على محيا السيد ريكاردو، قال: «نعم، أدونيس.»
 ثم جلس بجانب ريكاردو في تجويف النافذة. وقال: «صديقي، لا يُجسّد الناس الشيطان دائماً على هيئة عنزة ليعبدوه. حتى خلال العصور القديمة، كان من المفترض أن يظهر الشيطان في كسوة من الحرير، شاب جميل وبارد كالثلج لا يعطي مقابلًا لمن يعبدوه إلا خيبة الأمل. وأدونيس أحد أسمائه.»

ولكن لم يكن السيد ريكاردو يفكر في ذلك الربط الغريب بين الشيطان وراعي الأساطير. فقد كان يستعيد في ذاكرته مشهد طاولة العشاء في قصر سوفلاك ليلة وصوله، عندما صاحت جويس في إيفيلين ديفينيش بحدة هستيرية، قائلة: «لا تنظري نحوي. لست أنا من يوزع البرودة.» أدار السيد ريكاردو جسده ليواجه صورة الشاب الجميل، وأربطة نعله تلتف حول ساقه، وجلد النمر المرقط ملفوف حول خصره، ورمحه الطويل في يده. بدا وكأن العينين الزرقاوين تتبعانه أينما نظر، يُطلّ منهما الحزن الذي لا يوصف، وتأمّرانه بأن يُقسّم لهما بولائه.

قال مجبراً نفسه على إبعاد عينيّه عن التأمل في هذا الجسد الجذاب المرسوم على الحائط: «كانت جويس تعرف إذن. كانت تعلم في تلك الليلة حقاً بأمر هذه الغرفة!»
 قال هانو مُصحّحاً: «كانت تعرف بعض الأمور عن هذه الغرفة.»

«وكانت تفهم طقوسها.»

«كانت تفهم بعضًا من طقوسها أيضًا.»

«مثلما فعلت أنت على الفور. نعم»، وتعجّب السيد ريكاردو بينما يتذكر تفصيلاً هنا وأخرى هناك ظلّت بالنسبة إليه لغزاً مستغلّقاً، بينما بدت منذ البداية جليةً كالزجاج لرفيقه.

ولكن قرأ هانو ما يدور في عقل السيد ريكاردو بسرعة أكبر من سبره أغوار أيّ من هذه الغوامض. فقال في إصرار: «لا يا صديقي. يمكنك أن تُحوّل أدونيس ليكون الشيطان لو أردت ذلك، ولكن لا يجدر بك أن تحوّلني إلى إله. لم أفهم في البداية حرفاً من العبارة التي قالتها جويس ويبل. كنت متحيراً مثلك تمامًا؛ نعم، حتى ذلك الوقت عندما رأيتني أخرج من قصر رئيس الأساقفة في بوردو.»

صاح السيد ريكاردو: «ولكنني لم أخبرك قط بأنني رأيتك.»

«لا، ولكنك رأيتني. رأيت أنك رأيتني. كنت تقف في منتصف الميدان فاغراً فاك وعيناك جاحظتان وتقول لنفسك: «يا للهول!»»

قاطعته السيد ريكاردو سريعاً: «لم أقل ذلك. ولم تكن عيناى جاحظتين. بل على النقيض. إنهما تغوصان داخل محجّريهما عندما أنفعل.»

واصل هانو حديثه في هدوء: «لقد قلت يا للهول، أو كلمات تحمل المعنى نفسه. ثم قضيت ساعةً مع أمين مكتبة نيافته، وعرفت أموراً يمكنني أن أقصها عليك. أوه! أوه! أوه! للأسف الشديد، إنه الشيطان. حتى اللحم في أيام السبت القديمة تلك كان فاسداً، وكان ينشر برودة الجليد من حوله.» مدّ يده فجأةً نحو اللوح عن يساره في لوحة المذبح المرسومة ببراعة. وقال: «لا عجب في أنهم يرقصون بعنف، أولئك المساكين في مسارات الغابة. ولا عجب في أن الأفضل من بينهم هو من يرقص بسرعة أكبر من الباقين. كانوا مجبرين على الحفاظ على دفئهم.» وماتت على شفّتيه نبرة التهكّم مجدداً. كان يقول: «ولكن دعنا لا ننسى. لقد أدّت جميع هذه التخيلات الجنونية الغريبة إلى جريمة شنيعة ... ارتكبت هنا ... في هذه الغرفة التي تغمرها أشعة الشمس التي نجلس فيها ... مثلما ارتكبت في أماكن أخرى في السابق.»

ثم جال ببصره في أرجاء الغرفة مُعيداً في ذهنه تعاقب الأحداث، ثم تابع قائلاً: «لم أحضرك إلى هنا لأخبرك بما حدث. فبإمكان جويس ويبل أن تفعل ذلك أفضل مني بكثير؛ فقد رأت كل ما حدث بأم عينيها. ولكني أجهزك لذلك. لم أفهم شيئاً من

صيححتها عندما قالت: «لست أنا من يوزّع البرودة.» لا، ولكن ثمة أمور أخرى حيرتني. حقيقة أن القس فاورييه رسم الصليب على نفسه سرًا. ما رأيك؟ أثار ذلك اهتمامي. ثم ملابس القس التي سُرقت — أمر غريب، أليس كذلك؟ — ثم إعادتها في صباح اليوم التالي أو في الليلة نفسها. آه! بدأ الشك يتسلّل إلى نفسي. نعم! ثم رأيت شيئًا جديدًا بالملاحظة في غرفة الأنسة تاسبورو.»

قال ريكاردو: «نعم. بينما كنت في الغرفة. كانت هناك لوحة لقصر رئيس قضاة البندقية يُطل على القناة الكبرى، رغم أنني طوال حياتي لم أر أي شيء مميز فيها.» قال هانو مُعلّقًا: «لا يوجد شيء مميز فيها. لا. ما رأيته هو» ثم أشار بيده فجأة نحو المذبح مرةً أخرى. وقال: «صليب مع تمثال من العاج للمسيح معلق فوق طاولة كتابتها الملصقة في الجدار وكان مقلوبًا رأسًا على عقب. ولم أُحرّكه.»

قال ريكاردو: «نعم. أنت لم تمسّ شيئًا.» «ثم ذهبنا أنا وأنت إلى فيلبلانز، وبينما كنا هناك، أتى القس فاورييه إلى المنزل.» وافقه السيد ريكاردو مجددًا، ولكن أضاف هذه المرة شيئًا إلى مخزن ذكرياتهما المشترك. قال: «اكتشفنا عندما عدنا أنه كان برفقة السيدة تاسبورو العجوز.» «هذا صحيح. ولكن قبل زيارة السيدة، كان قد زار الأنسة التي كانت لا تزال راقدةً في غرفتها. ولقد رأى ذلك الصليب أيضًا. لم تكن قد عدّلت من وضعيته. وربما لم تُفكّر في فعل ذلك من الأساس.»

صاح السيد ريكاردو: «لقد عاد لتغيير وضعيته! كان يريد تعديل وضعيته سرًا لتجنب الفضيحة. كان هذا السبب في سيره متسللاً في الشرفة. وكان هذا السبب في قولك إن التعديلات قد تمت!»

«نعم. في المرة الثانية عندما دخلنا الغرفة أزحت الصليب من على مسماره ووضعته على الطاولة المستندة إلى الجدار، في وضعية الصليب الطبيعية، بينما كنت أنت، يا صديقي، تحاول سبر غموض لوحة القناة الكبرى.»

لو كانا في ظروف أخرى، لشعر السيد ريكاردو بالإهانة من سخرية هانو ولرد عليه بكلمات مؤنّبة على غرار: «آه، بالطبع!» و«لا ريب في ذلك.» ولكنه كان في هذه اللحظة يشعر بقدر هائل من الدهشة والحيرة جعلت كل شيء آخر تافهًا في نظره فيما عدا ما قد يرضي فضوله. انحنى هاوي الأحاسيس إلى الأمام في مقعده تحت النافذة، وعقله يثب مترقّبًا أن يسمع ما قد يرضيه. حتى السؤال الذي كان على وشك أن يطرحه كان له انفعاله الخاص، وعدّل من نبرة صوته إلى درجة الرهبة المناسبة.

وقال: «إذن، في هذا المعبد، في تلك الليلة، أقيم قداس الشيطان؟»
«نعم».

«وكان روبن ويبستر من أقامه؟»

«روبن ويبستر، الكاهن».

وبينما كان يتحدث، أخرج هانو علبة سجائره الزرقاء من جيبه. أما السيد ريكاردو، فعلى النقيض، شعر بالفزع لدرجة أنه كاد أن يمد يده ليمنع صديقه من تدنيس المقدسات التي يجلسان بينها. وحتى بعد أن تصاعد دخان السجارة الأزرق في الهواء، ثم تحول إلى اللون البني واختفى، ناشراً رائحته النفاذة في تجويف النافذة، انتابه شعور بأن صديقه ارتكب تصرفاً طائشاً. ولكن سرعان ما تحدّث هانو.

وقال: «يا له من أمر غريب! يمكنني أن أستوعب طقوس أيام السبت القديمة بصورة أفضل. كان عبيد مساكين جوعى لا يعرفون أيّاً من متع الحياة يثورون على الظلم الكبير الذي مَنَحَ كل متع العالم إلى حفنة من النبلاء، وَمَنَحَ كل شقائه إلى الباقين. يمكن للمرء أن يتخيّلهم وهم مستغرقون في نشوة توصلهم إلى ذروة التجديف والردائل في غابة منعزلة أو في أرض دفن قديمة. أما قداس الشيطان. فهذا انحطاط تام. الأشخاص الذين خاب رجائهم في تحقيق طموحاتهم، والذين استنفدوا متع الحياة العادية فأصبحوا يسعون خلف الميزات المحرمة، والذين على استعداد لبيع أرواحهم الخالدة في سبيل متعة جديدة، والذين يطلبون من الشيطان ما يُحرّمه المسيح، زمرة كاملة من المنحرفين مع المبتزين الذين يقتاتون عليهم، مجرمون يبحثون عن شركاء، وسُميون يبحثون عن حماية، بالتأكيد سمعتَ بالأم تشيشول. ثمة أشخاص مهمون ستخونهم. تلك سمة الروح، وتلك سمة هذه الجماعة أيضاً. يتعاون المهمون مع ساحرات الأحياء الفقيرة، وجميعهم يسعون لأن يستفيدوا من أدونيس هذا»، ومرةً أخرى امتدّت ذراعه بقوة، ويده الكبيرة مبسطة تُلَوِّح في إدانة اللوثنية وقال: «أدونيس العقيم».

قال السيد ريكاردو لنفسه مدرّكاً عدم كفاية تعليقه: «حقاً! حقاً!»

«كان الفيكونت دو ميراندول هو من أنشأ هذه الطائفة هنا. شخصية شاذة غريبة الأطوار، أصبح على حافة الجنون بسبب الليالي الطوال التي قضاها مستيقظاً، ويدعي معرفةً سطحية، ويشعر بقلّة التقدير، ولا ريب في أنه وجد لنفسه أهميةً واستجاب لنزعة صوفية كامنة في نفسه. وأصبح وكيل الشيطان في جيروند! وهو منصب، كما تعلم، يأتي مع الكثير من الحفاوة. وهو يحتاج إلى رجل جريء. فوقف بمعزل عن الآخرين، مهيباً،

ملفوفًا في رداء من الشر كأنه عباءة سوداء. وصدَّق نفسه. وليس هو فقط. منذ أيام السيدة مونتيستا والقس جيبور ولقداس الشيطان محفله. إن الملل يتحول إلى إثارة، وهي تتحول بدورها إلى يقين بضرورة ارتكاب الخطيئة التي لا تُغتفر والتي وردت في سفر الرؤيا، والتي تورث الشعور بالنشوة الوحشية؛ كطفل غاضب من العقاب يُتمتم بعناد: «رَقًا، رَقًا» (كلمة عبرية وردت في الإنجيل بمعنى يا تافه)، رغم علمه أن من ينطق بهذه الكلمة لن يُغفر له. انضمَّ تيدون إلى المحفل؛ ومقره الأقرب منه هو باريس. وأصبحت ديانا تاسبورو ضمن المرشحين للانضمام. وهي شخصية ذات مكانة عالية، سيدة البلدة. وربما سمعت جين كوريسو بالمحفل. وهذا من بين الأمور التي تستميلها! والأُم تشيشول! كانت ستستفيد كثيرًا من الأمر. فَمَن يستخدم قداس الشيطان أناس يريدون ارتكاب أفعال شريرة من دون أن يظهروا في الصورة.»

وبالتدريج، بدأت أجزاء اللغز تصطف في مكانها الصحيح أمام عيني السيد ريكاردو. وتخيلَ همسات الطقوس تنتشر في هدوء شديد، وببطء شديد، ولكن بثبات في الوقت نفسه. هذا السر الشرير لا يمكن كبتِه. ومن يمتلك هذا السر سيمتلك أيضًا جميع العُباد في راحة يده. وقد يُصر أو تُصر على وضع مراسم للقبول، ويتحوَّل المحفل وأعضاؤه تلقائيًا إلى مُنظَّمة للشر والجريمة. وأصبح من السهل على الفور فهم هوس ديانا تاسبورو وعدم شعورها باستحواذ تابعتها اللفظ على السلطة. ما الذي قد يعنيه التوبيخ المتواصل لفتاة أصبحت ممسوسة بالمتع الآثمة لعقيدة مخيفة ومُحرَّمة؟

«ولكن بالطبع كان حجر الأساس لكل هذا المحفل الشيطاني هو حقيقة أن روبن ويبستر كان الكاهن المُرسَّم. يفترض قداس الشيطان تسلُّط الرب. كما يفترض أنه يجب استدراج الرب وخداعه بالخبز والنبيد قبل إخضاعه للشيطان. والكاهن وحده هو من يمكنه فعل ذلك. يجب أن يكون كاهن قداس الشيطان هو نفسه كاهن قداس الرب. كان القس جيبور، وجيل لوفرانس، ودافو، ومارييت جميعهم قساوسة حقيقيين، مثل روبن ويبستر.»

سأل السيد ريكاردو: «نعم، كيف كان في الماضي؟»

«قصة حياته غريبة. إنه من منطقة جيروند. وتعود عائلته إلى العصر الذي كانت فيه بورديو مقاطعةً إنجليزية. تعمل عائلة ويبستر في زراعة كروم العنب وصناعة النبيذ في منطقة جيروند منذ العصور القديمة عندما أُحرق جوفريدي بتهمة السحر في آكس أون بروفانس. ثم تدهورت أحوالهم. وبعدها كانوا ملاك الأراضي، أصبحوا مديرين لها،

وتجاءاً لم يحققوا نجاحاً كبيراً في بوردو. وكان والد روبن ويبستر آخرهم. وكان يُعتقد أن روبن الابن يمتلك موهبةً ليكون قساً، الأمر الذي ثبت خطؤه. أمر غريب، أليس كذلك؟ ولكن الناس غرباء بطبيعتهم. وإذا ما تمكّنت من إخراج ما في عقولهم ووضعه على طبق مثلاً يُخرج الجراح ما في داخل جسدك، فلن تجد أي إنسان يمكنك أن تقول إنه عادي. ثمة شيطان صغير غريب الأطوار داخل قلب كل منا. أرسل روبن إلى كلية بومون، وكُلِّف بالعمل قساً في كنيسة في لندن — وكان هناك عندما تُوفي والده — ولكنه سئم هذا العمل وتركه.»

قال السيد ريكاردو في ثقة: «مع إيفيلين ديفينيش.» ولكن هز هانو رأسه نفياً. وقال: «كان لديها عشاق سابقون. يا له من شاب! أؤكد لك. بشعره الأبيض وملامحه الوسيمة، وسلوكه الذي ينم عن تميّزه، ويلمحة الشغف التي تجعلك عيناه تراها للحظات، كان فتاكاً. كانت النساء تتعرقل عليه...»

قال السيد ريكاردو في ود: «تتهافت عليه أو تتعرقل عليه، والعبارة الأولى هي ما تعنيها. ولكني أفضل لو أنك تعني الثانية.»

بدا هانو متحيراً في البداية. وحدّق في صديقه متشككاً خشية أن يكون قد زل، ولكنه لم يجادل، وعاد يواصل قص قصته: «ندين بالفضل إلى الأعمال المكتبية في الحصول على الكثير من المعلومات. ولكننا كنا سنظل نواجه صعوبات كبيرة لولا أمر وحيد.»

قال السيد ريكاردو مندفعاً: «حزمة الخطابات التي عثرت عليها في غرفة روبن ويبستر وصورتها.»

ردّ عليه هانو وهو يُشعل سيجارةً أخرى: «أنت محق هذه المرة يا صديقي. لقد أخبرتنا حزمة الخطابات بكامل تلك القصة الغريبة من الشغف والغرام اللذين أديا إلى بيع عقد بلاكيت إلى الأم تشيشول ووصول الأحداث إلى ذروتها المرعبة في هذه الغرفة.» صاح السيد ريكاردو مصعوقاً: «واحتفظ بهذه الخطابات!» ولكنه تذكر بعد لحظة قضية وقعت أحداثها في بلاده حُفظت فيها خطابات مرعبة بالقدر نفسه، فقال: «أليس من الغريب أن يُضلل الشغف الإنسان لهذه الدرجة؟»

قاطع هانو قائلاً: «لا! لا! أخبرتك سابقاً بأنه كان في غرفة ويبستر سبب آخر غير الشغف جعله يحتفظ بالخطابات التي أوقعت به. وكنت أفضل ذلك السبب الثاني منذ البداية. كان حُبّاً، نوع رهيب من الحيلة أقنع روبن ويبستر بالاحتفاظ بهذه الخطابات. كان الشغف يملك الطرف الآخر. أما هو، فقد ساعدته الخطابات التي احتفظ بها على

إحكام سيطرته على امرأة تغلي الغيرة في قلبها. فقد كانت خطابات خطيرة كتبتها إيفيلين ديفينيش، وكتبت بعضها في ذلك المنزل هناك، قصر سوفلاك.»

لم يكن هانو يعرف تحديداً متى التقت إيفيلين ديفينيش بروبن وببستر. لا ريب في أن لقاءهما حدث قبل أن يقدم وببستر إيفيلين ديفينيش إلى ديانا تاسبورو في بياريتز. ولكن كان ثمة اتفاق بين الاثنين يقتضي إتلاف جميع الخطابات في يوم تسلمها نفسه. والتزمت إيفيلين ديفينيش بالاتفاق التزاماً تاماً معتقدة أن الطرف الآخر ملتزم به أيضاً. فلم يُعثر على قصاصة من خطاب بين حاجياتها. وحتى وقت ما، عندما كانوا جميعهم معاً في بياريتز، كان روبن وببستر ملتزماً بكلمته أيضاً. ولكن بعد ذلك، أصبح شغف إيفيلين ديفينيش متطلّباً، بل وخطراً. ومنحت الخطابات لعشيقها سيطرةً عليها. وتمكّن من ردع التهديد بالتهديد.

واصل هانو حديثه قائلاً: «أتلّفت خطابات أحد الطرفين — خطاباته — تماماً. وكان واثقاً بولاء إيفيلين له. ولم يكن ممكناً إخراج صفحة واحدة كتبها من وسط الرماد لتدينه. كان في وضع يؤهّله لأن يقول: «لم أردّ على هذه الخطابات»، أو «حرصت ألاّ أعطيها أي وعود»، أو «كان الهدف من جميع خطاباتي التي أرسلتها إلى إيفيلين هو إعادتها إلى رشدّها». ومن جانب آخر، كان في وضع يُمكنه من أن يقول لها في أي لحظة — وكانت هذه اللحظة آتية لا محالة — «لقد اكتفيت منك، وأرجو ألاّ تبوحي بكلمة عن علاقتنا وإلاّ فسأسبّب لك الكثير من الأضرار والمتاعب.»

صاح السيد ريكاردو: «ولكن بعدما ماتت إيفيلين ديفينيش، فقدت الخطابات قيمتها. كما أنها كانت خطرةً عليه، كما يبدو. كان يجدر به أن يُدمّر هذه الخطابات في الليلة عندما ماتت إيفيلين ديفينيش.»

رد عليه هانو: «في تلك الليلة، كما ستعرف لاحقاً، كان روبن وببستر الطيب مشغولاً للغاية. فقد طلع عليه الصبح وهو لا يزال يعمل. إن لم يكن ضرورياً أن يعقد اجتماعاً مصغراً في قصر ميراندول مع عزيزنا الفيكونت وذلك القاضي الشاب الطموح، لتحولّت هذه الخطابات إلى قصاصات صغيرة رمادية محترقة قبل حتى أن تقع أعيننا عليها.» فتح هانو الحقيبة الجلدية التي وضعها على الطاولة، وأخرج منها نسخة من صور الخطابات.

وقال: «انظر إلى هذه الفقرة.» وأشار إلى بداية إحدى الفقرات. كانت الفقرة كُتبت في بياريتز بعدما عاد روبن وببستر ليزاول عمله في سوفلاك. قال: «آه، يا للمرأة المسكينة! طرف يُحب وطرف يُحب. إنها القصة الأزلية.» قرأ السيد ريكاردو:

«حبيبي،

أغمضت عيني. ولم أكن أرى؛ ولكن كيف لا يمكن أن أتخيلك؟ بعدما انتهيت من كتابة خطاب لك، بدأت أكتب آخر. ألاحظ جميع الأمور الصغيرة التي تحدث، وأصنّفها إلى أمور قد تُبهجك، وأمور أخرى لن تُبهجك. وأكتب على الفور جميع الأمور التي من شأنها أن تُبهجك، سواء كان ذلك كتاباً أقرأه أم شخصاً غريباً عجيب المظهر يدخل المطعم، أو قصةً مضحكة، حتى أتمكن بعد يومين من كتابة خطاب طويل لك. أما جميع خطاباتك فتبدأ هكذا: «حبيبتي، بما أن مكتب البريد سيُغلق أبوابه خلال نصف ساعة، فأنا أكتب لك رسالة سريعة...»»

قلب هانو بضع صفحات ووصل إلى آخر صفحة من إجمالي دزينة من الصفحات. وكانت قد وُضعت خطوط سميكة تحت فقراتها بقلم رصاص أزرق. قال هانو: «اقرأها بالترتيب»، وأخذ السيد ريكاردو الخطابات ووضعها على ركبته.

الفصل الخامس والعشرون

خطابات إيفيلين ديفينيش

في بداية الفقرات المُعلّمة، كتبت إيفيلين ديفينيش من بياريتز إلى سوفلاك تعلن موافقتها المتردّدة على زواج ديانا تاسبورو من روبن ويبستر. «لا ريب في أنها تُحبك. لقد أرسلت برايس كارتر في حال سبيله حقًا. ولا يمكنها أن تتحدّث لخمس دقائق من دون ذكر اسمك — أتمنى في بعض الأحيان لو كنت مشوّهاً وقبيحاً للغاية حتى لا يحتمل أحد في العالم النظر في وجهك إلا أنا — وسأعوّضك عن ذلك بحبي! ولكننا فقيران معيّمان، ولن تكون الحياة سعيدةً من دون مال.»

وبمجرد أن يتزوَّج من ديانا، سيمتلك مالاً كزبد البحر؛ لكليهما. ويجب أن تتوقف علاقتهما على الفور. ووضعت قواعد صارمة لتصرفاته، وفرضتها عليه فرضًا. يجب أن تصبح ديانا مملوكةً مهملة، مجرد جِوال أموال. وإذا تعرّضت للمعاناة، فسيكون ذلك أفضل.

وكانت ثمة تلميحات للطقوس التي تُجرى في غرفة الاجتماعات. فكانت قد اعتنقت هذه الديانة بالقدر نفسه من حماسة السيدة دو مونتيسبا. كانت تريد أن تُجري طقوسًا شيطانية للحفاظ على عشيقها، ولكي تحط في الوقت نفسه من قدر ديانا إلى وضع مُذل كوضع زوجات المورمون. كان المقرّر أن تُجنّد ديانا في هذه الطلاسم. كانت ستُحفّزها تلك الأمور الخفية التي ستثير فضولها وحُبها للمغامرة. وكانت ستُقنع بأنها قد ارتكبت الخطيئة التي لا تُغتفر. وسيُحوّلها الندم وخوفها من افتضاح أمرها إلى دمية.

كُتبت بعض الخطابات الأخرى عندما كانت إيفيلين ديفينيش في بوردو، وبعضها عندما كانت وروبن ويبستر تحت سقف واحد ومعهما ماريان لتقوم على خدمتهما، والتي كانت تصف التطور التدريجي للمؤامرة. بعدما تورّطت ديانا، كانت متردّدة تارةً ومرتبعة تارةً أخرى. كانت وكأنها تقف على حافة البحر، تغامر بوضع قدم في مياهه ثم تسحبها

مجددًا إلى دفع الرمال الصلبة، مفتونة ومعذبة. لم تراودها أي شكوك في إيفيلين. وكانت تقول لها: «أعلم أنه يحبني. ولا يهمني على الإطلاق أيًا كان ما فعله في الماضي، أو أي علاقة كانت تربطه بها. وسأنفذ كل ما يتمناه — حتى ذلك الأمر! — نعم، نعم.»

وضع هانو يده الضخمة على النسخ المطبوعة. وقال: «أصبحت تعرف الآن مسار الأمور. كانت هاتان الشابتان واقعتين في حب روبن ويبستر، وخدعهما كلتيهما. كانت إيفيلين ديفينيش ستسمح له بالزواج من ديانا تاسبورو ما دام أمكنها الاحتفاظ به لنفسها. واحتفظ هو بخطاباتها في الوقت نفسه. وكانت ديانا واثقة بأنه يُحبها، وإن كان يعبد الشيطان، فستفعل هي المثل. وماذا عنه؟ روبن ويبستر؟ لم يكن يهتم بأي منهما على الإطلاق. لا، إنه «زير نساء»، وأن تكون «زير النساء»، يا صديقي، يعني أنه يجب ألا تُغرم بأي امرأة. يجب أن تكون بلا رحمة، يجب أن يكن مجرد عوارض خشبية تحمل قضبان قدرك.» ونظر إلى السيد ريكاردو وابتسامة غريبة مرتسمة على وجهه. قال: «هل علمتم أن روبن هو أحد أسماء الشيطان؟ نعم. عرفت هذه المعلومة أيضًا عندما كنت في قصر رئيس الأساقفة أثناء بحثي في بعض الكتب القديمة. روبن أبيرون، وروبن فلان، وروبن علان ... إنه الشيطان نفسه، أليس كذلك؟» ونظر إليه مرة أخرى وهو يوميئ برأسه بجدية، ثم قال في انفعال مفاجئ: «نعم، أنا أيضًا أتساءل. إذا كنا أنا وأنت، وقد عركتنا الحياة وتخطينا عنفوان شبابنا ورومانسيته بكل ما فيها، إذا كنا أنا وأنت نلتقط أنفاسنا بصعوبة ونهمس، «أنا أتساءل»، أليس غريبًا أن تقول هاتان الفتاتان، بعدما هاجت عواطفهن وانهارت أعصابهن، بدلًا من ذلك، «أنا أومن»؟ انظر إلى هذا!»

قَلْب بضع صفحات وعرض أمام عيني السيد ريكاردو فقرة لم توضع خطوط تحتها.

وقال: «تذكر أن ديانا تاسبورو، التي أصبحت صديقة لإيفيلين ديفينيش، قد تعرّضت للتلاعب من قبلها وكأنها سمكة علقت في صِنارة. ما نوع الشغف الذي كانت تسعى إيفيلين ديفينيش إليه حتى يمكنها كتابة ذلك إلى صديقها.» وقرأ السيد ريكاردو الآتي:

ما الذي أريدها أن تكون عليه؟ لم أفكر مرتين. أن تكون الكلب الذي يجري هنا وهناك حول سيده ورَسَنه في فمه. لم أجد صورةً مهينة أكثر من تلك.

شهق السيد ريكاردو عندما قرأ هذه النية المهينة، وشعر براحة غامرة عندما أدرك أنها لن تتحقق.

قال هانو: «هكذا سارت الأمور إذن، عندما فزعت جويس وبيل من الخطابات التي وصلتها من ديانا، أرجأت عودتها الملحة إلى أمريكا، وذهبت دون دعوة إلى قصر سوفلاك.

ورأت جويس وبيل تلك الرؤى الغريبة غير القابلة للتفسير، التي ذكرتها ديانا أكثر من مرة في خطاباتها، متجسدةً أمام عينيها. ما رأيك؟ نعم، غير قابلة للتفسير ... إلا إذا كنت تميل إلى تصديق أنه في بعض الأحيان، الأشياء الخفية من خارج»، وبحركة واسعة من ذراعه، لَمَحَ إلى انحناء القبة السماوية التي تُشبه قبة السجن، وقال: «من خارج هذا العالم، تُكسر هذه القبة لكي تعاقب أو تنقذ.»

صاح السيد ريكاردو: «تنقذ؟» فلم يكن قادرًا على تخيل كيف يمكن إنقاذ ديانا تاسبورو من مسئوليتها الواضحة في جريمة قتل إيفيلين ديفينيش.

استطرد هانو في حزم: «نعم، تنقذ. وهذا ما ستراه. ولكن، أولاً، عليك أن تعرف كيف قلب حضور جويس وبيل الأمور من رأسها إلى عقبيها!»
قال السيد ريكاردو في استسلام: «رأسًا على عقب.»

رد عليه هانو في ود: «إذا أردت قولها بهذه الطريقة، فسأتنازل.» ثم وضع طرف إصبعه الضخم على جملة، وقال: «اقرأ!» واضطر السيد ريكاردو إلى إبعاد إصبع هانو حتى يتمكن من قراءة الجملة.

إنك تُحدِّق فيها كما لو كنت صبيًّا مراهقًا يرمق فتاةً تصل ضفيرة شعرها إلى ما تحت خصرها. إنك تضطرب عندما تتحدَّث إليك. وتقفز عندما تقترب منك. إنك تبدو سخيًّا ... نعم ... سخيًّا يا روبن!
ومرةً أخرى، بعد بضع جمل:

إنها ليست جميلةً حتى. ومن المؤكد أنها لا تملك أي مميزات أخرى. إنها ساذجة يا روبن، فتاة ساذجة تصلح لصبي ساذج. أوه، كنت أعتقد أنك جاد!

ولكن هكذا سارت الأمور. لقد التقى روبن وبيستر بقدره، كما كان الناس يقولون في بداية القرن التاسع عشر. فمِنذُ أن وقعت عيناه على جويس وبيل للمرة الأولى، تحوَّل اللهيِّب الذي اعتاد على أن يغرسه في قلوب النساء لينغرس في قلبه هو ويتملَّكه. وأصبح مضطربًا لأن يعطي الآن بعدما كان يأخذ فقط. انطبعت صورتها على شبكيتي عينيَّه، وأصبح يراها أينما نظر. لم يتمكن من إخفاء حبه لها، ولم يرغب في ذلك. كان نصرًا حقَّقه ويتمنى لو عرفه العالم بأسره.

«اسمك محفور على جبهتي وحاجبي.»

صمَّ عقله عن همسات التعقل، وأعمى عينيَّه عن مظاهر الغيرة. وظلت ديانا، التي تعيش وضمادات أحلامها تغمي عينيها، غافلةً عما يحدث. وكانت غافلةً عن التغير الجديد

الملحوظ في أوضاع المنزل وكذلك عن تغير طباع رفيقها. ولكن كانت إيفيلين ديفينيش ذات طبيعة مختلفة. وبدأت تلقي الاتهامات، والتوبيخات، والتهديدات تارةً وتتوسل بعنف تارةً أخرى. وفي نهاية المطاف، أصبحت جميع التهديدات تهديدًا واحدًا، وجميع التوسلات طلبًا واحدًا. وكتبت له تقول:

لم يعد الأمر محتملاً. لا أريد أن أهددك، ولكن يجب عليك أن تفعل ما أريد. لقد فقدت عقدي، وأنت تعرف أين ولماذا. ولن يكون من الصعب عليك استعادته. لم أعتقد للحظة أنها ستذهب إلى أمريكا. إنها تتجسس علينا. أنا واثقة بذلك. لقد رأيتها تنتصت علينا. إنها تريد أن تستخدم رحلتها إلى أمريكا عذرًا لكي تفر بعدما اكتشفت ما تريد، ثم ستثير كل ما يمكنها إثارته من متاعب حتى تتمكن من إنقاذ ديانا. أنا واثقة بذلك. ولكن يمكنك أن تستغل رحلة أمريكا باعتبارها عذرًا. إنها تقول إنها ستسافر من بوردو إلى شيربورج. يمكنك أن تقلها بالسيارة إلى بوردو الليلة السابقة لرحيلها. ليس لديها أي أصدقاء هناك يُودعونها. عليك أن تعيد الأوضاع إلى نصابها الصحيح وإلا فسأفعل ما تريد هي أن تفعل. نعم، سأفعل. سأفشي القصة بأكملها ... قداس الشيطان، ومؤامرتنا بخصوص ديانا ... نعم، أفضل أن أفصح هذه المنطقة بأكملها ويفتضح أمري معها بدلاً من أترك الأمور تتخذ المسار الذي هي عليه الآن. هل تعلم أنني ذهبت إلى كهف المومياوات اليوم؟ هل تذكر ذلك الصبي؟ أحلم بأن يحدث المثل لها! يجب أن تدفع ثمن إقحام أنفها في الأمر؛ ثمن إلقاء نفسها عليك. لا داعي لأن تظن أنها تهتم لأمرك. إنك لا تعني أي شيء بالنسبة إليها. سنجتمع جميعنا في ميراندول ليلة الأربعاء. يمكنك أن تهتم ببعض الترتيبات الطفيفة التي تبقت هناك، ثم في يوم الخميس؛ يمكنها أن تذهب معك إلى بوردو. كان هذا الجزء الأخير الذي لفت هانو انتباه السيد ريكاردو إليه. أخذ هانو نسخ الخطابات وأعادها إلى حقيبته وأغلقها.

وقال: «إليك ما حدث في هذه الجريمة حتى اللحظة عندما بدأت جويس ويبل قصتها. طلبت إيفيلين ديفينيش قتل جويس ويبل مهددةً بفضح أمر الجميع، وكانت ديانا تاسبورو واقعةً في متاهة من الخوف والإثارة، ووقع روبن ويبستر في حب جويس بجنون لأنه لم يقع في حب أحد من قبل، وفكر في حل مشكلته بضربة سريعة من شأنها أن تورط الجميع؛ ديانا، والقاضي، وكاساندر دو ميراندول. ولا يمكن لأحد أن يوجه أصابع الاتهام نحوه. وتآمر الجميع على دفن هذه الجريمة بين الجرائم الغامضة التي حيرت الشرطة. نعم، وكاد ينجح؛ لولا جرأة وتفاني صديقتك جويس ويبل.»

ثم وقف بعدما أنهى حديثه ومدَّ يده والتقط قبعته. إلا أن السيد ريكاردو لم يتحرك من مكانه. جال ببصره في أرجاء الغرفة حزينًا.

قال: «أنا آسف. كنت آمل أن تُبرأ ديانا من تورُّطها في هذه الجريمة بطريقة ما. ولكن بما أنها كانت حاضرةً هنا في تلك الليلة — هنا في الغرفة التي كانت الأنوار تغمرها...» ولم يكمل جملته. ولكنه نهض بدوره وألقى نظرةً أخيرة على الغرفة. والتقت عيناه بالعينين المرسومتين على الجدار، وأصبح قادرًا الآن على النظر فيهما. وضع هانو يده على كتفه.

وقال بجدية: «يجب أن أريحك من التفكير. لم تكن ديانا تاسبورو هنا في تلك الليلة. كنت أنا من أخبرها بمقتل إيفيلين ديفينيش. هيا بنا!»

أغلق باب غرفة الاجتماعات خلفه وسلَّم مفتاحها إلى الرقيب المسئول عن حراستها.

الفصل السادس والعشرون

المكتبة

في مساء اليوم التالي، جلس أربعة أشخاص يتناولون العشاء في طاولة جانبية بجوار نافذة مطعم فايسان دور؛ جوليوس ريكاردو وهانو يجلسان إلى أحد جانبي الطاولة، وجويس وبيل وبريس كارتر يجلسان على الأريكة المبطنة المستندة إلى الجدار. كانت الأيام تقصر. وكانت الأنوار قد بدأت تلمع حقًا من بين أوراق أشجار الليمون في ساحة كينوكوكس. لم تغب عن ذاكرة السيد ريكاردو تلك الأمسية الأخرى المشحونة بالتوتر، والتي بدت، رغم حدوثها منذ مدة قصيرة، وكأنها حدثت منذ أمد بعيد بسبب كثرة الأحداث التي وقعت بعدها، عندما كانت سيارته تقف على الجانب المقابل من الطريق، وهانو يجلس مستندًا إلى الجدار يدخن سيجارًا تلو الآخر، بينما كانت حياة جويس وبيل مُعلَّقةً بخيط يكاد ينقطع. وها هي الآن تجلس معه في المكان نفسه، ولا تزال ملامح وجهها الرقيقة تحمل آثار المحنة المرعبة التي مرت بها، وحلت أمارات الأسى محل أمارات المقدرة التي كانت تكسو وجهها في السابق. كانت لا تزال أنيقةً ونحيلة كعادتها في بدلتها ذات اللون البني الكستنائي المصنوعة من القماش المغربي، ولكن كانت عيناها الواسعتان الحالمتان تنظران باستمرار إلى حبيبها الجالس بجانبها، وكانت يدها تستند إلى ذراعه من وقت لآخر، وكأنها تطمئن نفسها أنه موجود بجانبها. كانت ثمة مزهريّة موضوعة في مكان غير مناسب على الطاولة كما تقتضي عادات المطاعم حتى لا يتمكّن أي من الجالسين حول الطاولة من رؤية الجالسين أمامه إلا عبر كسر رقبتة. وصوّتوا بالإجماع على إزالتها من على الطاولة.

قال السيد ريكاردو بصوتٍ كزقزقة العصافير: «والآن!» وزادت الكآبة على الوجه الجميل الجالس أمامه عمقًا.

رد عليه برايس كارتر سريعاً: «الآن لنتناول العشاء. إنها لحظة تستحق الاحتفال. ولن تكتمل الحياة من دون عشاء. نبدأ بتناول الكافيار. هذا هو الترتيب الصحيح. نحن نجلس الآن على ضفة نهر الفولجا. ونستمع إلى الأغنية الشهيرة التي تُنسب إلى قواربه؛ نرتدي البلوزات والقبعات المدببة، ونرقص بصعوبة بالغة ونحن ننتقل الأذنية الطويلة. ولكن كل هذا يمر. فسوف نتناول بعد ذلك حساء السلاحف. إننا نتناول العشاء الآن مع الأعيان، وعمدة المدينة، والسيد كاتب المحكمة في دار البلدية، قبل منح وسام حرية المدينة إلى السيد جوليوس ريكاردو، المبجل، مستمدين قوتنا من دسم حساء السلاحف، ثم ننتقل إلى طبق الكرنكند على الطريقة الأمريكية. وفي لمح البصر، سنجد أنفسنا واقفين على رصيف ميناء ناراجانسيت. وثمة شخص ما يُغني. يصدق بأغنية «حساء نيويورك» (ذا بيل أوف نيويورك). حسناً! دعونا نُصغِ إلى الكلمات التي لا مثيل لها والصوت الرخيم الرائع وهو يقول: «يا جميع الرجال اتبعوني عندما أخرج للتنزه مشياً». ما الطبق التالي؟ السمان. حسناً! أجد نفسي مختبئاً خلف سياج يوجد على الجانب الآخر منه حقل لفت لا يوجد به أي أثر لحياة. ومن بعيد يظهر صف من الرجال يحملون الأعلام البيضاء. ثم أسمع صافرة. وأقول لنفسي: «اقتلهم عندما يقتربون. أطلق النار عليهم!» ثم أسمع صوت الكثير من الأجنحة تضرب الهواء. هناك طيور سمان على الأرض أمام كل هدف فيما عدا هدفي أنا. وأقول لنفسي: «على أي حال، سيعطونني طائري سمان لأرسلهما إلى زوجتي في الوطن، المسكينة التي ستقول من منطلق تفانيها لزوجها: «لقد اصطادهما برايس.» وستُحَنطُهما وتضعهما في صندوق زجاجي.»

ضحكت جويس وبيل.

وقالت: «إذا كنت أعرف هذه المرأة الشابة، فستقول، على النقيض: «من المؤكد أن هذين الطائرين الجميلين هدية من صديقي السيد هانو.»»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه هانو ولوّح بيده أمام وجه السيد ريكاردو.

وقال: «هذا تحديداً ما يريد المرء سماعه من الناس. لا أن يُصعَّبوا على المرء حياته بسبب العبارات الاصطلاحية. لا! ولا يشعرون بالإهانة إذا ما أعطيت أمراً يسيراً لسائقهم. ولا يبحثون باستمرار في كل ما أقول عن قلة الذوق وكأنهم موظفو جمارك يبحثون عن جوارب حريرية. يا للهول، لا! ويقولون «هانو» بهذه الطريقة»، وحرك رأسه وقبّل أطراف أصابعه متصنعاً كما لو كان مغني أوبرا ثانوياً.

الأمر باختصار أن كلاً من برايس كارتر وهانو رأيا فيما بينهما أنه من الأفضل أن تتناول جويس عشاءها من دون أن تسمع أي شيء يحزنهما فيما عدا دعابتهما السخيفة.

ولكن عندما نُظفت بقايا الطعام من على الطاولة وُضعت أمامهم القهوة الساخنة، وخيَّم الظلام على الطريق في الخارج، بدأت تتحدث من تلقاء نفسها.

وقالت: «سأخبركم بما حدث لي، فحتى برايس، الذي سيطير عائداً إلى لندن بسبب عمله، لم يسمع هذه القصة بالتفصيل؛ منذ لحظة وصولي إلى قصر سوفلاك. ولكني أعتقد أن العبارة التي استخدمتها ذات مرة، جعلت السيد ريكاردو»، قالتها ووجَّهت له ابتسامة عذبة عبر الطاولة، واستطردت: «يشعر بقدر كبير من الحيرة. «يجب أن تعود سندريلا إلى منزلها قبل منتصف الليل.» كانت هذه هي العبارة، أليس كذلك؟ أثار الأمر دهشته؛ إذ يُفترض أن فتاتين أمريكيتين تتجولان بحرية في أوروبا، وفقاً للتصورات السائدة، لا بد أن تكونا من الأثرياء أصحاب الملايين. ولكني لم أملك قط ثروة تُقدر بالملايين، أو شقيقتي. منذ ثلاث سنوات، لم نتمكن أنا وهي معاً من جمع مال يكفي لشراء سيارة أوستن صغيرة. كنا نعمل موظفتين في مكتبة كبيرة في واشنطن، ورغم أن ما ورثناه من ممتلكات في سان دييجو في كاليفورنيا لم يكن كبيراً، فإنه مكَّننا بالكاد من الوصول إلى حد الكفاف. كنا فتاتي عمل. كان ثمة أمين المكتبة الرئيس، ومساعد، وست فتيات موزعات لتولي الأقسام حسب الأبجدية.»

كانت ثمة نقطتان مهمتان في قصة جويس ويبل يجب على مستمعيها أن يضعوهما في الاعتبار. الأولى، أن حروف الأبجدية التي كانت جويس مسئولة عنها هي من «س» إلى «ف». وكان يجدر بها أن تلم بالمعرفة العملية عن الموضوعات التي تقع ضمن هذه الحروف، وقد كان. الثانية، أن البروفسير هنري بريور، صاحب مختبر العقاقير في ليدز، وصل إلى واشنطن خلال مدة عملها في المكتبة ليعمل على تكوين لجنة دولية لمكافحة تهريب الأفيون. وكانت دراساته تسوقه دائماً إلى المكتبة، وبما أن الأفيون كان موضوع دراسته؛ فقد كان يقع ضمن قسم جويس ويبل. أصبحت صديقتين، وعندما عاد بريور إلى موطنه، ترك خلفه دعوةً ودوداً بأنه سيكون رهن إشارة الفتاتين إذا ما ذهبتا إلى إنجلترا. واصلت جويس حديثها: «بعدما رحل البروفسير بريور بمدة قصيرة، اكتُشف النفط في أرضنا الصغيرة وحُفرت بئر. وأصبحت وشقيقتي — لا أقول إننا أصبحنا ثريتين بمفهوم الأثرياء الحالي — ميسورتَي الحال. قرَّرنا أن نزور بعض الأجزاء من العالم، فسافرنا من بلدنا لنطوف أوروبا. ولكن جفَّت البئر منذ عام. وكانت شقيقتي على وشك الزواج والعودة إلى الولايات المتحدة. وكان يجدر بي أن أقرّر ماذا سأفعل. كانت خطتنا الأصلية أن نقضي عامين على هذا الجانب من المحيط الأطلسي، وكنت لا أزال أملك مالا

يكفي لأن أكمل الخطة. هذا إن ظَلَلت فتاةً مهذبة بالطبع.» ثم صدحت ضحكاتها وقالت: «كان يجدر بي أن أعود إلى بلادي على الفور أنا أيضًا، وأحافظ على ما تبقى لي من مال. ولكنني لم أكن أريد أن أفعل ذلك. كنت أريد أن أكون طائشةً بينما لا أزال شابةً لكي أستمتع بكل لحظة متعة ومرح. بعد ذلك، كنت سأعود إلى قسم من س إلى ف. كنت سأعود إليه هذا الصيف. وكانت المكتبة ستقبل بعودتي مجددًا. كان هذا ما أعنيه عندما قلت للسيد ريكاردو: «يجب أن تعود سنديلا إلى منزلها قبل منتصف الليل.» كان منتصف الليل قد اقترب كثيرًا بالنسبة إلي. ولكنني كنت أشعر بقلق متزايد على ديانا، وحصلت على إجازة من واشنطن لكي أُؤجل عودتي لشهر آخر.»

ارتجفت عندما تذكرت الأيام الفظيعة التي شملها هذا الشهر، ثم عادت تنظر إلى برايس كارتر وابتسمت.

قال السيد ريكاردو في تكلف: «أجل. هذا صحيح تمامًا. دائمًا ما تأتي أحلك الساعات قبل بزوغ الفجر.»

حدّق برايس كارتر عبر الطاولة محاولاً أن يتأكد من أن أذنيه لم تخدعاه. ولكنهما لم تخدعاه. فقد كان السيد ريكاردو يجلس وتبدو عليه أمارات الإحسان والرضا. فكان قد قاطع بإشارة مختصرة واحدة ارتجاف جويس ويبل وابتسامتها. وكرّر برايس كارتر نظراته إلى مواطنه لِمَا تبقى من الأمسية، على أمل أن يعاود رؤية تصرف أحق آخر يبعث في نفسه الرضا والتسلية.

واصلت جويس حديثها قائلة: «وصلت إلى قصر سوفلاك قبل أسبوعين من وصولك. وكنت قد دعوت نفسي إلى هناك عبر التلغراف، وعندما قادني جولس أماديه إلى الشرفة في عصر يوم وصولي، وجدت، بالإضافة إلى ديانا بالطبع، كلاً من إيفيلين ديفينيش، والسيد دو ميراندول وروبن ويبستر مجتمعين حول صينية شاي. وبعد بضع دقائق، أصبح واضحاً أنهم قد تجمعوا ليُلْقوا نظرةً سريعة علي؛ أعني»، وقالت موضحةً لهانو: «ليفحصوني.»

رد هانو: «عبارة إلقاء نظرة سريعة أفضل. فهي عبارة متداولة بين النخبة في نيويورك. نعم. هل مصدرها حي باوري؟ نعم. حسناً، سأستخدمها.»

كان كلُّ من برايس كارتر وجويس ويبل قد اندمجا بشدة في محيط هانو خلال الأسبوعين الأخيرين، واكتفيا بقبول وعده باستخدام تعبيراتهما المألوفة بامتنان، دون الخوض في نقاش حول الحي السكني الخاص برموز المجتمع الراقي في نيويورك.

اقترح السيد ريكاردو قائلاً بهرود: «ربما من الأفضل أن تدع جويس تحكي قصتها دون أن تقاطعها.»

فحنى هانو رأسه، وقال: «من الآن فصاعداً سأعقد لساني الثرثار»، وكان قد استمتع بالمزيد من الأحاديث مع سائق السيد ريكاردو.
قال السيد ريكاردو: «هذا يكفي. أكمل ي جويس!»
وأكملت جويس.

«خلقت حولي جواً من الاضطراب. فكانت ديانا عصبية، وكانت تغرق أحياناً في عالم الأحلام. وأصبحت فجأة غريبة عنها. وأصبحت غير مرغوب بي فجأة بالنسبة إلى إيفيلين والسيد دو ميراندول. وعلى النقيض منهم، أبدى لي روبن ويبستر اهتماماً كبيراً. وكان حظي تعساً أنني أعجبت به منذ الوهلة الأولى.» وتحت عيني السيد ريكاردو الباردتين، كبح هانو جماح نفسه بصعوبة بالغة. «استمرت هذه العلاقة طوال الليل. وتناول شابان من المنطقة العشاء في القصر، ورقصنا بعد ذلك في الشرفة على الأنغام الصادرة من الجرامافون حتى دقت الساعة الحادية عشرة. كان روبن ويبستر يشعر بالاضطراب، فلم أكن أريد أن أرقص معه رغم أنه بارع في الرقص. وبينما كنت أرقص معه، كنت أرى إيفيلين ديفينيش ترمقني في مقت. وعندما كانت قريبة مني ومن روبن ويبستر، رفضت رفضاً قاطعاً دعوته لترقص معه، وقالت رافعةً صوتها حتى يصل إلى روبن ويبستر: «الجو حار. يجدر بي أن أذهب إلى النهر.»

ثم هبطت درجات السلم، وانتظرت من دون أن تُدير رأسها، ثم سارت وحيدةً عبر المرج. لم يبدِ روبن ويبستر أي اهتمام. وكانت ملامح وجهه خاليةً من أي تعبير وكأنها ملامح قناع. وضعت ديانا في غرفة المكتبة أسطوانةً جديدة وأدارتها.

وقلت مخاطبةً روبن ويبستر: «يجب أن تتركني. لم آتِ إلى هنا لأثير مشكلات. اذهب من فضلك!» وأومأت في اتجاه فستان إيفيلين الأبيض الذي كان يشع على العشب المظلم. تبعت عينا ويبستر الاتجاه الذي تُشير إليه عيناى. ولم أرَ في حياتي وجهاً تتصلب عليه ملامح الاستياء مثل تلك التي رأيته في تلك اللحظة.

وقال: «إنها لا تعرف الفارق بين سيد الرجل وعشيقته، ويجب أن تعرفه.» شعرت بالخوف منه، فتغير تعبير وجهه على الفور. وأصبح بائساً ومتوسلاً. وقال: «تعتقدين أن هذه كراهية لها! لقد بلغ مني التعب مبلغه. جل ما أبغض في هذا العالم هو أن أجعلك تكرهيني.» ومسحتني عيناه من قمة رأسي حتى أخمص قدمي؛ بطريقة مقية! كان

يحفظ في ذاكرته شكلي وملابسي. ثم قال بشغف مفاجئ جعلني أجفل: «كل ما عليك فعله هو أن تقولي كلمة واحدة، وسأترك هذه الرقصة وأذهب إلى إيفيلين.» ولكني لم أكن لأقع في هذا الفخ. إذا ما قلت الكلمة، كنت — كيف يمكنني أن أصوغ ذلك؟ — كنت سأدخل في علاقة، ولكنك قيّدت نفسي بالتزام. وكان سيأتي لي ويقول متوسلاً: «عندما أمرتني بأن أضحيّ بنفسي، فعلت. والآن، عندما أطلب منك أمراً تافهاً، تخذلينني.» لا، لم يكن أي من ذلك مفيداً لجويس ويبل. فأجبت سريعاً: «لا يهمني أن أتدخل على الإطلاق، ولقد رقصت معي كثيراً كما يبدو. وأكره أن أكون لافتة للنظر. ليلة سعيدة!»

ثم استدترت نحو ديانا وأخبرتها بأني متعبة وأني سأذهب لأنام. نظرت ديانا إلي للحظة كما لو أنها ليست واثقةً بمن أكون وما الذي أفعله في منزلها. ثم استفاقت. وقالت: «سأصعد معك إلى غرفتك لتأكد من حصولك على كل ما تحتاجين يا جويس. كم أنا سعيدة أنك وفّرت بعض الوقت لتزوريني في منزلي!»

ثم وضعت ذراعها في ذراعي، أما روبن ويبستر الذي كان يلاحقني خشية أنني قد أتخلّى عنه؛ فقد تجرّأ على أن يسألني، بصوت متهدّج كممثل يؤدي دور عاشق في مسرحية موسيقية كوميدية: «ولكنك ستعودين! سأنتظرك هنا. سترقص رقصة الفالس الرائعة. لقد كتبها شتراوس من أجلي ومن أجلك!»

أسرعت ديانا مصطحبةً إياي إلى غرفتي، وألقت نظرة سريعة عليها وقالت: «نعم، لديك كل ما تحتاجين.» وفي اللحظة التالية، سمعتها تعدو هابطة الدرج.

في ذلك الوقت، كنت أشعر بتعب شديد، وكأي شابة ذات صحة جيدة، غرقت في النوم بطريقة طبيعية بمجرد أن دخلت الفراش حتى لحظة دخول ماريان غرفتي حاملةً القهوة. ولكن، كما تعلم، أتيت إلى قصر سوفلاك لهدف معين، ولم يقل قلقي على الإطلاق مما رأيت تلك الليلة. بل على النقيض. لم تكن ديانا على طبيعتها التي أعرفها، الأمر الذي أقلقني كثيراً. ورأيت أن السيد دو ميراندول من المستحيل التعامل معه، وأن روبن ويبستر لا يُحتمل. ولكن راودني أيضاً شعور بأني ربما كنت أنا المتسببة في ذلك، وأن مؤامرة كانت تُحاك لإيقاع ديانا وتسبّب حضوري في إفسادها.

لا بد أنني غفوت بينما كنت أفكّر بقلق في هذه المشكلات، ولكني لم أكن مستغرقة في النوم حتى إن همهمة بعض الأصوات تحت نافذتي كانت كافية لإيقاظي. كان القمر قد توسط السماء في ذلك الوقت وكانت غرفتي منيرةً لدرجة أنني تمكّنت من قراءة الوقت من

ساعتي دون أن أضيء الأنوار. كانت الساعة تُشير إلى بضع دقائق بعد منتصف الليل. كان صوت الجرامافون قد اختفى. ولم أسمع أي أصوات على الإطلاق فيما عدا تلك الأصوات التي تهمس وتهمهم في الشرفة، ومن وقت لآخر كنت أسمع كلمة «صه! صه!» عندما كان صوت أي منهم يرتفع قليلاً. ثم سمعت اسمي يُنطق. «إنها ستبقى لأسبوعين. إنها ستسافر من هنا إلى أمريكا مباشرة.»

لم أخطئ صوت السيد دو ميراندول الرفيع الحاد، وكذلك مخارج ألفاظ روبن ويبستر الدقيقة الذي ردَّ على ما قيل.

إنها لن تعيق طريقنا. لقد رتبت ديانا الأمر بحيث تأخذ الغرفة العلوية عن قصد. وسرعان ما سمعت «صه! صه!» من الصوت الثالث.

جلست في سريري. يجب ألا أعيق طريقهم. يجب ألا أعيق طريقهم إلى ماذا؟ أصغيت بكلتا أذني. ولكن خفتت الأصوات مجدداً، ولم أتمكن من سماع شيء إلا «صه! صه!» من وقت لآخر غير واضحة.

لم أعد مهتمة بالسلوكيات المهذبة أو غير المهذبة، لم أتمكن من تحمُّل المزيد من ذلك. فتسلَّت خارجةً من الفراش وزحفت على يدي وركبتي حتى وصلت إلى النافذة. ورفعت رأسي بحذر شديد للغاية، ونظرت نحو الشرفة. كان ثلاثة أشخاص يقفون عند حافة الشرفة تحت ضوء القمر، ولم يكونوا يقفون تحت شرفتي مباشرة، ولكن نحو اليمين قليلاً، أمام نافذة غرفة الاستقبال. وكانوا السيد دو ميراندول، وروبن ويبستر، وإيفيلين ديفينيش. على الرغم من أن الجرامافون توقف عن العمل، كانت غرفة الاستقبال لا تزال مضاءة، وكانت إيفيلين ديفينيش تراقب الباب المفتوح بعينين ثاقبتين. كانت تقف حارسة مولية ظهرها إلى الحديقة، وكانت هي من يطلق التحذير الهامس باستمرار. لم تكن مهتمة بمراقبة نافذتي على الإطلاق. كان ثمة شخص في غرفة الاستقبال يقترب من الباب الزجاجي، ولكنه عاد ليبتعد. لا ريب في أنهم كانوا واثقين بأنني أنام سريعاً.

سمعت اسم يوم يُذكر ثم يوم آخر. قال روبن ويبستر: «بالطبع، الأربعاء أو الجمعة. كلما كان أقرب، كان أفضل.»

فردَّ السيد دو ميراندول: «الأربعاء إذن. سأستغرق بعض الوقت في إخبار الأشخاص المناسبين. ثم سأجهِّز كل شيء.»

ولكن كانت ثمة نبرة تردُّد في صوته. وبدا لي بكل وضوح أن السيد دو ميراندول كان قلقاً. فالأمر، أيًا كان، يفقد سرّيته. وكان هذا خطراً. فالأشخاص الذين يعرفونه، يعرفونه

جيداً، ومن المستحيل إنكاره أمامهم، قد يُصرون على الحضور، ولتحقيق أغراضهم الخاصة. وبدأ يوبخ إيفيلين ديفينيش. فكانت قد تحدثت بلا اكتراث في بوردو، واستغلت امرأة «مخيفة» ذلك وأدخلت نفسها بينهم عنوة. ودافعت إيفيلين عن نفسها. سمعت اسم كوريسو، وهز السيد دو ميراندول كتفيه كأنه رجل عاركتة الحياة، وقال بوضوح كان غريباً على صوته الحاد العالي النبرة: «أوه، جين كوريسو! أنا لا أرفضها! فوضعها مختلف. ولكن ليس المرأة العجوز!» ثم وصلت عبارة إلى أذني ووخزتها.

قالت إيفيلين: «ولكن سيرتدي الجميع أقنعة.» قال روبن ويبستر: «فيما عداي.» واستطرد السيد دو ميراندول حديثه قائلاً: «والمنزل الذي سنستخدمه هو منزلي أنا.» وعلى الفور سمعت: «صه! صه!» بإصرار أكبر هذه المرة.

وقالت إيفيلين ديفينيش: «إنها قادمة.» فقال روبن ويبستر: «يجب أن أنصرف بسرعة إذن.» ما الذي أوحى إليّ بأنه استغل هذا العذر لكي ينصرف؟ وقال في عجل: «ليلة سعيدة.» وبينما كان يستدير للسير على طول الشرفة نحو أجمة الأشجار ومنزله، قילت جملة كشفت الكثير. ربما كنت لأظل أستمع إلى تلميحات وإشارات على مدار ١٠٠ عام دون أن أقرب من كشف الحقيقة قيد أنملة. ولكنها اتضحت أمامي فجأة، محيرة ورهيبة، فرقدت خائفة على الأرض متوارية خلف الجدار.

قال السيد دو ميراندول مطلقاً ضحكة حادة: «ليلة سعيدة يا صديقي جيبور.» ضحك روبن ويبستر ضحكة خافتة، واستدار مواجهاً نور القمر بوجه حمل فجأة أمارات الخبث، وزاد إصراره بعدما سمع اعتراضات إيفيلين ديفينيش على ما قيل. هذه المرة همست قائلة: «اصمت من فضلك!»، وللمرة الأولى خلال ذلك الحوار الهامس، رفعت عينيها نحو نافذتي. في هذه اللحظة، رقدت على الأرض حتى لا تراني، أمله أنها لم تكن قد رأتني حقاً. طمأنت نفسي بفكرة أنها حتى وإن رأتني فستكون واثقة بأنني لن أستطيع أن أفهم شيئاً من تلميح دو ميراندول.

لم تكن تعرف أنني عملت في مكتبة كبيرة، وأن القسم الذي كنت مسئولة عنه من س إلى ف. وحرف «س» يتضمن موضوع «السحر» وكان يجب عليّ أن أُلِمَّ إلماماً عملياً بهذا الموضوع؛ الكتب التي تحوي معلومات عن موضوع بعينه وعلى أي رف توجد. قال السيد دو ميراندول: «نيافة القس جيبور! ليلة سعيدة، نيافة القس جيبور!» كان يضحك وهو يقول الاسم، وضحك روبن ويبستر وهو يحييه، وربطت الاسم بالأمر الغامض الذي سيحدث يوم الأربعاء القادم. كان ثمة جيبور واحد؛ القس السيئ السمعة الذي كان يُجري

قداسات الشيطان. الأربعاء القادم أيضًا! هذا هو الموعد. الأربعاء أو الجمعة. حدد السيد دو ميراندول أحد هذين اليومين الأسبوع القادم، وهذان اليومان مكرسان لتلك الطقوس الشيطانية. يجب أن أكشف سر ديانا على الفور، وأعرف شغفها، وسبب لامبالاتها؛ نعم، وتنبؤاتي أيضًا. على الرغم منها، أخبرتني عباراتها التافهة التي كتبتها في خطاباتها لي بأن شيئًا من عالم آخر قد تحرّر، من العالم الذي تقف روحها عند حافته وحيدة.

رفعت رأسي مجددًا بحذر شديد. ورأيت أن ديانا قد انضمت إلى السيد دو ميراندول وإيفيلين، وأن روبن وبيستر قد اختفى بين الأشجار. وأضحى الثلاثة المتبقون يتحدثون بانفتاح. وعادوا إلى داخل المنزل بعد بضع دقائق. سمعت الباب الزجاجي ينغلق، ورأيت النور الأصفر يختفي من غرفة الاستقبال ومن أرضية الشرفة. وسُلم المنزل وحديقته إلى نور القمر. ولم تكن ثمة أنوار أخرى إلا أنوار تخلّلت أغصان الأشجار المظلمة التي تحف الطريق، أتت من النافذة العلوية لشاليه روبن وبيستر.

حذفت جويس ويبل من قصتها الرحلات والأوقات العادية التي ملأت أيام وليالي تلك المجموعة الصغيرة المقيمة في قصر سوفلاك. وواصلت ذكر الأحداث التي تتعلق بها. كانت قد أرسلت إلى كوفنتري بناءً على طلب إيفيلين ديفينيش والسيد دو ميراندول الذي لا يغادر منزله أبدًا. وأصبح روبن وبيستر ملازمًا لها باستمرار، وكانت السيدة تاسبورو، التابعة، تُمتّع نفسها بسلطتها التي اكتشفتها حديثًا. كل ليلة، كان يأتي أشخاص من المنطقة ليتناولوا العشاء ويرقصوا، ولعب القس فاورييه الورق مرةً أو مرتين في قصر سوفلاك. أما ديانا، فكانت بمعزل عن الآخرين، كأن عصابة أحلامها تُغمي عينيها. وصل بها الأمر إلى حد اللامبالاة بخدمة منزلها، وغفلت عن تلك اللمسات الصغيرة التي كانت تُقدّمها لضيوفها، وبالتالي، وجدت جويس نفسها تتولى تلقائيًا مسئولية إعداد الكوكيتيلات والمشروبات الليلية التي تُقدّم قبل أن تنفضّ المجموعة في نهاية الأمسية.

في الليلة الثالثة من زيارة جويس، وقع حدثان مهمان. كانت ترقص مع روبن وبيستر مترددة، وقادها إلى نهاية الشرفة بعيدًا عن الآخرين. وتوقف فجأة.

وقال بصوتٍ محموم: «لا يمكنني أن أحتمل أكثر من ذلك. يجب أن تأتي إلى الحديقة لتحدثني معي. إنني أمر بوقت عصيب.» ثم أبعدا عنه، وتفحصتها عيناه مرةً أخرى بجشع من قمة رأسها حتى أخمص قدميها بطريقة شعرت معها أنه هان شرفها. لوحت بيديها وقالت ببساطة: «سأتي.» واستدارت لتكون بجانبه وهبطت الدرج معه نحو الحديقة.

قالت جويس: «كان الموقف كريهاً، ولكنني خشيت أن يفعل شيئاً مقررًا يسبب لي فضيحة، ومن ثم سيكون عليّ أن أرحل من سوفلاك بسببه. سرنا عبر المرج نحو السياج الذي يفصل الحديقة عن شريط المستنقعات المجاور للنهر، ثم استدرت نحوه. فقال على الفور وفمه يرتعش وتتلعثم كلماته: «كما ترين، لا يمكنني أن أخفي مشاعري أكثر من ذلك. حتى هذه اللحظة، كان من السهل، بل والممتع، ترك مختلف الأمور تسير كما هي، لو كنت تفهمين ما أقصد»؛ لم أجد صعوبة في فهم ما يعنيه. كانت سمته المذهلة هي صراحته، إذا أخذنا هدفه بعين الاعتبار، وأعني بذلك نفسي. ربما لم يدر بخلده قط أنني ربما أومن بموضوع آخر يقع ضمن الأحرف من س إلى ف؛ الزواج بامرأة واحدة.

واستطرد قائلاً: «أصبح الأمر عصيباً عليّ للغاية. لا يمكنني تحمّل إخفاء الأمر ... ولا أريدهم أيضاً ... أريدك أنت ... وأنت ... وأنت ... وأريد العالم بأسره أن يعرف. جويس! أذرع غرفتي جيئةً وذهاباً نصف الليل مكرراً هذا الاسم. جويس! جويس! كنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يحتاج إلى إنسان آخر بهذه القوة الجارفة دون أن يجد ذلك الإنسان الآخر نفسه مدفوعاً للاقتراب. كنت أتوقع سماع صوت خطوات قدميك على الحصى، وأن أرى الباب يُفتح وأجذك تقفين على عتبة وعيناك الواسعتان مليئتان بالتساؤل. كنت أعلم طوال الوقت أنني أحمق، وأن النجاح في العلاقات مع النساء يتطلب أن يحافظ الرجل على عقله، وأن يتظاهر بأنه يفقده. ولكنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي. أنا كرجل في الجحيم. لا أريد شيئاً من هذا العالم إلا رشفة ماء؛ أنت يا جويس، أنت!» ومد يده المرتعشة نحو، ثم سحبها، ثم بسطها مجدداً.

كنت منزعة أيضاً. لم أجرؤ على الضحك لأنني كنت في حضرة حيوان مفترس. وكان هدي الوحيد هو منع وقوع الكارثة لأطول مدة ممكنة، إلى ما بعد يوم الأربعاء من الأسبوع القادم، أيّاً كانت الوسيلة. غمغت ببضع كلمات لا معنى لها: «لم يحدث مثل هذا الأمر لي من قبل. لم يقل لي أحد من قبل إنني ضمن من يهملهم، ناهيك عن أن أكون الأهم»، ولحسن الحظ، في تلك اللحظة جاءت إيفيلين ديفينيش تعدو هابطة الدرج من الشرفة وعبرت المرج نحونا. في تلك اللحظة، كان روبن ويبستر هو من قال: «صه! صه!» انصرف على الفور، وكنت أشعر بخوف أكبر مما تخيلت، وتسَلَّلت إلى غرفة الاستقبال، وكانت خالية.

جلست لبضع لحظات أشاهد الرجل والمرأة يرقصان في الخارج، ثم انضمت إلي ديانا. جلست بجانبني وعلى وجهها ابتسامة محرجة، وبدأت على الفور تتحدث معي في عجل.

قالت: «سأخبرك بأمر يا جويس. أمر لم أخبر به أيًا من أصدقائي بعد. لذا، عليك أن تحتفظي به سرًا في الوقت الحالي. لا أريد نصحًا وتدخلًا من أناس ليس لهم في الأمر ناقة ولا جمل. وربما لن يعرفوا عن الأمر شيئًا حتى يتم. سأزوج من روبن ويبستر.»

جفلت مما قالت، ولا ريب في أن وجهي أظهر ذلك جليًا. فقد واصلت حديثها سريعًا: «أنت مندهشة، ولكنك لا تعرفينه حق المعرفة. إنه رائع، رائع بحق.»

قلت محاولة الاعتراض مرتبكة: «ولكن ... لكن ... هل أنت واثقة بهذا القرار ... أعني أنت ثرية، وهو ... يبدو أن لديه صديقات حقًا، أليس كذلك؟»

لم أكن حذرة تمامًا، ولكنني كنت مندهشة لدرجة أنني لم أتمكن من كبج جماح نفسي لأصوغ الكلمات بطريقة مهذبة. ولكن لم يبدُ أن ديانا شعرت بالإهانة على الإطلاق. بل استقبلت اعتراضاتي بهدوء تام.

وردت قائلة: «أعرف ما تقصدين. إنه على علاقة وثيقة مع إيفيلين ديفينيش. ولكنه يحبني أنا.» من المستحيل أن أتمكن من وصف الطريقة اليسيرة والشديدة السفاهة التي كانت تتحدث بها. وشعرت بأنه لا توجد حجة من شأنها أن تثنيها عن قرارها. وقالت: «منذ وصولك يا جويس، كان يبدي بعض الاهتمام بك أيضًا. إنه يُغلف الأمر بالكثير من السواتر لكي يُصعب من إمكانية تخمينه حتى نرغب نحن في كشفه.»

قلت لاهثة: «متى ستتزوجان؟»

أجابت: «الشهر القادم.» ثم أطل من ملامح وجهها تعبير غريب للغاية، مزيج من الفخر والخوف. وقالت: «لا يمكنني أن أخبرك بكل شيء. لقد جرى انتقاؤنا، أنا وهو وبعض أناس آخرين. إنه سر رهيب. كان مخيفًا في البداية؛ وربما لا زلت خائفة قليلًا. ولكن بمجرد انخراط المرء في الأمر، فإنه لن يتراجع عنه حتى وإن استطاع. إن ذلك معتقد، ولا ريب في أن الناس الذين لا يفهمونه سيُمسكون بنا ويرجموننا، ولكن هناك الكثير جدًا من أمثالنا، ليس هنا فقط، بل في باريس وإيطاليا. والأشخاص الذي يسلكون الطريق القويمة عادةً ما ...» ثم صمتت بحثًا عن عبارة مناسبة، وعادت تقول: «ينالون العقاب، أليس كذلك؟ هذا من ثوابت هذا العالم أيضًا؛ الثورة والشغف بدلًا من الزهد، عالم زاهي الألوان ومفعم بالحياة بدلًا من عالم رمادي بارد.»

كانت ملامح وجهها قد تغيّرت. وكانت تتحدث بصوت خافت أُنْثَر فيه الانفعال، وكانت قَسَمَات وجهها تختلج، وصدرها يعلو ويهبط وكأنها أنهت سباقاً الآن، ويدها تمزقان خيوطاً صغيرة من فستانها. في تلك الغرفة الهادئة المطلة على النهر المتلألئ عبر الحديقة الهادئة، ومع عزف الجرامافون في المكتبة لألحان رقصة الفوكستروت الشهيرة، جلست كعابدة دفعتها مشاعرها إلى حالة من الحماس المفرط. وفجأة، لطمت عينيها بيديها وانفجرت باكية.

وصاحت فجأةً بصوت بائس وعاجز: «أوه، أنا خائفة، أنا خائفة...» وقبل أن أنطق بكلمة، نهضت وأسرعت خارجةً من الغرفة.

ظَلَلت جالسةً في مكاني وبارقة أمل تبرزغ في ذهني. رأيت أن دو ميراندول وإيفيلين ديفينيش مؤمنان بهذا المعتقد بحق. وكنت أعلم جيداً أن عبادة الشيطان لا تزال موجودةً في كل مكان في عالم غرف الاستقبال بالقدر نفسه من وجودها في العالم المكون من الغابات والأدغال البرية. ووسم كلُّ من دو ميراندول، المنحط الخائب الرجاء، وإيفيلين ديفينيش، أكثر امرأة عصابية رأيتها على الإطلاق، ليكونوا من أتباعها. أما روبن ويبستر، فوضعه مختلف. إنه المتلاعب الخبيث الذي رأى في هذه العبادة سلاحاً وفرصة. سيتمكن من الزواج من ديانا تاسبورو. نعم، ولكنه يريد جاريةً وليس زوجة. ومن منطلق إيمانها بأنه كاهن الشيطان الأعلى، ستكون طيعةً مثل الطين الجاهز لتشكيله. ويكمن الأمل الوحيد الذي أمتلكه لأتمكّن من إفساد خططه المحكمة في نوبة بكاء ديانا المفاجئة والكلمات التي تلتها. إنها خائفة. لذا، من الممكن إنقاذها. ولكن كيف؟ كنت لا أزال أفكر في إجابة عن هذا السؤال عندما انفتح الباب المؤدي إلى الرواق وعبرته إيفيلين ديفينيش. وعبرت الغرفة في اتجاهي في خط مستقيم بوجه شديد الشحوب والجمود.

وسألتني: «لقد التقيت ديانا الآن خارج هذه الغرفة، وكانت تبكي. ما الذي قلته لها؟»، فأجبتها:

«فلتهمني بشئوك!»

قالت: «سأفعل»، وأومأت لي ونظرة غريبة تُطل من عينيها، ثم خرجت إلى الشرفة. عند هذه النقطة، طلبت جويس المزيد من القهوة، ولم تكن على استعداد للاستمرار في حكي قصتها إلا بعد أن انتهت من شربها وأشعلت سيجارة.

الفصل السابع والعشرون

إلهام مستمد من القناع

ولكن حتى في مثل هذا الموقف، لم يستطع هانو إلا أن يتدخل. وقال ملوِّحاً بيده في الهواء: «لنتبَّين كل شيء بمنتهى الوضوح. سأطرح الأسئلة.»

ردَّت عليه جويس: «ما هي؟» ومالت نحوه وقطَّبت جبينها قليلاً في تركيز. كان هناك بعض الأجزاء غير الواضحة في قصتها، كانت تدرك أنها لن تتمكن من الإجابة عنها. على سبيل المثال، لماذا يثير بعض الرجال، من النوع الذي يمقته الرجال الآخرون، الحب الأعمى في قلوب النساء. وما سبب كون عشق الأوثان والآلهة الزائفة سرمدياً. ولم يُنحَى كل ما هو نقي وطيب السمعة جانباً مفسحاً المجال لكل ما هو كريه. لم تكن تملك أي تفسيرات لتقولها. لم يكن بمقدورها إلا أن تقول: «إن حال هذه الأمور في سوفلاك كحالها في كل مكان.» ولكن لم يُثر هانو أياً من هذه المعضلات المحيرة. وقال: «عندما خرجت للمرة الأولى إلى شرفة القصر، هل رأيت دو ميراندول والسيدة ديفينيش؟»

«نعم.»

«وهل ألقوا عليك نظرةً سريعة؟»

«نعم.»

«وفي تلك الليلة، مع روبن وبيستر، هل أعجبت به على الفور؟»

احمرَّ وجه جويس وأجابت بخجل: «يؤسفني أنني فعلت.»

قال هانو معتذراً: «لم أقصد أن أزعجك. إني أحاول أن أثبت الحقائق في ذهني.

والآن، كما سيقول السيد ريكاردو، أكملني من فضلك.»

ولكن صاح السيد ريكاردو معترضاً ومؤنباً. وقال: «جويس، لا تسمح لي لهم

بمضايقتك. إنه لم يكن يحاول أن يثبت الحقائق في ذهنه. إنها موجودة في ذهنه منذ أيام

عدة. لا، إنه يحاول أن يثبت العبارات في ذهنه، وأؤكد لك أنه سينتقم ويستخدمها بفخر في غير مواضعها.»

لوح هانو بيده في تسامح. وقال: «حسنًا، حسنًا، إن استخدامات هذه العبارات كثيرة. أكمل من فضلك يا آنسة ويبل!»

وعادت جويس لتكمل قصتها مجددًا. كان شغلها الشاغل هو كيفية إنقاذ ديانا من تلك العصابة الشيطانية، رغمًا عنها، وكيفية تفكيكها وجعل أعضائها يوارون وجوههم وأسماءهم في مجاهل الأرض، وكيفية فعل ذلك من دون التسبب لها في الفضيحة والخزي. قالت: «ظَلَلْتُ أفكر طوال الليل، وبزغ الفجر دون أن أتوصل إلى حل. ولكنني توصلت إلى قناعة. يجب أن أعرف بنفسني كل ما سيحدث في أربعاء الأسبوع القادم في منزل السيد دو ميراندول. كنت واثقةً بنفسني، ولكنني لم أكن أثق في أي شخص لأحكي له القصة. يجب أن أحفظ جميع الطقوس بالضبط حتى لا يشك أحد أنني أقول الحقيقة. الأمر باختصار هو أنه يجب أن أكون حاضرةً في منزل السيد دو ميراندول، يجب أن أكون شاهدة عيان على ما سيفعلون، وعلاوةً على ذلك، يجب أن أمتلك دليلًا لإدانة الأشخاص من قصر سوفلاك الذين يشاركون في طقوس العريضة المرعبة تلك. أوه، كنت أعلم يقينًا أن خطتي خطيرة؛ أي أنها سَتُعَرِّضُنِي للخطر. ولكنني فُكِّرْتُ أنه بمجرد أن أمتلك الدليل الذي أريد، فمن مكان بعيد، عندما أصبح في أمان، يمكنني أن أهدد بفضح الأمر برمته، وفي ظل هذا التهديد، يمكنني أن أُملي عليهم شروطي. أوه، أعلم أن هذا لا يتسم بالشجاعة، ولكنني مضطرة لأن أنقذ ديانا إذا أمكن من دون أن أسبب لها أي ضرر.»

قال هانو برفق: «آنسة، إنني لأرحب بامتلاك المزيد من هذا الجبن.»

ابتسمت جويس ويبل له في امتنان. وقالت: «لقد أطربتني كلماتك، وسأكافئك بقائمة طويلة من أكثر العبارات الأمريكية استخدامًا التي يمكنني تذكرها.» ثم عادت إلى قصتها. وقالت: «كنت أعتقد أنني قادرة على الحصول على الدليل. وذهبنا سيرًا على الأقدام إلى قصر ميراندول في اليوم السابق لنحتسي الشاي ونشاهد المكتبة. سرنا على طول الطريق الذي يمر بمباني المزرعة، وصعدنا التل ودخلنا فناء القصر عبر بوابة صغيرة في السياج العالي. كانت طريقًا طبيعية تبدأ عند قصر سوفلاك، وأصبحت واثقةً بأنه الطريق الذي سيستخدم يوم الأربعاء. حينئذٍ، كنت على صلة وثيقة بالبروفسير بريور، كما تعرفون جميعكم. بينما كان في الجيش، كان يخدم في واحدة من فرق الاستخبارات، ومن بين القصص الكثيرة التي قصها عليّ عن تلك المدة، كانت القصة الآتية. قبل

انتفاضة الأيرلنديين، كان الألمان يتصلون بالقادة الأيرلنديين عند الساحل الغربي عن طريق غواصاتهم. وكان ضرورياً تحديد هويات هؤلاء القادة، وكان ثمة منزل خالٍ يُطل على جرف منعزل يُشتبه في كونه مكان لقاءاتهم. ولكن، اتُّخذ الكثير من الاحتياطات والكثير من الحيلة خلال أوقات انعقاد تلك اللقاءات، ولم يكن لأي غارة أي فرصة في النجاح. ولم تكن لتجد كائناً حياً واحداً بالقرب من هذا المكان. ومن ثم، أعد البروفسير بريور خليطاً من غاز الخردل والورنيش، والذي إذا ما لمستَه، فإنه لن يمَسَّك بضُر طوال ساعة أو نحوها، ولكن بعد تلك المدة، ستظهر تقرُّحات على يديك لا يمكن علاجها طوال ستة أسابيع. نُقل البروفسير إلى الساحل الغربي على متن مركب صيد رسا في ليلة حالكة عند شاطئٍ عند قاعدة الجرف. وتسلَّق الجرف وطلَى البوابة الصغيرة المؤدية إلى المدخل الأمامي بهذا الورنيش. ولم يكن على السلطات بعد ذلك سوى الانتظار ثم القبض على كلٍّ من تظهر تقرُّحات غير قابلة للعلاج في راحة يده. تذكرت هذه القصة خلال الليلة المؤرقة التي قضيتها، وفي صباح اليوم التالي، أرسلت رسالةً إلى ليدز أطلب منه أن يرسل إليَّ بعضاً من هذا الورنيش في شحنة مسجلة، وأخبرته بسبب حاجتي لها.

كانت خطوتي التالية أكثر صعوبة إلى حدٍّ ما. فبسبب شكوى السيد دو ميراندول من إفشاء سرية الطقوس، كان ثمة ذكر لحضور المجموعة الطقوس مرتدين أقنعة، ومرةً أخرى طمأنني قسم المكتبة من س إلى ف بامتلاكه حللاً جيداً. كنت أتساءل عما إذا كان من المفترض أن يكون القناع كافياً أم أنهم سيتنكَّرون تنكراً كاملاً. وأملت أن يفعلوا الأمر الثاني. كان من المنطقي أن أفترض أن تجديفاً من هذا النوع يجب أن تُجرى طقوسه في ساعة متأخرة من الليل بعد أن يكون العالم قد خلد إلى النوم. وسيتجمَّع المشاركون سراً، وسيكون من السهل بالنسبة إليَّ أن أتسلل هابطةً الدرج، ثم أخرج عبر الأبواب الزجاجية لقصر سوفلاك وأصعد التل وصولاً إلى ميراندول مثلما سيفعل الجميع. ولكن بمجرد وصولي، سيتغير الوضع تماماً. يجب أن أكون شديدة الحذر، وأن أقلد ما يفعله الآخرون دون أن أرتكب خطأً يلفت أنظار الجميع نحوي. ولكن إقامتي في سوفلاك استمرت لأسبوعين كاملين. هل سيكون القناع وسيلة تنكر كافيةً بالنسبة إليَّ؟ لا سيما فيما يتعلق بروبين ويبستر، كاهن القداَس، الذي تجعلني عيناه أرتبك بشدة عندما تتفحصانني بطمع من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. هل أرتدي عباءة تنكر؟ من المؤكد أن أتمكَّن من الحصول على واحدة وعلى قناع في مدينة كبيرة مثل بوردو بكل سهولة.

فكرت في طريقة لأن أتأكد. كانت غرفة نومي، كما تعلمون، تقع فوق غرفة ديانا. ووُضعتُ في هذه الغرفة بناءً على اقتراح من إيفيلين ديفينيش حتى لا أعيق طريقهم ليلة

الأربعاء. ولكن كان هناك سلم حلزوني أمام باب غرفتي يؤدي إلى الطابق الأرضي بجانب باب غرفة ديانا تمامًا. تحيَّنت الفرصة عندما خرجت ديانا من غرفتها، وتسألَّت إليها لأكتشف، إذا ما استطعت، ما الذي سترتيده. وفي حال عودتها المفاجئة، فإن الفرار إلى غرفتي سيكون سهلاً.

سحت لي الفرصة بعد يومين. ذهبت إيفيلين ديفينيش وروبن ويبستر إلى بورديو في سيارة صغيرة ذات مقعدين ليتناولوا الغداء هناك ويقضوا اليوم، وفي عصر ذلك اليوم، خرجت ديانا والسيدة تاسبورو في سيارة كبيرة في زيارة واجبة لعائلة في أركاشون. ومن ثم، فكرت أن الخطر الوحيد هو أن تخرج ماريان من مطبخها وتُمسك بي. لذا، فحصت ملابس ديانا بأقصى سرعة ممكنة. ولكن كان عليّ، بالطبع، أن أعيد تطبيق ووضع كل شيء في المكان نفسه حيث وجدته بالضبط، واستغرق هذا الأمر ثلاثة أرباع الساعة حتى وجدت في قاع أحد الأدراج بدلة صبيانية مخملية سوداء، ورداء كهنوتيًّا قصيرًا من المخمل القرمزي، وعباءة تنكر سوداء لتغطيتهما. وكان هناك صندوق كرتوني أبيض.

فتحت الصندوق، وحبست أنفاسي. فقد كنت على وشك الصراخ. كان في الصندوق قناع كرية للغاية بشفاه أرجوانية ووجه شاحب وشعر أحمر لامع، تعرفونه جميعكم. وصُغت. نعم! وجروئت بالكاد على لمسه. كان متقنًا للغاية، والحزن بادٍ جليًّا على ملامحه التي تحمل في الوقت نفسه أمارات الشر. بدا وكأنه حي بطريقة ما أو بأخرى.»

كانت جويس تتحدَّث همسًا، وكان وجهها شاحبًا وجبينها مُقطَّبًا، كما لو أنها تعيش لحظة اكتشاف القناع هذه مجددًا. قالت: «انتابني خوف غير عقلاني من أني إذا لمستَه، فسوف يهاجمني، سيقفز على وجهي ويسبب لي ضررًا شيطانيًّا، وربما يقتلني. شعرت فجأةً بأنني وحيدة للغاية في تلك الغرفة المشمسة الصامتة، وإذ فجأةً أرى زنبورًا على أحد ألواح النافذة فشعرت بفزع جنوني. وتملَّكني الذعر. وغمرني شعور مُلح بأنني يجب أن أهرب، أن أذهب إلى أي مكان بعيدًا عن هذا المنزل الملعون، وأن أتركه وكل من فيه خلفي إلى الأبد، قبل أن يفوت الأوان. لعلكم تعرفون ما يفعله العصافيون عندما يتلفتون حول أنفسهم وينظرون خلفهم ليروا ما إذا كان هناك من يقترب من خلفهم متسللاً. وفجأةً، رأيت نفسي في المرأة أفعل ذلك، وتكسو وجهي أعتى أمارات الرعب. أعاد لي هذا المشهد بعضًا من تعقُّلي. وشعرت بالخجل من نفسي. وطرأت عليّ فكرة غريبة، كنت في حالة مزاجية تكتنفني فيها الأفكار الغريبة، وهي أني إذا ارتديت القناع، فسيذهب عني الخوف، بل وقد يهبط عليّ إلهام من شأنه أن يساعدني.

أخرجت القناع من الصندوق بحذر شديد وارتديته. لم يكن يحتاج إلى أي أربطة. فقد كان مناسباً تماماً لمؤخرة رأسي، والتصق على نحو محكم بوجهي. نظرت إلى نفسي في المرآة. وكان من المذهل أن شخصية مغايرة تماماً أصبحت ملائمة لي لمجرد ارتداء القناع. كانت عينايتان موجودتان تلمعان عبر الرموش الطويلة الرقيقة المنحنية، ولكنني لم أتمكن من التعرف إليهما أنهما عينايتان. كان كل ما عليّ فعله هو أن أرتدي ثوباً لم يرني أحد في سوفلاك أرتديه من قبل، وأن أعدّل فيه قليلاً كي يجعلني أبدو أكبر سنّاً، ومع وجود قناع مثل هذا على رأسي ووجهي، فلن يمكن لوالدتي نفسها أن تتعرف إلي.

نعم، ولكن لم أكن لأتمكن من الحصول على قناع مثله. فهذا القناع من صنع يد فنان حقيقي، قناع مثالي كأنه أحد قصائد هوراس الغنائية. وهبط عليّ الإلهام في لمح البصر. يمكنني أن أحل محل ديانا! إن الثوب نفسه يوحي بأنها ستشارك حقاً في الطقوس. ستكون مساعداً الكاهن التي تهز المبخرة. إذا ما تمكّنت من أن أحل محلها، وخرجت سالمة بعد ذلك! فسأمتلك زمام الأمور، ولن يصيب ديانا أي ضرر. يمكنني تهديدهم، ويمكنني فضحهم، وإذا كان القانون يعاقب على ارتكاب هذه الرذيلة، يمكنني أن أساعده في إنزال هذا العقاب، ولن تُمس ديانا بسوء. هذا لو تمكنت من أن أحل محلها! وفي اللحظة التالية للإلهام، وبينما كنت لا أزال أقف أمام المرآة أنظر إليها عبر فتحتي عيني القناع، خطرت ببالي وسائل تنفيذ ذلك. لقد تجسّدت تلك الوسائل أمام عيني.

لن أقول إنني لم أكن أرتعد رعباً. فقد كنت أرتعد رعباً حقاً. كنت أعلم أنني لن أحصل على مثقال ذرة من رحمة من إيفيلين ديفينيش إذا ما سقطت عاجزة بين يديها. اقشعر جسدي بينما أقف في مكاني. ولكن لم تكن القشعريرة بسبب الخوف وحده. بل بسبب الانفعال أيضاً.

خلعت القناع مترددة؛ فقد تخيلت أنني عندما أخلعه سيختفي الإلهام معه، وستتحول خطتي إلى حماقة. ولكنني لم أفقد أيّاً منهما. وظللت أمسك القناع في يدي حتى أصبحت واثقة ببقائهما. ثم أعدت القناع إلى داخل صندوقه الكرتوني، وأعدت كل شيء إلى مكانه، وخرجت من الغرفة خلسة. كان المنزل لا يزال خالياً. ذهبت إلى أريكة عند نهاية الحديقة، وجلسْتُ عليها أفكر في خطتي خطوة بخطوة محاولاً أن أفكر في كل عيوبها، وفي كل احتمال لفشلها. وبالطبع، لم يدُر بخُلدي تلك الجريمة الرهيبة التي أفسدتها تماماً.

جاءت تلك الليلة ببشرى. فقد خمنت أن إيفيلين ديفينيش لم تكن تذهب إلى أي مكان من دون خزين من الحبوب المنومة. وأخبرتها بعد العشاء بأن النوم يجافيني في

سوفلاك، وأن هذا حدث لأني لم أكن أتناول العقاقير التي وصفها لي الطبيب، وأناي لا أعلم كيف سأحصل على منومٍ يستحق أن أتناوله. في البداية، ضحكت إيفيلين ديفينيش مزديرةً براءتي. ولكنها توقفت عن الضحك. ونظرت إليّ بطريقة غريبة، ثم بدت مسحة من السرور على وجهها.

وصاحت قائلة: «يمكنني أن أساعدك بالطبع.» كان تخميني صائبًا. قالت: «لديّ بعض بلورات الكلورال. سأحضر لك بعضًا منها.» وأسرعت نحو غرفتها. أعتقد أنها فكرت في أن تناولي منومًا قويًا في ليلة الأربعاء فكرة جيدة. وسأُنحى عن طريقهم تمامًا. تأكد اعتقادي هذا عندما عادت وفي يدها علبة ورقية صغيرة. وأصرّت بشدة على أن أخبرها في الصباح بتأثير هذه البلورات علي.

وقالت: «يجب أن تذيبها في الماء بالطبع. لقد أعطيتك جرعةً صغيرة تحسبًا لأي مضاعفات. ولكن من المهم أن تخبريني غذا بتأثيرها عليك.»

وعدتها بأنني سأخبرها، وأخذت البلورات وذهبت إلى غرفتي. إلا أنني بمجرد أن وصلت إلى غرفتي، خفت أن أستخدمها. ولكن كان يجب أن أستخدمها. لم أكن أعلم أي شيء عن المواد المنومة. لطالما كنت أنام كرضيعة طوال حياتي. لم تكن لديّ أدنى فكرة عما إذا كانت الجرعة ضعيفة أم قوية، أو حتى إذا كانت الجرعة التي أعطتها لي قوية للغاية. نعم، كان هذا الخوف يؤرّقني بشدة. راقبت البلورات وهي تذوب في الماء تحت ضوء المصباح المجاور لفراشي، وتساءلت عما إذا كنت أذيب كميةً تكفي لإزاحتي عن الطريق إلى الأبد. وتخيلت عيني إيفيلين ترمقاني بسخرية: كانت قد رمقني بقدر كبير من الازدراء. من ناحية أخرى، ربما كانت تُجرب الجرعات المناسبة، مثلما أفعل تمامًا. كانت تحاول اكتشاف كمية الكلورال المطلوبة لكي ينام المرء بعمق ولا يمكن لأي شيء أن يؤرّقه ليلة الأربعاء، مثلما أفعل تمامًا. دخلت إلى فراشي، وشربت كوب الماء كاملاً متعجّلة. شعرت بالذعر بعدما انتهيت من الشرب، وحاولت بلا جدوى أن أمنع نفسي عن النوم. وكنت أقول لنفسني: «لن أنام. لن أنام.» ما أذكره بعد ذلك هو أنني كنت أنظر إلى ساعتني في ضوء النهار وأدركت أن الساعة تُشير إلى الحادية عشرة والنصف وقهوتي موضوعة على الطاولة المجاورة لفراشي وقد بردت تمامًا. شعرت برأسي ثقيلًا إلى حدٍّ ما، ولكن دون أي أعراض أخرى، وبدأت أشك فيما إذا كانت الجرعة ستكون فعّالة لو كنت بطبيعتي سريعة الاستيقاظ. ومن ثم، كان كل ما قلته إلى إيفيلين:

«نعم، لقد نمت أفضل كثيرًا. ولم أستيقظ أكثر من مرة.»

أومأت إيفيلين ديفينيش برأسها.
وقالت: «حسنًا، سأعطيك نموًا أقوى المرة القادمة. ولكن ليس الآن. إذا ما اعتدت على تناول هذه المواد، فستفقد تأثيرها. ستحصلين على المزيد من البلورات بعد أسبوع من الآن، إذا ما ذكّرنتي بذلك.»

بعد أسبوع بالتحديد، سيحل يوم الأربعاء الذي يجب إزاحتي عن الطريق فيه. شكرتها بامتنان شديد على عطفها. لا ريب في أنها اعتقدت أنني حمقاء؛ فقد دخلت في شركها بإرادتي.

كانت الخطة تسير على خير ما يرام حتى ذلك الوقت، ولكن كان ثمة إجراء احترازي آخر يجب أن أتخذه. كنت أعلم أن طقوس قداس الشيطان يجب أن تلي قداسًا حقيقيًا، وكان يجب أن أتعلّمها. لذا، واطلبت على الذهاب إلى الكنيسة الصغيرة في سوفلاك طوال الأسبوع التالي، ويؤسفني أن تركت لدى القس فاورييه انطباعًا بأنه بصدد هداية فتاة من الولايات المتحدة تمتلك أموالًا طائلة. في واقع الأمر، كنت أراقب عن كثب كل حركة يفعلها الصبي القروي الصغير الوحيد الذي يؤدّي دور مساعد الكاهن. كانت ثمة حركات من الصعب على المرء تذكّرها. فقد كانت تتناسق في بعض الأحيان مع حركات القس، وفي أحيان أخرى كانت تُناقضها، مثلما يتحرّك الراقصون وشركاؤهم، ولا أقصد بذلك الاستهانة بتلك الأمور الدينية. ولكن، بحلول يوم الأربعاء، وبفضل ذهابي إلى الكنيسة والتدرب في غرفتي، شعرت بأنني قد أنجح. في صباح يوم الثلاثاء، وصلت الشحنة المسجلة من ليدز، وبهذا، أصبح كل شيء جاهزًا.»

أخذت جويس وويل شهيقة عميقًا وكأنها قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة من مغامرتها وجلست وعيناها تحدّقان في الطاولة. كانت ثمة زجاجة من مياه إيفيان تقف في منتصف الطاولة. لمست ذراع حبيبها وطلبت كوبًا من هذا الماء.

قال هانو في لطف: «يا آنسة، إذا ما كانت ذكريات تلك الليلة تسبّب لك الإزعاج، فلا تدعينا نزيد من انزعاجك بجعلك تحكيها لنا هنا. فللأسف، سيكون عليك أن تحكيها مرةً أخرى.»

رأت قائلة: «في محكمة الجنايات. أعلم ذلك، وأعترف لك بأنني خائفة من فكرة حكيتها على الملأ أمام الأعين المحدقة بي. ولكن سيساعدني حكيتها أولاً بين أصدقائي في الاستعداد لتلك المحنة. ستصبح قصتي أكثر ترتيبًا وتكرارها أقل تعذيبًا.»
وشربت كوب الماء كاملاً وواصلت الحكى.

الفصل الثامن والعشرون

ليلة الأربعاء

«في يوم الأربعاء، وبعد تناول الغداء، انتحيتُ بإيفيلين ديفينيش جانباً في الشرفة وأفزعتها بشدة عندما قلت لها: «هذه الليلة الموعودة، أليس كذلك؟»

اتسعت عيناها عن آخرهما في رعب، وشحب وجهها بشدة. وتلعثمت قائلة: «الليلة الموعودة؟ الليلة الموعودة لماذا؟» وانتظرت إجابتي في ترقب. كنت مستمتعةً بجعلها تنتظر متحيرةً ومهتاجةً لأطول مدة ممكنة. كرّرت متظاهرةً بالدهشة: «ماذا؟ أوه، لا يمكن أن تكوني نسييت! لا أصدق ذلك.» ومع كل جملة جديدة أقولها، كانت قدرتها على التظاهر تضعف أكثر فأكثر، حتى أصبح وجهها يُشبه عيني قناع أبيض جامدتين تلمع الكراهية فيهما. ولا ريب في أنني فكّرت بينما كنت أنظر لها: «سأتنكّر على هيئتها تلك.» ولكني أدركت في الوقت نفسه أنني لم أكن حصيفةً بما يكفي. فسارعت بالقول:

«لقد وعدتني بإعطائي منوّمًا الليلة يا سيدة ديفينيش. وظللت متشوقةً للحصول عليه طوال الأسبوع.»

عادت الحمرة تكسو وجهها مجددًا. وردت قائلة: «بالطبع، لم أكن قد نسييت. سأعطيك إياه بالطبع يا جويس.» ثم تغيّرت نبرة صوتها. وقالت: «أريد منك أن تسديني خدمةً في المقابل. مجرد خدمة صغيرة. قد أبدو سخيفةً بالنسبة إليك. وربما أنا كذلك حقًا. ولكني أومن بالخرافات.» ثم أسكتت نفسها وكأنها قالت أكثر مما يجب. وعادت تقول: «أريد منك أن تعيريني شيئاً ترتدينه باستمرار، سوارًا على سبيل المثال.» وأشارت إلى السوار الذهبي الذي يحيط بمعصمي. وقالت: «سأعيده لك في الغد.»

لا ريب في أنني بدوت مندهشة. ولم أتخيّل سبب رغبة شخص يؤمن بالخرافات في الحصول على سوار. إنه ليس تميمة، أو شيئاً من المفترض به أن يجلب الحظ الحسن مثل

سوار من شعر الفيل. لم يكن سوى شريط من الذهب به حجر أوبال ناري عند مشبكه. ولكنني فككته وأعطيته إياها.

وقلت في سرور: «بمقدورك الحصول عليه بطبيعة الحال.» أخذته إيفيلين ديفينيش من يدي بطريقة أقرب إلى الخطف. ثم نظرت نحوي هي أيضاً في سرور، ولكنه نوع خفي من السرور، كما لو أنني أكثر امرأة حمقاء في العالم لأنني تركتها تأخذ السوار. انتظرت إلى ما بعد وقت الشاي في الحديقة، فلم تكن قد رُتبت أي جولات في ذلك اليوم، ثم تسلّلت إلى خارج الحديقة خلّسةً لأتمشّي، وكان الورنيش معي، وفرشاة طلاء صغيرة، وقفاز سميك في حقيبة يدي. سرت بمحاذاة طريق التل وصولاً إلى البوابة الصغيرة في سياج حديقة ميراندول الطويل. لم أتمكن من رؤية أحد في نطاق بصري. فارتديت القفاز السميك، وطلّيت مزلاج البوابة وعمودها وعوارضها بدقة وسرعة. ثم لففت الزجاجة والفرشاة والقفاز معاً ودسستهم عميقاً داخل السياج في المكان حيث وجدهم السيد هانو، على ما أعتقد.»

اكتفى هانو بإيماءة تأكيد. فلم يكن ذلك وقتاً مناسباً لقول العبارات الشائعة الاستخدام. وبدأ ضيق غريب يزحف على جمهور جويس الصغير. وشعر كلُّ منهم بأنه يشهد بأمر عينيّه تلك الأحداث التي يسمّعها تُقصّ فحسب. كان كلُّ منهم حاضراً في قصر سوفلاك ذي اللون الزهري الفاتح يشاهد الفتاة الوحيدة الرقيقة القلب تشن حملتها على قوى الظلام، الأمر الذي أصابهم بالقشعريرة. كانت هناك تجلس أمامهم، ولكن تفكّكت جدران المطعم المتواضع الخشبية ووجدوا أنفسهم يرافقونها في مغامرتها الخطرة. «بينما كنت أرتدي ملابس لي لأذهب لتناول العشاء، طرقت إيفيلين ديفينيش باب غرفتي ودخلتها.

وقالت: «إليك المنوم الذي طلبت. لقد أضفت بضع بلورات أكثر من المرة السابقة. ولكن ليس الكثير. سأتناول الكمية كاملةً لو كنت مكانك.»

ثم وضعت العلبة البيضاء في يدي وخرجت من الغرفة. كانت العلبة أثقل بكثير من العلبة التي أعطتها لي سابقاً، وكنت خائفةً من استخدام ما تحويه. أدبت حوالي ثلاثة أرباع البلورات في كمية صغيرة من الماء بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة على ملابسني، وصببت المنوم بحرص في زجاجة دواء صغيرة، وأغلقت الزجاجة بسداداتها وأخفيته في أحد الأدراج. ثم نزلت لتناول العشاء، ووجدتك حاضراً.» والتفتت نحو السيد ريكاردو مبتسمة. ثم قالت: «لقد تسبّبت لي في صدمة كبيرة بعد ذلك، رغم أنك لا تدرك أنك فعلت،

ولكن في تلك اللحظة، كنت سعيدةً برؤيتك. لقد كنت وحيدةً من قبل، أما الآن، فثمة شخص يمكن أن يساندني.»

قال السيد ريكاردو شاعرًا بأنه مستعد لفعل أي شيء الآن بعدما لم يعد ثمة خطر محقق: «نعم، نعم! ثقي بأني كنت سأساندك.» ولكنه لم يكن يعرف كيف تسبّب في انزعاج جويس ويبل. لا بد من أن جويس مخطئة. من الطبيعي أن تكون ذكرياتها عن تلك الليلة مشوّشة.

واصلت جويس حديثها قائلة: «استفضت في الترحيب بك أنت تحديدًا؛ فقد كنا جميعًا متعصبين في تلك الليلة، باستثناء روبن وبيستر. فقد كان هادئًا وواثقًا كما لو أنه لا يوجد في ذهنه ما يشغله سوى التشكك في أن الأمطار ستهطل في الموعد المناسب لزيادة محصول العنب. أما بقيتنا، فكنّا منزعجين، وعندما وصل القس فاورييه وتحدث عن ملابس القس التي سُرقت، أعتقد أننا كنا جميعًا على حافة الانهيار. وأدركت أنني ارتكبت خطأ فادحًا عندما صحت: «لست أنا من يوزع البرودة!» وفهم جميع الموجودين في غرفة الطعام، فيما عدا الخدم، والسيدة تاسبورو، والسيد ريكاردو، تلمحي. لقد بحث بمعرفتي للسر الرهيب الذي يكتنف هذه العائلة الصغيرة بوضوح تام وكأني وقفت وصحت به بأعلى صوتي. أذكر أن إيفيلين ديفينيش، بعدما ذهب عنها الرعب، نظرت بظفر عبر الطاولة نحو روبن وبيستر. كانت تعبيرات وجهها تقول بوضوح أكبر من الكلمات: «بم أخبرتك؟ إنها تعرف سرنا.»

وبالطبع، كان هناك اجتماع صغير في الشرفة بعد العشاء ضمها هي وروبن وبيستر ودو ميراندول. ولكن لم يكن ثمة ما يجعلهم يعتقدون أنني أعرف ما خطّطوا لفعله في تلك الليلة، أما في الغد، فقد ربّبت إيفيلين ديفينيش ما ستفعله بي. خشيت للحظة أنهم قد يؤجّلون القداس إلى يوم الجمعة. فلم أكن أمتلك عذرًا لتغيير ترتيباتي. وكان يجب أن أرحل في الصباح. ولكن بعدما انتهى الاجتماع، قال دو ميراندول بصوته العالي: «في تمام الواحدة إذن.» تبعت كلماته صيحة استياء خافتة أطلقتها إيفيلين ديفينيش، فأضاف: «غداً»، وضحكوا جميعًا.

لن تتغير الترتيبات إذن. لقد شرحت لكم كيف أنني كلفت نفسي خلسةً بمهمة إعداد المشروبات للمجموعة. ذهبت إلى غرفتي عدوًا، وأحضرت الزجاجاة الصغيرة التي تحتوي على المنوم، ووضعتها داخل منديلي، وعدت إلى غرفة الاستقبال في اللحظة نفسها التي كانت فيها السيدة تاسبورو تنادي على ديانا طالبةً منها أن تعد مشروبًا ليليًا من أجل

القس. وسيتذكر السيد ريكاردو أن ديانا كانت آخر من يدخل الغرفة، وطلبت مني براندي مع الصودا. كانت الطاولة موضوعة في مكان جعلني أولي ظهري للغرفة. أزلت سداة الزجاجة الصغيرة، وصببت بعض البراندي في الكوب، ثم أملت الدورق بيدي اليسرى وصببت الصودا في الكوب. في الوقت نفسه، كنت أمسك الكوب على الطاولة بيدي اليمنى، وتمكنت من إفراغ محتويات الزجاجة الصغيرة في كوب البراندي تحت غطاء الضوضاء التي أحدثها الدورق. بعد ذلك مباشرة، انصرف القس فاورييه والأشخاص الآخرون الذين لا يقيمون في المنزل، وذهب كلُّ منا إلى غرفته. ولم يكن الوقت قد تأخر.» وافقها السيد ريكاردو قائلاً: «نعم. أذكر أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة إلا ١٠ دقائق عندما بدأت في الاستعداد للنوم.»

قررت أن أنتظر لساعة ونصف قبل أن أتسلل نازلةً إلى غرفة ديانا. خلعت فستانتي وارتيديت جوارب سوداء وحذاءً أسود، وارتيديت رداء نوم، كل هذا بسرعة محمومة. ولكن لم يتبق لي ما أفعله بعد ذلك، ولم أكن أدرك أن الزمن يزحف بهذا البطء الشديد. وبمرور كل دقيقة من تلك الدقائق التي بدت وكأنها لا نهاية لها، كان إحجامي عن المضي قدماً في المخاطرة التي تنتظرني يزداد. كنت أتخيل نفسي وقد انكشف أمرى ونُزِع قناعي عن وجهي. وتخيلت إيفيلين ديفينيش تشمت بي وتُشبع كراهيتها لي. ولكني كنت أشعر بأنها، رغم كل ما سبق، ليست في قسوة دو ميراندول بشفتيه الحمراوين ووجهه الضخم البدين. وبدأت أشعر بالنعاس لمجرد رؤية فراشي بملاءاته البيضاء المطوية بعناية. وبدأت أفكر: «بفرض أنني خلدت إلى النوم، فلن يمكن أن تخرج ديانا من المنزل الليلة. هذا مؤكد، وهذا هدي الرئيس.»

ولكن، لم يكن هذا الهدف الرئيس بالطبع. كان الهدف الرئيس إفساد أي فرصة أخرى لتكرار ما يحدث الليلة في ظل وجود ديانا. ولكن كانت دعوة الوسائد لي لأنام تزداد إلحاحاً، وكادت تصبح غير قابلة للمقاومة إذا لم تشتعل في داخلي شرارة مفاجئة من الخزي عندما فُكِّرت في أن جميع خططي وقراراتي المحكمة ستذهب هباءً منثوراً إذا لم أظل فاتحة عيني. فقفزت واقفةً وأطفأت الأنوار. لن أتمكن من البقاء مستيقظةً والملاءات البيضاء والوسائد تصرخ فيَّ ألا أكون حمقاء. أما في الظلام، دون أن أكون قادرةً على رؤيتها، فسأكون أكثر قدرةً على البقاء مستيقظة. وكنت محظوظةً أنني أطفأت الأنوار. فبعد بضع دقائق، بينما كنت أجلس على حافة الفراش، سمعت صوت خطوات أقدام على الدرج الحجري خارج باب غرفتي. كان هناك من يتنصت خارج باب غرفتي ليتأكد

من أني نائمة، وربما كان هذا الشخص إيفيلين ديفينيش. وعلى الفور، تيقّظت وأصبحت واثقةً بأنني تأخرت، وأنه كان يجب أن أكون الآن مرتديةً ملابسني وأقف جاهزةً في بهو المنزل. كنت أخشى أنها قد تدخل غرفة ديانا، وتنصتُ لأسمع صوت باب يُفتح ويُغلق، أو صوت صرخة فزع، أو صوت أقدام مسرعة. ولكن بعدما مرت بضع دقائق، فتحت باب غرفتي، وكان المنزل صامتًا لدرجة أنني شعرت بأنني أستطيع سماع صوت فأر يتحرك. كنت قد أغلقت مصاريع النوافذ وأسدت الستائر عليها عندما صعدت إلى غرفتي أول مرة. أضأت الأنوار مجددًا ونظرت إلى ساعتني. وكانت تشير إلى بضع دقائق قبل الثانية عشرة والنصف. تسلّلت إلى الطابق السفلي وفتحت باب غرفة ديانا بحذر شديد. كانت أنوار غرفتها لا تزال مضاءة، ولكنها كانت مستلقيةً في فراشها بالفرستان الذي كانت ترتديه، تتنفس بانتظام وتغط في نوم عميق. وضعت لحافًا عليها، وأخرجت من الدرج البدلة المخملية، والرداء الكهنوتي، وعباءة التنكر، والقناع، وبينما كنت أستدير نحو الباب، رأيت حزمة ملفوفة بورق بني موضوعة على الطاولة. اعتقدت أنها قد تكون شيئًا يتعلّق بالفرستان الذي من المفترض أن ترتديه. فككت الحزمة ووجدت أنها الرداء الكهنوتي الأبيض ذو حواف الدانتيل الذي رأيت مساعد القس يرتديه في أيام خاصة أثناء القداسات الكاملة المراسم. أضفته إلى كومة الملابس التي معي، وأطفأت الأنوار، وأخذت المفتاح من مزلاج الباب، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح بعدما خرجت من الغرفة. لم أكن أريد أن تدخل إيفيلين ديفينيش الغرفة في اللحظة الأخيرة وتجد ديانا نائمة. وإذا ما حاولت فتح الباب، فقد تعتقد أن ديانا قد خرجت حقًا إلى مكان اللقاء وأغلقت بابها حتى لا يعثب أحد بغرفتها.

في تمام الواحدة إلا ١٠ دقائق، كنت قد ارتديت الملابس ووضعت القناع على وجهي، وتسلّلت خارجةً من باب المنزل الأمامي وأسرعت على الطريق نحو مباني المزرعة. كانت هناك سيارة تقف على الطريق دون أن يضيء أي من أنوارها. كان روبن ويبستر يجلس دون تنكر خلف عجلة القيادة، وبجانبه امرأة؛ إيفيلين ديفينيش. فتحت الباب بجانبها، ولكنني كنت قوية الملاحظة لأرى أن الحظ كان يحابيني. لوّحت بيدي وكأني أقول لها: «إجابتي هي لا». وصعدت إلى المقعد الخلفي. لم يلحّ روبن ويبستر أو إيفيلين في دعوتهم لأنّ أجلس بجانبهما، وانطلقت السيارة مسرعةً على طول الطريق عابرةً المرعى وصاعدة التل في اتجاه البوابة. تركتهما يخرجان من السيارة أولاً، وكنت لا أزال أقف على عتبة النزول من السيارة عندما سمعت سبّابًا من ويبستر وصيحة ضيق من إيفيلين ديفينيش.

تلطّخت يدا كل منهما ببعض من الورنيش الذي حصلت عليه من البروفيسور، وعندما وصلت إليهما كانا يحاولان فركه من على أيديهما بالمناديل. قال روبن ويبستر: «انتبهي إلى البوابة. إنها لزجة.» مررت من خلفه وخلف إيفيلين ديفينيش، وركلت البوابة بقدمي. كنت أريد من كلّ ممن يستخدمون البوابة هذه الليلة أن يفتح مزلاجها بيده. كان المدخل الأمامي للمنزل مفتوحًا والمر مضاءً. وأظهر لي الضوء المتسلل عبر الباب أن هناك مجموعات صغيرة من الناس، وكشف الضوء عن قناع وعباءة ملفوفة كالقفن. كانت هناك أيضًا أنوار في المكتبة في الدور الأرضي، وكانت ظلال أشخاص يتجولون فيها جبهة وذهابًا تسقط على الحصى في الخارج. كان التجمع أكبر مما توقعت، ورأيت لوهلة أن ذلك يبعث على الشعور بالأمان، ولكنني شعرت بعدّ بالخوف بسبب زيادة فرص انكشاف أمري.

قال روبن ويبستر بهدوء: «من هنا.» ثم قادنا إلى الباحة الخلفية للمنزل. وهناك، كان السيد دو ميراندول في انتظارنا، وصعدنا عبر درج خلفي إلى غرفة صغيرة تقع خلف غرفة الاجتماعات، ويفصل بينهما باب مخفي في ألواح الخشب. كانت ملابس القس فاورييه الكهنوتية موضوعةً على أحد المقاعد. وكان السيد دو ميراندول في حالة توتر شديدة. فكان وجهه محمرًا بشدة ويداه ترتعشان.

وسأل: «هل أنتم جاهزون؟ لقد حان الوقت.»

ضحكت إيفيلين ديفينيش بنبرة خافتة وحماسية.

وقالت: «إنها اللحظة التي أنتظرها. أن تكون الأيام الماضية هي الأيام القادمة. وما حدث من قبل، سيحدث مجددًا. وعندما تفوز، سأفوز أنا أيضًا.»

كانت كلمات تشبه كلمات عرافة، أو دجالة تحيط نفسها بهالة من الغموض، ولكنها قيلت بصوتٍ مفعم بالشغف والصدق إلى حد أنني لم أشك معها في أنها تمثل العالم بأسره بالنسبة إليها. ثم صاحت بصوت خفيض: «يا سيد الأرض!» ثم انتحبت في صوت خفيض وأعادت صلاتها مجددًا. «يا سيد الأرض.» ثم رسمت على نفسها بإبهامها علامة الصليب من أسفل إلى أعلى وليس من أعلى إلى أسفل. وقالت: «أعده لي!» ونظرت نحو روبن ويبستر وعيناها تبرقان خلف فتحتي قناعها الحريري الأسود. كانت ترتدي عباءةً طويلة ضمّتها بحيث تكون ملفوفةً حول جسدها، ولاحظت للمرة الأولى، مصدومة، أن قدميها في الخف عاريتان. وكثّرت مناجاتها وكأنها امرأة مجذوبة: «أعده لي.» وأمسكها دو ميراندول من ذراعها.

وقال: «تعالى!» وقادها نحو الغرفة الكبيرة، وأغلق الباب خلفه. سمعت أصوات طقطقة مفاتيح الأنوار الكهربائية، وبعد بضع دقائق، سمعت ضوضاء خافتة لأشخاص يدخلون الغرفة ويجلسون في أماكنهم.

في الوقت نفسه، كان روبن ويبستر يقف مثل تمثال حجري وعيناه تحدقان في الأرض. ثم رفع رأسه وأطلق زفرة تنم عن الراحة. ثم خلع معطفه الطويل، ورأيت أنه كان يرتدي رداءً كهنوتياً. ارتدى قميص الكاهن الأبيض والشنال ببطء شديد، وكأنه رجل غارق في أحلامه. ثم أخذ شيئاً من جيب معطفه وأخفاه في كفه. ثم استدار ونظر نحوى. كنت قد خلعت عباءة التنكر. أشار نحو طاولة وضعت عليها مبخرة ذهبية بسلاسل ذهبية. كانت مليئةً بالبخور في انتظار أن يُشعله أحد، وكانت هناك علبة ثقاب على الطاولة بجانب المبخرة. أشعلت عود ثقاب وأشعلت البخور وحملت المبخرة في يدي. تصاعد من البخور دخان قاتم السواد، وملأ الغرفة برائحة حارقة ومسكرة. وطوال ذلك الوقت، لم يرفع عينيه عني. لم تمر لحظة دون أن أتوقع أن أسمع صيح: «من أنت؟» ولكنه لم يفعل. وقفت في مواجهته أؤرجح المبخرة إلى الأمام والخلف أمام جسدي وبين جسدينا، ولم أكن أراه إلا عبر سحابة من الدخان.

رغم ذلك، شعرت بأنه قد عرف من أكون؛ فقد وقف يحدّق بي بلامح جامدة وعينين لا تطرفان. وفجأة، غمرني شعور جارف بالراحة. فقد أدركت أنه يحدّق بي بعينين شاردتين. لم أكن نصب عينيه من الأساس. وكانت أفكاره منصبةً على نفسه. واختلجت شفتاه ببطء عن ابتسامة، وبللها بلسانه، وتحسّس كفه بيده اليمنى، ليتأكد من وجود ذلك الشيء الذي أخفاه. أدركت حينئذٍ أنه يحاول أن يطبع في ذاكرته تلك اللحظة التي ستحرّره من ملل عشيقته وطلباتها، كان يطبعها في ذاكرته باستمتاع شهواني بطيء.

ثم قال وهو يفتح الباب: «لقد حان الوقت.» وغمرنا ضوء لامع. تبعته وأنا أتمتم بدعاء وقلبي يرتعد خوفاً. ولكنني صرفت ذلك الخوف من قلبي حتى لا أخطئ وينكشف أمرى. وتخطيت خوفاً. أعتقد أن أبخرة البخور أسكرتني. ولكن شعرت في تلك اللحظة بخوف أتمنى ألا أشعر به مرةً أخرى ما حييت، كنت خائفةً أن أرى الشيطان نفسه يتجسد في الغرفة بين عباده، بشره وقبحه، ويقتل من يريد بمجرد إشارة من طرف إصبعه. ما الحماية التي سيمنحها لي تنكّري حينئذٍ؟ تقدّمت دائخةً ومصعوقة. وكانت الغرفة تبدو زائغة في عيني. ولكن عادت رؤيتهما تتضح بعد قليل.

رأيت أن الحضور في الغرفة قد وصل إلى نصف سعتها، وكان الجميع يرتدون أقنعةً وثياباً تخفي معالم أجسادهم. ولكنني من وقت لآخر كنت أرى تحت تلك الثياب بريق كتف بيضاء ولعان حُلي. وكان الجميع يُثرثرون ويهمسون حتى أصبحت الغرفة مليئةً بأزيز كأزيز النحل. وعندما جثا روبن ويبستر على ركبتيه أمام المذبح، وقفت عند جانبه وخلفه قليلاً. كان المذبح عبارةً عن امرأة حية. نعم!

كان ثمة مصباح ضخّم معلق من السقف يلقي بضوءٍ ذهبي مبهّر. وألقى بضوئه على الشاب الوسيم ذي العينين الزرقاوين اللتين يملؤهما الأسى، واللوحين الجانبيين، وغمر الضوء إيفيلين ديفينيش الراقدة عاريةً تمامًا على ظهرها على كفن أسود. كانت عيناها مغمضتين، ولكن كان صدرها يعلو ويهبط مع أنفاسها المتلاحقة، وكانت ذراعاها مشدودتين بقوة بحيث ترسمان مع جسدها الممدّد علامة الصليب. حينئذٍ، فهمت ماذا كانت تعني بالكلمات التي قالتها في الغرفة الصغيرة:

«عندما تفوز، سأفوز أنا أيضًا.»

تمامًا مثلما فعلت مدام دي مونتيسبا في الماضي، عندما استلقت كذبيحة بين يدي الأب جيبور؛ لتستعيد حب عشيقها الملكي الضائع. واستعادته حقًا.

بدأ روبن ويبستر طقوس القداس بأن غمغم صلاةً باللغة اللاتينية، ومع استمرار الطقوس، غيرت مكاني من جانب إلى آخر، وأنا أهز المبخرة وأركع. كان هذا القداس الحقيقي، القداس الذي كان الخداع الهدف منه. وعندما وصل إلى جزء أن الخبز هو جسد المسيح والنبذ هو دمه، بدأت هوجة من السخرية والاستهزاء، وجنون عبادة الشيطان ستحوّل خلال نصف ساعة هذه الغرفة إلى ماخور، زريبة تتقاتل فيها حيوانات في معركة من الشهوة. بينما كنت أنتقل من طرف المذبح إلى طرفه الآخر وسط تتابع الأدعية الموجهة للرب الحق، وقع بصري على سوارى الذهبي يلمع على معصم إيفيلين ديفينيش، ونعم؛ لطفة داكنة من الورنيش ظهرت على راحة يدها. وتذكّرت أنها قالت عن نفسها إنها تؤمن بالخرافات عندما استعارت السوار. وها هي قد عادت إلى أقدم خرافة في العالم. إذا ما ارتدت شيئاً يخصني خلال تلك المحنة الرهيبة، فسوف تستخرج من داخلي جوهرى وقدرتي على اجتذاب الناس وتضعهما في داخلها. ومع اقتراب الذروة المقدسة، تملّكت جسدها وأطرافها رجفةً قوية، وانفتحت عيناها وثبتت على صورة أدونيس، وصدرت من بين شفّتيها صرخات متواصلة خرجت مبحوحةً وكأنها زمجرة حيوان. أمسك روبن ويبستر بالكأس ورفعها فوق رأسه، ثم وضعها بين ثدييها وانحنى فوقها وقد بدت

عليه العصبية الشديدة. ذابت صرخات إيفيلين ديفينيش معًا مكوَّنةً عويلاً واحداً طويلاً، ورَجَّتْ التشنُّجات جسدها من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، وكانت ثمة حشجة في حلقها، واسترخت ذراعها، ثم رقدت ساكنة مرةً أخرى. رفع روبن ويبستر الكأس مرةً أخرى، وتوقفت جميع الهمهمات. لم أقوَ على النظر حولي، ولكنني كنت واثقةً بأنني إذا فعلت، فسأرى أن الرعب قد جعل الحاضرين شاخصي الأبصار كتماثيل حجرية. كنت أقف عند الطرف الأيسر بجانب قدمي إيفيلين ديفينيش، وكان ظهر روبن ويبستر يحجب بعض الرؤية عني. رأيته يرفع الكأس للمرة الثالثة، وعندئذٍ بدأ الحضور يتمايلون وينحنون مثل سيقان الذرة في مهب الريح. وبدأت الهمهمات مجدداً، أكثر علواً وأكثر هستيرية. انحنى روبن ويبستر والكأس في يده، وسمعت صوت سيلان سائل داخله. وفجأة، صرخت امرأة، وكان هناك صوت إزاحة مقاعد وقلبها، وحركات محمومة، وصدر صوت روبن ويبستر أعلى من صوت الصخب، وكانت تشوبه نبرة ظفر بينما كان يفرد ذراعيه نحو صورة أدونيس والكأس بين راحتي يديه.

وقال: «الآن، حيَّ عبادك! هاك قربان يليق بك. تعال! تعال!»

ولكن رنَّ صوت أعلى من صوته وأكثر منه عنفاً ورعباً، ونطق كلمةً واحدة فحسب. «اقتل!»

رأيت روبن ويبستر يستدير ناحية الغرفة، ورأيت إيفيلين ديفينيش ونصل سكين موجه رأسياً فوق قلبها، وسال الدم على صدرها، وشعرت بنفسي وسط دُومة من الناس، وسمعت صوتاً يعلو فوق الصخب ويقول بنبرة أمرّة: «أغلق الباب! لا يخرج أحد!»

خفضت رأسي، ووصلت إلى الباب الصغير في الجدار المغطى بألواح الخشب. وفتحته، وتسَلَّت عبره. كان ثمة مزلاج في جانبه الداخلي. فأغلقتُه وعدوت على الدرج وأنا أمزَّق الرداء الكهنوتي عني بينما أعود. كان الرداء أبيض اللون، وكان سيدل من يلاحقني على مكاني حتى في هذه العتمة. ألقيت الرداء في المدخل الخلفي للمنزل، وعدوت عبر الحديقة، وفتحت مزلاج البوابة بيدي الملفوفة في قطعة من قماش الرداء الكهنوتي، وعدوت هابطةً التل نحو سوفلاك. لم يلاحقني أحد. لم يلحظ أحد هروبي في ظل الفوضى التي حدثت. ولكنهم سيلاحظون هروبي قريباً. أعرف النبرة السلطوية بمجرد سماعها. الصوت الذي قال أمراً: «أغلق الباب! يجب ألا يخرج أحد!» أصبحت أعرف الآن أنه كان صوت آرثر تيدون، القاضي. لم أكن أعرف حينئذٍ إلا أنه صوت رجل اعتاد على إملاء الأوامر وقادر

على السيطرة على انفعالاته. لم أعد خائفةً من السيد دو ميراندول أو روبن ويبستر. بل أصبحت خائفةً من صاحب الصوت المجهول. خلعت قناعي عن رأسي وأمسكته في يدي. عدت مروراً بمباني المزرعة، وكانت جميعها مطفأة الأنوار، وصعدت المنحدر المؤدي إلى قصر سوفلاك. ألقيت نظرةً على منزل ميراندول على التل. كانت الأنوار لا تزال مضاءةً في الغرفة العلوية الطويلة. كانوا لا يزالون يتناقشون هناك، ولكن كانت ثمة سلطة تدير النقاش هذه المرة. ولن يستمر هذا النقاش طويلاً. وفكرت في أنهم لا بد أن يتصرفوا؛ فمع سلطوية هذا الصوت لتوجيه أفعالهم، سيكون تصرفهم سريعاً وحاسماً.

دخلت إلى المنزل عبر باب غرفة الاستقبال الزجاجي، وتسَلَّلت على طول الرواق حتى وصلت إلى غرفة ديانا. فتحت باب الغرفة وأضأت أنوارها. لم تكن قد انقلبت في نومها منذ تركتها. ثم أغلقت الباب من الداخل. يجب أن أخلع عنها ملابسها وأضعها في فراشها الوضع الصحيح. كان هذا ضرورياً للغاية. فهناك، فوق التل، عندما يصلون إلى عد الحاضرين، فمن المؤكد أنهم سيكتشفون اختفاء مساعدة القس. لا ريب في أنهم قد اكتشفوا اختفاءها الآن، روبن ويبستر، ودو ميراندول، والرجل صاحب الصوت. ولكنهم لن يشعروا بالقلق ما داموا قد اعتقدوا أن المساعدة هي ديانا. وسيفترضون أنها قد هربت، مثلما فعلت أنا، عندما حدث الهرج والمرج.

ولكنني فكرت: «لن يمكن لأي من الذين حضروا هذه الجريمة أن يبوح بكلمة واحدة عنها. لن يجروا على الاعتراف بأنهم كانوا يساعدون في تنفيذ هذا التجديف الذي لا يُغتفر. كان روبن ويبستر يدرك ذلك جيداً أثناء التخطيط لارتكابها. لقد أصبحوا جميعهم شركاء في الجريمة، وستُجمعهم رغبتهم الملحة في التزام السرية التامة. حسناً. من المرجح أن يُضطر الجميع إلى إزالة أقنعتهم. ولا ريب في أنهم سيتفرون على الفور، وسيبقى اثنان أو ثلاثة منهم لتقرير ما يجب فعله؛ روبن ويبستر، والسيد دو ميراندول، والصوت. ولكن أتساءل عما قرّر هؤلاء الثلاثة أن يخبروا ديانا به. يجب أن يُجهّزوها لما سيحدث في الصباح. يجب أن يأتوا إلى هنا الليلة في أقرب وقت، أقرب وقت ممكن. وإذا ما وجدوها نائمة مرتدية الفستان الذي كانت ترتديه خلال الأمسية، فسيعلمون أنني حلت محلها.

بدأت العمل. وكان عملاً مضمناً! كان يجب أن أتم الأمر برفق شديد حتى لا تستيقظ. كما أنها كانت ثقلية الوزن. كان يجب أن أزيل عنها جميع ملابسها وأن ألبسها ملابس النوم. أتممت الأمر أخيراً، ولكنه استغرق مني وقتاً طويلاً. وكنت أتوقّع مع كل لحظة تمر أن أسمع صوت خطوات أقدام في الرواق. وضعتها في فراشها بالوضعية الصحيحة،



كان الصوت المجهول الذي صاح: «اقتل!» هو ما أخاف جويس. فعدت هاربة تحت جُنج
الظلام ممسكةً بقناعها في يدها.

ثم أطفأت الأنوار، وفتحت الباب، وتركته موصداً دون قفل المزلاج، وتسَلَّلت صاعدةً الدرج
إلى غرفتي. وأقفلت بابها على نفسي، وأضأت أنوارها، وألقيت نفسي على الفراش. لم أفقد
الوعي، ولكن انتابني شعور رهيب! وظَلَلت أبكي حتى خُيل لي أنه من المستحيل أن تكون
هناك دموع متبقية في عيني. واضطُررت لأن أحشو فمي بملاءة الفراش لأمنع نفسي عن
الصراخ. وشعرت وكأنني أسقط عبر الفراش إلى بطن هاوية تليها هاوية. وشعرت وكأنني
أُحتَضِر.

لا أعلم كم دامت هذه الحالة. ولكن بعد وهلة، جلست ولم أشعر بالحاجة إلا إلى شيء وحيد، أن أخرج إلى الهواء الطلق. فمع نوافذ غرفتي المغلقة وبابها الموحد، كنت أشعر وكأنني أحتنق في زنزانة. ثم تذكّرت الزورق. كان يأتي إلى سوفلاك ثلاث مرات أسبوعياً ويرحل في الليل عندما يرتفع المد إلى بوردو. ورأيت صاريته ظاهرةً عند المرفأ الصغير اليوم. ربما أتمكّن من اللحاق به قبل أن يُبحر إذا ما أسرع. وقد يسمح لي القبطان بالركوب إذا ما دفعت له بسخاء. لم ألقِ بالاً للملابسي؛ فلم أكن أفكر في شيء سوى أن أبتعد عن هذا المنزل الأكبر مسافة ممكنة. أمسكت بعباءة التنكر والقناع، فلم أكن أجروء على تركهما خلفي، وأطفأت أنوار الغرفة وتسَلَّلت خارجة. كانت الطريق الأقصر بالنسبة إليّ لأصل إلى المرفأ عبر الباب المؤدي إلى الشرفة من غرفة ديانا. وكان الباب موصداً ولكنه غير مقفل بالمزلاج. عدوت على الدرج نزولاً عبر المرح، وتعثّرت في حوض الزهور، ثم واصلت العدو ثم توقّفت فجأةً عند نهاية الطريق. لقد رحل الزورق. ألقيت القناع على شجرة. كنت مرتعبةً منه. فقد شعرت بأنه جعلني شريكاً في الجريمة، وشعرت براحة غامرة عندما تحرّرت منه أخيراً. التفتت نحو اليمين وعدوت عبر الطريق لأحتمي بين الأشجار المظلمة. فكرت في أن ألوذ بماريان وجولس أماديه، ولكن الأمل كان لا يزال يحدونني في أن أتحذّر إلى ديانا أولاً، وسيمكننا أن نُجهّز قصةً تُنقذها من فضيحة المشاركة في الجريمة. فكرت أنني إذا عدت إلى غرفتي مجدداً، وأقفلت بابها ووضعت الفراش خلفه، فسأكون آمنةً حتى الصباح. ولم يكن الصبح ببعيد.

ولكن بينما كنت أنسلّ عبر الشرفة، رأيت شيئاً يتحرك خلف نافذة المكتبة؛ أنت»، التفتت جويس وبيل إلى السيد ريكاردو. «دخلت من فوري إلى غرفة ديانا، وأغلقت الباب الزجاجي وأضأت الأنوار للحظة. وكانت الغرفة على حالها عندما غادرتها المرة الأولى. لم تتحرك ديانا. ثم سمعت طرّقاً. وكانت أصابعي لا تزال على المفتاح. فأطفأت الأنوار. وحين وقت الفرار. إذا كان من يلاحقونني في الشرفة، فسيستوفّر لي وقت كافٍ لأصل إلى غرفتي وأحصّنها. أسرع صاعدةً الدرج الصغير، ودخلت غرفتي. ولكن كان الأوان قد فات. كان روبن ويبستر قد قاد الرجال من قصر ميراندول إلى غرفة ديانا. وعثروا على ديانا غارقةً في نوم عميق لا يمكن إيقاظها منه، لم يكن نومها من الممكن أن يحدثه شيء إلا عقار منوم. وأصبح من الجلي أنني حللت محلها. وبينما كنت أتحسّس في الظلام بأطراف أصابعي لأصل إلى مفتاح النور، وُضعت عبارة على رأسي وضغطت يد على فمي. وفقدت الوعي حينئذٍ. وعندما استعدت وعيي، كنت أُحمل من سيارة إلى منزل السيد دو

ميراندول. كان هناك ثلاثة رجال، السيد دو ميراندول، وروبن ويبستر، ورجل كان لا يزال يضع قناعاً على وجهه. حُملت إلى قبو، وبينما كان الرجل ذو القناع يقف فوق ليثبطني، أحضر الرجلان الآخران مرتبةً وقدر ماء وأشياء من هذا القبيل.



كانت جويس واثقةً بأنها أصبحت آمنة، وتحسّست طريقها في الظلام بحثاً عن مفتاح النور. ولكن تحت جناح الظلام، ألقيت عباءة على رأسها وفقدت وعيها.

قال الرجل ذو القناع: «سنقرّر مصيرها غداً»، واقشعر بدني. فقد تعرفت إلى صوته. إنه صوت الرجل الذي صاح: «أغلق الباب!» أذكر أن روبن ويبستر كان آخر من يخرج من القبو، وقبل أن ينصرف، انحنى فوقي وقال: «لا تفقدي الأمل! سأُنقذك.»

ولكنه لم يكن ليتمكّن من ذلك بالطبع. لم أكن أمل أنه يستطيع أن يفعل. كان مجبراً على الموافقة على ما يقرّره الآخرون.

كانت هناك نافذة ذات قضبان في القبو تحت السقف تسمح بدخول الهواء وطيف من ضوء شاحب. بعد أن طلع الصبح بمدة قصيرة، أحضر لي السيد دو ميراندول بعض الطعام ورجوته أن يطلق سراحه. لا أعلم بم وعدته، ولكنه لم يرد عليّ من الأساس. وفي الليل، جاء تيدون ودو ميراندول معاً. ووضعوا الأصفاد في يدي، وكمامة في فمي، وربطوا قدمي. وحملني تيدون إلى أعلى الدرج. كانت سيارته تقف أمام الباب مغلقةً السقف ومن دون سائق. وضعني على أرضيتها وغطّاني بسجادة، وبعد دقيقة أو اثنتين، تحركت السيارة.»

أوماً هانو برأسه.

وقال: «تيدون هو الرجل الوحيد الذي كان قادراً على قيادة سيارته إلى بوردو عابراً طوقى الأممي دون تفتيش سيارته. ولكن رغم ذلك، اتخذ ذلك الرجل البارح احتياطاته. عندما اقترب من بوردو، أخذ منعطفاً إلى خارج المدينة، وفي طريق جانبية، نُقلت هذه الأنسة إلى عربة يجرها حصان تقودها صديقتنا العطوف الأرملة تشيشول.»

الفصل التاسع والعشرون

هانو يستكمل المهمة

هكذا روت جويس وبيل قصتها. وكانت قبل أن تقطع شوطاً طويلاً منها قد وضعت يدها تحت ذراع برايس كارتر مع إيماءة جميلة؛ لكي تطمئن نفسها بلمسته أن الأيام السيئة التي تحكي عنها قد ولّت حقاً. وقبل أن تصل بحكايتها إلى فرارها من منزل ميراندول، كان هو قد أحاط خصرها بذراعه واقتربت هي بجسدها منه. وهكذا ظل الاثنان على هذه الوضعية طوال مدة سرد القصة، ولم يكن حتى سحر زجاجة الشمبانيا الوردية اللذيذة التي طلبها هانو بطريقة عَفْوية كافياً لأن يفصل بينهما.

صاح هانو: «فليملأ كُلٌّ منكم كأسه حتى حافظتها! هكذا! فلنرفع نخب الآنسة جويس. هل نضرب كعوب أحذيتنا معاً؟ لا! لن نفعل!»

رفع كأسه لينظر إلى محتوياتها في الضوء، وحدّق فيها مترقباً ظهور الفقاعات التي تتصاعد إلى سطح النبيذ، وانحنى لجويس بعطف وإعجاب عميقين باديين على وجهه جعلهم جميعاً يتأثرون، وصاح: «إلى الشابة الشجاعة من حي باوري!»

ضحكت جويس واحمرّ وجهها وشكرته بعينيها البراقَتين. ثم قبلها برايس كارتر، مؤكّداً فكرة هانو عنه، على شفّتها بجرأة، فزَمَّ هانو شفّتيه، وأغلق السيد ريكاردو عينيّه وكأنه على وشك أن يشرب زيت الخروج، ثم شربوا ما في كئوسهم عن آخرها.

قال هانو: «هذه الشمبانيا! إنها المشروب المناسب لمناسبات كهذه.»

قال برايس كارتر ضاحكاً: «وهذه الشمبانيا رائعة.»

قال السيد ريكاردو بصوتٍ لم يسمعه إلا هو: «أكثر مشروب مقرّر على الإطلاق.» وأبدى شجاعةً كافية لأن يشرب منقوع الأعشاب هذا.

قال هانو: «والآن، لقد سمعنا القصة. كل ما تبقى بالنسبة إليّ...» وأمال رأسه نحو

برايس كارتر، وقال: «هو أن أنقُط الحروف.»

وافقه برايس كارتر قائلاً: «بالضبط»، ولكن لم يكن السيد ريكاردو يتمتع بالقدر نفسه من سماحته.

وقال: «ضع النقاط على الحروف يا صديقي.»

ألقي هانو يديه في الهواء. وقال: «هل سمعتما؟ إنه يقول إنني صديقه، إلا أنه يسخر مني على الدوام. ولكنني لن أسمح له بذلك الليلة. لا، لا! أنا محقق في جهاز الأمن العام، وأعتقد أنني أفضلهم على الإطلاق، وأعرف كيفية استخدام العبارات الاصطلاحية جيداً. تضع اللغة النقاط على الحروف؛ أي إن المرء يَنْقُطُها. سأوضِّح الأمر، لكن نقطتي الكبرى ستأتي في الختام.»

تحدَّى السيد ريكاردو بنظرة صارمة، ولكنه صمت أمام بشاعة القول بأن اللغة تضع النقاط على الحروف.

وقال: «حسنًا! لقد أحرسته. حسنًا! في البداية، كان من المفترض أن يرحل الزورق مع المد في تمام السادسة صباحًا. ولكن عندما أسرعَت الآتسة جويس لتلوذ به، ما بين الثانية والثالثة صباحًا، كان قد اختفى. ربما دخل به إلى عمق النهر لكي يرسو هناك، أو ربما انجرف الزورق بعيدًا عن وجهته. لا منطق في أفعال قبطان الزورق، أليس كذلك؟ حسنًا، دعونا نسمع ما يقول! يقول إنه بعد الساعة الثانية بقليل، أيقظه صوت خطوات أقدام شخص ما قفز بخفة من المرفأ إلى سطح الزورق. أخرج رأسه وكَتَفَيه من غرفته الصغيرة، وانحنى روبن ويبستر نحوه على الفور وقال هامسًا: «لا تُصدر أي صوت، وتعالَ إلى الشاطئ!»

قاده ويبستر إلى أجمة الأشجار وعرض عليه سلَّةً مربوطة بالحبال. خُيل إليه أن هناك رجلين يقفان على مقربةٍ منهما، ولكنه لم يكن واثقًا بذلك. لم يخبره روبن بما يوجد في السلَّة. ولكن عُرِض عليه تَمَلُّكُ الزورق بأُشرعته وحباله وأُثاثه، بالحالة نفسها التي هو عليها في المرفأ، إذا ما انطلق على الفور وأغرق السلَّة الثقيلة عن طريق ربط ثقل بها في وسط نهر جيروند. يقول القبطان إنه رجل فقير، وكان حلم حياته أن يمتلك ذلك الزورق الجميل، بيل سيمون. أيقظ ابْنَيْه، وحمل السلَّة إلى سطح الزورق، ولم تكن ثَقِيلَةً على نحو يُثير الشبهات، وألقاها في النهر، وأغرقها عبر ربط ثقل بها كما قيل له. ولكن أُخبر بأن يسرع، ومن ثم، لا بد أنه ربط الثَّقل بإهمال. ولكن اتضح الآن أن إرادة الرب هي التي تكشف الجرائم. وبالنسبة إليه شخصيًا، كان سعيدًا بذلك لأنه متدبِّين طبيعته ... إلخ. هذه قصة قبطان الزورق، وهي تتفق تمامًا مع الحقائق التي نعرفها. لا بد

أن زورق بيل سيمون خرج من المرفأ قبل دقائق معدودة من توقف الأنسة جويس عن العدو عند نهاية الطريق، وَتَرَكَ آثار أقدام واضحة لحذائها على العشب الطري.» التقت هانو نحو جويس وعلى وجهه تعبير جاد. وقال: «انتابك لحظة من اليأس حينئذٍ، نعم يا آنسة، ولكني أريد أن أهنئك على عدم اللحاق بالزورق، على الرغم من قبضته المتدين بطبيعته. ففي نهاية المطاف، كان سيتمك الزورق بكل معداته، أليس كذلك؟» ثم هز كتفيه. ولكن لم يكن السيد ريكاردو يميل لتصديق قصة القبطان. ربما كان هذا عيباً يمكن تبريره في شخصيته النزيهة تماماً، وهو أنه بعد كل إحباط يتسبب فيه هانو، كان لا بد له من التشكيك في مصداقيته وكفاءته وعمره، بل وحتى في حسه الفكاهي وطريقته في طرح القضايا.

وفي تلك اللحظة، قال طارقاً على سطح الطاولة بأنامله وهو يبتسم ببعض العدائية: «أواجه بعض الصعوبة في تصديق أن السلة قد جُلبت إلى الزورق خلال تلك المدة القصيرة.»

وافقه هانو قائلاً: «من حَقَّ أن تفعل يا صديقي. ولكن رغم أنك لا تريد سوى عرقلتي، فقد طرحت سؤالاً. دعنا ننظر في أمر الوقت. في البداية، عادت الأنسة جويس هابطةً التل. هذا لمسافة كيلومتر واحد تقريباً. ثم جرّدت الأنسة ديانا من ملابسها، ووضعتها في فراشها. أه، أه! هذا أمر ليس باليسير! لن يمكنك فعله بينما تغني: «تلاً، تلاً» يا عمود الفراش الصغير! لا!»

قال السيد ريكاردو في برود: «فقط المجنون من قد يفكر في تعليق كهذا.»

«بعد تجريد ديانا من ملابسها، صعدت الأنسة جويس إلى غرفتها، وكان قد أصابها التعب حقاً، وتكاد تنهار. حسناً! ولكنها شعرت بأنها حبيسة، وحينئذٍ فقط فكّرت في الذهاب إلى الزورق. والآن، انظر إلى الأمر من زاوية أخرى! هناك تيدون، بطموحه وذكائه، وكما لاحظت الأنسة بعد ذلك، اعتياده على إملاء الأوامر، وهناك أيضاً روبن وبيستر، بعدما أراح الوحش الأسود الذي طارده من طريقه، كلاهما سيُسرعان، سيُسرعان؛ فالصباح قادم من خلف بورودو سريعاً، سريعاً أيضاً. ولم يكن أمامهم وقت يكفي لترتيب الأمور. فأقدموا على التنفيذ. وضعوا السلة في سيارة دو ميراندول. وقادوها إلى أسفل التل مروراً بالمكاتب وخرجوا إلى طريق بورودو. وعلى مسافة نصف كيلومتر من المدخل الرئيس لقصر ميراندول، توجد البوابة التي تؤدّي إلى مزرعة سوفلاك. قادوا السيارة إلى داخل المزرعة. أصبحوا الآن قريبين من الطريق التي تحفها الأشجار. لم تكن السلة ثقيلة للغاية على

ثلاثة رجال، كما قال قبطان الزورق بصدق. كان لا يزال هناك متسع من الوقت، حتى مع وضع هذه الترتيبات اليسيرة في الاعتبار.»

لم يحتج الأمر إلى أي تأكيد مع ضغط هانو على هذه الكلمات ليوضح لجميع من يجلسون إلى هذه الطاولة ما يعنيه تمامًا. ارتجفت جويس ويبل وتقلصت ملامح وجهها في ألم.

«نعم، الأمر ليس محببًا يا آنسة، ولكن ما الذي بيدك أن تفعله؟ كانت هناك لطفة على راحة يد المرأة المسكينة. وبدأت راحات أيدي روبن وبيستر وتيدون تؤلمهما وتحرقهما حقًا. وأصبح لهما متقرحًا. لم يكن ذلك القاضي البارع يُقدم على أي مخاطرات إلا بالقدر الذي تفرضه عليه الضرورة. كان قد شهد انكشاف جرائم بسبب نسيان آخر إجراء احترازي ضروري أو الاستهانة به. لنفترض أن هذه الجثة قد اكتُشفت وذلك الجرح الصغير في راحة يدها يماثل الجراح في راحات أيدي روبن وبيستر والسيد تيدون، ستثار حولهما الشكوك، أليس كذلك؟ ومن ثم ...» مثل هانو أنه يقطع يده بأداة حادة على الطاولة لدرجة أن الرجلين قفزا من مكانيهما، وانطلقت صرخة خافتة من بين شفّتي جويس. «منظر قبيح، أليس كذلك؟ ماذا حدث لهذه اليد؟ من يمكنه التخمين؟ ربما أُحرقت أو دُفنت. ولكن أمر السوار غريب، أليس كذلك؟ كان من المقلق اكتشافه، سوار الأنسة ويبل في تلك السلة. أمر غريب للغاية، ومقلق للغاية. ولكن أصبح الأمر واضحًا الآن، أليس كذلك؟ لقد قُطعت اليد على حافة السلة. ومن المرجح أنهم لم يلاحظوا وجود الجرح من قبل. ثم ...» رفع يده إلى أعلى وقطع الهواء بحافتها، ومالت جويس ويبل بسرعة نحو حبيبها وتمسكت به.

وقالت راجية: «أرجوك! أرجوك!»

تراجع هانو ببعض التردد وقال: «حسنًا، سأتوقف عن تمثيل مشاهد القمع، ولكن كان هناك قطع لليد وانزلق السوار منها إلى داخل السلة. ما الهدف من محاولة استعادته في ظل حاجتهم الملحة لأن يسرعوا؟ لم يكونوا يعرفون أنه سوار الأنسة ويبل الذي استعارته منها المرأة المؤمنة بالخرافات باعتبارها تيممة. وبهذا نكون قد نقطنا أحد الحروف.»

قال السيد ريكاردو معترضًا بصوتٍ خافت: «وضعنا نقطة على الحرف.»

قال برايس كارتر بصوتٍ عالٍ: «نقطنا. واعتذرن، لقد عملت في وزارة الخارجية ونعرف عن اللغة الإنجليزية القدر نفسه الذي يعرفه السيد هانو. أكمل يا سيد هانو! أرجو منك أن تُنقِّط حرفًا آخر من أجلي.»

ولكن تجسّد التسامح في صورة هانو. ورفض أن يدوس على خصمه الطريح أرضاً. ربما رmqه بنظرة ظَفَر يسيرة، ثم التفت نحو برايس كارتر.

وقال: «حسنًا. سأنقُط حرفًا من أجلك.»

«كيف نجت جويس خلال اليومين اللذين قضتتهما في منزل ميراندول؟ لقد غامرا بالكثير، هؤلاء الرجال الثلاثة. كان من الممكن تفتيش المنزل.»

قاطع هانو قائلاً: «أوه، ولكنني لم أكن أملك بعدُ الحق في تفتيش المنزل. لا بد أن أمتلك السلطة والإذن، ومَن كان أفضل من تيدون البارح ليمنحهما لي؟ كان سيضع أمامي العراقيل إذا ما طلبتهما منه. وربما كانت هذه الأنسة ستتعرض للخطر. فسلكت مسارًا آخر. كنت واثقًا بأن الأنسة ستظل حيةً في منزل ميراندول، لا تخافوا!»

ضحك السيد ريكاردو ساخرًا.

فقال هانو: «يمكنني فعل ذلك. نعم، يمكنني ذلك! ولا أحد غيري! أنا فقط!»

رمق السيد ريكاردو جويس عبر الطاولة مبتسمًا. وقال: «إن السيد هانو لا يكون في أفضل حالاته خلال تلك المواقف. وكما يقول، التواضع ليس من شيمه. وكيف فعلت ذلك؟»

قال هانو بجدية أزعجت السيد ريكاردو: «لقد حذّرتهم. لقد سمعنتي أحذّرهم يا صديقي. لقد أخبرتهم بأنهم لن يستطيعوا تخليص أنفسهم من الموتى. أوه، تيدون يعرف ذلك، ولكنني ذكرته به. كنت قد فرضت طوقًا أمنياً حول المنزل. ماذا كان بيدهم فعله؟ كانت هناك طريقتان فحسب، إما الدفن وإما الحرق. بالنسبة إلى الدفن، كانوا واثقين بأنني سأفحص هذا المنزل بدقة وكأني مُصلِح طرق. وماذا عن الحرق؟ سيُصدر الكثير من الدخان الأسود من المدخنة، لا، لا...» ثم أمسك لسانه فجأة. وقال: «يا آنسة، سامحيني. أستمحك عذراً. لم يكن ما قلت لطيفًا. فلنلقِ باللوم على السيد ريكاردو الذي يُثيرني بضحكاته الساخرة.»

تحدّث بندم شديد إلى جويس التي كانت ترمقه بوجه مصدوم شاحب والرعب يملأ عينيهما، الأمر الذي جعلهم جميعًا يشعرون بالخجل من أسئلتهم المتحمسة.

فقال هانو: «هل تسامحيني؟ نعم. إننا أناس غلاظ القلوب، من دون أي مراعاة. ولكننا نُحبك، حتى السيد ريكاردو الذي يعجز اللسان عن وصفه. هل تسامحيني إذن؟»

ولكن بدا للحظة أن جويس لم تسمع ولم تدرك الرقة الحقيقية المخفية تحت كلماته الحمقاء. وارتجف جسدها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، ودفنت وجهها بين يديها.

ونحبت بصوتٍ خافتٍ قائلة: «أوه، أوه! الدخان الشيطاني الأسود! أنا!» ثم مالت نحو الأمام لدرجة أنه لو لم يمسك بها برايس كارتر لكانت سقطت على الطاولة. تملَّك الرعب المجموعة الصغيرة. وملاً هانو كوباً بمياه إيفيان.

وقال: «دعها تشرب هذا بسرعة.» وضع الكوب في يد برايس كارتر المرتعشة. وقال: «اجعلها تشرب الماء، وإلا فلن تكون الرجل المناسب لها وسأرفض رباطكما.»

قال السيد ريكاردو في لا مبالاة: «ارتباطكما.» أبعد برايس كارتر يدي الفتاة عن وجهها برفق ورفع الكوب نحو شفثيها.

فقال: «أنت الآن أفضل، أليس كذلك؟ لقد أنقذتك مجدداً. والآن، اسمعيني يا آنسة! سأنقُط الحرف الأخير بنقطة كبيرة واضحة، وسنعود جميعاً إلى بيوتنا.»

جال ببصره حول الطاولة ليجذب الانتباه وهو يبتسم في رضا.

وقال: «أنصتوا! فكَّرت في أن كل تلك الشجاعة التي أظهرتها الآنسة، وولاءها لصديقتها، والمحنة الرهيبة التي مرَّت بها؛ لا يجب أن تذهب هباءً منثورًا. لقد جابهت كل هذه المخاطر من أجل إنقاذ صديقتها، ديانا تاسبورو. ومن ثم، سنؤدِّي، نحن رجال الشرطة، واجبنا أيضًا. سنقول إن روبن ويبستر قد خطَّط لاستدراج ديانا إلى مصيدة الشر؛ لذا حلَّت جويس وبيل محلها. ولكن يجب أن تنتهي القصة عند هذا الحد. سيُحاكم روبن ويبستر والفيكونت دو ميراندول بتهمة قتل إيفيلين ديفينيش والشروع في قتل جويس وبيل، وأؤكد لكم أنهما في محنة لن يتمكننا من النجاة منها. عليك أن تثقي بنا يا آنسة.»

ثم نهض واقفاً، ودفع الحساب، وسار عائداً إلى المدينة مع مجموعة رفاقه الصغيرة.

أو بالأحرى، سار مع جوليوس ريكاردو. فقد تقهقر الاثنان الآخران خلفهما قليلاً. لفت هانو انتباه ريكاردو إلى تقدمهما البطيء مطلقاً الكثير من الضحكات واللحركات بمرفقه، والإيماءات المرحّة، التي لم تكن مقبولةً على الإطلاق بالنسبة إلى شخص متحفّظ مثل السيد ريكاردو. ولكن تغيّرت طباع هانو إلى النقيض تماماً عندما وقف أربعتهم معاً في الشارع تحت عمود الإنارة أمام الفندق. وعندما خلع قبعته، شكرته جويس بصوتٍ دافئ متهدّج، وردَّ عليها ببساطة تامة:

«لقد أديت واجبي يا آنسة.»

